الفرقان

في تفسير القرآن بالقرآن

الجزء الخامس

آیة الله العظمی الدکتور محمد الصادقی الطهرانی

[www.hakim-elahi.mihanblog.com](http://www.hakim-elahi.mihanblog.com)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 7

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ‏

الم (1) اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ (3) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (4)

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى‏ عَلَيْهِ شَيْ‏ءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ (5) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (6) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبابِ (7) رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8) رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (9)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (11)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 8

سميت هذه السورة ب «آل عمران» لأنهم من أبرز السمات المستعرضة فيها بين عرض الرسل و الرسالات في مختلف المجالات المعرقلة عجلتها، المكدرة أجواءها.

تستحضر هذه السورة صورة وضيئة من ردح زمني مدني للحياة الإسلامية قويت فيها شوكة المسلمين، و بطبيعة الحال عارضتها الشائكة ضد الإسلامية من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 9

ثالوث الإشراك و التهود و التنصر، فهي تحمل عرضا للشكات و الاشتباكات و الملابسات و العقبات التي أحاطت بهذه الحياة لحدّ كأن قارئيها يعيشون الحياة نفسها بحذافيرها و أظافيرها.

و قضية الهيمنة القرآنية- الكاملة- هي مواجهة كل عرقلة و شائكة ليقود المسلمين في خطواتهم بين كل الأشواك و المصائد و الأحابيل و العقابيل.

ففي عرض الحالة الحاضرة لنزول القرآن في عهديه و ما عرضتها من معارضات ضدها، و حلول ربانية لمسكتها، عرض لكل الحلول بمعارضاتها في كل مستقبل للحياة الإسلامية، حيث الدعوة القرآنية خالدة على مر الزمن بمدار الضمانات الوقائية للكتلة المسلمة ما تمسكوا بها.

و قد تكون هذه السورة نازلة كترتيبها الآن، حيث الرباط الوطيد بين آياتها ينادي بذلك الواقع، إضافة الى كون الأصل في آي السور كلها نزولها كما رتبت إلا بدليل يدل على خلافه، و لم يرد في الأثر أن آيات عمران نزلت في غير جوها ام غير ما هي الآن من ترتيبها، فقد توافق و تجاوب تنزيلها و تأليفها.

الم (1).

هي كما في البقرة و عديدة سواها من المفتتحات بها و بأضرابها، هي من مفاتيح كنوز القرآن، فصلنا طرفا طريفا من فصل القول حولها في البقرة و سواها فلا نعيد.

اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ‏ 2.

تجد تفصيل البحث عنها في آية الكرسي هناك فلا نعيده هنا.

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ (3).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 10

«نزل» بالحق «عليك» بالحق‏ «الْكِتابَ بِالْحَقِّ» «مصدقا» بالحق‏ «لِما بَيْنَ يَدَيْهِ» بالحق، فهو مخمس من الحق تنزيلا و منزلا و منزلا و تصديقا و مصدّقا:

مصاحبا الحق و بسبب الحق، معان عشرة كلها معنية على درجاتها دونما خليط من باطل، و لا زوال لحقه خلاف سائر الحق قبله، فهو الحق المستمر الخالد دونما نسخ أو تحوير خلافا لكل حق قبله.

و الكتاب المنزّل هنا هو القرآن المفصل النازل نجوما قضية مختلف الحالات المقتضية و الحاجيات.

و «مصدقا» حال أنها حال للكتاب، كذلك هي حال للرسول المخاطب في «عليك» فكما: «آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ» (2: 41) كذلك:

«وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ» (2: 89).

«لِما بَيْنَ يَدَيْهِ» لا تختص- فقط- بكتب الوحي، بل و تعم رسل الوحي بآياتهم الرسولية و الرسالية، فكما القرآن يصدق ما بين يديه من كتابات الوحي بآياتها الرسالية، كذلك رسول القرآن مصدقا لما بين يديه من رسل الوحي بآياتهم الرسولية، كما و كل من الرسول و القرآن يصدقان كلّا من رسل الوحي و كتابات الوحي.

و دور تصديق القرآن لما بين يديه من كتابات الوحي هو واقع التجاوب بين وحيه و وحيها، فلو لم يكن القرآن وحيا لم يكن ليصدق سائر الوحي لواقع الاختلاف بين وحي السماء و وحي الأرض.

و كيف‏ «لِما بَيْنَ يَدَيْهِ» دون «ما خلفه»؟ و كل الرسل و الكتب هي خلف القرآن و رسوله!، لأن قرآن محمد و محمد القرآن هما استمراران لما قبلهما من رسول و كتاب، مكملان لهما و مهيمنان عليهما، فليساهما خلف القرآن و نبيه في الكيان مهما كانا خلفهما في الزمان، فحق التعبير- إذا- كما هو: «لِما بَيْنَ يَدَيْهِ»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 11

كقارئ لهما و قال و مصدق إياهما، فهما- إذا- أمامهما في الاتجاه، مهما كان القرآن و رسوله إمامهما في التوجيه.

ثم التصديق لما بين يديه منحصر بما أنزل بوحي اللّه، منحسر عما سواه لمكان سابق الذكر للكتاب، و النبي ليس ليصدق إلا النبي، و لا كتاب الوحي إلّا مثله دون ما يناقضه ام ليس بمحتواه من حيث الوحي، الا تصديقا لصادق الواقع و لكنه ليس تصديقا رساليا، و «مصدقا» هنا تعني الرسالي و الرسولي، «لِما بَيْنَ يَدَيْهِ» رسولا و كتابا ليس إلّا خالص الوحي مثله، فان في تصديق المختلق تكذيبا لنفسه و تصديقا للمتضادين!، و لا يعارض تصديقه لما بين يديه نسخه لقسم من أحكامه حيث النسخ بيان لأمد الحكم السابق و ليس تكذيبا لوحيه، و لا يعني تصديق القرآن لما بين يديه إلّا تصديق وحيه دون تطبيقه المطبق المطلق، قضية ضرورة النسخ لقسم من الأحكام السالفة حتى في شرعة واحدة فضلا عن شرائع عدة.

و قد بين نطاق التصديق في قسم من آية ك «قُلْ آمَنْتُ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتابٍ» (42: 15) و «قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ» (29: 46) كما و القرآن بيان لما اختلف فيه أهل الكتاب من الكتاب دسا و تحريفا و تجديفا:

«وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ» (16: 64) «إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» (27: 76).

و كما يصرح في عشرات من آياته أن اهل الكتاب حرفوا من كتبهم قسما من جهات أشراعها و من أهمها البشائر الواردة فيها بحق هذا الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ» (7: 156) فقد حرفوا بشائره لفظيا و معنويّا كما حرفوا منها أحكاما و قصصا تحمل أحكاما أخرى: «... يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 12

مَواضِعِهِ ...» (5: 14) و «يا أَهْلَ الْكِتابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ...» (16) «أَ فَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» (2: 26) «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» (2: 74).

و قد يعني تكرار التصديق لما بين يديه أنه ليس بدعا من الرسل، و لا أن كتابه بدع من الكتب، تقريبا و تشويقا لأهل الكتاب ان يصغوا إلى ذلك الجديد الذي هو استمرار للقديم، سلسلة موصولة بين اللّه و خلقه على مر الزمن الرسالي.

ذلك، و لكي يقارنوا بين الكتابين فيعرفوا ان القرآن وحي- و بأحرى مما عندهم- او ينظروا الى البشارات الموودوعة في كتبهم بحق هذه الرسالة الأخيرة، متحللين عن كل تحريف و تجديف.

ذلك‏ «لِما بَيْنَ يَدَيْهِ» بوجه يعم كافة الرسل بكتبهم، ثم‏ «وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ» خاص بعد عام لاختصاصهما بينها بأهمية خاصة، و أنهما المعروفان منها في الحقل الكتابي دون ما سواهما من كتاب غابر لم يبق له على أثر إلّا فيما شذ و ندر.

و «الإنجيل» مفردا (12) مرة في القرآن لمحة لامعة على تحرّفه إذ أصبح أناجيل لا تنسب الى السيد المسيح (عليه السلام) اللّهم إلّا ما لا خبر عنه حيث دفن في مقبرة التاريخ المسيحي.

و القرآن لا يصدق إلا الإنجيل النازل على السيد المسيح (عليه السلام) دون الأناجيل التي ألفها جماعة آخرون و هي متعارضة مع بعضها البعض،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 13

و أخرى مع صادق الوحي، و ثالثة مع الفطرة و العقلية و الواقعية السليمة «1»!.

«... مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ» كل ذلك رسولا و رسالة:

مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ‏ 4.

فكل ما انزل من قبل‏ «لِما بَيْنَ يَدَيْهِ» و «التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ» كيانه هدى للناس، كما «وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ».

و الفرقان- ككل- هو الفارق بين الحق و الباطل بواقعه المبرهن و أصدق مصاديقه هو القرآن، فقد ذكر أولا بلفظ «الكتاب» و أخيرا «الفرقان» مما يدل انه هو الأول و الأخير، فكل كتابات السماء تقدمات لذلك الكتاب، كما أن كل رسل السماء تقدمات لذلك الرسول.

و مهما كان كل رسول فرقانا بنفسه و بآيات رسالته، و لكنه لم يكن فرقانا بكتابه، فهذا الرسول فرقان بكتابه كأفضله، فإنه آية خالدة رسالية و رسولية على مدار الزمن الرسالي، و ما هكذا اي كتاب بين يديه!.

و مهما شمل «الفرقان» المنزل هنا كل فرقان مع الرسل دون كتاباتهم، فالمصداق الأعلى و الأجلى للفرقان هو القرآن، كما و هو الرسول فانه من المنزل كما القرآن: «فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً. رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِ اللَّهِ مُبَيِّناتٍ» (65: 11).

و طالما القرآن المفصل منزّل تدريجيا، و لكن المحكم منه- النازل ليلة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). للاطلاع على حال الأناجيل راجع كتابنا (المقارنات) و قد جاء شطر من عديد الأناجيل في الفرقان 27: 176- 177.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 14

القدر- منزل دفعيا فهو: فرقان أول، ثم المفصل منه فرقان ثان منزل، لأن كل نازل منه في نجمه فرقان، فهو- إذا- فرقان جملة و تفصيلا، انزالا و تنزيلا، لا مثيل له في كتابات الوحي عن بكرتها.

فذكر الفرقان هنا بعد القرآن تعظيم للقرآن و تعميم للفرقان لكل رسول انه لا يأتي الا بفرقان، و فرقان القرآن يمتاز عن سائر الفرقان بما يفرّق بين أصيل الوحي فيما بين يديه عن دخيله، و انه برهان لرسوله رسوليا و رساليا، خالدا على مرّ الزمن، بل لا يزداد إلّا ظهورا و بهورا، و أنه المقياس الأصيل لما يروى عن المعصومين (عليهم السلام) تصديقا لما وافقه و ردا لما خالفه.

ذلك! و ما أشبه من ميزاته المنقطعة النظير بين كل فرقان لكل بشير و نذير، فانه شرعة بأكملها و آية رسالية و رسولية بأكملها، قضية خلود الشرعة بآيتها «وَ لا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ».

إذا «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ» و هي مجموعة في ذلك الفرقان، و منجّمة في سائر الفرقان: انفسية و آفاقية: رسلا و رسالية و رسولية، كفرا عن تصديقها، و سترا مكذبا او متجاهلا عن دلالاتها الصادقة «لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ» وفاقا لشد الكفر و عدّه و جزره و مدّه‏ «وَ اللَّهُ عَزِيزٌ» لا يغلب‏ «ذُو انْتِقامٍ» ممن يتألب او يتغلب على رسالات اللّه و فرقانه.

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى‏ عَلَيْهِ شَيْ‏ءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ 5.

«شي‏ء» هنا في سياق النفي تشمل كل ما يستحق اسم الشي‏ء، واقعا- و هو حق الشي‏ء في مثلث الزمان- بإمكان وقوعي و مصلحي، ام ممكنا ذاتيا لا يستحق التكوين حسب الحكمة العالية، و اما المستحيل فليس شيئا باي معنى حتى تشمله «شي‏ء» فانما اللّه يعلم استحالته حقه و نحن نعلمها على هامش علمه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 15

ثم‏ «فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ» تعبير مكرور في القرآن عن كل كائن على طول خط التكوين، ظرفا لواقع «شي‏ء» و مظروفه، دون إبقاء لكائن إلا و هو شامله.

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ‏ 6.

«فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ» (82: 8) «وَ صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» (64: 3) و لا أنتم الناس فحسب، بل و «هُوَ اللَّهُ الْخالِقُ الْبارِئُ الْمُصَوِّرُ» (59: 24) لكل صورة، و لا يخلو أي خلق من صورة هي منه تعالى كخلقه سواء.

«هو» لا سواه‏ «الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ» بالصورة الإنسانية بجزئيها الروحية و البدنية، روحية عامة هي الروحية الانسانية ككل، المشتركة بين الكل، و أخرى خاصة حيث تختلف الأرواح من جهات عدة قابلية و فاعلية و استعدادا أماهيه، و بدنية عامة مشتركة و هي الهيكل الإنساني المشترك بين الكل، و اخرى خاصة هي مختلف الصور و الشاكلة ظاهرة و باطنة، و كل هذه الأربع داخلة في نطاق «يصوركم» هنا و في سواه: «صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ» حيث‏ «خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» في جزئيه فلا أفضل منه نوعيا اللّهم إلا فضيلا مثله و هو القليل: «وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى‏ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا».

و أرحام النساء، مهما كانت خلقية، ام مصطنعة ان أمكنت‏ «كَيْفَ يَشاءُ» لا ما يشاءه سواه‏ «يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ».

«لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» في ايّ من اختصاصات الألوهية كالخلق و التصوير و التدبير و التقدير «العزيز» في ألوهيته «الحكيم» فيها، فلا يغلب و لا يخطأ او يجهل او يغفل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 16

هنا «يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ» كما هناك‏ «فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ» تحمل مختلف الصورة الروحية و البدنية للإنسان، فليست هي بمشيئة الوالدين- اختيارا ام دون اختيار- او علم الأجنة، انما هي بمشيئة اللّه وحده لا شريك له.

هنا نتحدث قليلا عن الصورة الجسدانية الملموسة، فقد قضت الحكمة الربانية في خلقه أن يركّب كل شخص إنسانا و سواه بصورة مختلفة عن الآخر رغم التشابه الواقع بين شخص و آخر.

و لقد بين علماء الوراثة قريبا أن احتمال التشابه التام بين شخصين هو بنسبة واحد من الرقم عشرة مسبوقا بأربعين صفرا (1/ 1040) و هذه حقا استحالة حسابية منطقية!.

ذلك! لأنه- حسب تقديرنا- عند ما ينصهر الحيوان المنوي مع البويضة- و كل منهما يحمل ربع مليون «ناسلة مورثة» تقريبا- لا يقدر أحد إلّا اللّه أن يتنبأ بالشكل الذي سيكون عليه مستقبل الجنين البيولوجي، و التي تحكمها هذه المورثات، و قد يرجع الجنين في نسبه- أي ميزاته البيولوجية- إلى أبعد الحدود، و ربما إلى جدنا الأول و كما

في حديث الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عند ما سأل رجلا ما ولد لك؟: ما عسى أن يولد لي إما غلام و إما جارية، قال: فمن يشبه؟ قال الرجل يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ما عسى أن يشبه إما أباه و إما أمه، فقال (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): لا تقولن هكذا، ان النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها اللّه تعالى كل نسب بينها و بين آدم، أما قرأت هذه الآية في كتاب اللّه‏ «فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ» قال:

شكّلك.

ذلك! و رغم أن علم الوراثة باستطاعته نفي الأبوة عن طفل إذا تعارضت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 17

فئة دمه مع فئة دم والده- و هذه حالات نادرة- كأن تكون فئة دم الوالدين من فئة (A( و فئة دم الطفل من فئة (B(.

رغم ذلك لا يستطيع التأكد بأبوة الوالد لطفله، فعلم الوراثة لا يستطيع الجزم بذلك أبدا، و من هنا نعرف طرفا من البعد العلمي العظيم في التشريع الإسلامي من خلال‏

قول الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «الولد للفراش و للعاهر الحجر»

حيث يحصر المعول عليه في اثبات نسب الطفل لوالده كما بينه علم الوراثة اليوم.

ذلك، و أما أنصار الانتخاب الطبيعي و تطور المخلوقات الحية بعوامل البيئة و المناخ، من الذين أرجعوا اختلاف الألوان في الجنس البشري و المخلوقات الحية للمناخ و الطبيعة، أما هؤلاء فسقطت هرطقتهم هذه الخواء أمام اكتشافات المورثات التي تحكم اختلاف الألوان في المخلوقات.

فلما ذا سكان الولايات المتحدة الأمركية من الزنوج لم يتغير ألوان بشراتهم بفعل المناخ و هم في مناخ مختلف عن افريقيا منذ مئات السنين؟ و كذلك بالنسبة لسكان جنوب أفريقيا من البيض.

أجل لا ننكر أن للبيئة و المناخ تأثيرا بحول اللّه و قوته، و لكننا ننكر أن يكونا هما الأصل الأصيل في اختلاف الصور و الألوان، فانما «هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ»! و إليكم مثالا ماثلا بين أعيننا «بصمات الأصابع» كما تبدو في أواخر الشهر الثالث من حياة الجنين‏ «بَلى‏ قادِرِينَ عَلى‏ أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ» حيث لا تتشابه البصمات إلا في التوأم التام الصحيح المتأتي من بويضة ملقحة واحدة، سبحان الخلاق العظيم!.

و تلك هي الصورة المختلفة بين الناس، ثم المتحدة بينهم تشتمل على ثلاثة عشر هي:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 18

الطبائع- الأركان- الأخلاط- الجواهر- الطبقات- الأعمدة- الحبال- الخزائن- المسالك- الأنهار- الأبواب- الحراس- العمودان، فكل شخص من الإنسان هو بمفرده كمدينة سبحان الخلاق العظيم!.

1 فالطبائع هي الحرارة- البرودة- الرطوبة- اليبوسة.

2 و الأركان الأصلية ايضا أربعة هي النار و الهواء و الماء و الأرض، و العلم الآن جعلها مركبات من عناصر تبلغ زهاء (75) أم و تزيد.

3 و الأخلاط أربعة هي: الصفراء و الدم و البلغم و السوداء، مهما زاد عليها العلم ما زاد.

4 و الجواهر تسعة هي: عظم- مخ- عصب- عرق- دم- لحم- جلد- ظفر- شعر.

و الطبقات عشر هي: رأس- رقبة- صدر- بطن- جوف- حقو- و ركان- فخذان- ساقان- قدمان.

6 و الأعمدة هي (248) و هي العظام.

7 و الحبال: (750) حبلا هي الرباطات الممتدة المشدودة على العظام و هي الأعصاب.

8 و الخزائن الإحدى عشر هي: الدماغ- النخاع- الرئة- القلب- الكبد- الطحال- المرارة- المعدة- الأمعاء- الكليتان- الأنثيان.

9 و المسالك و الشوارع و الطرقات في العروق الضوارب (360).

10 و الأنهار هي: الأوردة (390).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 19

11 و الأبواب الإثني عشر هي: العينان- الأذنان- المنخران- السبيلان- الثديان- الفم- السرة.

12 و الحراس هي الحواس الخمس: السمع- البصر- الشم- الذوق- اللمس.

13 و العمودان هما الرجلان.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ (7).

آية فريدة في القرآن تقسّم آياته إلى محكمات و متشابهات، تنديدا بالذين يتبعون ما تشابه منه، و تمجيدا بمبتغي محكماته، و المستفسر لمتشابهاته بها، و تجهيلا لتأويله ككلّ و علّه للكلّ، فيحق لنا ان نسبر أغوارها لنحصل على صراط مستقيم في تفسير آي الذكر الحكيم.

هنا اثني عشر سؤالا تطرح حول آية التقسيم هذه، للإطاحة بكل تقولة عليها على ضوء أجوبتها الصالحة.

1 هل هذه الآية محكمة يصح التمسك بها في ذلك التقسيم و معرفة كل قسيم، أم متشابهة؟.

2 ثم ذلك التقسيم الثنائي حاصر، أم هناك قسم أو اقسام أخر من الآيات؟ كالمجملات!.

3 كيف التوفيق بين آية التقسيم، و ثانية تدل على أن القرآن كله محكم:

«كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ» (11: 2) و ثالثة تدل على انه كله متشابه: «اللَّهُ نَزَّلَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 20

أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ ..» (39: 23).

4 كيف جمع فيها بين «هن» ضمير الجمع، و بين «ام الكتاب» مفردة، فجعل الواحد صفة للجمع؟ و هذا فت في عضد البلاغة و ثلمّ جانب الفصاحة!.

5 ما هو المحكم و المتشابه و الفرق بينهما بصورة محكمة غير متشابهة؟.

6 كيف تكون المحكمات أمّا للكتاب؟.

7 ما هو اتباع المتشابه المنهي عنه؟.

8 بماذا تفسّر المتشابهات و كيف تفسّر؟.

9 ما هو الوجه في اشتمال الكتاب على المتشابهات و هي مسرب الشبهات؟.

10 من هم الراسخون في العلم؟ و هل هم يعلمون تأويله أم لا يعلمون؟.

11 هل التأويل يخص المتشابهات ام يعم المحكمات؟.

12 ما هو الفرق بين التأويل و تفسير المتشابه؟.

1 قضية الوحدة في هذه الآية من حيث التقسيم إذ لا ثانية لها، و التأمل فيها حقها، أنها محكمة، و إلّا لفسد التقسيم و أصبح القرآن كله متشابها حيث لا يفهم الفرق بينهما على ضوء آية التقسيم، فهي قطعا في مقام بيان التقسيم، فلو كانت متشابهة- و لا محكمة غيرها تفسر هي بها- لعاد القرآن كله متشابها، و بطل علاج التشابه المدلول عليه لها، و لم يصدق: «كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (32: 4) و سقط الاحتجاج بواجب التدبر فيه: «أَ فَلا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 21

يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» (4: 82) و ليست الحاجة الى التدبر مما تجعل الآية متشابهة و إلّا أصبح كل النظريات متشابهة.

هذا و واقع الاختلاف في آي القرآن إحكاما في بعض و تشابها في اخرى، مما يصدق حق التقسيم و انه بيان لواقع ملموس.

2 «منه» قسيم أول «و أخر» قسيم منه ثان فهما- إذا- قسيمان اثنان، و لو كان فيه ثالث لكان حق التقسيم في هذه اليتيمة أن يذكر كما ذكرا، فان في تركه اجمالا في التقسيم و إبهاما لكل قسيم.

ثم التقسيم الى قسيمي السلب و الإيجاب هو حاصر على أية حال، و التشابه و الإحكام راجعان الى وصفي المدلول باللائح و الخفي و لا ثالث بينهما أيا كان.

و قيلة القائل ان المجمل ثالث لا هو محكم و لا متشابه- لأنهما المقصود دلالتهما على معنى، و لا يقصد من المجمل مجمل المعنى- إنها غيلة و حيلة على الذكر الحكيم، إذ لا مجمل في القرآن بهذا المعنى، فكل لفظة فيه تعني ما يصح أدبيا من المعنى المراد، إن عاما فعام و ان مطلقا فمطلق او نصا او ظاهرا فهما لا سواهما، محكمة او متشابهة.

فقد يعني المجمل ما أجمل فيه المعنى دون بيان رغم كونه معنيا، فهذا فتّ في عضد الفصاحة و ثلمّ في صرح البلاغة، تنخّى عنه ساحة الذكر الحكيم لأنه أبلغ بليغ و افصح فصيح، فكيف يليق به هكذا تعبير فضيح!.

او يعني ما لم يعن منه اي معنى؟ و ذلك لغو في الذكر الحكيم!، او عني منه معنى و لم يعن معنى آخر، فغير المعني- إذا- خارج عن مقسم التقسيم و هو الدلالة، و من ثم فان كان لائح المعنى و إن بتأمل و تعمّل فهو من المحكم، و ان كان عميق المدلول على وضوح الدلالة فهو من المتشابه الذي يفسره المحكم،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 22

و ان لم يعن منه ما تعنيه فهو خارج عن المقسم، و قد تجمع الأقسام الثلاثة «وَ لَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَ ما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ» فهي محكمة من حيث عدد الأيام و المخلوق فيها، و متشابهة من حيث معنى الأيام، و مجملة من حيث عدد السماوات.

3 إحكام الآيات كلها يعني الحكمة العالية الربانية المعمقة فيها دلالة و مدلولا و توفيقا مع الفطرة و العقلية و الواقعية الصالحة، و تطبيقا لها محلقا على كل متطلبات الحياة الإنسانية و الإيمانية، فلا مدخل فيها لباطل، و هذا إحكام للقرآن في كل مراحله.

و لكنه محكمة الآيات وجاه تفصيلها كما في الآية نفسها و هو إحكام قبل تفصيل، أنها أحكمت في نزولها الأول على قلب الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في ليلة القدر، فالمحكمات و المتشابهات في مرحلة التفصيل كلها محكمات في مرحلة الإحكام.

و اما «كِتاباً مُتَشابِهاً» فقد يعني تشابها لا يقابل هذا الإحكام، فهو تشابه آياته كلها للمعني من المحكم النازل ليلة القدر، و تشابهها مع بعض البعض في قوامة التعبير لأعلى قمم الفصاحة و البلاغة، و تشابهها بتلائمها مع بعض البعض حيث يفسر بعضه بعضا و ينطق بعضه على بعض، و رابع هو تشابهها مع بعض في التدليل على وحيها آيات بينات من عند اللّه العزيز الحكيم، و خامس تتشابه فيه مع قضية الفطرة و العقلية و الواقعية الصالحة على مدار الزمن، و كذلك كل تشابه هو قضية كونها من عند اللّه ذا نسق واحد في جزالة النظم و إتقان الأسلوب في كل حقول الهداية الى الصراط المستقيم: «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً».

فهذه و تلك تقرر ان إحكاما و تشابها يحلقان على القرآن كله، و آية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 23

التقسيم تقسم تفصيل الكتاب المتشابه إلى محكم و متشابه، عناية منهما غير ما يعنى فيهما، و منها إحكام المدلول حيث يتضح لبساطته، ثم تشابهه- على وضوح الدلالة- لعلوّ المعنى و تشابه اللفظ مع ما يعنى منه غير ذلك المعنى، لا قصورا في الدلالة، إنما لعلو المعنى.

4 لو قال «هن أمهات الكتاب» لذهب البال و الخيال الى ان كل واحدة منها هي ام لكل الكتاب، رغم ان كلّا ام لمتشابهها الخاص، ام جملة منها لجملة أخرى، دون ان تكون كل واحدة اما للكتاب، فلا أن كل محكمة ام لكل المتشابهات، و لا لأي متشابهة لا تناسبها، و انما لكل متشابهة ام، واحدة ام زائدة في كل من المحكمة و المتشابهة، فصالح العبارة عن القبيلين في مختصر التعبير و محتصرة: «هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ» توحيدا للأم المحكمات و سائر الكتاب المتشابهات، فقد قوبل جمع المتشابهات بجمع المحكمات فعبر عن كلّ بصيغة الإفراد «أم الكتاب» فكما الأم واحدة كذلك الكتاب المعني منه كل المتشابهات.

إذا فمجموعة الأمهات هي كأم واحدة لمجموعة المتشابهات، فهي اصل للمتشابهات تقدح بها فيظهر مكنونها و يستثار دفينها، و بذلك سميت ام الإنسان اما لأنها أصله الذي منه طلع و عنه تفرع و هي- بعد- المرجع في كل سؤل و حاجة.

و قد تشابه هذه الآية آية ابن مريم و أمّه: «وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً» فإن المعجز فيهما آية واحدة على عديد ظرفها، فانها ولدت من غير بعل و هو ولد دون أب و لا فصال بينهما في تكوّن هذه الآية، إذ ليس كل واحد دون هذه الصلة الولادية آية خارقة.

كذلك‏ «هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ» فإنها ككلّ ام للكتاب كله، فليست كل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 24

واحدة منها أمّا للكل، و لا أن كل واحدة من المتشابهات وليدة لكل من المحكمات فانما ذلك من تقابل الجمع بالجمع.

و لأن الكتاب يعم محكمه الى متشابهه، فهن- إذا- أم لأضرابها المحكمات كما هي ام للمتشابهات حيث المحكمات تفسر بعضها بعضا كما تفسر المتشابهات.

و انما عبّر عن المحكمات بضمير جمع العاقل «هن» لأنها بتفسيرها المتشابهات كأنها عاقلة حكيمة، و هي حقا هيه لأنها صادرة من خالق العقل و الحكمة لتعقلنا فنعقلها، و رغم ان المتشابهات كما المحكمات حكيمة عاقلة، و لكن علّو المعنى و قصور العاني في مداليلها تجعلها بحاجة الى محكماتها، فكأنها ليست بذلك العقل الحكيم و هي من خالق العقل الحكيم، و ليس السلب إلا من القاصرين في تفهمها، دون قصور في دلالاتها، فآي الذكر الحكيم كلها حكيمة و لا يعني التقسيم إلّا مختلف الافهام في تفهمها.

هل المحكمات هي الدالات على معانيها المقصودة دونما تكلّف او تخلف عن نصوصها او ظواهرها؟ فالمتشابهات هي غير الدالات نصا او ظاهرا، حيث يشتبه المرادات فيها بغيرها فيتحير الناظر إليها حتى يستفسرها بمحكماتها؟.

و هذا قصور في دلالة المتشابهات، فهو- إذا- فت في عضد الفصاحة، و ثلم في جانب البلاغة، و تخلّف عن واضح البيان و ناصع البرهان، و القرآن هو أبين بيان و أوضح برهان!.

في الحق إن التشابه هنا ليس تشابها دلاليّا بل هو تشابه مدلولي يخلّفه علوّ المعنى عقليا او علميا أو معرفيا رغم واضح الدلالة لغويا و ادبيا، و آخر هو من مخلّفات لفظية التشابه لغويا و المعنى مختلف كما تتشابه صفات إلهية بصفات خلقية باختلاف المعاني خلقيا و خالقيّا، فلا تشابه إلا قضية قصور المستدل الخاوي عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 25

فمة معرفية دون الدال البالغ أعلى القمم الدلالية، فلا تجد في القرآن، و لا مرة يتيمة، يراد من نص خلاف نصّه، او من ظاهر مستقر خلاف ظاهره، فإنما هو تشابه في ألفاظ هي حكيمة المعاني و محكمتها لأهليها، و علوّ في المعاني لا بد لتفهمها من علوّ يناسبه في المعرفة.

و حين نقتسم محتملات الأقسام للتشابه- أيا كان- في القرآن، نجد اثنين و أربعين محتملا بضرب سبع في سبع.

فقد يتشابه المعني من آية بغير المعني منها لقصور في التعبير، اجمالا او إبهاما ام قصدا لخلاف النص او الظاهر، و هذا خارج عن المعني من‏ «أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ» فتسقط سبع من المحتملات.

أم ان الدلالة واضحة نصا أم ظهورا مستقرا و لكن اللفظ يتشابه مع مثله خلقيا و خالقيا، و هذا تشابه مدلولي لفظيا و ليس دلاليا لغويا.

و في ذلك التشابه قد يكون تشابه معنوي في المعني من الآية، عقليا او علميا او معرفيا او حسيا او واقعيا، و هي مضافة الى الأول ست تضرب في ست فالمحتملات الصحيحة- إذا- ست و ثلاثون، تترك مكرراتها و البقية الباقية صالحة.

و من التشابه الواقعي ان المحكمة المنسوخة تتشابه المحكمة غير المنسوخة، فيزول تشابهها بالناسخة، كما التشابه علميا و عقليا و معرفيا و حسيا يزول سنادا الى المحكم في هذه الأربع دلالة من نفس الآية و سائر المحكمات التي هي في مغزاها و مرماها.

فالمحور الأصيل في‏ «أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ» هي المتشابهات لفظيا إذ ترجع الى محكمات فيزول بذلك تشابهاتها، و اما سائر التشابه فهو زائل بنفس الآية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 26

الصريحة او الظاهرة في خلافها علميا او عقليا او حسيا، اللهم إلّا تشابه النسخ فلا يزول الا بالرجوع الى الآيات التي بالإمكان نسخها إياها فيتأكد انها محكمة او منسوخة.

فهنا صفات و افعال تختص باللّه فلا تشابه فيها على اية حال، و هناك أخرى تختص بمن سوى اللّه فكذلك الأمر.

ثم هنالك ثالثة هي مشتركة لفظيا بين اللّه و خلقه، متباينة معنويا و واقعيا، كالشيئية و الوجود و العلم و القدرة و السمع و البصر و اليد و القدم و المجي‏ء و ما أشبه، ففيها و في اضرابها يشتبه المعنى على الجاهل به، استجرارا لمعانيها في المخلوقين الى الخالق سبحانه، او استجرارا لمعانيها في الخالق الى المخلوقين.

و من أسهل السبل في تفسيرها إرجاعها الى محكمات قرآنية ك «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْ‏ءٌ» و «إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ مُحِيطٌ» و «لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ وَ هُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصارَ» و اضرابها من محكمات ... أو محكمات عقلية او علمية ام معرفية متزودة من محكمات قرآنية أماهيه، يزول بها ذلك التشابه العارم الناتج عن قصور العقلية الإيمانية او العلمية دون اي قصور دلالي في لغة القرآن‏ «1».

فالمتشابهات القرآنية في الأكثرية الساحقة هي في أسماء اللّه و صفاته و أفعاله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مثالا على التشابه العلمي آيات حركات الأرض كآيات الكفات و الراجفة و الذلول و الجبال الأوتاد و أضرابها، حيث الألفاظ لا تشابه فيها، و إنما العلم غير البالغ زمن نزولها يعمل في تشابه بين حق المعنى و باطله، فالعلم يرجح باطله و هو سكون الأرض، و النص يرجح حقه و هو حركات الأرض، فيحمل النص- قضية العلم أو الحس الخاطئ- على غير النص، و هكذا العقل غير الناضج، حيث يعقل أمرا بقصوره فيعتقده ثم الآية الصريحة أو الظاهرة في خلاقه يظن أنها متشابهة قد يرجح حكم العقل عليها فتؤول على خلافها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 27

حيث يؤتى بها في لغات مشتركة الاستعمال بينه و بين خلقه، فلا بد من تجريدها عن المعاني الخلقية عن بكرتها، و الإبقاء على المعاني الخالقية، و ذلك هو المعني من تسبيحه سبحانه بحمده، ان ننزهه فيما نحمده بألفاظ متشابهة عما لا يليق بساحته، و لا سبيل للتعريف بصفاته سبحانه- المشتركة لفظيا بصفات خلقه- إلا استعمال نفس الألفاظ المشتركة، ثم علينا تجريدها عن معانيها في الخلق.

و مهما كان القرآن كله فرقانا لأهله، و لكن المحكمات البينات في أنفسها هي فرقان للمتشابهات‏ «1» تفرق المعنيّات الإلهية بمشتركات الألفاظ، عن المعنيات الخلقية ام أية تشابهات في سائر الحقول العقلية و العلمية أماهيه، و مما لا ريب فيه ان الآيات الأحكامية- كقدر معلوم من القرآن- هي من الفرقان المحكم‏ «2».

و لا يعني إحكامها عدم الحاجة الى التدبر فيها و تفسير بعضها ببعض، بل يعني عدم التشابه مدلوليا إذ لا تشابه فيها لفظيا، مهما كانت عميقة المعاني، غالية المعالي.

إذا

«المحكم ما يعمل به و المتشابه الذي شبه بعضه بعضا» «3»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الكافي عن ابن سنان عمن ذكره قال‏ سألت أبا عبداللّه (ع) عن القرآن و الفرقان أ هما شيئان أو شي‏ء واحد؟ قال: القرآن جملة الكتاب و الفرقان المحكم الواجب العمل به،

و

فيه عن القمي بسند متصل عن أبي عبد اللّه (ع): الفرقان كل امر محكم،

و

روى العياشي عن عبد اللّه بن سنان قال‏ سألت أبا عبد اللّه (ع) عن القرآن الفرقان؟ قال: القرآن جملة الكتاب و أخبار ما يكون و الفرقان المحكم الذي يعمل به و كل محكم فهو الفرقان.

(2)

الدر المنثور 2: 6- أخرج البخاري في تاريخ بغداد بسند أن النبي (ص) قال في خطبته: أيها الناس قد بين اللّه لكم في محكم كتابه ما أحل لكم و ما حرم عليكم فأحلوا حلاله و حرموا حرامه و آمنوا بمتشابهه و اعملوا بمحكمه و اعتبروا بأمثاله.

(3) العياشي عن أبي محمد الهمداني عن رجل عن أبي عبد اللّه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 28

ف‏

«المتشابه ما اشتبه على جاهله» «1»

و كون المنسوخات من المتشابهات كما في مستفيضة تعميم للمتشابه المدلولي الى التشابه تكليفيا، حيث الجاهل بالمنسوخ يحسبه- على الدلالة المحكمة- أنه حكم ثابت لا حول عنه.

و حق القول في المتشابه- هو ككل- تشابه غير المراد بالمراد، تشابها عقليا او علميا او معنويا او واقعيا، و الأخير هو تشابه المنسوخ، و قبله تشابه الأسماء و الصفات الإلهية، و الأولان هما في حقول القصور في العلوم و العقول و كما يروى «إن للقرآن آيات متشابهات يفسرها الزمن» «2» مهما فسرها محكماتها، او هي محكمات مدلوليا، إلا ان قاصر العقل و العلم قد يهم تأويلها الى ما يوافقهما كالآيات الصريحة في حركات الأرض و دورانها أمّا شابهها من آيات تحمل معارف غامضة عقليا او علميا.

فالمحكمات- إذا- هي غير المنسوخات، و لا المتشابهات معنويا و لا علميا و لا عقليا و لا معرفيا و لا حسيا، فهما تختلفان حسب الاستعدادات و القدرات العقلية و الإيمانية و العقيدية، دون ان تكون آيات محكمات في مخمسة الجهات للكل، و ما سواها متشابهات لهم.

فكم من آية هي محكمة لمستفسر عنها متشابهة لآخر، أم هي محكمة في بعض ألفاظها متشابهة في الأخرى، كما و منها ما هي محكمة واقعيا إذ لم تنسخ، و لكنها متشابهة لفظيا، أو محكمة لفظيا و متشابهة عقليا أو علميا أو معرفيا، و هكذا الأمر في اضرابها من احكامات و تشابهات في مربعة الجهات.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

العياشي عن مسعدة بن صدقة عنه (ع) و في الدر المنثور 2: 6- أخرج ابن سعد و ابن الضريس في فضائله و ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول اللّه (ص) قال- إلى أن قال-: فما عرفتم منه فاعملوا به و ما تشابه عليكم فآمنوا به.

(2) كما في الدر المنثور عن أبي عباس رحمه اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 29

ذلك ما تهدي له آية التقسيم و روايات تفسرها كما هيه، فسائر التعاريف- إذا- بين قاصرة و مقصرة، مفرطة او مفرّطة، أو انها من التفاسير الجانبية غير المحلقة على مربعة الجهات في المحكمات و المتشابهات.

و من أغربها ان المحكمات هي الحروف المقطعة و غيرها متشابهات! معاكسة صريحة لمدلول آية التقسيم، فإنها أحق ان تكون من المتشابهات، بل هي من أعضلها، و هي أوفق الظروف الملتوية للتأويلات: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ».

و إذا كانت غير الحروف المقطعة متشابهات ككل، و المقطعة هي من اغمض المتشابهات، إذا فأين القرآن البيان، و كيف واجب التدبر في القرآن؟!.

هذا! و قد يصح القول ان الحروف المقطعة لا هي من المحكمات و لا المتشابهات، فانها لا تدل وضعيا على معنى، فلا مداليل لها فضلا عن كونها محكمات.

و لئن أدخلناها في المتشابهات فهي من أوغلها في التشابه حيث لا تفسر بمحكمات في القرآن، فقد يصبح القرآن محكما كله- كما عند أهله الذين يعيشونه معرفيا علميّا و عمليا حياتهم- يصبح محكما في حقل التفسير- ككل- مهما بقي متشابها في ساحة التأويل، و لكن الحروف المقطعة لا تفسير لها و لا تأويل إلا لأهله الخصوص و هم الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) و ذووه المعصومون (عليهم السلام) فالمتدبرون في القرآن حقّه، الراجعون في تفسير متشابهاته الى محكماته سليما ناصعا، و فوقهم الرافعون ستار التشابه بالقمة العقلية و العلمية و الإيمانية، هم لا متشابه لهم في آي القرآن في ساحة التفسير، مهما تعاضل عليهم أمر التأويل، فإن أهله الخصوص ايضا لا تحليق لهم في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 30

تأويله كله، فضلا عمن دونهم!.

6 و كيف تكون المحكمات ام الكتاب دون أمهات الكتاب؟.

حيث الأم هنا هي الأصل الذي يرجع إليه و يعتمد عليه في حاجيات الطفولة، فالمتشابهات بحاجة إليها في تبيين معضلاتها و ازاحة التشابهات عنها و ليست كل واحدة من المحكمات بانفرادها أمّا لكل المتشابهات، بل هي بأجمعها أمّ لها بأجمعها، جمعا أمام جمع، فهي- إذا- أم واحدة للمتشابهات مهما كانت كلّ من المحكمات امّا لما تناسبها من متشابهات تقدح بها فيظهر مكنونها و تستثير دفينها، كما و هي ام لمحكمات من اضرابها حيث الكتاب تعمه كلّه ما يحتاج المستفسر في تبيانه الى بيان يفسر.

و هكذا تكون الفاتحة ام الكتاب ككل، لأنها إجمالة بجملتها عن تفصيل الكتاب، مهما كانت كل من سبعها المثاني امّا لفصيل من التفصيل.

كما و ان‏ «ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً» دون آيتين، لأن آية كلّ لزام آية الأخرى خارقة في الولادة، فابن مريم آية ولادة عنها دون والد، و مريم آية توليدا له دون والد، فهما- إذا- آية واحدة و هكذا: «جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ آيَةً ..»

تتلاقى منهما في فاقد الصلب المتعود في الولادة، و هما فيه مشتركان.

7 إتباع المتشابه- المذموم الضائق- هو اتباعه على تشابهه دون إرجاع صالح إلى محكمة تحميلا، و انما لمتهوسات الآراء على المتشابه دون رجوع إلى ركن وثيق، و لا لجوء إلى برهان رفيق دقيق، فان اتباعه على تشابه دون تفسير صالح و لا طالح غير ممكن، و انما يتبع المعنى الثابت صالحا و غير صالح، و هذا هو الذي يثير الفتنة علميا و عمليا و عقيديا، و اما اتباع المشابه بعد إرجاعه الى محكمه فليس اتباعا للمتشابه حتى يحظر عليه، ثم و في اتباع المتشابه هكذا واقع رائغ زائف في بعدين اثنين هما:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 31

1 ابتغاء الفتنة و 2 ابتغاء تأويله، هما ظاهرتان من زيغ القلب و تقلبه عن ناصع الحق و ناصحه الى ناعق الباطل و فاضحه، و في ثالوث: الزيغ و ابتغاء الفتنة و ابتغاء التأويل، يبرز في المسرح كل إدغال و تدجيل، استدلالا بالكتاب ضده لصالح الأهواء و الأباطيل.

ففي اتباع المتشابه على تشابهه فتنة في كل الحقول، و في ابتغاء تأويله إلى ما تهواه الأنفس فتنة على فتنة، فان ذلك التأويل عليل حيث الأصل الذي يتبناه- و هو اتباع المتشابه- عليل، فلا يروّي الغليل و لا يبصر الكليل، رغم ان القرآن شفاء لما في الصدور و رحمة لذات الصدور: «وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَساراً» و منهم- كأنحسهم- هم الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله.

ذلك هو الإتّباع المرفوض لما تشابه منه، دون تفسيره بمحكمه ام أيا كان من صالح التفسير استنطاقا للآيات بنظائرها، و دخولا في حقولها و حظائرها من أبوابها دون ظهورها.

اجل و

«من رد متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم ...

و إن في اخبارنا متشابها كمتشابه القرآن فردوا متشابهها إلى محكمها و لا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلوا» «1»

، و دون ان يؤمن بها على تشابهها لمن لا يستطيع على رجعها الى محكمها.

و «ما تَشابَهَ مِنْهُ» قد يعم المتشابه في نفسه، الى ما جعل متشابها رغم إحكامه، ثم تحميل ما يتحمل عليه، و هو من انحس الإتباع لما تشابه منه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). عيون الأخبار حدثني أبي قال حدثنا علي بن إبراهيم عن أبيه عن أبي حيون مولى الرضا (ع) عنه (ع) قال: ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 32

ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله. و ليس ضرب القرآن بعضه ببعض- المندّد به في المأثور- إلّا ضرب التضارب، دون ذلك التفسير التقارب، فكل تفسير ينتج تضاربا بين الآيات هو من ضرب القرآن بعضه ببعض ضرب الدّقل، و كل ما ينتج تقاربا بينها دون تحميل عليها إلّا ما تتحمله، فهو من صالح التفسير، و هو تفسير القرآن بعضه ببعض‏ «وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً» فهنا تفسير لفظي للقرآن متشابها و غير متشابه، ثم تفسير باطني لهما، و من ثم تأويل، و لا بد لكلّ من دليل، فمفسر المتشابه لفظيا دون دليل، ثم تأويليا دون دليل، انه جامع زيغا على زيغ و فتنة على فتنة، حيث التأويل كله في نفسه متشابه لأنه غير مسنود الى لفظ متشابه أو محكم، بل هو الأول معنويا الى مبدء او نتيجة، فهو مخصوص بمن يحيط علما بمبادئ القرآن و نتائجه.

فكل اتباع للمتشابه- على تشابهه- هو من زيغ القلب، ثم اتباع الحكم ذاتيا ام بعد الرجوع الى المحكم هو من استقامة القلب، شرط عدم تحميل الآراء الجارفة عليها على إحكامها.

فقد يجعل المحكم متشابها ثم يحمل عليه رأي مزيف، و ذلك من اتباع المتشابه رغم إحكامه، او يجعل المتشابه متّبعا على تشابهه بنفس التحميل، فكذلك الأمر.

و أما ان يتبع المحكم على إحكامه، او يتبع المتشابه بعد قلبه محكما- اتباعا في مثلث العلم و العقيدة و العمل أم يتبع المتشابه إيمانا دون تفسير: «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا» فذلك هو الرسوخ في العلم على درجاته.

إن تأويل المتشابه- إيضاحا لمعناه- يختص باللّه، حيث المحكمات تفسر المتشابهات، كما ان تأويل القرآن- ككل- مختص باللّه فانه الذي يعلم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 33

التأويل من هو اهله كالراسخين في العلم بمختلف درجاتهم.

و على أية حال فكل تأويل- لأنه خارج عن مدلول اللفظ و راجع الى غامض المعنى- إنه يحتاج إلى دليل من صاحب المعنى، قد يبينه في سائر كلامه كالمحكمات بالنسبة للمتشابهات، فهو عام لأهل القرآن الخصوص ككل.

أم يبيّنه بإلهام أو وحي و هما يختصان بأصحابهما الخصوص، أم لا يبينه إلّا يوم القيامة، ام ليس ليبينه إطلاقا و هو التأويل المخصوص بعلم اللّه تعالى شأنه.

ففي مربع التأويل نجده واقعا غيبيا مرتبطا بالمعنى المفهوم من القرآن، لا يعلمه إلا اللّه، ام و الراسخون في العلم بتعليم اللّه.

و بالنظر الدقيق الى آيات التأويل نعرف مدى صدق هذا البيان، فلا تجد فيها و لا أية إشارة الى تأويل الألفاظ كما يهرفون بما لا يعرفون، بل هو مثلث التأويل في النشآت الثلاث الأولى و البرزخ و الوسطى، تأويلا علميا او واقعيا.

فتأويل كل ما فعله خضر لم يكن تأويلا لكلام إذ لم يكن منه فيما اختلفا إلّا العمل، إرجاعا له الى مأخذ او نتيجة لا يظهران في مظهر الأعمال.

و تأويل الرؤيا ليوسف هو إرجاعها الى واقعات لا تظهر من هذه الرؤيا إلا لمن علّم علم التأويل.

و تأويل القرآن، بروزا له في حقوله يوم القيامة ليس إلا للحاضر يوم القيامة «بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَ لَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ» (10: 29)- «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ ..» (7: 52).

إذا فعلم التأويل ككل هو من علم الغيب المخصوص تعليمه باللّه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 34

و ليس ليعلم من نص الدلالة اللفظية او ظاهرها، و انما يتبنى المعنى تدليلا من اللّه و هو يهدي السبيل.

و التأويل- في قول فصل- من الأوّل، فهو الإرجاع، إرجاع معنى الآية الى واقع مجهول أيا كان، تخطيا عن المعلوم، و ليس تفسير النص او الظاهر الى خلافهما تأويلا إلّا في اصطلاح مستحدث لا أصل له لغويا و لا قرآنيا.

و للتأويل مآلات ثلاث لا يعول- فيما يئول إليها- إلّا بدليل قاطع، فانه من أوصاف المعنى- الخفية- دون اللفظ، فلا يرجع اللفظ إلّا إلى معناه المنصوص او الظاهر، ثم ليس لتأويل المعنى إلى واحدة من الثلاثة أي دليل من اللفظ او المعنى.

إذا فكل متشابه له تأويلان اثنان، تأويل للمعنى الى واقع المراد، و تأويل له الى واحدة من الثلاثة، فالأول ميسور لأهله ارجاعا للمتشابه الى محكمه ام تدبرا في نفس المتشابه ليزول عنه تشابهه، و الثاني غير ميسور إلّا لمن علمه اللّه.

و للمحكم تأويل واحد هو الثاني، «وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ» راجع الى الثاني لكل محكم او متشابه.

و من اقرب التأويلات لمحكمات او متشابهات هو واقع الأثر لمثلث العلم و العقيدة و العمل بالقرآن في حياة التكليف و قد كشفت عنه النقاب آيات انعكاس الأعمال علميا و للمتقين عينيا.

ثم التأويل المأخذ ربانيا، و المآل في الأخرى ربانيا، هما مجهولان إلا لمن عرفه اللّه و علّمه.

فمما يعلّمه اللّه صالح عباده المرسلين تأويل الأحكام، قدر ما يقدرهم على استنباط جزئيات الأحكام من مصادرها الربانية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 35

و مما لا يعلّمه تأويل الحقائق المحكية عنها بالقرآن، قدر ما عند اللّه، فانه مخصوص باللّه، و لا يخص تأويل القرآن بمتشابهه بل و يعم محكمه، مهما كان الأول أعضل.

و زيغ القلب هنا لا يعني زيغه في كل الحقول لمكان «زيغ» منكرا، الشاملة لكل زيغ، فقد يزيغ علما دون زيغ في ايمان، ام يزيغ ايمانا و ليس له علم حتى يزيغ، او يزيغ علما و ايمانا فوا ويلاه، و ثالث هذا الثالوث هو رأس الزاوية في الزيغ الذي يسبب كل فتنة في اتباع المتشابه و التأويل.

9 وجه اشتمال الكتاب على متشابهات بجنب المحكمات موجّه في معنى التشابه و الإحكام كما بيناه، فليس التشابه امرا قاصدا في قصور دلالي و إجمال متعمّد حتى ينافي بيان القرآن، بل هو كأصل مما لا بدّ منه في عرض المعارف الإلهية ذاتا و صفات و افعالا، و في عرض المنسوخ كما الناسخ، و هو كهامش على ذلك الأصل طبيعة الحال في مختلف الإدراكات و الاستعدادات لحدّ تصبح آية محكمة عند جماعة متشابهة عند آخرين، حيث المتشابه- في أوضح تعريف به- ما اشتبه علمه على جاهله، و التشابه في كل حقوله هو لزام الكتب العلمية على الإطلاق، فضلا عن القرآن الذي يحمل كل ما تحتاجه البشرية الى يوم القيامة- إلا ما بالإمكان ان يحصل عليه- ففي حقل التشريع الكافل لكافة الحاجات يستحيل عدم التشابه لكافة المكلفين قضية اختلاف الفاعليات و القالبيات و الاستعدادات في تفهم الكلام.

و المشكلة العويصة انما هي المتشابهات التي لا تفسير لها حكيما صالحا و لا نجد هكذا التشابه في القرآن عن بكرته، فان لكل متشابهة من آياته محكما قد تكون هي نفس المتشابهات بامعان النظر و إجالة الفكر، اللهم إلّا المتشابهات التأويلية التي ليس على اهل القرآن تأويلها، لأنه راجع الى الراسخين في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 36

العلم، أم لا يعلمه إلّا اللّه حيث يختص علمه باللّه.

10 و أما الراسخون في العلم و موقفهم من علم التأويل ايجابيا و سلبيا، فلأن الرسوخ في شي‏ء هو التمكن فيه بلا تزعزع و تزلزل تشبيها برسوخ الشي‏ء الثقيل في الأرض الخوّانة، فالراسخون في العلم- إذا- هم المتمكنون فيه الذين لا يختلفون في علمهم و لا يتخلفون.

و العلم يعم علم المعرفة و علم العقيدة و علم الايمان و الأخير أثبت مهما كان الأولان من أثافيّه و أسه و أساسه، فقد يثبت الراسخ في علم المعرفة و العقيدة و لا ثبوت له في علم الايمان و الثابت في علم الايمان ثابت- لا محالة- في علم المعرفة العقيدة على أية حال.

و من الأولين- و هم الأدنون في صنفي الراسخين- علماء اهل الكتاب دون المعصومين: «لكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» (4: 161) فإنهم من الذين هادوا، هودا و رجوعا إلى الايمان باللّه علما و عملا صالحا بعد سؤال الرؤية جهلا و عملا طالحا، و ساحة العصمة القدسية براء من الجهل و الجهالة على أية حال، فهم من دون المعصومين (عليهم السلام).

و الراسخون في العلم في آية التقسيم قد يشمل الأولين على هامش الآخرين، فرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و أهل بيته المعصومون (عليهم السلام) هم أفضل الآخرين، كما ان الأولياء دون المعصومين هم أفضل الأولين، فليس‏ «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» هنا ليختص بالآخرين فضلا عن أفضلهم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم و الطبراني عن أنس و أبي أمامة و وائلة بن الأسقع و أبي الدرداء أن رسول اللّه (ص) سئل عن الراسخين في العلم فقال: «من برت يمينه و صدق لسانه و استقام قلبه و من عف بطنه و فرجه فذلك من الراسخين في العلم».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 37

و التفسير بهم ليس إلا من جري التأويل لأصدق مصاديقهم في العلم و الايمان، و «العلم» هنا بمناسبة المورد هو العلم بالقرآن، و هو بصورة طليقة لائقة طليق العلم به في مثلّثه: معرفة و عقيدة و إيمانا قلبيا، و كلّ منها قد تكفي للخروج عن «زيغ» الذي يدفع إلى اتّباع المتشابه، مهما كان الزيغ في العلم قد يدفع الى اتباع المتشابه كزيغ العقيدة و الايمان، فلا بد إذا من رسوخ في الايمان كأصل، و من ثمّ رسوخ في العقيدة التي هي لزام الإيمان، و رسوخ في علم المعرفة.

و أفضل الراسخين في العلم هو أفضلهم في هذه الثلاث، ثم الراسخ في علم الإيمان- على مراتبه- و من ثمّ الراسخ في المعرفة- على مراتبها «1».

و مما يشعرنا أنّ أصل العلم هنا هو الإيمان‏ «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» حيث الخشية هي من مخلفات الإيمان قدره، فقد يكون عالما عقليا و معرفيا و ليس له ذلك العلم الإيمان الذي يخشى به اللّه، فهو- إذا- العلم الخاشي.

ثم الواو في‏ «إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» كما تتحمل العطف، انهم يعلمون تأويله كما اللّه مهما اختلفت الدرجات، كذلك الاستئناف، أنهم لا يعلمون تأويله كله، فما علموا منه فهو، و ما جهلوا منه اعترفوا بجهلهم و الايمان به كما علموا منه كما

في العلوي (عليه السلام) حيث سأله رجل هل تصف لنا ربك نزدد له حبا و معرفة فغضب (عليه السلام) و خطب الناس فقال فيما قال: عليك يا عبد اللّه بما دلّك عليه القرآن من صفته و تقدمك فيه الرسول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام، و في النبوي (ص) أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال و حرام لا يعذر أحد بالجهالة به و تفسير تفسره العرب و تفسير تفسره العلماء و متشابه لا يعلمه إلّا اللّه و من ادعى علمه سوى اللّه فهو كاذب (الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (ص): ...).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 38

(صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) من معرفته فأتمّ به و استضى‏ء بنور هدايته فإنما هي نعمة و حكمة أوتيتها فخذ ما أوتيت و كن من الشاكرين و ما كلفك الشيطان عليه مما ليس عليك في الكتاب فرضه و لا في سنة الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و الائمة الهداة أثره فكل علمه إلى اللّه و لا تقدر عظمة اللّه على قدر عقلك فتكون من الهالكين و اعلم يا عبد اللّه ان الراسخين في العلم هم الذين أغناهم اللّه عن الاقتحام في السّدد المضروبة دون الغيوب فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب فقالوا آمنا به كلّ من عند ربنا فمدح اللّه اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما و سمّى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عنه (عن كهنه) منهم رسوخا «1».

ففصل القول هنا في الراسخين في العلم انهم يعلمون من تأويل القرآن ما علمهم اللّه دون من سواهم، و يجهلون ما اختص اللّه بعلمه من التأويل، و مما يعلمونه تأويل الأحكام تأويل المبدء و الختام، فلهم في تأويل مبادئ الأحكام استنباط غير المنصوص في القرآن سنادا الى تأويل المنصوص، و ليس لغير المعصومين ذلك التأويل اللهم إلا القليل الذي له دليل او العليل الذي لا يروّى الغليل.

فالمنزلة الوسطى و الطريقة المثلى في موقف الراسخين في العلم من علم التأويل هي ألّا يخرجوا من علم التأويل جملة، و لا يدخلوا فيه جملة، بل هم عوان بينهما، يعلمون منه ما علمهم اللّه من واجب المعرفة الواجبة لأئمة الأمة، و لا يعلمون ما اختص اللّه بعلمه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في النهج و الإحتجاج في كلام لعلي (ع) في ذم القضاء السوء- إلى أن قال-: و ذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا و أنه لا اختلاف فيه- فذكر الآية ثم قال:- و إن القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق لا تحصى عجائبه و لا تنقضي غرائبه و لا تكشف الظلمات إلّا به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 39

و المستفيضة في حصر الراسخين في العلم في المعصومين تعني أفضلهم و أعلاهم، كالتي تحلق لهم علم التأويل حيث تعني غير ما اختص اللّه بعلمه منه‏ «1».

إذا فحصر الوقف عند اسم اللّه تعالى باستئناف‏ «وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» إخراج لهم عن ان يعلموا شيئا من التأويل من جليل أو قليل، اطلاعا لطلعه و استنباطا لغامضه و وامضه و استخراجا لكوامنه، حطا لهم بذلك عن رتبة استحقوا الإيفاء عليها و اطلاع شرفها، فان اللّه تعالى قد أعطاهم من نهج السبيل و ضياء الدليل ما يفتحون به المبهم و يصدعون به الظلم، امتيازا لهم كقادة عن سائر الأمة مقودين، و علمهم بقسم من ذلك التأويل مستمد من علم اللّه، فلا معنى للوقوف بهم دون منزلتهم، و الإحجام عن إيصالهم الى أقصى هذه المنزلة السامية.

ثم الوقف عند «وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» توفية للاستثناء حقه بإدخال المعصومين فيه، مزية لهم عمن سواهم بعلم من التأويل، معرفة بمداخله و مخارجه، و سلوكا لمحاجه و مناهجه المباهج.

و المنزلة العوان- الوسطى- بين المنزلتين هي اللائقة بهم، اللابقة لهم، تنزيلا لهم عن ساحة العلم بالتأويل ككلّ مساماة للّه و عوذا باللّه، و ترفيعا لهم عن قاعة الجهل به ككل مساماة لسائر الأمة و عوذا باللّه.

فحصالة القول هنا و أصالته انه‏ «وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ» لا سواه، حيث يراد تأويله كله بأسره دون إبقاء، فإن معرفة كنه الذات و الصفات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في نهج البلاغة عن الامام علي (عليه السلام): اين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذبا و بغيا علينا أن رفعنا اللّه و وضعهم و أعطانا و حرمهم و أدخلنا و أخرجهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 40

و الأفعال الربانية و علم الساعة و ما أشبه خاصة باللّه.

كما انه‏ «وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» بفارق انهم لا يعلمون كل التأويل و «يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا» هو من الدليل على جهلهم بقسم من التأويل، بل ما علمهم اللّه فإنهم لم يعلموا ما علموا من التأويل إلّا بما علمهم اللّه القدر الصالح لقيادة العصمة و عصمة القيادة «1».

و قد يوسع نطاق‏ «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» تقابلهم ب «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ» فكما الزيغ دركات كذلك الرسوخ في العلم درجات.

و كما ان أفضل الراسخين هو الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و أهل بيته المعصومين (عليهم السلام) كذلك أرذل الزائغين هم الذين جعلوا القرآن عضين، يعطفون القرآن على الرأي حين يعطف هؤلاء الرأي على القرآن، و يعطفون الهدى على الهوى حين تعطف الهدى على الهوى.

فكل تفسير او تأويل للقرآن بعيد عن جادة الصواب هو من زيغ القلب، كما ان صالح التفسير و السكوت عما لا يعلم من تفسير او تأويل، ذلك من الرسوخ في العلم.

11 و لا يخص التأويل هنا تأويل ما تشابه منه بل و المحكمات، حيث التأويل يعني المأخذ بدائيا و المآل نهائيا، و لقد فصلنا القول فيه في مدخل التفسير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 6- أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (ص): أنزل القرآن على سبعة أحرف حلال و حرام لا يعذر أحد بالجهالة به و تفسير تفسره العرب و تفسير تفسره العلماء و متشابه لا يعلمه إلّا اللّه و من ادعى علمه سوى اللّه فهو كاذب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 41

فلا نعيد، و الجدير بالذكر هنا أن للمتشابه تأويلين و للمحكم تأويل واحد، مهما كان لكلّ بطون.

12 كما و قد سبق البيان في الفارق بين التأويل و تفسير المتشابه.

و يا للراسخين في العلم من خنوع و خشوع في جنب اللّه في دعاء السلب و الإيجاب:

رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8).

و ترى أن إزاغة القلب هي من اللّه و لا سيما بعد إذ هدى، و خاصة بالنسبة للراسخين في العلم؟ إنها من العبد حين يزيغ فيزيغ اللّه قلبه: «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» و ان كان بعد إذ هدى، و أما الراسخون في العلم فدعاء السلب لهم تعني أنهم لا يملكون في أنفسهم هدى لولا تثبيت من اللّه: «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» لا سيما و ان الراسخين هنا تشمل مع المعصومين سواهم، الذينهم في خطر الزيغ من أنفسهم فالإزاغة من اللّه.

فقد تعني هذه الدعاء لهم ككل: أدم لنا ألطافك و عصمتك و هداك و لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبدا، و لا تبتلنا بأمر إمر يثقل علينا القيام به و الخروج إليك من حقه فتزيغ له قلوبنا، فهي- إذا- كمثل‏ «رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا» (2: 286).

و قد تعني الإزاغة ترك التوفيق عن زيادات الهدى بنقصان الاهتداء «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» فقد سألوه- إذا- ان يلطف لهم بكثرة الخواطر و قوة الزواجر في فعل الإيمان حتى يقيموا عليه طيلة أعمارهم و لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 42

يتركوه في مستقبلهم فيستحقوا بتركه و فعل الكفر- بدلا منه- أن يزيغ اللّه تعالى قلوبهم عن الثواب، فاعلا بهم مستحق العقاب.

و قد تعني- لا سيما بالنسبة للمعصومين- خضوعهم و استكانتهم بإنابتهم إلى اللّه على أن ترك الازاغة حاصل لهم لرسوخهم في العلم، فهي كما «قالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ» و هو ليس ليحكم إلّا بالحق.

و إنما اختص القلب من بين الجوانح و الجوارح بتلك الدعاء لأنه شريف الأعضاء جانحة و جارحة، فانه قلب الروح و هي عمّاله و تحت إمرته، فإذا اهتدى القلب اهتدت، و إذا زاغ زاغت و احتدت‏ «1».

«هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً» رحمة خاصة لدنية تعصمنا عن الزيغ أيا كان من دركاته، حيث الرحمة تعني كل درجاتها «إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ».

و انما تطلبوا إيجاب الرحمة بعد سلب الزيغ لأن هذا السلب لا يغني عن ذلك الإيجاب، فقد يكون عوانا بين سلب الزيغ و إيجاب الرحمة فهو من المستضعفين الضالين، كما الزائغون من غير المغضوب عليهم و المرحومون هم من المهتدين الى الصراط المستقيم، فلذلك ثني هنا الإيجاب بعد السلب تكملة للهدى.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 8- أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن أم سلمة أن رسول اللّه (ص) كان يكثر في دعائه أن يقول: اللّهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قلت يا رسول اللّه (ص) إنّ القلوب لتتقلب؟ قال: نعم ما من خلق اللّه من بشر من بني آدم إلّا و قلبه بين أصبعين من أصابع اللّه فإن شاء اللّه أقامه و إن شاء أزاغه فنسأل اللّه ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا و نسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، قلت يا رسول اللّه (ص) ألّا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي؟ قال بلى قولي: اللّهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي و اذهب غيظ قلبي و أجرني من مضلات الفتن ما أحييتني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 43

فقد تنضم دعاء السلب و الإيجاب هذه من الراسخين في العلم في خضم كلمة التوحيد «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» حيث التعلق بكل ما سوى اللّه زيغ، و التعلق باللّه هدى و رسوخ في العلم و بينهما عوان.

او يقال هناك زيغ في القلوب و هنا رسوخ في العلم و بينهما عوان لم يذكر و هو القلب السليم غير الراسخ فيه العلم، فلا هو يفسر المتشابهات زائغا و لا هو يعلم تفسيرا او تأويلا صالحا، كالعوام من المؤمنين الذين لا يفهمون القرآن.

و من اتباع المتشابه الجدال و المراء فيه و نثره نثر الدقل تأولا له على غير تأويله و تراجعا فيه ضربا لبعضه ببعض، كما يروى متظافرا عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 5- أخرج جماعة عن عائشة قالت: تلا رسول اللّه (ص) «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ ...» فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى اللّه فاحذروهم- و لفظ البخاري-: فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى اللّه باحذروهم- و في لفظ لابن جرير- إضافة: و الذين يجادلون فيه، و فيه عنه (ص) قال: إن في أمتي قوما يقرءون القرآن ينثرونه نثر الدقل يتألونه على غير تأويله، و أنه خرج على قوم يتراجعون في القرآن و هو مغضب فقال: بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم و ضرب الكتاب بعضه ببعض- قال-: و أن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا و لكن نزل يصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به و ما تشابه عليكم فآمنوا به، و فيه أخرج الطبراني عن عمر بن أبي سلمة أن النبي (ص) قال لعبد اللّه بن مسعود أن الكتب كانت تنزل من السماء من باب واحد و أن القرآن نزل من سبعة أحرف حلال و حرام و محكم و متشابه و ضرب أمثال و آمر و زاجر فأحل حلاله و حرم حرامه و اعمل بمحكمه و قف عند متشابهه و اعتبر مثاله فإن كلّا من عند اللّه و ما يتذكر إلّا أولوا الألباب،

و

فيه أخرج ابن جرير و نصر المقدسي في الحجة عن أبي هريرة أن رسول اللّه (ص) قال: نزل القرآن على سبعة أحرف المراء في القرآن كفر ما عرفتم منه فاعملوا و ما جهلتم منه فردوه إلى عالمه.

و فيه عن ابن عباس قال: إن القرآن ذو شجون و فنون و ظهور و بطون لا تنقضي عجائبه و لا تبلغ غايته فمن أوغل فيه برفق نجا و من أوغل فيه بعنف غوى أخبار و أمثال و حرام و حلال و ناسخ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 44

و زيغ القلب يعم جانب الايمان الى جانب العلم و العقل، فكل ضيق للإنسان يتطلب ضيقا في فهم القرآن.

نظرة ثانية إلى آية التقسيم:

«هُوَ الَّذِي ..» تحصر إنزال الكتاب ككلّ في الوحي، فليؤمن المؤمن به كلّه- بما لا يفهمه إلى ما يفهمه- دون تقحم في المتشابه ما لم يجد لتأويله صالح السبيل، أو و في محكمه صالح التأويل.

و مهما اشتمل القرآن على متشابهات على ضوء المحكمات، فالأصول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و منسوخ و محكم و متشابه و ظهر و بطن فظهره التلاوة و بطنه التأويل فجالسوا به العلماء و جانبوا به السفهاء و إياكم و زلة العالم.

و

في نور الثقلين 1: 133 في كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل و فيه: ثم إن اللّه جل ذكره لسعة رحمته و رأفته بخلقه و علمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كلامه قسم كلامه ثلاثة أقسام فجعل قسما منه يعرفه العالم و الجاهل و قسما لا يعرفه إلّا من صفا ذهنه و لطف حسه و صح تمييزه ممن شرح اللّه صدره للإسلام و قسما لا يعرفه إلّا اللّه و أنبياءه و الراسخون في العلم و إنما فعل ذلك لئلا يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول اللّه (ص) من علم الكتاب ما لم يجعله اللّه لهم و ليقودهم الاضطرار إلى الايتمار لمن ولاه أمرهم فاستكبروا عن طاعة تعززا و افتراء على اللّه و اغترارا بكثرة من ظاهرهم و عاونهم و عاند اللّه جل اسمه و رسوله (ص).

و

في تفسير العياشي عن سماعة بن مهر أن قال قال أبو عبد اللّه (ع): أكثروا من أن تقولوا ربنا لا تزغ ... و لا تؤمنوا الزيغ،

و

أصول الكافي عن هشام بن الحكم قال قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام‏ يا هشام إن اللّه حكى عن قوم صالحين أنهم قالوا: ربنا لا تزغ ... حين علموا أن القلوب تزيغ و تعود إلى عماها و رداها، أنه لم يخف اللّه من لم يعقل عن اللّه و من لم يعقل عن اللّه لم يعقد قلبه على معرفة ثابتة يبصرها و يجد حقيقتها في قلبه و لا يكون أحد كذلك إلّا من كان قوله لفعله مصدقا و سره لعلانيته موافقا لأن اللّه لم يدل على الباطن الخفي من العقل إلّا بظاهر منه و ناطق عنه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 45

الدقيقة للعقيدة و أحكام الشرعة ككل هي من ضمن المحكمات التي لا تشابه فيها.

اجل‏ «مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ» امّا للمتشابهات- لا لأنفسها ايضا مهما كان من الكتاب- فالاضافة إذا ليست لامية بل هي بتقدير «من» أمّ من الكتاب كما ان المتشابهات ولد من الكتاب و الكتاب يجمعهما، حيث يستثار بها دفائن مدلولاتها، و أما لمبتغي المعرفة عن اصل الشرعة و الشرعة الأصيلة في حقلي الأصول و الفروع.

ذلك- فأما الذين في قلوبهم زيغ عن الحق الناصع الناصح، و ضلال عن سوي الصراط فطريا و عقليا و واقعيا، هم أولاء الأنكاد يتركون الأصول الواضحة التي تقوم عليها العقيدة و الشرعة و المنهاج العملي و العقيدي و العلمي للحياة، و يجرّون وراء المتشابه الذي لا يفهم بظاهره البدائي، يتبعونه على تشابهه، تأويلا عليلا كليلا دونما اي دليل، حيث يختلقون فيه مجالا للفتنة بالتأويلات المزلزلة للعقيدة و الاختلافات التي تنشأ عن بلبلة الأفكار، نتيجة الاقتحام فيما لا مجال لتأويله اللهم إلا لأهله ام عن سبيله الواضح‏ «وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ».

و لأن التأويل من الأول: الرجوع، فهو الباطن مأخذا و مرجعا للمحكمات كما للمتشابهات، فمن التأويل ما يعلمه من لطف فهمه و هم الأولياء، و منه ما يعلمه المعصومون فمنه تأويل الأحكام فإنهم سنادا الى مآخذها و نتائجها يستنبطون فروعا أخرى لا تدل عليها ألفاظها.

و منه ما لا يعلمه إلا اللّه كالحقائق الاصيلة- مآخذ و نتائج- للقرآن، فان مصدره غيب عمن سوى اللّه فلا يعلمه إلا اللّه، فذلك مثلث من التأويل و لكلّ أهله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 46

و يقابلهم في تلك المواجهة المضللة «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» حيث يعتمدون على المحكمات كأصول، ثم يقولون آمنا به كل من عند ربنا في السدد المضروبة عليهم من تأويله، و اما إرجاع المتشابه الى محكمه استيضاحا لمعناه، ام ازاحة للتشابه بالتدبر اللائق فيه، فهما ليسا من اتباع المتشابه حتى يدخلا في زيغ التنديد، بل هما مما امر به اهل القرآن ان يدّبروا آياته فيتذكر اولوا الألباب:

«كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ».

«وَ ما يَذَّكَّرُ» ناتجة الرسوخ في العلم‏ «إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ» دون السطحيين القشريين الذين تخدعهم قشور من العلم، فيخيّل إليهم أنهم يعلمون كل شي‏ء، و ان لهم الاقتحام في خضم السدد المضروبة المتشابهة من علوم القرآن العظيم، فيقابلون كلام اللّه- المطلق المحلق على كل العقليات و الفطريات و الواقعيات العلمية- يقابلونه بما صاغتها لهم عقولهم و علومهم المحدودة، سامحين لأنفسهم كل تأويل فيما تشابه منه دون اي دليل على انهم الجديرون بإدراك كل غامض.

و اما اولوا الألباب فهم يذكرون انهم مطلق الجهل امام علم اللّه المطلق، يعتقدون كل وامض اتضح لهم بتدبر و تفكير فيعملون به، و يؤمنون بما تشابه منه و لم يتضح لهم قائلين: «آمَنَّا بِهِ» محكما و متشابها- متشابها و محكما «كل» منهما دون فارق‏ «مِنْ عِنْدِ رَبِّنا» «وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ»- «رَبَّنا لا تُزِغْ ...»:

نظرة ثالثة الى آية التقسيم فيها نتيجة البحث عنها بصورة مجملة:

المستفاد من آية التقسيم امور تالية:

1 تقسيم القرآن الى محكمات و متشابهات حاصر فيما تعنى دلالته من آيات، دون الحروف المقطعة التي هي برقيات رمزية تخص الرسول (صلّى اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 47

عليه و آله و سلّم) و ذويه المعصومين، ثم لا إجمال و لا إبهام فيما يراد دلالته محكمة ام متشابهة.

2 ليس التشابه في المتشابهات من الناحية الدلالية فانه خلاف الفصاحة و البلاغة الساذجة فضلا عن القمة العليا لأعلى درجات الاعجاز في القرآن، و انما التشابه الذي يزول بالتأمل في المتشابهة او بالرجوع الى محكمها هو التشابه اللفظي كالاسماء و الصفات المشتركة الاستعمال بين اللّه و خلقه، ثم الواقعي كالمحكمات الأحكامية المنسوخة حيث تتشابه الثابتة غير المنسوخة.

و اما التشابه المعرفي و العلمي و العقلي و الحسي، فيما يختلف النص او الظاهر المستقر مع هذه الأربع، فليس مقصودا في‏ «أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ» فانه من المحكمات لفظيا و واقعيا و لا بد من الرجوع الى نفس الآية و اتباع دلالتها الظاهرة رفضا لخلافها في هذه الحقول الأربعة.

و الآيات المتشابهات بصورة عامة هي (36) قسما بضرب التشابهات الست في نفسها، تخرج منها المكررات و الباقية بين ما تضمنه الآية و ما هي متشابهة من جهات أخرى.

3 التشابه و الإحكام أمران نسبيان في القرآن حسب مختلف الاستعدادات و التأملات، فلا متشابهة إطلاقا لأهل بيت الرسالة صلوات اللّه عليهم أجمعين، و كلها متشابهة لمن لا يعرف اللغة العربية و بينهما عوان.

4 زيغ القلوب الذي يخلّف إتباع ما تشابه منه يعم الزيغ العلمي و العقلي و العقيدي لمكان «زيغ» دون «الزيغ» و اتباع ما تشابه منه بين مستحيل و محظور و محبور، فالأول هو اتباعه على تشابهه دون تأويل صالحا او طالحا، و الثاني تأويله دون سناد الى دليل، و الثالث هو التأويل بصالح الدليل، و الاتباع يعم العلمي و العقيدي، و العملي فيما فيه عمل، فليس البقاء على التشابه دونما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 48

تفسير اتباعا له، و لا اتباع ما تشابه بعد تفسيره الصحيح اتباعا محظورا، و انما المحظور هو اتباعه بتفسير و تأويل عليل دخيل.

5 لا يعني التأويل تفسير النص او الظاهر الى خلافه رغم اشتهاره فانه تأويل عليل للتأويل، انما هو الإرجاع، تأويلا للمتشابه الى المحكم ليزول التشابه، ثم تأويلا للمحكم الى مبدءه و نتيجته هنا أم بعد الموت، و من التأويل ما يختص باللّه ككل غيب مختص به، و منه ما يختص بالمعصومين كتأويل الأحكام فإنهم يعرفون مناطات الأحكام بما علمهم اللّه بالرسول: «إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً» فهو (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يحكم بين الناس في كافة الحقول بما أراه اللّه، اراءة خاصة له بعد عامة القرآن، و منها اراءة تأويلات الأحكام حتى يأهل للافتاء في كل صغيرة و كبيرة بتلك الإراء.

و من التأويل ما يعم اهل القرآن على درجاتهم، تأويلا للمتشابه بنفسه ام بالرجوع الى محكمه، ام تأويلا لبعض الأحكام الى مآخذها المنصوصة بالخصوص كتابا او سنة، ام متلقاة منهما بصورة قاطعة، كمأخذ الإسكار للخمر حيث يعم التحريم الى كل مسكر و ان لم يكن خمرا بالفعل، كمن يشرب العصير الكثير ثم ينام وجاه الشمس ثم يسكر.

6 الراسخون في العلم يعم كافة المؤمنين غير الزائغة قلوبهم مهما كانوا جهالا لا يعلمون من القرآن حرفا، مهما كان أفضل الراسخين في العلم هم الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و الائمة المعصومون من عترته (عليهم السّلام)، و بينهما متوسطون.

و الواو في‏ «وَ الرَّاسِخُونَ» في العلم تعني كلا العطف و الاستئناف، عطفا للتدليل على ان منهم من يعلم جانبا من التأويل، و استئنافا للتدليل على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 49

اختصاص عامة التأويل باللّه و اللّه هو الهادي الى سواء السبيل.

رَبَّنا إِنَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (9).

فاعترافة اولى لأولى الألباب: «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا» جامعة لمثلث الإيمان بالتوحيد و النبوة و كتاب الشرعة ككل، و هنا ثانية هي تالية التوحيد في هندسة الايمان أيا كان: «رَبَّنا إِنَّكَ ....».

«لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ» فطريا و عقليا و علميا و حسيا، هو هنا يوم الجمع، حيث يجمع فيه الناس نشرا و حشرا و حسابا و جزاء وفاقا و لا يظلمون فتيلا.

و انه جمع يجمع في خضمّة كلّ متطلبات الجزاء الوفاق لكل عامل صالحا او طالحا، ناسا و غير ناس، و ما ذكر الناس هنا و في كثير مثله إلّا لأنهم المحور الأساس في شرعة اللّه.

و مما يؤكّد ذلك الجمع‏ «لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ» «إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ» أ فيخلفه عجزا أم جهلا أم تجاهلا أم بخلا أو ظلما، و ساحة الربوبية براء عن كل نقص لأنه «اللّه» و «إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (10).

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا» بهذه الأصول الإيمانية و ماتوا و هم كفار- كما تعينه‏ «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» في التالية- «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ» يوم الجمع‏ «أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» بعد ما أغنت عنهم في حياة الابتلاء «وَ أُولئِكَ هُمْ» لا سواهم‏ «وَقُودُ النَّارِ» حيث الكفار دركات أنزلها و أنذلها رؤوس الكفر و دعاة الضلالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 50

الذين هم وقود نيران الإضلال هنا، فهم- إذا- وقود النار هناك، يتّقد بهم في النار هوامش الكفر المستحقين النار.

فلا وقود- إذا- للنار إلّا رؤوس الكفر و الضلال، كما لا نار هناك إلّا بروزا لملكوت الأعمال.

فهم الناس في آية الوقود- الأخرى-: «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» (3: 24) و هم المخاطبون في آية الحصب:

«إِنَّكُمْ وَ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ» (21: 98) و هم المعنيون بآيات الصلي: «لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى. الَّذِي كَذَّبَ وَ تَوَلَّى» (92: 15).

فلأن مثلث الآيات في الوقود و الحصب و الصلي تعني المشركين و المكذبين بآيات اللّه فهم- فقط- المعنيون من‏ «الَّذِينَ كَفَرُوا» هنا و من سائر الحصب و الصلي هناك و هنالك، ثم من سواهم من الكفار يحرقون بوقودهم اللهم إلا «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى‏ ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيراً» (4: 10) إذا فسائر ما يستحق به النار هي من فروع الشرك و التكذيب بآيات اللّه، أعني رؤوس الزاوية في الإشراك و التكذيب.

و لأن تلك النار- ككل- تطلع على أهلها من ذواتهم بأعمالهم فليس لهم الفرار عنها إلا أن يفروا من أنفسهم الشريرة و لات حين فرار، و قد كان لهم أن يفروا منها يوم الدنيا مخالفة لأهوائهم و اتباعا لهدى اللّه، و لكنهم ماتوا بنيرانهم الجهنمية فليحرقوا بها، و ذلك:

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ (11).

الدأب هو السير المستمر، و هو هنا يعم النشأتين، فآل فرعون و الذين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 51

من قبلهم في دأبهم كانوا دائبين في الكفر و التكذيب بآيات اللّه و ماتوا و هم كفار، فكذلك‏ «هُمْ وَقُودُ النَّارِ» في دار القرار كما كانوا وقود النار في دار الفرار «فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ» طبقا عن طبق جزاء وفاقا «وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقابِ» عدلا، كما هو ارحم الراحمين ثوابا.

و قد تحتمل‏ «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» وجوها عدة علّها كلها معنية حيث يسعها ادب اللفظ و عناية المعنى.

ف «آل فرعون» مفعول فاعله محذوف معروف هو اللّه: كسنته الجارية على هؤلاء و هؤلاء أخذا لهم بذنوبهم في الأولى و الأخرى‏ «مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً» (71: 25) «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ» (40: 46).

أو أنه فاعل: كدأبهم في التكذيب برسل اللّه و رسالاته و آياته و كأنهم تواصوا به على طول خط الرسالات الإلهية.

او كدأب العذاب في آل فرعون دأبه في هؤلاء الأنكاد الذين هم فراعنة في هذه الرسالة القدسية السامية.

او ان الاضافة هنا لامية: كالدأب الذي لآل فرعون- منهم في تكذيبهم و من اللّه في تعذيبهم- يكون الدأب في الذين كفروا من رؤوس الضلالة.

او كدأبهم في أنه لم ينفعهم أموالهم و لا أولادهم من اللّه شيئا عن عذاب الأولى فضلا عن الأخرى.

ف «دأب‏ آلِ فِرْعَوْنَ» على أية حال تحلق على كل دأب منهم و فيهم و عليهم و من اللّه في الاولى و الأخرى طبقا عن طبق و لا يظلمون نقيرا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 52

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 12 الى 25]

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى‏ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (12) قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرى‏ كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (13) زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14) قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (15) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (16)

الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الْقانِتِينَ وَ الْمُنْفِقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (17) شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (19) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (20) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (21)

أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (22) أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى‏ كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (23) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24) فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (25)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 54

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَ تُحْشَرُونَ إِلى‏ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمِهادُ (12).

هنا «لِلَّذِينَ كَفَرُوا» قد لا يعني كافة الكفار حيث نزلت بعد انتصار المسلمين في بدر كما تعنيه‏ «قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ...» فهم- إذا- بقية باقية منهم في الجزيرة و هم اليهود كانوا يحسبونهم «الناس» الأقوياء لا يغلبون و هم يغلبون، فنزلت هذه الآية منددة بهم مهددة لهم بغلب بعد غلب ...

«وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ» «1».

هذا- و قد تعني الكفار ككلّ انهم مغلوبون على طول الخط كأصل أصيل في التقاء فئتي الإيمان و الكفر كما «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ» (3: 111) و ليس غلب الكفار على المؤمنين أحيانا إلا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 9- أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس‏ أن رسول اللّه (ص) لما أصاب ما أصاب من بدر و رجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع و قال يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم عذاب اللّه بما أصاب قريشا فقالوا يا محمد لا يغرنّك من نفسك أن قتلت نفرا من قريش كانوا أغمار لا يعرفون القتال إنك و اللّه لو قاتلتنا لعرفت إنا نحن الناس و أنك لم تلق مثلنا فأنزل اللّه‏ «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 55

خطأ في قبيل الايمان كما كان في حرب أحد ما كان من تخلفهم عن أمر النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

و هذه الآية من الملاحم القرآنية لا سيما في خصوص يهود المدينة حيث غلبوا كما قال اللّه في حرب بني قينقاع، و ما كان لهم حول و لا قوة نقضا لهذه الملحمة تجميعا لقواتهم الهائلة مهما شرّقوا او غرّبوا و زمّروا و عربدوا، مما يدل على صادق الوحي في هذه الإذاعة القرآنية.

و لأن الحشر هو إخراج جماعة عن مقرهم بإزعاج، إذا فجهنم هي جحيم النار في دار القرار، مهما سبقتها جحيم البرزخ فانها برزخ في ذلك الحشر الحاشر الحاشد «وَ بِئْسَ الْمِهادُ» الذي مهده اللّه لهم بما مهدوا له في أنفسهم في هذه الأدنى.

قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرى‏ كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (13).

«قَدْ كانَ لَكُمْ»:- الناس الأبطال-! «آية» لغلب المسلمين عليكم او امكانيته القريبة «فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا» في قتال حامية دامية «فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و هي الضفة الإسلامية السامية «وَ أُخْرى‏ كافِرَةٌ» هم مشركو قريش، و المسلمون ثلاثمائة و ثلاثة عشر رجلا فيهم قلة فارسة، و المشركون الف و فيهم كثرة فارسة، مما كان بطبيعة الحال يخلق لهم كارثة لقلة عددهم و عددهم، و لكنّما العدد الايمانية الكثيرة سدت فراغ العدد الحربية اليسيرة.

و مما نصرهم اللّه في هذه المعركة الصاخبة ان‏ «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» حيث تعني فيما تعنيه ان الكفار كانوا يرون المسلمين مثليهم رغم انهم ثلثهم، مما يهين عزمهم و يفشّل حزمهم كما فعل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 56

و تلك الإراءة المعاكسة كانت من الجانبين لصالح المسلمين، فهنا «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» توهينا لعزمهم، و في الأنفال‏ «إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنامِكَ قَلِيلًا وَ لَوْ أَراكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَ لَتَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ. وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» (44).

هاتان القلتان المرئيتان هما من الحيل الربانية لصالح الفئة المؤمنة اضافة الى واقع الإيمان الصامد الذي لا يهدف لأصحابه إلا إحدى الحسنيين‏ «وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ» بحساب دونما فوضى جزاف‏ «إِنَّ فِي ذلِكَ» التأييد المديد «لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ» ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار.

و قد تعني‏ «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ» كلتا المعاكستين ان:

يرى الكافرون المؤمنين مثلي أنفسهم، فهم إذا ألفان ستة اضعاف العدد الواقع، و يرى المؤمنون أنفسهم مثلي الكافرين و كذلك الأمر، و هما معا تشجيع للمؤمنين و توهين للكافرين، و أما ان يرى المؤمنون أنفسهم مثلي أنفسهم (626) و هم يرون الكافرين ألفا فليس مما يشجع المؤمنين فضلا عن توهين الكافرين.

فالأصل هنا في رؤية الكافرين انهم يرون المؤمنين مثليهم رأى العين، و في المؤمنين انهم يرونهم قلة بجنبهم و يرون أنفسهم مثليهم رأى العين‏ «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولًا».

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَ الْبَنِينَ وَ الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ وَ الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَ الْأَنْعامِ وَ الْحَرْثِ ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14).

«زين» مجهولا لا بد له من فاعل، فهل هو الشيطان حيث التزيين هنا في مسرح التنديد مفصولا عن حساب اللّه‏ «ذلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ اللَّهُ عِنْدَهُ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 57

حُسْنُ الْمَآبِ»؟ و ليس خالق الخلق بزينته إلّا اللّه: «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ»! و هنالك وفر من الآيات تنسب زينة الحياة إلى اللّه ك: «إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (18: 7)- «إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ» (27: 4)- «.. كَذلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلى‏ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ‏ ... وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ» (6: 110)!.

نقول: هنا تزيين هو من فعل اللّه تحسينا لخلقه كلا على حده: «الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْ‏ءٍ خَلَقَهُ» و لا تنديد فيه إذ لا إضلال.

و هناك تزيين زيادة عن الواقع فيه إضلال و إدغال، و هو من فعل الشيطان بالنسبة لهؤلاء الذين يمشون على هواه، سواء أ كان تزيينا للحياة الدنيا اكثر مماهيه ام تزيينا لاعمالهم السيئة حتى يروها حسنة، فهو من الشيطان إضلال و من اللّه تعالى عقوبة على ضلال إذ يخلي بينهم و بينه يضلهم و يغويهم، يعدهم و يمنيهم و لا يعدهم الشيطان إلا غرورا.

فهنا اللّه يزين لهم أعمالهم‏ «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ»- «إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ. أُوْلئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذابِ وَ هُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ» (27: 5).

لا فحسب بل‏ «وَ قَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ ..» (41: 25) «أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا» (19: 83) مهما عنى التقييض و الإرسال عدم الحيال بينهم و بين الشياطين حيث يكلهم إلى أنفسهم فهم يعمهون.

و أما حب هذه الستة المذكورة في الآية المتوحدة في حب الشهوات فهي من اللّه تمشية لحياه الجسد، مطية لحياة الروح و بلية في مدرسة الدنيا: «إِنَّا جَعَلْنا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 58

ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا».

فذلك- إذا- حب لذريعة الحياة العليا، أن يتذرع بها الإنسان إليها، ناظرا بها إليها، لا ناظرا إليها اصيلة، بل وسيلة الى رؤية الحقائق في الاولى و الأخرى.

ثم هو من الشيطان تركيز على الشهوات، و حصر للحياة في هذه الأدنى، أن يزينها أكثر مماهيه فيجعل الحياة الأخرى لاغية كأن لا حياة إلّا هذه الدانية و هنالك الطامّة الكبرى!.

و ثالوث الشهوات- نساء و بنين و أموالا- هي أساس البلاء و الهوة الجارفة لمن أبصر إليها فأعمته، و هي أساس الكمال لمن أبصر بها فبصرته.

و لأن شهوة الجنس تحتل الصف الاول من الشهوات نراها رأس الزاوية، و هي كما هيه ام المشتهيات، ثم من أهم حصائلها «البنين» و قد تعني هنا الأعم من البنات.

ثم مربعة الأموال التي تستخدم لأريحية الحياة التي تحتل رأس الزاوية فيها «النِّساءِ وَ الْبَنِينَ»، و هي‏ «الْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَ الْفِضَّةِ» كرأس الزاوية في الأموال، ثم‏ «الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ» المعلمة و هي جيادها، ثم «الأنعام» و أخيرا «الحرث».

«ذلك» البعيد البعيد «مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا» يتمتع بها فيها و يشترى بها الحياة الأخرى‏ «وَ اللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ» و الثواب لمن جاز شهواتها و هي خامدة إلا عما يتذرع بها لما عند اللّه.

و مهما كانت الحياة الدنيا خيرا كمزرعة و مدرسة فالحياة الأخرى خير منها كمنتوجة صالحة:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 59

قُلْ أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (15).

«قل» يا رسول الهدى و الداعية إلى كل خير «أَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ» فانه شر من ذلك للذين طغوا عند ربهم، «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ» في الحياة الدنيا إذ لم يتناسوا فيها- و هي حياة البعد و الحجاب عن الرب- انهم عند ربهم و بمحضره فاتقوا.

«لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ»- «عِنْدَ رَبِّهِمْ»- «جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ» و اين‏ «عِنْدَ رَبِّهِمْ» في الاخرى من‏ «عِنْدَ رَبِّهِمْ» في الاولى، إذ تكشف الغطاء فيها كثواب دائب بما كشفت كما سعوا في الاولى.

و اين‏ «أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ»- «عِنْدَ رَبِّهِمْ» في الاخرى من النساء عند ربهم في الاولى، ثم لا خبر هنا عن خصوص البنين و الأموال لأنهما كما النساء «فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ الْأَعْيُنُ» و إنما يفرد بالذكر في عالم المضايقات ثم الأموال يوم الأخرى لا حد لها و لا حساب، و هي حاصلة هناك دون تحصيل.

و قد تعني «مطهرة» اضافة إلى الطهارة عن التدنس طهارة عن كل تنقّص أنثوي من هرم و ضعف و قبح في المنظر و المعشر، فهن يظللن مطهرات كما كن على طول خط الحياة.

و لماذا «ازواج» للمؤمنين، لا و ازواج للمؤمنات؟ قد يعنى اختصاص الذكر- ان كان- التجافي عن ذكر ازواج المؤمنات حفاظا على كرامة العفاف! و لكنهن ذكرن في مسارح النكاح مرات عدة للدنيا، و لا عفاف عن الحلال حتى يعف عن ذكرهن في مسرح الزواج يوم الأخرى، و علّ‏ «أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ» تعم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 60

القبيلين كما «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا» و «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» فلا اختصاص في شي‏ء من ذلك بقبيل الرجال، و «الذين» تغليب لجانب الرجال، و «مطهرة» اعتبارا بلفظ الجمع المكسر و إبرازا أكثر لقبيل الرجال، فإن رغبة الرجال فيهن أكثر من رغبتهن فيهم.

إذا فالنقلة الطفرة من‏ «أَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ» إلى‏ «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» نقلة قاصدة الى بلورة الحياة الأخرى و ركيزتها الأحرى، فجنة الرضوان هي رضوان الجنات‏ «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ».

«وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» من هم همهم الشهوات هنا و هناك مهما كانت محللة مرغبة و كثير ما هم.

و من هم همهم‏ «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» و قليل ما هم، و هكذا يؤدبنا ربنا و يخطو بنا من شهوات الدنيا الى شهوات الآخرة، و منها إلى أشهى الرغبات الروحية «وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ»! و هو اكبر كما «وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ مَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَ رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (9: 7).

هنا و هناك‏ «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» يقابل كل الجنات و ما فيها من كافة الشهيات، تدليلا على ان قليلا من رضوان اللّه خير من كثير من سائر الجنات، مهما كان‏ «لِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ» فان جنة الرضوان هي الأصل و الأخرى من فروعها، كما الروح هو الأصل في الكيان الانساني و الجسم فرعه.

و قد يعني‏ «رِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ» على ضوء رضوان اللّه عن العبد، رضوان العبد عن اللّه، و لأنه ذريعة لرضوان اللّه، كما «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 61

و إنما عدّي «رضوان» ب «من» حيث الأصل هو رضوان من اللّه عن عبده و ليس العكس إلا تقدمته.

ذلك، و إلى مواصفات للذين اتقوا عند ربهم في قال و فعال:

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَ قِنا عَذابَ النَّارِ (16) الصَّابِرِينَ وَ الصَّادِقِينَ وَ الْقانِتِينَ وَ الْمُنْفِقِينَ وَ الْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحارِ (17).

هؤلاء الأكارم هم في خماسية من واقعية الصفات الإيمانية بعد قولة الايمان و طلبة الغفران و الاتقاء عن النيران، دروب ثمان إلى جنة الرضوان‏ «فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ».

و النصب في هذه الخمس على الإختصاص: أخص من القائلين‏ «رَبَّنا إِنَّنا آمَنَّا ..»: «الصَّابِرِينَ ...».

و هذه الصفات تحلق على كافة الصفات الايمانية على الإطلاق، كما و تحلق كلّ منها على سائر الخمس، فالصابر في اللّه حقا هو الصادق حقا كما الصادق صابر، و القانت حقا للّه هو الصابر الصادق المنفق في الأسحار كما المنفق و المستغفر صابر صادق قانت.

ذلك- و في كل صفة من هذه الخمس تتحقق سمة ذات قيمة في حياة الإيمان، ففي الصبر ترفّع على الآلام دون انكسار و تراجع، ثباتا على أعباء الدعوة و استعلاء على الشكوى.

و في الصدق اعتزاز بالحق المطلق و مطلق الحق في ظلاله، ترفعا عن ضعف الكذب و كذب الضعف فما الكذب إلا ضعفا عن ناصع الحق اتقاء عن ضرر او اجتلابا لنفع.

و في القنوت للّه أداء- قدر المستطاع- لحق الربوبية و واجب العبودية و تحقيق لكرامة النفس بالقنوت الخنوع للّه الذي لا قنوت لسواه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 62

و في الإنفاق تحرّر من أسر المال بأسره، و انفلات من ربقة الشح، و إعلاء لحقيقة الأخوة الايمانية على شهوة اللذة الشخصية و تكافل بين الناس يليق بعالم الناس خروجا عن عالم النسناس.

و من ثم الاستغفار بالأسحار يلقي ظلالا عميقة الندى، قريبة الهدى، كما و صيغة الأسحار راسمة ظلال فترتها قبيل الفجر حيث يصفو فيها الجو و تترقرق فيها خواطر النفس، تلاقيا حفيفا بين روح الإنسان و الكائنات ككلّ اتجاها إلى خالق الكون.

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18).

هذه من غرر الآيات الجامعة لبراهين التوحيد، الجامعة لكل مداليل آيات التوحيد آفاقيا و انفسيا، يجدر بنا ان نسبر اغوار البحث فيها كما سبرت.

هنا سؤال يطرح نفسه بطبيعة الحال ان كيف يشهد اللّه لنفسه و طبيعة الشهادة ان تكون لاثبات الدعوى من غير مدعيها عند فقدان اي برهان عليها؟

و إلّا فلكل مدع ان يشهد لنفسه دون حاجة إلى سواه؟!.

هنا- بعد التأكد من معنى الشهادة أنها أداؤها عن حضور كامل و هو بالنسبة للّه الحضور المحلّق على كل محضر لتلقي الشهادة و إلقاءها قبل خلق المشهود و بعده و بعد فناءه- هنا نقول أولا: ان شهادة اللّه بوحدانيته قد تخص الذين يعتقدون في وجوده ثم هم به مشركون، و هم معترفون أنه الإله الأصيل و قد اتخذ لنفسه شركاء، فأفضل من يشهد لوحدانيته هو نفسه المقدسة، إذ هو الذي يعلم شركاءه لو كانوا، و هو الذي يتخذهم لو كان متخذا لهم، فلمّا ينفي العلم بان له شريكا، و ينفي اتخاذه لنفسه شريكا، فتلك إذا شهادة قاطعة على توحيده: «وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَ لا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هؤُلاءِ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 63

شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَ تَعالى‏ عَمَّا يُشْرِكُونَ» (10: 18)- «أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى‏ كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَ صُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ» (13: 33).

فلان اتخاذ الشركاء للّه لا يعلم- كأفضل معلم- إلا من قبل اللّه‏ «شَهِدَ اللَّهُ» هي أفضل شهادة لتوحيد اللّه وجاه من يفترون على اللّه انه اتخذ لنفسه شركاء.

هذا- و لكن شهادة اللّه على توحيده ليست لتقف عند هذه فحسب، فانه شهيد بكل حقول الشهادة على‏ «أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ..».

فقبل كل شهادة «شَهِدَ اللَّهُ» باسمه «اللّه»: «أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا» (19: 65)؟ كلا يا ربنا حيث اجمع العالمون ملحدين و مشركين و موحدين على توحيد اسم «اللّه» للّه فلم يسمّ به أحد إلا اللّه، مهما اتخذوا من دونه شركاء، إذ لا يحملون اسم «اللّه».

ثم «اللّه» في ذاته القدسية يشهد ألا اله الا هو، فان ذاته اللّامحدودة تحيل تعدّده، حيث اللّامحدود لا يتعدد و لو كان مخلوقا، و هو في الخلق لا محدودية نسبية، فالماء- مثلا- دون اي تقيّد بزمان او مكان او ألوان ليس إلا واحدا، و لا يتصور التعدد إلا على ضوء اختلاف مّا في ايّ من هذه المواصفات.

فاللامحدودية الإلهية- و هي حقها و حاقها- تحيل التعدد، فهو واحد لا بعدد و لا عن عدد و لا بتأويل عدد، و «لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا» الآلهة إلا اللّه مع اللّه، حيث العدد يحيل ألوهية المعدود أيا كان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 64

و صفاته- كذلك- ذاتية هي ذاته القدسية، و فعلية هي أفعاله، إنها لا محدودة فلا تعدد في الموصوف بها بنفس السند.

كما و أفعاله المنضدة المنتظمة دون تهافت و تفاوت، و بكل تناسق و توافق حيث‏ «ما تَرى‏ فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ» ذلك ايضا دليل وحدة الخالق الناظم الناسق، فتدبيره العجيب و صنعه اللطيف اللبيب و حكمته البالغة و قدرته الحالقة، كل ذلك دليل وحدة الصانع الحكيم القدير.

كما و شهد اللّه بما خلق في أنفسنا و دبر من فطر و فكر و علوم، فالفطرة شاهدة، و العقل شاهد، و العلم في كل حقوله شاهد، شهداء ثلاثة هي من الآيات الأنفسية اضافة الى الآيات الآفاقية «أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ».

ثم‏ «وَ الْمَلائِكَةُ» المدبرات أمرا، و الحاملات رسالات اللّه على رسل اللّه، إنها تشهد بوحدة التدبير و وحي الرسالة التوحيدية «أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» فلا تجد الرسالات الإلهية ملكا يحمل خلاف التوحيد، او يعمل في تدبير أمر الكون خلاف التوحيد.

و كذلك‏ «أُولُوا الْعِلْمِ» باللّه، «إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ» و لا سيما الرسل و النبيون‏ «1» و هم الرعيل الأعلى من اولى العلم باللّه، فإنهم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 323 في تفسير العياشي عن جابر قال‏ سألت أبا جعفر عليهما السلام عن هذه الآية «شَهِدَ اللَّهُ» قال أبو جعفر عليهما السلام: شهد اللّه .. فإن اللّه تبارك و تعالى يشهد بها لنفسه و هو كما قال، فأما قوله: و الملائكة، فإنه أكرم الملائكة بالتسليم له بهم و صدقوا و شهدوا كما شهد لنفسه و أما قوله: «و أولوا العلم قائما بالقسط، فإن أولي العلم الأنبياء و الأوصياء و هم قيام بالقسط و القسط العدل في الظاهر و العدل في الباطن أمير المؤمنين» أقول: قائما بالقسط هي صفة للّه لإفرادها دون الآخرين المجموعين، مهما حملوا القسط في شهادتهم بالوحدانية، اللّهم إلّا تأويلا أو حملا لقسطهم على هامش قسط اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 65

يزدادون على مثلث العلم لسائر العلماء علم الوحي الرسالي: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» (21: 25).

ذلك و أفضل الشهادات الربانية في حقل الكتب الرسالية هو القرآن:

«لكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَ الْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (4: 166).

و هي بصورة عامة: «قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ» (13: 43).

هذا، و كذلك سائر اولي العلم، علما باللّه كما الموحدون، او علما بخلق اللّه، حيث العلوم التجريبية بأسرها- لو خليت و طباعها- تحيل ازلية المادة «1».

إذا فالكون بأسره- خالقا و مخلوقا، و في كل حقوله- شاهد صدق بكل صنوف الشهادة «أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» فلا نكير لتوحيده تعالى إلّا نكير فطرته و عقليته و علمه.

إذا «شَهِدَ اللَّهُ»: 1 باسمه «اللّه» 2 و ذاته و 3 صفات ذاته 4 و صفات فعله، 5 و من الفطر 6 و العقول 7 و بقرآنه و 8 ملائكته وسطاء في حمل التكوين و التشريع، 9 و أولوا العلم الرسل و من يحذو محذاهم 10 و سائر اولي العلم حيث الصالح في ذاته يدل على وحدانيته تعالى.

فكل هذه الشهود العشرة هي من‏ «شَهِدَ اللَّهُ» منه او من فعله شهادة عقلية او علمية او واقعية، و ليست شهادات لفقدان البرهان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تجد القول الفصل في شهادة العلوم لإثبات وجود اللّه و توحيده في كتابنا «حوار بين الإلهيين و الماديين» في فصله الخاص.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 66

و مهما دخلت في سائر الشهادات خلاف العدل و القسط، و لكن اللّه في شهادته و في ربوبيته ككلّ ليس إلّا:

«قائِماً بِالْقِسْطِ» تشهد لقيامه بالقسط ألوهيته، فانما يحتاج الى الظلم الضعيف، كما و تشهد سائر الشهداء من الملائكة و اولي العلم، دون اي دخل و لا دجل أو دغل في الشهادة التوحيدية، فإنما هو قسط فوق العدل، و ليس ظلما دون العدل، و لا هي- فقط- عدل، فالقسط من اعدل العدل و أفضله، و هكذا تكون شهادة اللّه على توحيده: «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فعزته الوحيدة غير الوهيدة، و حكمته الوحيدة الوطيدة تشهدان لتوحيده شهادة قاسطة.

تلك هي جملة براهين التوحيد المستفادة من هذه الغرة الكريمة، فكما ان وجود اللّه يملك كل البراهين المثبتة، كذلك توحيده و سائر أسماءه الحسنى و صفاته العليا، فإنه تعالى قائم بالقسط في كافة مسارح ربوبيته بمصارح آياته آفاقية و انفسية دون إبقاء.

و ها نحن نرى على مدار الزمن في التاريخ الجغرافي و الجغرافيا التاريخي، ان الفترات التي حكمت فيها شرعة اللّه وحدها، هي التي ذاق فيها الناس طعم القسط و استقامت حياتهم قاسطة، في حين نراها في الفترات المتخلفة عن شرعة اللّه ساقطة.

لذلك نرى آية الشهادة الإلهية- هذه- مع زملائها

في لسان الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «معلقات بالعرش ما بينهن و بين الله حجاب» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 12- أخرج ابن السني في عمل يوم و ليلة و أبو منصور الشجامي في الأربعين عن علي قال قال رسول اللّه (ص): و إنّ فاتحة الكتاب و آية الكرسي و الآيتين من آل عمران: شهد اللّه .. إن الدين عند اللّه الإسلام- و قل اللّهم مالك الملك .. بغير حساب، هن معلقات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 67

و ذلك لأنهن رافعات الحجاب عن وجه التوحيد كل نقاب.

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (19).

... في الحق «ان الدين» الطاعة الحقه‏ «عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» للّه خالصا ناصعا دونما خليط من هواك ام أهواء من سواك، و الإسلام في كل شرعة هو الإسلام للّه فيها دونما تخلف عنها قيد شعرة.

إذا فالدين عند اللّه في الشرعة الأخيرة هو الإسلام فيها للّه، دونما إبقاء على تهود او تنصر، و لذلك سميت هذه الشرعة الإسلام اعتبارا بمضي أدوار سائر الشرائع في دوره، مهما كانت كل إسلاما في دوره الخاص به، «وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ» (3: 85) و هو إسلام الوجه للّه بكل وجه في كل الأدوار الرسالية، و هو هذا الإسلام الأخير بعد مضي ادوارها.

«وَ مَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» في هذا الإسلام و هو أصله و أثافيّه‏ «إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ» من قبل في كتاباتهم بشارات بهذا الإسلام، و من بعد في القرآن العظيم‏ «بَغْياً بَيْنَهُمْ» في هذا الإسلام، ترسبا على شرعة الطائفية و طائفية الشرعة فكفرا بآيات اللّه‏ «وَ مَنْ يَكْفُرْ بِآياتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسابِ» بالنسبة لهؤلاء المنحرفين عن إسلام الوجه للّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بالعرش ما بينهن و بين اللّه حجاب يقلن يا رب تهبطنا إلى أرضك و إلى من يعصيك قال اللّه إني حلفت لا يقرؤكن أحد من عبادي دبر كل صلاة- يعني المكتوبة- إلّا جعلت الجنة مأواه على ما كان فيه و إلّا أسكنته حظيرة الفردوس و إلّا نظرت إليه كل يوم سبعين نظرة و إلّا قضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة و إلّا أعدته من كل عدو و نصرته منه.

أقول و في المجمع روى جعفر بن محمد عليهما السلام عن أبيه عن آبائه عن النبي (ص) مثله.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 68

«الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ» هم أخص من اهل الكتاب، فالذين لا يعلمون الكتاب إلا اماني، هم لم يؤتوا الكتاب علميا معرفيا مهما أوتوه مبدئيا، و من ادلة الاختصاص‏ «إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ» فلا يشمل‏ «أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ».

و هذا الإسلام الذي هو الدين عند اللّه، ليس فقط إقرارا باللسان فانه ليس دينا و طاعة، بل هو تبلور الايمان و تمامه و كماله‏ «1» دخولا في جو السلم على ضوء الطاعة المطلقة للّه.

فالإسلام هو احسن دين مهما كان الايمان دينا و إسلام الإقرار- كذلك- دينا في حقل الإقرار: «وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ» (4: 125)- «بَلى‏ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 112)- «وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى‏» (31: 22).

إسلام الوجه للّه يشمل كل وجه في الإسلام و هو الدخول في السلم كافة «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» (2: 208).

و هكذا يؤمر مؤمنوا كل الشرايع الإلهية، و حين تنتهي الى الشرعة الأخيرة فهي هي الإسلام فقط الى يوم الدين: «وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ» و الإسلام هو التسليم و التسليم هو اليقين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 323 في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليهما السلام في الآية قال: يعني الذي فيه الإيمان.

أقول: فما ورد من تفسير الإسلام أنه الإقرار و أنه قبل الإيمان، و أنه لا يشرك الإيمان و الإيمان يشركه كل ذلك يعني الإسلام الأوّل لا الإسلام الذي بعد الإيمان و لا الأعم منه و من الذي قبل الإيمان.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 69

و اليقين هو التصديق و التصديق هو الإقرار و الإقرار هو الأداء و الأداء هو العمل‏ «1».

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَ مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ (20).

«فَإِنْ حَاجُّوكَ» اهل الكتاب و سائر الكفار في شرعتك هذه الجديدة الجادة «فقل» كلمة واحدة قاطعة للحجاج‏ «أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ» و اسلموا وجوههم‏ «مَنِ اتَّبَعَنِ وَ قُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ وَ الْأُمِّيِّينَ أَ أَسْلَمْتُمْ» فأنتم إذا أمثالنا مسلمون بشرعة القرآن، فقد بعث محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بالإسلام كسائر الرسل و النبيين (عليهم السلام) «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ» «2».

«فَإِنْ أَسْلَمُوا» وجوههم للّه فأسلموا «فَقَدِ اهْتَدَوْا وَ إِنْ تَوَلَّوْا» عن الإسلام‏ «فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ» «لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ» «وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ» المسلمين منهم و المتولين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

عن الإمام علي أمير المؤمنين (ع) قال: لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي و لا ينسبها أحد بعدي الإسلام هو التسليم ...

(2)

الدر المنثور 2: 13- أخرج الحاكم و صححه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال‏ أتيت النبي (ص) فقلت يا نبي اللّه إني أسألك بوجه اللّه بم بعثك ربنا؟ قال: بالإسلام، قلت و ما آيته قال: أن تقول: أسلمت وجهي للّه و تخليت و تقيم الصلاة و تؤدّي الزكاة كل مسلم على مسلم محرم اخوان نصيران لا يقبل اللّه من مسلم أشرك بعد ما أسلم عملا حتى يفارق المشركين إلى المسلمين ما لي آخذ بحجزكم عن النار ألا إن ربي داعيّ ألا و إنه سائلي هل بلغت عبادي و إني قائل رب قد أبلغتهم فليبلغ شاهدكم غائبكم ثم إنه تدعون مقدمة أفواهكم بالفدام ثم أوّل ما يبين عن أحدكم لفخذه و كفه قلت يا رسول اللّه (ص) هذا ديننا؟ قال: هذا دينكم و أين ما تحسن يكفك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 70

هنا إسلام الوجه للّه يشمل كل الوجوه المقامة للدين حنيفا في آية الفطرة، من الوجوه الروحية و الحسية، فالإنسان- و معه كل الكائنات- هو أمام اللّه وجه لا يخفى عليه منه خافية، و المطلوب منه ان يختار إسلام الوجه بكل وجوهه للّه، دخولا في سلم الطاعة المطلقة للّه.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (21) أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (22).

هنا ثالوث من أبعاد الكفر للبعاد عن شرعة اللّه و إسلام الوجه للّه مهما كانوا كتابيين ام سواهم:

1- «إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ» وحيا و صاحب وحي 2- «وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ» فالقتل بحق حق و لكن قتل النبيين ليس إلا باطلا لأنهم يحملون بلاغ الحق من اللّه، فقتلهم قتل للحق.

3 «وَ يَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ» و هم حملة الرسالات بعد النبيين أيا كانوا «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة الجراح قال‏ قلت يا رسول اللّه أي الناس أشد عذابا يوم القيامة؟ قال: رجل قتل نبيا أو رجل أمر بالمنكر و نهى عن المعروف ثم قرء رسول اللّه (ص) الآية ثم قال يا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة و أربعين نبيا أوّل النهار في ساعة واحدة فقام مائة رجل و سبعون رجلا من عباد بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف و نهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم فهم الذين ذكر اللّه.

و

في نور الثقلين 1: 324 في أصول الكافي بسند متصل عن يونس بن ظبيان قال سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول قال رسول اللّه (ص) إن اللّه عز و جل يقول: ويل للذين يختلون الدنيا بالدين ويل للذين يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس و ويل للذين يسير المؤمن فيهم بالتقية أبي يغترون أم علي يجترون فبي حلفت لأتيحن لهم فتنة تترك الحليم منهم حيرانا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 71

«فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ» و إذا كانت بشارتهم العذاب الأليم فما هي- إذا- نذارتهم، فانما التعبير يشي بعمق العذاب لهم و تحليقه عليهم لحد لا بشرى لهم إلّا العذاب!.

«أُولئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ» إذ فسدت فبطلت، و ذلك مأخوذ من الحبط و هو داء ترم له أجواف الإبل فيكون سبب هلاكها و انقطاع آكالها، و هكذا تكون اعمال هؤلاء الأغباش قد تنتفخ و تتضخّم في الأعين و لكنه الانتفاخ المؤدي الى البطلان و الهلاك، ثم و لا ينصرهم ناصر و لا يعذرهم عاذر، و قد أفردنا بحثا فصلا حول الحبوط من ذي قبل فلا نعيد.

أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُدْعَوْنَ إِلى‏ كِتابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (23).

سؤال تعجيب و تأنيب، تعجيب للرسول و الذين معه، و تأنيب بالذين أوتوا نصيبا من الكتاب، و تراه نصيبا من وحي التوراة و الإنجيل إذ حرفا عن جهات اشراعهما فلم يبق لهم منه الا نصيب عسيب؟ و قد أوتوا كأصل كل الوحي في الكتابين!.

ام نصيبا من الوحي ككل، فما وحي سائر الكتاب بجنب هذا الكتاب المبين إلا نصيبا ضئيلا من الكتاب؟ و «يُدْعَوْنَ إِلى‏ كِتابِ اللَّهِ» حيث تعني الكتابين قد لا يناسبه!.

«نصيبا» هنا قد تتحمل النصيبين و لكلّ وجه و الجمع أوجه، و خلاصة القول انهم ما أوتوا كل كتاب الوحي و هم يزعمونهم قد أوتوا كله ثم انقطع به الوحي، و تراهم إذا أوتوا كل الوحي فلما ذا يتولى فريق منهم عن كتاب اللّه حين يدعون و هم معرضون؟.

هنا «كِتابِ اللَّهِ» هو كل كتابه تعالى، فليس- إذا- نصيبا من الكتاب،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 72

و أعجب بهم و هم لم يؤتوا الا نصيبا من الكتاب و هم لا يرضون بكتاب اللّه ككل و هو القرآن حكما!.

و قد يعني‏ «كِتابِ اللَّهِ» كل ما كتبه اللّه على عباده و منه التورات كما في الروايات ان اليهود حوكموا- في احكام عدة كتابية- إلى التوراة فتولى فريق منهم و هم معرضون‏ «1».

ذلك، و لكن الآية ليست لتجمد على طائفة غابرة من اليهود غائرة في خضم التاريخ، بل هي شاملة لكل من أوتوا نصيبا من كتاب الوحي هودا او نصارى امن أشبههما، في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، فان ذلك التأبي و التولي شيمتهم و طبيعتهم الطائفية العارمة، لا يرضون عما عندهم بديلا، و لا بما عندهم دليلا إذا خالف أهوائهم! و:

ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ وَ غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (24).

«ذلك» التأبي عن قبول الحق و التجرّؤ على الحق‏ «بِأَنَّهُمْ قالُوا ...»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في التفسير الكبير للفخر الرازي 7: 232 ذكر في سبب نزول الآية روايات ثلاث:

1-

أن رجلا و امرأة زنيا من اليهود و في كتابهم الرجم فكرهوا الرجم لشرفهما فتحاكموا إلى الرسول (ص) لعله يكون عنده رخصة فحكم بالرجم فأنكروا ذلك فقال بيني و بينكم التوراة فلما أتى ابن صوريا على آية الرجم وضع يده عليها فقال ابن سلام قد جاوز موضعها يا رسول اللّه (ص) فرفع كفه عنها فوجدوا الآية فأمر (ص) برجمهما فغضب اليهود فأنزل اللّه الآية.

2-

أنه (ص) دخل مدرسة اليهود فدعاهم إلى الإسلام فقالوا: على أي دين أنت؟ فقال: على ملة إبراهيم، فقالوا: إن إبراهيم كان يهوديا فقال (ص) هلموا إلى التوراة فأبوا ذلك فأنزل اللّه الآية.

3-

إن علامات بعثته (ص) مذكورة في التوراة فدعاهم النبي (ص) إليها فأبوا فأنزل اللّه الآية.

أقول: هذه مروية في الدر المنثور باختلاف يسير مع الحفاظ على الأصول.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 73

قيلتهم العليلة انهم أبناء اللّه فلا تمسهم النار، و لو مستهم‏ «لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ» عبدنا فيها العجل، و بذلك الضمان و الأمان حرروا أنفسهم في كل تخلفة عن شرعة اللّه، فإنهم- على زعمهم- مثابون على اية حال، و ليس عذابهم- لو كان- إلا أياما معدودات محتملات هي متحمّلات.

و هكذا «غَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» فلا يبالون بما يعملون.

فَكَيْفَ إِذا جَمَعْناهُمْ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَ هُمْ لا يُظْلَمُونَ (25).

«فكيف» تكون حالهم بمآلهم في اعمالهم‏ «إِذا جَمَعْناهُمْ» مع سائر الجموع يوم الجمع‏ «لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ» في الشرائع الكتابية في ميزان العدل السوي‏ «وَ وُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ» نفس «ما كسبت» من خير او شر، دون زيادة الا في خير و لا نقيصة في كل من الشر و الخير «و هم» هودا ام سواهم «لا يظلمون» انتقاصا عما كسبوا.

و حين ينحصر الوفاء بما كسبت، فهو المحور الأصيل، حيث‏ «تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» (30).

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 26 الى 32]

قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (27) لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْ‏ءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28) قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (29) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (30)

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (32)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 75

قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَ تُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَ تُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ 26.

آية منقطعة النظير في مسرح الملك و العزة و الذلة سلبا و إيجابا ننفد فيها من مفرداتها الى جملها فجملتها، لكي نحصل على مغزاها الصالحة، ذبا عما يخيل إلى الذين في قلوبهم زيغ من طالحة بشأنها و اللّه من وراء القصد.

«قل» أنت يا رسول الهدى كحامل الوحي الأخير، و «قل» ايها التالي للذكر الحكيم مع الرسول، قولا باللسان و الأفعال و الجنان، قولا لازما و دعائيا في مختلف الجموع و محتشد المكلفين الى يوم الدين.

«قُلِ اللَّهُمَّ» أمرا من اللّه ان نخاطب اللّه في كل الحقول و المسارح، بكل المصارح.

«مالِكَ الْمُلْكِ»: «مالك» ملكا حقيقيا لا حول عنه، دون المالكين سواه، فإنهم بملكهم مستودعون فيما يملّكون و مستخلفون فيما يملكون.

«و الملك» يعم الملك ككل، زمنيا و روحيا، تكوينيا و تشريعيا، ام هو مثلث ملك المال دولة «1» و ملك المنال دولة في حقلي القيادة: الروحية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 14- أخرج ابن أبي الدنيا في الدعاء عن معاذ بن جبل قال: شكوت إلى النبي (ص) دينا كان علي فقال يا معاذ أ تحب أن يقضى دينك؟ قلت: نعم قال قل اللّهم مالك الملك.

و

فيه أخرج الطبراني عن معاذ بن جبل‏ أن رسول اللّه (ص) افتقده يوم الجمعة فما صلى رسول اللّه (ص) أتى معاذا فقال يا معاذ ما لي لم أرك؟ فقال: ليهودي علي وقية من بر فخرجت إليك فحبسني عنك فقال: ألّا أعلمك دعاء تدعو به فلو كان عليك من الدين مثل صبير أداه اللّه عنك فادع اللّه يا معاذ قل اللّهم ..- إلى- بغير حساب، رحمن الدنيا و الآخرة و رحيمهما تعطي من تشاء منهما و تمنع من تشاء منهما ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك اللّهم اغنني من الفقر و اقض عني الدين و توفني في عبادتك و جهاد في سبيلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 76

و الزمنية، فمثلث الملك المحلق على كل ملك يختصه انحصارا فيه و انحسارا عمن سواه إلا من آتاه وديعة زائلة، فقد يستعمل الملك في مصطلح الذكر الحكيم في كل من الثلاثة.

و هنا «تؤتى» دون «تهب او تعطي» للإشعار بان الملك أيا كان ليس عطية ربانية فان قضيتها البقاء دونما تحول و لا تحويل، ثم لا عطاء في الملك غير الحق لو صح في الملك الحق.

فانما الملك يؤتى إيتاء، زمنيا او روحيا او ماليا، بحق او بباطل، و التشريعي منها كله حق، لأنه شرعة من الدين و لا باطل في دين اللّه.

و لكن التكوين- و كله حق- يعم تكوين الشر بما يختاره الشرير قضية الاختيار للمكلفين.

فمن الملك الزمني: «يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ» (40: 29) «أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ» (42: 51).

و هو بين حق كما للنبيين و سائر المعصومين الملوك، و باطل كما للفراعنة و النماردة، فليس اللّه بمؤتيهم الملك مرضاة له حتى يحتج لبني أمية «أليس قد آتى اللّه عز و جل بني أمية الملك؟ حيث الجواب: ليس حيث تذهب إن اللّه عز و جل آتانا الملك و أخذته بنو أمية بمنزلة الرجل يكون له الثوب فيأخذه الآخر فليس هو الذي أخذه‏ «1».

و اين إيتاء من إيتاء، إيتاء اللّه لأهله تشريعييا، ثم إيتاءه لغير اهله تكوينيا بمعنى عدم منعه تسييرا، كما «الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 324 في روضة الكافي بإسناده إلى عبد الأعلى مولى آل سام عن أبي عبد الله (ع) قال قلت له: قل اللهم ... أ ليس ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 77

و هو نمرود الطاغية في أحد وجهي الآية و هما معا معنيان.

و من الروحي: في وجه لإبراهيم (عليه السلام): «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» (2: 258) و بكل الوجوه: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً» (4: 53) فالرسالة الإلهية ملك، بل هي أفضلها و من ضمنها الزمني: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» (7: 158) «قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي» (38: 35).

ذلك، و هو بين حق كما شرعه اللّه و قرره لأنبيائه و أولياءه، و باطل اغتصبه الذين احتلوا المناصب الروحية عن أصحابها الصالحين، فهذه خرافة مجازفة ان واقع المرجعية الدينية ليس الا بخيرة صاحب الأمر عجل اللّه تعالى فرجه، فكل مرجع ديني- إذا- هو نائبه المنصوب المرضي عنده.

فان واقع الخلافة الروحية عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) كان واقعا في الخلاعة اغتصابا لتلك الخلافة فضلا عن المرجعية الروحية زمن الغيبة و من ملك الملك فانه من الملك، فكل ما يملك يشمله الملك، من دولة و دولة و قيادة روحية، حقا ام باطلا.

فقد يجتمع الإيتاءان تشريعا و تكوينا كما في الملك الحق في مثلثه ام مثناه ام موحّده كما في الصالحين.

و اخرى إيتاء تشريعي و لم يحصل تكوين، كالقيادة الزمنية للروحيين الصالحيين حيث تحول بينها و بينهم طغاة بغاة، ثم لا ينصرهم في معركتهم الصاخبة المؤمنون معهم قصورا أو تقصيرا.

و ثالثة تحمل الإيتاء التكويني دون التشريعي كمن يؤتى من هذه الثلاثة ام كلها دون حق شرعي، فليس الحصول عليها تغلبا على ارادة اللّه و تألبا عليها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 78

و انما هو تخلف عن شرعة اللّه: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» (3: 178) «وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ» (7: 183) «وَ كَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها وَ هِيَ ظالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُها» (22: 48)، و أصل الاملاء هذا من الشيطان ثم اللّه لا يحول بينه و بينهم فينسب اليه كما ينسب الى الشيطان و بينهما بون الرحمن و الشيطان:

«الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَ أَمْلى‏ لَهُمْ» (47: 25) «فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» و من الجامع بين الأولين ام و الثالث: «وَ اتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّياطِينُ عَلى‏ مُلْكِ سُلَيْمانَ» (2: 102) «وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ» (2: 251)- «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَ عَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ» (12: 101) «فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً» (4: 54).

و ذلك المثلث كما هو بين حق و باطل، و بين جعل تشريعي و تكويني، كذلك هو بين شخصي- كما في أشخاص الملوك- أو جماعي- كما في بيوتات صالحة ام طالحة ام عوان بينهما.

ثم‏ «تُؤْتِي الْمُلْكَ» دون «تعطي» تعميم لعطية الملك و هو الهبة الربانية في حقلي التشريع و التكوين، و لإيتائه لمن يؤتاه تكوينا في طالح الملك زمنيا و روحيا، بمعنى ألا يحول دون وصول الطالحين إليهما ام إلى أحدهما، حين يحاولون بمختلف المحاولات و الحيل الوصول إليه، و الصالحون بمعزل عن المحاولات الصالحة لفصله عنهم وصولا للقواد الصالحين إليه، حيث الدار العاجلة هي دار الاختيار دون إجبار، اللهم الا فيما لا تكليف فيه امّا أشبهه.

إذا فمشية الإيتاء تعم التكوينية المحلقة على صالح الملك و طالحه، و التشريعية الخاصة بصالحه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 79

فمهما كان الملك الظالم- روحيا او زمنيا- هو المتغلب على ملكه و الغاصب لما في يده، و لكنه تعالى ليس بمنعزل عن إيجابه و سلبه، حيث الارادة الإلهية المحلقة على كل كائن هي قضية التوحيد الأفعالي، فقد يحاول الظالم كل محاولة له ممكنة للوصول الى حكم و اللّه يحول بينه و بين مغزاه، ام يحاول بعض المحاولات و اللّه لا يحول بينه و مغزاه، و كما يراه من الحكمة العالية.

و على أية حال ليس مالك الملك- كأصل- إلّا هو، و لا يؤتيه لأحد إلا من يشاءه، دون جبر و لا تفويض، فإنهما تنقيص لساحته و تقويض، فله الحكم في كل الحقول دون انعزالية تامة تفويضا، و لا ايجابية طامة جبرا، كما و يضل من يشاء و يهدي من يشاء و لا يظلمون نقيرا.

إنه‏ «مالِكَ الْمُلْكِ» أيا كان من الثلاثة بين تشريع و تكوين‏ «تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ» منهم في صالح الحكمة الربانية امتحانا بامتهان ام سواه، بإضفاء النعم عليهم، و إقرار الأموال الدثرة عندهم، و بما ترفدهم به من بنين و حفدة، و عديد و عدّة، و إلزاما لمن دونهم على طاعتهم متى أجابوا داعيك و اتبعوا أوامرك، و حين يعدلون عن نهج طاعتك و يفارقون سواء محجتك نزعت منهم الملك، بان تسلبهم ملابس نعمك و تجعل أموالهم و أحوالهم، دولتهم و دولتهم، غنما و نفلا لغيرهم من عبادك.

ذلك- و إيتاء الملك تشريعيا ككل يخص الصالحين فلا انتزاع له عنهم، اللهم إلا نقلة لملك الشّرعة عن قوم إلى آخرين بما بغوا و طغوا على صلاح رسلهم، كما انتقلت الشرعة الإلهية من بني إسرائيل الى بني إسماعيل، و إليكم نصا من التوراة من الأصل العبراني بهذا الصدد تصديقا للقرآن العظيم:

ففي سفر التكوين (49: 10): «لوء يا ثور شبط ميهوداه و محوقق ميبن رغلايو عدكي يا بوء شيلوه و لوء ييقهت عميم أو ثري لنفن عيروه ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 80

«لا تنهض عصى السلطنة من يهودا و لا الحكم من بين رجليه حتى يأتي شيلوه الذي يجتمع فيه كافة الأمم ...».

فانتهاض السلطة من يهودا هو انتقالها من الشعب الاسرائيلي إلى غيرهم، و هو هنا «شيلوه» من غير إسرائيل، إذ لو كان منهم لما قوبل بهم في انتهاض السلطة عنهم إليه‏ «1» و قد يندد بهم القرآن في ادعائهم الجوفاء ان النبوة منحصرة فيهم‏ «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً» (4: 53) «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى‏ ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً» (4: 54).

و

قد ورد في الأثر ان نبي اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) سأل ربه أن يجعل ملك فارس و الروم في أمته فأنزل اللّه هذه الآية «2» و ذلك بعد ما أمره ربه ان يسأله‏ «3»

و

يروى عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ان اسم اللّه الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية «4».

ذلك! فليكن الصالحون على مدار الزمن ظروفا لتحقيق مشيئة اللّه ان يؤتيهم الملك تحقيقا لشرعة اللّه في بلاد اللّه، دون تكاسل او تعاضل في أسبابه‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية).

(2) الدر المنثور 2: 14- أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن قتادة قال: ذكر لنا أن نبي اللّه (ص) ...

(3)

المصدر أخرج ابن المنذر عن الحسن قال‏ جاء جبرئيل إلى النبي (ص) فقال: يا محمد سل ربك قل اللّهم ... ثم جاء جبرئيل فقال يا محمد فسل ربك قل رب ادخلني مدخل صدق ... فسأل ربه بقول اللّه تعالى فأعطاه ذلك.

(4) المصدر أخرج الطبراني عن ابن عباس عن النبي (ص) قال: اسم اللّه ..

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 81

فهناك توفّر شروط القيادة روحيا و زمنيا فيمن يحق له ان يقود الأمة، يجب تحصيلها كفائيا بينهم، و هنا محاولات عاقلة صالحة لسائر المؤمنين في سلب القيادة عن الطالحين و إيصالها الى الصالحين، ففي نقض شرط او نقصه هنا او هناك الفرصة متاهة لمن يتربصون بهم دوائر السوء، لكي يجعلوا القيادة و حتى الروحية منها فريسة لهم بكل إدغال، و هنا ناقص الشرط او ناقضة عن تقصير متخلف عن مشيئة اللّه و شرعته، قائدا او مقودا.

نجد النقص و النقض في عصور أئمة الدين المعصومين إذ لم يناصرهم المؤمنون كما يحب فاحتلت مناصبهم فاختلت موازين القيادتين روحية و زمنية.

ثم نجدهما في زمن الغيبة لولي الأمر تقصيرا جاهلا او متجاهلا قاحلا من قبل الأمة، و من قبل من تحق لهم القيادة، مهما بان البون بين القواد و المقودين في أبعاد التقصير او القصور.

ثم الملك قد يكون عزا كما يرضاه اللّه، و هو نفسه ذل فيما لا يرضاه، كما الانحسار عن الملك ذل فيما يتوجب تقلده لصالح الأمة، و هو نفسه عز إذا لزم محاظير اكثر حظرا من تركه.

و كضابطة ثابتة في إيتاء الملك و سواه و إيتاء العز و سواه: الخير كله بيديه و الشر ليس إليه إذ: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» فبيده اصل الخير كله بيديه و الشر ليس إليه إذ: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ» فبيده اصل الخير في وصله و فصله، و ليس الشر إلا ممن يؤتاه مهما أمضاه ربنا تحقيقا للمحنة في دار البلية- تكوينا- و هو لا يرضاه تشريعا.

فمهما كان كل من الخير و الشر من عند اللّه، و لكن الخير منه و الشر من نفسك: «.. وَ إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً. ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَ ما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 82

وَ أَرْسَلْناكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَ كَفى‏ بِاللَّهِ شَهِيداً» (4: 79).

و من خيره في تدبيره امور الكون غير المختار كما يدبر الكائن المختار و في رجعة اخرى الى الآية نقول:

إن‏ «بِيَدِكَ الْخَيْرُ» تحلق الخير على كل أفعاله تعالى، إذنا في خير او شر و عدمه في خير او شر، فحين يريد فاعل تحقيق شره بما قدم له، و اللّه يعلم ما يريد و يكرهه، فهلّا يريد اللّه هنا سلبا و لا إيجابا و قد حرّمه؟ و هذا انعزال عن الربوبية! ام يريد سلبا و الشرير يحقق شره رغم ارادة اللّه؟ و هذا تغلب على ارادة اللّه! ام يريد إيجابا بعد ما اراده الشرير و قدم له ما أمكنه؟ و هذا هو الإيتاء الرباني لما حرّمه تشريعا، فلو انه أراد سلبه اضطر الشرير الى تركه و خرجت حياة التكليف عن دور الامتحان، فهذه الارادة الربانية- إذا- خير و ليست شرا.

نعم في دوران الأمر بين ارادة السلب و الإيجاب في الشر قضية الحكمة الربانية تقديم الأهم على المهم، فان كانت ارادة السلب أهم قدّمت على الإيجاب كما في نار ابراهيم، و ان كانت ارادة الإيجاب أهم قدمت على ارادة السلب كما في الأكثرية الساحقة من الشرور الشخصية، فانما يريد اللّه السلب في الشرور الجماعية التي فيها استئصال الحق باهله عن بكرته كما في قصة ابراهيم.

و لا يعني «الخير كله بيديك و الشر ليس إليك» انه لا يريد الشر و ان كانت ارادته خيرا، و انما هو الشر الذي هو يسببه دونما اختيار لأهله.

و فيما يسد عن الشر رغم توفر مقدماته الاختيارية، فقد يجازى الشرير حيث لم يكتف بالنية، فقد قدم ماله فيه امكانية، فليعاقب بما قدم مهما خف عقابه إذ لم يحصل شره!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 83

اجل‏ «بِيَدِكَ الْخَيْرُ» فليس منه الا الخير مهما كان عندنا شرا و إيلاما، فقد يمنع عن سلطة شريرة رغم توفر شروطها حفاظا على الأهم في صالح الحكمة الربانية، ام لا يمنع تحريرا لاختيار السوء و إملاء لصاحبه و آخر لآخرين قدموا له ام سكتوا ام لم يقصّروا، فكل الأفعال الشريرة لها واجهة شر هي شرارة الفاعل بعقيدته و نيته و عمليته، و واجهة خير هي تحقيق الاختيار و تعذيب المختار بسوئه و املاءه و من ثم إبلاء الآخرين.

و قد يأتي الشر خيرا مما في تركه كما قد يأتي الخير شرا مما في تركه، «لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ»!.

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ تُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ تُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ‏ 27.

آية الإيلاج هذه و نظائرها في سائر القرآن هي من أدلة كروية الأرض، فليست الآفاق لوقت واحد ليلا و لا نهارا، بل هي تقتسم إلى ليل بساعاته و نهار بساعاته و هما يتداخلان حسب مختلف الفصول كما يصلح في الحكمة العالية الربانية.

و هذه عبارة عبيرة لابقة لمحة عن كروية الأرض، ان ما ينقصه من النهار يزيده في الليل و ما ينقصه من الليل يزيده في النهار، و لفظ الإيلاج هو ابلغ الألفاظ تعبيرا عن ذلك التناقص لأنه يفيد إدخال كل واحد منها في الآخر بلطيف الممازجة و شديد الملابسة فيصبح جزء من الليل نهارا و آخر من النهار ليلا.

ذلك- و كما الإخراج للحي من الميت و للميت من الحي فاعلية حكيمة أخرى هي الأخرى من صالح التدبير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 84

و آية ثانية في متعاكس الإيلاج تشريع السماح في المعاقبة بالمثل: «ذلِكَ وَ مَنْ عاقَبَ بِمِثْلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ. ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ» (22: 61) تمثيلا للتشريع العدل بالتكوين العدل، إذ يولج ليل العذاب في نهار الحياة الظالمة، كما يولج نهار العذاب في ليل الحياة المظلومة.

و ثالثة تمثيلا للخلق و البعث بمتعاكس الإيلاج: «ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ. أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى‏ أَجَلٍ مُسَمًّى وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (31: 29).

فكما انه يولج الليل في النهار، كذلك يولج ليل الموت في نهار الحياة، و كما انه يولج النهار في الليل كذلك يولج نهار الحياة في ليل الممات، «ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ»! إذا فمتعاكس الإيلاج ينعكس- بطبيعة الحال- على واقع الحياة بعد الموت آجلا، كما هو في واقع التشريع قبل الموت عاجلا.

ذلك- و كما في إخراج الحي من الميت و إخراج الميت من الحي كشريطة تدار طول الحياة برهان لا مرد له على امكانية الإخراج الأول بعد الموت كما قبله، كإمكانية الإخراج الثاني واقعا ملموسا في عاجل الحياة.

ذلك و كما يخرج الكافر من المؤمن و المؤمن من الكافر «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 15- أخرج ابن مردويه من طريق عثمان النهدي عن سلمان الفارسي قال قال رسول اللّه (ص) لما خلق اللّه آدم عليه السلام أخرج ذريته فقبض قبضة بيمينه فقال: هؤلاء أهل الجنة و لا أبالي و قبض بالأخرى قبضة فجاء فيها كل ردي‏ء فقال: هؤلاء أهل النار و لا أبالي فخلط بعضهم ببعض فيخرج الكافر من المؤمن و يخرج المؤمن من الكافر فذلك قوله: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 85

كما و من إيلاج الليل في النهار حرمان اهل اللّه- أحيانا- عن السلطة الزمنية لتحقيق شرعة اللّه، و من إيلاج النهار في الليل إيتاء غير الآهلين السلطة الزمنية اماهيه، و هما من الإيتاء التكويني دون التشريعي.

كما و من إخراج الحي من الميت إخراج بلورة الايمان في دولة الكفر، و من إخراج الميت من الحي اخطاء السلطات الحقة فانتقالها الى اهل الباطل.

«وَ تَرْزُقُ مَنْ تَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ» في النشآت الثلاث، و ليس‏ «بِغَيْرِ حِسابٍ» فوضى جزاف، بل هو بحساب و تقدير عادل قاسط «وَ لا يُظْلَمُونَ نَقِيراً» فانه: «جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً» (78: 36).

فالحساب هو المحاسبة مصدر حاسب، و المحاسبة المنفية لا تناحر «عَطاءً حِساباً» فان حساب الحسابين مختلف.

فثابت الحساب هو الميزان العدل و الفضل في رزقه سبحانه، و ساقط الحساب هو الحدّ من فضل اللّه، إذ لا حد لفضله في مجالاته مهما حدّ عدله فيها حيث التجاوز عن العدل ظلم.

فرزقه بغير حساب لمن يشاء قد يعني عدم الموازنة بين الصالحات و المثوبات، و عدم الحد في المثوبات، و ترك الحساب لصغائر السيئات و ترك صغائر الحسنات، و ما أشبهها من حساب لا يناسب عميم فضله لأهله.

... لقد سبق‏ «تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَ تَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ ... بِيَدِكَ الْخَيْرُ» مما ينبهنا بواجب المحاولة الدائبة للحصول على حق الملك بفضل اللّه، و هنا يأتي واجب المفاصلة في اية ولاية بين كتلة الايمان و الكفر، و قد تختصران في‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ»:

فهالة الايمان تقتضي حالة بين السلب و الإيجاب في حقل الولاية كما في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 86

كافة الحقول، فعلى المؤمن مثلث السلب في ولاية الكفار، ثم مثلث الإيجاب في ولاية المؤمنين، و هما المعبر عنهما في حقل الفروع الدينية بالتولى و التبري، كلّ في كل الزوايا الثلاث إلا في حقل التقية و هي الحفاظ على أهم الواجبين.

و ليس فحسب المؤمن بل الإنسان أيا كان يعيش بين إيجابيات و سلبيات ثلاث، في نفسه و في عمله شخصيا او جماعيا، و على المؤمن تحقيق كلمة التوحيد إيجابا في مثلثه و سلبا في ثالوثه.

لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْ‏ءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ 28.

«الكافرون» هنا يعم ثالوث الكفر إلحادا و إشراكا و توحيدا كتابيا.

و الولاية المنهي عنها هنا هي مطلق الولاية ما صدقت، حبا و عمل الحب و قوله، و السلطة الكافرة، ثالوث منحوس من ولاية الكافرين يجمعها التحبب و التودد إليهم كيفما كان.

و الاتخاذ في الأصل هو القصد الى أخذ الشي‏ء و العزم عليه و التمسك به و الملازمة له كما «اتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا» (4: 25)- «لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً» (18: 21)- «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً» (19: 81): انقطاعا إليها و اقامة على عبادتها، ففلتة الولاية قد لا يشملها الاتخاذ حتى تخلّف‏ «فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْ‏ءٍ» فانها من اللمم و السيئات غير الكبيرة المكفّرة بترك الكبيرة:

«إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً».

فالمتخذون الكافرين اولياء من دون المؤمنين لا يؤمنون باللّه مهما ادعوه، فهم بين ملحد يوالي الكافرين و لا يوالي المؤمنين، او مشرك يواليهما مع بعض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 87

و اما المتفلت في ولاية للكافرين في لفظة قول ام فعل خارجين عن الاستثناء، فلا يشمله‏ «فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْ‏ءٍ».

ثم‏ «مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» تعني من دون توحيد الولاية لهم كما «من دون الله» في اتخاذ من سواه، فكما الإلحاد و الإشراك في ولاية اللّه محظور، كذلك هما في ولاية اهل اللّه محظور، فانها استمرار لولاية اللّه.

إذا فولاية الكفار محظورة في مثلثها على اية حال، توحيدا لولايتهم دون المؤمنين- و هو الحاد- فأنحس و أنكى، ام اشراكا لهم بالمؤمنين في ولايتهم، فما صدقت ولاية الكافرين اتخاذا لها فهي محظورة، إذ كما تجب ولاية اللّه الموحّدة دون إلحاد به فيها و لا اشراك، كذلك تجب- على هامشها- ولاية المؤمنين الموحدة، دون إلحاد بهم فيها و لا اشراك، فان ولاية المؤمنين من خلفيات ولاية اللّه، فلا تتخلف عن ولاية اللّه اشراكا فيها للكافرين باللّه.

فالمراد بالمنع هنا ليس ان يفردوا بالموالاة فلا تمنع موالاتهم معهم! بل هو المنع من اتخاذهم اولياء جملة و تفصيلا، كما اتخاذ من دون اللّه آلهة يعني ضمهم اليه في الألوهية.

و النهي بات في ثالوث المثنى، و هما توحيد الكفار في الولاية ام اشراكهم بالمؤمنين فيها على أية حال و ان كان قليلا ضئيلا، فان «لا يتخذ» تجتث كل دركات الولاية في ثالوثها.

«وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْ‏ءٍ» كما المشرك باللّه و الملحد في اللّه ليس من اللّه في شي‏ء، «في شي‏ء» من مربع الولاية حبا و عمل الحب و قوله و سلطانه، إذ لا يرضى من عباده إلا توحيد الولاية له لا لسواه، و على هامشه اهل اللّه ف‏ «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ» (117)- «لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 88

بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كانُوا آباءَهُمْ أَوْ أَبْناءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ...»

(58: 22)- «وَ إِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى‏ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (6: 68)- «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصارى‏ أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ...» (5: 51).

تلك هي المفاصلة القاطعة دون أية مواصلة في ولاية بين كتلة الايمان و الكفر، لا شذوذ عنها و لا استثناء فيها على أية حال، و الولاية حبا و قولا و عملا و سلطة زمنية ام روحية، موحّدة في اهل اللّه محبورة، محظورة في غير اهل اللّه و لا سيما قلبيا و سلطة روحية فإنهما لا يلائمان الايمان على اية حال، و ليست التقية الا في الثلاثة الوسطى على اختلافها في الحظر.

«إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً» و مع العلم ان التقية لا موقع لها و لا دور إلا في المظاهر، نعلم أن الاستثناء محصور فيها محسور عن الباطن، و هو المحبة القلبية و الاعتقاد في ولايتهم و عقد القلب عليها، فهي إذا تقية اللسان، لا ولاء القلب بل و لا ولاء العمل إلّا عند الاضطرار.

فكما يستثنى مورد الإكراه في الكفر و ليس إلا ظاهره: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ» (16: 106) كذلك التقية في ولاية الكفار ليست إلّا فيما سوى القلب اكراها على المظاهر و قلبه مطمئن بولاية موحدة للمؤمنين.

فقد بقيت عند التقية الولاية الظاهرة إظهارا للحب قولا او عملا ثم ولاية السلطة، و الاستثناء ظاهر في أولاهما، منقسما الى تقية الخوف على اية حال و تقية الحب جذبا لهم الى الايمان فيمن يرجى منهم، إذ: «لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 89

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّما يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ أَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ وَ ظاهَرُوا عَلى‏ إِخْراجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (60: 9).

فما أمكن جذب الكفار إلى الإيمان بتوليهم في ظاهر الحال و عشرة الأعمال، فهو من تكاليف داعية الايمان و قد يجب، و كما لهم كمؤلفة قلوبهم حق من الزكاة الواجبة مهما كانوا أغنياء، كما و يسلّم على الكفار بنفس السبب كما سلم ابراهيم (عليه السلام) على آزر من قبل ان يتبين له انه من اصحاب الجحيم.

و عند الإياس منهم فلا ولاية إلا عند تقية الخوف على ما هو أهم من محظور الولاية نفسا و عرضا و ما أشبه.

و اما ولاية السلطة و لا سيما الروحية فالتقية فيها أضيق من الأخرى، حيث السلطة الكافرة قاضية على خطوط الايمان و خيوطه مهما كانت بصورة تدريجية، فلا تقية فيها على اية حال، اللهم إلا إذا ترجحت ميزانية الحفاظ على النفس و النفيس على وجوب معارضة السلطة الكافرة، و حرمة الإبقاء عليها تظاهرا بالولاء، و لا دور لهذه الرجاحة إلا في غربة غريبة للمؤمن، حيث لا يجد ناصرا له في دولة الكفر، و لا سبيل له للقضاء عليها او معارضتها عمليا و قوليا، فقد يتربص المؤمن في دولة الكفر- حين لا يجد حيلة لترك الموالاة، و لا وسيلة للفرار الى دولة أخرى- يتربص نظرة ان يأتي دور المعارضة على السلطة و القضاء عليها «1» و أية ولاية مسموحة بالنسبة للكافرين هي مقدرة بقدر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). للوقوف على تفصيل البحث حول موارد التقية راجع تفسير الإكراه‏ «إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 90

الضرورة في تقية الحب و الخوف، دون استرسال فيها كما في المؤمنين حيث الضرورات تقدر بقدرها.

«وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» فحذار حذار من ولاية الكفار كما اتخاذ من دون اللّه آلهة، حيث الولاية هنا هي من فروع الإلحاد في اللّه و الإشراك باللّه، و المصير الى اللّه يقتضي الصمود على ولاية اللّه و ولاية اهل اللّه‏ «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً»، و ترى كيف‏ «يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ»؟ و اللّه نفسه لا يتحذر لأنه عدل كريم!.

إنه يحذركم نفسه لمكانة عدله، فليس عذابه إلا من خلفيات عدله تعالى، و علّ «نفسه» دون «عقابه» قصد الى خاصة عقابه الذي يأتي من قبله و يصدر عن امره، دون الذي يجريه على ايدي خلقه، حيث العقاب على الوجه الأول أبلغ ألما و أشد مضضا.

و نفس اللّه هي ذاته سبحانه دون شي‏ء من كيانه إذ لا يتجزأ، فهي من إضافة الكائن إلى نفسه، و لا تأتي للّه إلّا مضافة دون إفراد.

هذا- و من الولاية الظاهرة للكفار مخالطتهم التي تجركم إلى أهواءهم شئتم أم أبيتم، مخالطة قولية أو عملية هي الولاية الوسطى بعد المحبة و قبل السلطة الكافرة، التي كانت مجالة للتقية.

فانها في غير تقية الخوف ككل، و غير تقية المحبة- في مجالاتها غير المحظورة- محظورة و قد نزلت فيما نزلت- بشأن الحظر عنها «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 16- أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: كان الحجاج بن عمر و حليف كعب بن الأشرف و ابن أبي الحقيق و قيس ابن زيد قد بطنوا بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم فقال رفاعة بن المنذر و عبد اللّه بن جبير و سعد بن خيثمة لأولئك النفر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 91

و لأن التقية هي وقاية الأهم بتفدية المهم فليراع فيها الأهم من المهم دونما فوضى جزاف، ان يتقى بأس الكافر في خطر دخولا في الأخطر، فانما التعرض للهلاك حفاظا على ادنى منه محظورا هو خلاف التقية المحبورة «1».

فمن الايمان حفظ الأوجب في الايمان تفدية للواجب فيه كضابطة ايمانية صارمة، إذا ف‏

«لا ايمان لمن لا تقية له» «2»

كما و ان‏

«التقية في كل شي‏ء يضطر اليه ابن آدم فقد أحله الله له» «3»

و

«التقية ترس الله بينه و بين خلقه» «4»

و لا ترس إلا في المعركة ففي معركة الصدام بين الأهم و المهم دور للتقية دائر حفاظا على الأهم، و لا بد- إذا- من تمييز الأهم في شرعة اللّه اجتهادا او تقليدا صالحا.

فالتقية قد تكون واجبة حينما يحافظ بها على الأهم المفروض، أم محرمة حينما يهدر الأهم فيصبح المرفوض كتقية السحرة من فرعون الطاغية، و ثالثة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود و احذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم فأبى أولئك النفر فأنزل اللّه فيهم‏ «لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ ..».

و فيه أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال: نهى اللّه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار و يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلّا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين أولياء فيظهرون لهم اللطف و يخالفونهم في الدين و ذلك قوله: إلّا أن تتقوا منهم تقاة.

(1).

نور الثقلين 1: 325 في الإحتجاج للطبرسي عن أمير المؤمنين (ع) حديث طويل يقول فيه لبعض اليونانيين: و آمرك أن تستعمل التقية في دينك فإن اللّه يقول‏ «لا يَتَّخِذِ ... إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً»- و إياك ثم إياك أن تتعرض للهلاك و أن تترك التقية التي أمرتك بها فإنك شائط بدمك و دماء إخوانك، معرّض لنعمك و نعمهم للزوال، مذل لهم في أيدى أعداء الدين و قد أمرك بإعزازهم.

(2)

المصدر في تفسير العياشي عن الحسين بن زيد بن علي بن جعفر عن محمد عن أبيه عليهم السلام قال: كان رسول اللّه (ص) يقول: لا إيمان ... و يقول قال اللّه: «إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً».

(3) المصدر عن جماعة من أصحاب الباقر (ع) سمعناه يقول: «التقية ...».

(4) المصدر عن حريز عن أبي عبد اللّه (ع) قال: ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 92

تتخير بين المحظورين و هما المتساويان و قد فرض أحدهما عليك، و رابعة يترجح احد المحظورين برجاحة غير مفروضة.

«إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاةً» لا تعني إلا تقاة الأهم تركا للمهم الواجب و هو ترك توليهم، إحرازا للأهم الأوجب و هو ترك النفس إذا كانت أنفس من الواجب الآخر.

قُلْ إِنْ تُخْفُوا ما فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (29).

اجل- و انه لا فارق في علم اللّه بين ما تخفونه في صدوركم و ما تبدونه، «فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَ أَخْفى‏» بل و ككل‏ «وَ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ».

ذلك، و انه إمعان في التحذير و التهديد و استجاشة الخشية و اتقاء التعرض للنقمة التي يساندها العلم و القدرة، فلا ناصر منها و لا عاذر، و إلى حاذر العذاب في تجسد الأعمال:

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَ ما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَها وَ بَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ (30).

«ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ» علّها تعم مربع العقائد و النيات و الأعمال و الأقوال، إذ أفرد العمل بالذكر، حيث العقيدة و النية هما عمل الجنان و الآخران هما عمل الأركان.

و علّ «ما عملت» على اختصاصها بعمل الأركان تطوي العقيدة و النية الصالحتين، حيث العمل قولا او فعلا ليس خيرا إلّا بصالح العقيدة و النية.

ثم الوجدان هناك كما هنا هو وجدان نفس العمل بصورته و سيرته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 93

و صوته، المسجلة في مربعة المسجلات: أعضاء و أرضا و ملائكة و شهداء، كما فصلناه في آية الأسرى و الزلزال و نظائرهما.

و كذلك‏ «عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ» و لكنما الوجدان في خيره و شره لا يحلّق على كل خير و شرّ، و انما الخير الباقي غير الحابط، و الشر الباقي غير المكفر، كما استثنتها آيات التكفير و الغفر و الإحباط.

ثم الخير هو بنفسه ثواب كما الشر بنفسه عقاب، «إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» حيث تبرز ملكوت الخير و الشر، مهما كان جزاء الخير فضلا و جزاء الشر عدلا.

و لماذا «تَوَدُّ .. أَمَداً بَعِيداً» في السوء ترجيا للمفاصلة الزمنية البعيدة، دون المفاصلة الواقعية و هي هي المخيفة قريبة ام بعيدة؟.

لأنه لا يجد هناك مفرا عما عمل من سوء حيث يراه لزامه على اية حال، فيترجى- لأقل تقدير- أمدا بعيدا، يرتاح فيه عن بأسه.

فالعمل السوء كالقرين السوء لا مفر عنه و لا مفلت إلا ترجى البعد عنه لفترة كما: «نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ‏ ... حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ» (43: 38).

و عل‏ «يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ» هنا المكررة بعد الأولى، تعني في كلّ معناه، فالاولى تحذير عن موالات الكفار، و الثانية تحذير عن كل الشرور، إضافة الى ما تحمله الثاني من شديد الحذر حين تبرز الأعمال كما عملت فلا مجال لناكر او عاذر، و قد حذرت الاولى عن و بال الاولى.

ثم‏ «وَ اللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبادِ» تزويد للخيرات في فضل الجزاء، و رأفة في عدله، انه يعاقب اقل ما تستحقه العصاة، لحد لا يستوجب الظلم بحق المتقين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 94

و من صالح الأعمال و ركيزتها اتباع الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) على مدار حب اللّه:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (32).

و

«هل الدين إلا الحب» «1»

فان الدين العقيدة و الطاعة هو خلفية واقعية لواقع الحب، حيث الحب- و مكانه القلب- ليس دعوى باللسان، و لا هياما بالوجدان، إلا بما يظهر من الجنان على الأركان، و الا فهو حب جاهل، ام كاذب قاحل.

ان حب اللّه في أية درجة من درجاته لا دور له إلّا بآثاره الظاهرة كما الباطنة، و هي اتباع اللّه، و لا موقع لاتباع اللّه إلا باتباع رسول اللّه، إذ ليس اللّه ليوحي إلى محبيه إلا الرسل، فانما يحب اللّه من يحبه إذا اتبع رسوله الحامل لشروطات حبه‏ «فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ»

«من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» «2».

و إذا كانت لكم ذنوب‏ «وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» بذلك الإتباع‏ «وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» يغفر سيئاتكم إذا تركتم الكبائر، و من اكبر الكبائر التولي عن رسول اللّه مع الادعاء انك تحب اللّه: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ».

فاتباع رسول اللّه على ضوء حب اللّه هو الإيمان، و التولي عن رسول اللّه و ان كنت تدعي حب اللّه هو من الكفر «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ» في محكم كتابه و فيما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 326 في كتاب الخصال عن سعيد بن يسار قال قال أبو عبد اللّه (ع): هل الدين إلّا الحب إن اللّه تعالى يقول: «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ...».

(2) في ظلال القرآن 1: 570.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 95

امر من طاعة رسوله «و الرسول» رسالة من اللّه «فان تولوا» عن طاعة اللّه و رسوله، او طاعة اللّه او طاعة رسوله‏ «فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ».

هنا «يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» لا تتعلق إلا ب «فاتبعوني» فالحب الفاضي عن اتباع الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) هو حب لا يتبع حب اللّه و غفرانه، فانه تعالى يحب من يحبه إذا اتبع مرضاته، بل و ليس الحب إلا في اتباع مرضاته، و الحب الفارغ عن مرضاته فارغ عن حبه و مرضاته، بل هو مجرد ادعاء جوفاء لا تحمل من الواقعية شطرا إلّا الدعوى.

و إذا كان حب اللّه لا يفيد إلا باتباع شرعته، فبأحرى لا يفيد حب الرسول و ذويه إلا بنفس الإتباع، و «حب علي حسنة لا يضر معها سيئة» لا تعني- إن صحت- انه الحب فقط، بل لا تأتي معها سيئة حتى تضر، او لا تضر معها الصغائر لأنه من كبائر الحسنات كما «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً».

و

قد يروى عن الصادق (عليه السلام) قوله: ما أحبّ اللّه من عصاه ثم تمثل بقوله:

تعصي الإله و أنت تظهر حبه\* هذا لعمري في الفعال بديع لو كان حبك صادقا لأطعته\* إن المحب لمن يحب مطيع‏ «1»

فالحب من خلفيات الإيمان، و الطاعة من خلفيات الحب، مثلث لا تفارق في زواياها و حواياها إلّا فصلا عن صادق الايمان.

فالناس في حب اللّه على ضروب شتى.

1 منهم من يؤمن به و لا يحبه نتيجة الايمان.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في المعاني عنه (ع) و في الكافي عنه (ع) في حديث قال: و من سره أن يعلم أن اللّه يحبه فليعمل بطاعة اللّه و ليتبعنا ألم يسمع قول اللّه عز و جل لنبيه‏ «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ ...» و فيه عنه (ع) لا قول إلّا بعمل و لا قول و لا عمل إلّا بنية و لا قول و لا عمل و لا نية إلّا باصابة السنة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 96

2 و منهم من يحبه كما يؤمن به و لا يطيعه.

3 و منهم من يطيعه على حبه و الايمان به و لكنه على خلاف طاعة رسوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)، و هؤلاء هم شرع سواء في ان اللّه لا يحبهم و لا يغفر لهم سيئاتهم.

4 و منهم من يطيع رسوله على حب اللّه و الايمان به، تبنّيا لحياته على تلك الطاعة، و هم- على درجاتهم- ممن يحبهم اللّه و يغفر لهم سيئاتهم.

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 33 الى 44]

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35) فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى‏ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى‏ وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (36) فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (37)

هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (38) فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى‏ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39) قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (40) قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (41) وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفاكِ عَلى‏ نِساءِ الْعالَمِينَ (42)

يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 97

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 98

«آدم» هنا و في سائر القرآن هو الوالد الاوّل من هذا النسل الأخير، كما هو لائح في سائر القرآن دون ريب حيث جي‏ء باسمه الخاص هذا (35) مرة.

و ترى اصطفاءه يلمح انه كان معه أوادم آخرون، فاصطفاه اللّه من بينهم رسولا، فليس- إذا- هو الوالد الاوّل إذ قد يكون هو من مواليدهم و هذا النسل الانساني متنسل مقسما بينهم؟ و ليست قضية اصطفاءه ذلك الهارف الخارف ان هناك كان أوادم آخرون لم يكن هو والدهم، حيث الاصطفاء المطلق و في حقل الرسالة كما هنا لا يقتضي المجانسة بين جمع، بل يعني اصطفاءه من بين سائر الخليقة ليكون حامل لواء الدعوة الربانية بين المكلفين! حيث الرسالة الى العالمين خاصة بالإنس أصالة مهما كانت في الجن أيضا كفروع للرسالة الإنسانية الى قبيلهم قبل اختتام الوحي.

إذا فلا بد في الاصطفاء الرسالي من اجتباء الأصفى بين عامة المكلفين، حتى يصلح الرسول المصطفى لحمل الرسالة الى العالمين أجمعين.

فاللّه اصطفاه من بين قرينيه زوجه و إبليس و ذريته الابالسة و سائر الجن حيث‏ «الْجَانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ» (15: 27) و مهما كان الاصطفاء بحاجة إلى عديد، فقد يكفي له اثنان يصطفى أحدهما على الآخر، فضلا عن آخرين- سوى زوجه- من قبيل الجن ككل.

و ليس اصطفاءه حين خلقه حتى يقال فكيف ذلك الاصطفاء و لما يخلق زوجه؟ و انما كان بعد عصيانه و هبوطه و توبته و توبة اللّه عليه: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» (40: 122) و اجتبائه هو اصطفاءه و هو مرحلة تالية لعصيانه فتوبة اللّه عليه ليتوب و توبته الى اللّه و توبة ثانية من اللّه عليه قبولا لتوبته ثم هدايته الى ما قبل عصيانه من طهارته ثم يأتي دور اجتبائه و اصطفائه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 328 في عيون الأخبار في مجلس الرضا (ع) عند المأمون مع أهل الملل و المقالات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 99

و هكذا يجاب عن غائلة العصيان في الرسول المعصوم، انه اصطفي رسولا بعد توبته النصوح، الكاملة الكافلة لتركه على طول خط الحياة الرسالية، كما فصلناه في طه و البقرة، و هنا الاصطفاء الاوّل لآدم يعني الاولية الزمنية، لا في الرتبة.

ثم‏ «نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ» المصطفين‏ «عَلَى الْعالَمِينَ» تشمل كافة المرسلين و النبيين، فنوح- و هو أول اولي العزم- اوّل من دارت عليه رحى ولاية العزم الرسالية.

«وَ آلَ إِبْراهِيمَ» تعني ابراهيم و آله الابراهيميين رسلا و نبيين، منذ إسماعيل إلى خاتم النبيين و عترته المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين‏ «1» و منذ إسحاق و يعقوب و سائر الرسل الاسرائيلين (عليهم السلام)، و هنا يختص‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و ما أجاب به علي بن محمد بن الجهم في عصمة الأنبياء صلوات اللّه عليهم حديث طويل يقول فيه الرضا (ع) أما قوله عز و جل في آدم‏ «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏» فإن اللّه عز و جل خلق آدم حجة في أرضه و خليفة في بلاده، لم يخلقه للجنة و كانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض و عصمته يجب أن تكون في الأرض ليتم مقادير أمر اللّه عز و جل، فلما أهبط إلى الأرض و جعل حجة و خليفة عصم بقوله عز و جل‏ «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ ...».

و

فيه في باب مجلس آخر للرضا (ع) عند المأمون في عصمة الأنبياء حديث طويل و فيه يقول: و كان ذلك من آدم قبل النبوة و لم يكن ذلك بذنب كثير استحق به دخول النار و إنما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم فلما اجتباه اللّه تعالى و جعله نبيا كان معصوما لا يذنب صغيرة و لا كبيرة قال اللّه تعالى: «وَ عَصى‏ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى‏. ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَ هَدى‏» و قال عز و جل: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ ...».

(1). الدر المنثور 2: 17- أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله‏ «وَ آلَ إِبْراهِيمَ» قال: هم المؤمنون من آل إبراهيم و آل عمران و آل ياسين و آل محمد (ص)، و فيه عن قتادة قال: ذكر اللّه أهل بيتين صالحين و رجلين صالحين ففضلهم على العالمين فكان محمد (ص) من آل إبراهيم (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 100

بالذكر «آل عمران» اعتبارا بمريم العذراء الطاهرة المعصومة و ابنها المسيح (عليهما السلام) حيث المسرح هنا في سورة آل عمران سرد القصص الفصل لآل عمران.

فلا يعني عدم التصريح بمحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) هنا تسريحا له عن موقف الاصطفاء الخاص، كما و لم يصرح بإسحاق و يعقوب و موسى و سائر الرسل الاسرائيلين، و موسى هو رأس الزاوية الرسالية بينهم، و قد يأتي في نفس السورة التصريح بان محمدا (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إمام النبيين أجمعين،- مهما لم يكن أمامهم- في آية الميثاق.

«ذرية» انتشأ «بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ» نشأة الروح القدسية مع نشأة الجسم‏ «نُورٌ عَلى‏ نُورٍ» «1» فليست نشأة الجسم- فقط- عن جسم بالذي يؤهل الناشئ للقدسية الروحية التي هي في المنشإ «وَ اللَّهُ سَمِيعٌ» مقالات السائلين و سواهم «عليم» بحالاتهم و مؤهلاتهم فينشئ الذرية الرسالية عن الرسل.

هذا- و الى نظرة تفصيلية في آية الاصطفاء نقول: الاصطفاء هو أخذ صفوة الشي‏ء تخليصا له عما يكدره، و الصفوة الربانية هي العصمة لا محالة للرسل أمن سواهم ممن يخلفهم في حمل الدعوة الرسالية المعصومة العاصمة لها عن الانزلاق و الانحياق.

فقد يشمل الاصطفاء هنا آل محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) المعصومين و هم ورثة الكتاب بعده، المصطفون في نص آخر:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج ابن سعد و ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عليهم السلام أن عليا (ع) قال للحسن (ع): قم فأخطب الناس، قال: إني أهابك أن أخطب و أنا أراك فتغيب عنه حيث يسمع كلامه و لا يراه فقام الحسن فحمد اللّه و أثنى عليه و تكلم ثم نزل فقال علي (ع) «ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 101

«وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ. ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» (35: 30).

و اصطفاء آدم و نوح دون آل آدم و آل نوح- و بعدهما آل ابراهيم و آل عمران- مما يلمح باختصاصه بهما دون آلهما، إذا فلا نبي من آل آدم و نوح ام لا مصطفى منهما، و هناك شيث و هابيل و إدريس؟.

قد يعني الاصطفاء قمته في كل دور رسالي، فآدم نفسه هو المصطفى في الدور الاول الرسالي ككل ثم النبيون بينه و بين نوح كادريس لم يكونوا من آله مهما كانوا من ذريته.

و لكن إدريس من آله كما محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) من آل ابراهيم، و عدم ذكر إدريس شخصيا و لا ضمنيا في آل آدم لا يدل على خساسة شأنه و له خصاصة النبوة السامية أعلى من آدم‏ «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا».

و علّ عدم ذكره كما لم يذكر محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و سائر النبيين لان المقام مقام ذكر آل عمران عرضا عريضا لقصة مريم و عيسى (عليهما السلام)، و لذلك طوي عن ذكر إسحاق و يعقوب و موسى (عليهم السلام).

كما و ان الآل لا يذكر لشخص واحد، فآل آدم ليس ليعني خصوص إدريس ام آدم و إدريس، و لم يأهل لذلك الاصطفاء غير إدريس من ذرية آدم (عليهم السلام).

اجل- و لأن وراثة النبوة المصطفاة ليست من وراثة الدم، إنما هي وراثة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 102

العقيدة مهما حلت في وراثة الدم‏ «ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ» في الوراثتين و اهمهما الثانية.

و نوح هو المصطفى في الدور الاوّل من ولاية العزم، و لم يرسل احد من ولده الخصوص.

ثم الآل لغويا كما يعني أخصّاء الشخص، كذلك شخصه اعتبارا بكونه عمادا لأخصائه، ف «آل كل شي‏ء شخصه» و «الخشب الذي يعمد عليه الخيمة» و «آل الجبل أطرافه».

إذا «آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ» هما شخص ابراهيم و عمران عمودين لخيمة الأخصاء، و قد جاء بجمع المعنى في الذكر الحكيم كال ياسين- آل موسى- آل هارون- آل يعقوب- آل لوط و آل فرعون، عناية إلى الخيمة بعمودها، دون الخيمة بلا عمود، و لا العمود بلا خيمة.

ثم و لا يختص الآل: الإخصاء، بالاخصاء في النسب، فعلي (عليه السلام) هو من آل محمد و أفضلهم و ليس في النسب، و سائر ولد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) سوى الصديقة الطاهرة هم من آله بواسطتها «1» و «آل فرعون»- و لم يكن له ولد- هو من صارم الدليل على عدم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 329 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر (ع) حديث طويل يقول فيه: فلما قضى محمد (ص) نبوته و استكمل أيامه أوحى اللّه عز و جل إليه أن يا محمد قد قضيت نبوتك و استكملت أيامك فاجعل العلم الذي عندك و الإيمان و الاسم الأكبر و ميراث العلم و آثار علم النبوة عند علي بن أبي طالب (ع) فإنه لم أقطع العلم و الإيمان و الاسم الأكبر و ميراث العلم و آثار علم النبوة من العقب من ذريتك كما لم أقطعها من بيوتات الأنبياء الذين كانوا بينك و بيني و بين أبيك آدم و ذلك قوله عز و جل‏ «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 103

اختصاص الآل باخصاء النسل.

و هنا «آل ابراهيم» قد يشمل كافة الأنبياء و سائر المعصومين الابراهيميين، حيث الكل كانوا من نسل ابراهيم منذ إسماعيل و إسحاق و الى خاتم النبيين و عترته المعصومين، و لا يعنى اختصاص «آل عمران» بعد «آل ابراهيم» إلّا سردا طويلا للعمرانيين: مريم و المسيح (عليهما السلام).

و لقد اختص آل محمد (عليهم السلام) من بين آل ابراهيم بذكر خاص في أخلص دعاءه و أخصه: «وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْماعِيلُ‏ ...

رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ...» (3: 129).

ثم اصطفاء آدم (عليه السلام) من براهين رسالته كما «ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ» و «فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً» تساندان منزلته الرسالية.

و هل يشمل «آل عمران» آلين لعمرانين، عمران أبي موسى و عمران أبي مريم؟ قد لا يعني إلا الثاني، إذ لم يأت في القرآن- و لا مرة يتيمة- ذكر من أبي موسى، ثم و بينه و بين أبي مريم (1800) سنة، و لا تصح عناية الجنس من عمران، الخاص بهما، حيث العبارة الصالحة له «آل عمرانين» و الا لشمل آل كل عمران في العالمين.

هذا- و لا سيما ان الآية التالية تخص آل عمران أبي مريم: «إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ ..» فلا دور- إذا- لآل عمران أبي موسى هنا، على انه لم يرسل احد من ولد موسى و لا آله إلا هارون (عليه السلام).

ذلك! فلم يكن لذكر محمد و آله (عليهم السلام) هنا دور خاص مهما كانوا هم المدار في كل الأدوار، فلا موقع- إذا- لمختلق الأحاديث القائلة ان «آل محمد» أسقطت عن الآية «1» ام ابدل عنها ب «آل فرعون» «2» و انما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في المجمع و في قرائة أهل البيت «و آل محمد على العالمين» و قالوا أيضا: إن آل إبراهيم هم آل محمد الذين هم أهله، أقول: القالة الثانية تصدق تأويل الأولى أنها تعني التأويل، دون تحريف النقص في لفظ الآية.

و

في نور الثقلين 1: 331 عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللّه (ع) قال‏ قلت له: ما الحجة في كتاب اللّه أن آل محمد هم أهل بيته؟ قال: قول اللّه تبارك و تعالى: إن اللّه اصطفى آدم و نوحا و آل إبراهيم و آل عمران و آل محمد- هكذا نزلت- على العالمين ...

أقول: قد يعني نزول التأويل دون التنزيل.

و

القمي عن الباقر (ع) فأسقطوا آل محمد من الكتاب.

و

في تفسير البرهان 1: 279 عن أيوب قال‏ سمعني أبو عبد اللّه (ع) و أنا أقرء «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ» فقال لي: و آل محمد كانت فمحوها و تركوا آل إبراهيم و آل عمران.

و فيه عن تفسير الثعلبي رفعه إلى أبي وائل قال قرأت في مصحف ابن مسعود «.. و آل محمد على العالمين».

(2)

في تفسير البرهان 1: 278

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 104

الصحيح هو نص الآية و على غرارها و قرارها رواية ثالثة «1» هي المصدّقة لموافقة القرآن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عن هشام بن سالم قال‏ سألت أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ» فقال: هو آل إبراهيم و آل محمد على العالمين فوضعوا اسما مكان اسم.

(1).

المصدر في أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي عبد اللّه (ع) قال قال محمد بن أشعث بن قيس الكندي للحسين (ع) يا حسين بن فاطمة أية حرمة لك من رسول اللّه (ص) ليست لغيرك؟ فتلا الحسين (ع) هذه الآية إن اللّه اصطفى آدم و نوحا و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض .. قال: «و الله إن محمدا لمن آل إبراهيم و العترة الهادية لمن آل محمد ...».

و

في تفسير البرهان 1: 277 بسند متصل عن ابان بن الصلت قال: حضر الرضا (ع) مجلس المأمون و قد اجتمع إليه في مجلسه جماعة من أهل العراق و خراسان ... قال المأمون هل فضل العترة على سائر الأمة؟ فقال أبو الحسن (ع) إن اللّه عز و جل أبان فضل العترة على سائر الناس في محكم كتابه فقال المأمون و أين ذلك من كتاب اللّه؟ فقال الرضا (ع) في قوله عز و جل‏ «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِيمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ»، قال: يعني أن العترة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 105

و قد تؤول الأولى بإسقاط التأويل، ان جماعة من المحرفين الكلم عن مواضعه اسقطوا تأويل آل ابراهيم عن آل محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و هم أفضل آله.

و كذلك الثانية انهم فضلوا آل عمران على آل محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) لأنهم المذكورون هنا دونهم.

و الاصطفاء على العالمين درجات أدناها عالمي زمان المصطفى كما في آدم و أوسطها عالمي دور رسالته كما لنوح و ابراهيم و موسى و عيسى (عليهم السلام)، و أعلاها عالمي كل زمان كما في محمد المصطفى و آله المعصومين صلوات اللّه عليهم أجمعين.

ذلك- و لأن «العالمين» الطليقة تشمل كل الكائنات العاقلة في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، فالاصطفاء المحمدي الطليق يحلق عليهم كلهم، كما ان الاصطفاء الخاص بعالمي زمن آدم و نوح و آل ابراهيم و آل عمران يشمل مثلث الإنس و الجن و من لا نعرفهم تماما.

إِذْ قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35).

في «عمران» معاكسة النقل بين القرآن- حيث يعنيه أبا مريم- و بين التوراة إذ تعنيه أبا موسى: عمرام بمعنى قوم اللّه- ابو موسى‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

داخلون في آل إبراهيم لأن رسول اللّه (ص) من ولد إبراهيم و هو دعوة إبراهيم، و فيه عن الحجة (ع) لما يقوم الاستدلال بالآية كماهيه‏ و مثله رواه العياشي عن سدير عن أبي جعفر عليهما السلام.

هذا- و مجموع الأحاديث الموافقة لنص الآية الآية أحدى عشر حديثا، و في أربعة إضافة آل محمد و في واحد تبديل آل محمد بآل إبراهيم، و الأولى هي المصدقة و لو كانت أقل عددا و يرد إلّا ما خالف الآية حيث الأصل هو القرآن المتواتر الموجود.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 106

(الخروج 6: 18- 20) و تبديل الميم بالواو و هو من قضايا التعريب.

و لقد حمل هذا جماعة من المبشرين الكنسيين الى تزييف عمران القرآن انه اخطأ (1800) سنة! و ما اجهلهم إذ زعموا اختصاص «عمران» في تأريخ الإنسان بابي موسى، فلا يحق لأبي مريم او سواه ان يسمى عمران، لا لشي‏ء إلّا أن عمرام التوراة هو ابو موسى.

«قالَتِ امْرَأَتُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً» إذ زعمت ان ما في بطنها ذكر يصح تحرره لخدمة بيت اللّه دون خروج عنه و علها وعدت بذكر «1» او علّها نذرته هكذا ان كان ذكرا لكي يرزقها اللّه إياه، و الظاهر هو الاول لمكان الإطلاق و تؤيده الرواية.

و مما يعنيه ذلك التحرر المنذور هو التحرر عن حقوق الأم المعيشية، ثم التحرر عن كل عملية سوى خدمة بيت اللّه، مما يدل على ان للام على ولدها حقّ يجوز التنازل عنه لحق أولى بنذر و سواه.

و لان الأب او الجد هما الاولى بالولد- مهما كان للام عليه حق- فقضية التحرر المطلق هنا انها كانت منفردة في هذه الولاية لفقد الأب و الجد، ام كانت هي مأذونة من قبل الولي الأولى في نذرها لمطلق التحرر، ام لا يشترط في نذر الام اذن الأب مهما اشترط عدم منعه و لكنه لا يجوز له منعها عما يحل و لا سيما ذلك الحل الطيب لبيت اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 334 عن الكافي عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إن اللّه أوحى إلى عمران إني واهب لك ذكرا سويا مباركا يبرئ الأكمه الأبرص و يحيي الموتى بإذن اللّه و جاعله رسولا إلى بني إسرائيل فحدث عمران امرأته حنّة بذلك و هي أم مريم فلما حملت كان حملها عند نفسها غلام فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى و ليس الذكر كالأنثى و لا تكون البنت رسولا يقول اللّه‏ «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ» فلما وهب اللّه لمريم عيسى كان هو الذي بشر به عمران و وعده إياه، فإذا قلنا في الرجل منا شيئا فكان في ولده أم ولد ولده فلا تنكروا ذلك.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 107

فعلى اية حال انها نذرت هكذا مما يدل على صحة و نفاذ هكذا نذر بحق الولد شرط الحفاظ على حق الولي الاولى- ان كان- و كذلك صالح الولد و لا أصلح له من خدمة اللّه.

«فَتَقَبَّلْ مِنِّي» ذلك النذر، تقبلا لتحرره لك‏ «إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ» الدعاء «العليم» بصلاحيات و حاجات العباد.

اجل «محررا» و ما ادراك ما ذلك التحرر؟ انه خروج عن رقية الناس إلى رقية إله الناس فهو- إذا- تحرر عما سوى اللّه‏

«و المحرر للمسجد لا يخرج منه أبدا» «1».

و النذر لغويا هو الخوف كما الإنذار هو الإخافة، إذا فهو الخوف من اللّه إمّا شكرا للّه أن توجب على نفسك امرا للّه محبوبا لدى اللّه استزادة في العبودية كما فعلته امرأة عمران دونما شرط على اللّه، و مثلها مريم‏ «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً» (19: 26) حيث لم تشترطا على اللّه امرا في نذرهما للّه و توافقه صحاح عدة «2» و الموثق المخالف غير موثق او مأول‏ «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 332 عن أبي جعفر عليهما السلام قال: إن امرأة عمران نذرت ما في بطنها محررا قال: و المحرر ..

(2) كما

في الصحيح‏ «من جعل لله عليه أن لا يفعل محرما سماه فركبه فليعتق رقبة أو ليصم شهرين متتابعين أو ليطعم ستين مسكينا» (التهذيب 2: 336)

و

في صحيح الحلبي عن الصادق (ع) إن قلت: للّه علي فكفارة يمين‏ (الكافي 7: 456)

و في ثالث‏

«ليس من شي‏ء هو الله طاعة يجعله الرجل عليه إلا ينبغي له أن يفي به» (التهذيب 2: 335)

و في رابع‏

«و ما جعلته لله تعالى فق به» (الكافي 7: 458).

و خامس هو

موثق الساباطي عن أبي عبد اللّه (ع) عن أبيه (ع) في رجل جعل للّه على نفسه عتق رقبة فأعتق أشل أو أعرج؟ قال: إذا كان ممن يباع أجزء عنه إلّا أن يكون سماه فعليه ما اشترط (التهذيب 2: 335).

(3) و هو

موثق إسحاق بن عمار قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (ع): إني جعلت على نفسي للّه شكرا ركعتين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 108

ام توجبه على نفسك شرط ان يستجيبك اللّه فيما تخاف من إقبال محظور أو إدبار محبور و أنت لا تستطع بحولك و قوتك ان تحصل على بغيتك فيها، حيث الوصول الى المغزى و الحصول عليها قد لا يكتفى فيه بصرف الدعاء، فلا بد من تقريب قربان الى اللّه و هو كل محبور لدى اللّه مندوبا او مفروضا، و هذا هو مسرح النذر و شبهه من عهد او يمين.

ثم و لا نذر إلّا للّه كما هنا و في مريم، و نية القربة هي لزام كون النذر للّه، فإذا نذر لغير اللّه، ام نذر للّه دون نية القربة الى اللّه، فلا نذر- إذا- و لا يفرض عليك امرا.

و مما يشرط في النذر مشروطا و غير مشروط إمكانية متعّلقه واقعيا و شرعيا،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أصليهما في السفر و الحضر فأصليهما في السفر بالنهار؟ فقال: نعم، ثم قال: إني لأكره الإيجاب أن يوجب الرجل على نفسه، فقلت إني لم أجعلهما عليّ إنما جعلت ذلك على نفسي أصليهما شكرا للّه و لم أوجبهما على نفسي أ فأدعهما إذا شئت؟ قال: نعم‏ (الكافي 7: 455 و التهذيب 2: 333)

أقول: على «إني لأكره» لأن متعلق النذر كان حرجا، و لكن المتعلق المحرج لا يصح نذره.

و أما

موثق سماعة سألته عن رجل جعل عليه إيمانا أن يمشي إلى الكعبة أو صدقة أو نذرا أو هديا إن هو كلم أباه أو أمه أو أخاه أو زارهم أو قطع قرابة أو مأثما يقيم عليه أو أمرا لا يصلح له فعله؟ فقال:

لا يمين في معصية اللّه إنما اليمين الواجبة التي ينبغي لصاحبها أن يفي بها ما جعل للّه عليه في الشكر إن هو عافاه اللّه من مرضه أو عافاه من أمر يخافه أو رد عليه ما له أو رده من سفره أو رزقه رزقا فقال: للّه علي كذا و كذا شكرا، فهذا الواجب على صاحبه و ينبغي له أن يفي به‏ (التهذيب 2: 335 و الإستبصار 4: 46)

أقول: إنه في مقام بيان بطلان هذه التعهدات في معصية اللّه، و أخيرا مثال فيما يصح فيه التعهد كاليمين المنوي هو كذا و كذا، و حتى أذاب كان صريحا في بطلان النذر غير المشروط لكان معارضا للآية و الصحاح المتعددة الماضية، كما و أن «في الشكر» يعم الشرط و سواه و إن مثل بالشرط أقول: و المصداق المتيقن المعلوم من «للّه علي» هو النذر، مهما شمل البعض منها اليمين و العهد أيضا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 109

و كونه راجحا في شرعة اللّه دونما حرج في تحقيقه، فغير الراجح لا يحق للّه، و المحرج ليس من دين اللّه‏ «ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» فضلا عن غير المقدور او المحظور فانه هزء باللّه او مهانة للّه أن تقدم له ما نهى عنه تحذيرا أو تنزيها، بل و ما هو عوان بين الراجح و المرجوح.

و النذر في فعل الراجح او الواجب او ترك المرجوح المحرم يعم المشروط و سواه، و النتيجة اصل الوجوب او ضعفه او اصل الحرمة او ضعفها، و خلفيته في تخلّفه دنيويا هي الكفارة و أخرويا هي العقاب ان لم يثب و يكفر.

و كافة الشروط في النذر غير المشروط هي مشروطة في المشروط، إلّا رجاحة المتوقّع، فإنما يكفيه السماح الشرعي إباحة أم دونها.

فالفارق بين المتعلّق و المتوقع في الشروط إنما هو شرط الرجاحة في الأوّل دون الثاني إذ لا نذر إلا في طاعة اللّه، ثم الامكانية مشتركة بينهما، و لكن القدرة غير المحرجة خاصة بالمتعلق دون المتوقّع، حيث المتوقع خارج عن قدرتك مقدورا للّه غير مستحيل كونيا و لا شرعيا، و لكن المتعلق شرطه كونه ميسورا عندك دون حرج واقعيا و شرعيا.

فتوقع المحظور من اللّه، كما المستحيل على اللّه حكمة أم سواها، هو توقع محظور.

كما المتعلّق غير المقدور واقعيا او المحرج او غير الراجح شرعيا هو محظور او غير مشكور، حيث النذر في الأساس يتبني الخوف من اللّه كما في غير المشروط، او الخوف مما ترجوه و لا تسطع عليه، و الكل مشروط بعدم الحظر واقعيا و لا شرعيا، مهما اختص متعلق النذر بالراجح الميسور، و المتوقع يكتفى فيه بعدم الحظر.

فكما لا نذر الا اللّه، كذلك لا نذر فيما ليس راجحا في شرعة اللّه مهما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 110

كان المتوقع- كما في المشروط- لا يشترط فيه إلّا عدم الحظر واقعيا و شرعيا.

فإذا نذر راجحا او واجبا في متوقع محظور فهو محظور لا ينعقد، كما و إذا نذر مرجوحا في متوقع محبور لم ينعقد، او نذر فعلا محرجا فعلّه فيما دون حرجه ينعقد و في غيره غير منعقد، و شرط الصحة في النذر المشروط عدم تحقق شرطه قبله، فإذا لا مورد لشرطه و كما في الصحيح‏ «1».

و الصيغة السائغة الصائغة للنذر هي «للّه علي» لا سواها ك «علي» إذ لا نذر إلّا للّه، و أما أن يعاهد نفسه على أمر دون ان يعاهد اللّه عليه فلا نذر، سواء أ كان في نذر مشروط او غير مشروط «2» و لا «على نذر» و لا «لله علي نذر» «3» فان النذر ليس موردا للنذر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هو

صحيح ابن مسلم عن أحدهما عليهما السلام‏ سألته عن رجل وقع على جارية له فارتفع حيضها و خاف أن تكون قد حملت فجعل للّه عتق رقبة و صوما و صدقة إن هي حاضت و قد كانت الجارية طمثت قبل يوم أو يومين و هو لا يعلم؟ قال: ليس عليه شي‏ء (الوسائل ب 5 من كتاب النذر ح 2) و مثله خبر جميل بن صالح (المصدر ح 1).

(2) كما

في صحيح منصور بن حازم عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إذا قال الرجل علي المشي إلى بيت اللّه و هو محرم بحجة أو علي هذي كذا و كذا فليس بشي‏ء حتى يقول: للّه على المشي إلى بيته أو يقول:

للّه علي أن أحرم بحجة أو يقول: للّه علي هذي كذا و كذا إن لم يفعل كذا و كذا (الكافي 7: 457 و التهذيب 2: 332)

أقول و الحديث مصرح بكلا النذرين مشروط و غير مشروط.

هذا و أما

خبر إسحاق بن عمار عن أبي إبراهيم (ع) قلت له رجل كانت عليه حجة اللّه سلام فأراد أن يحج فقيل له تزوج ثم حج، فقال: إن تزوجت قبل أن أحج فغلامي حر فتزوج قبل أن يحج فقال: أعتق غلامه، فقلت لم يرد بعتقه وجه اللّه، فقال: إنه لا نذر إلّا في طاعة اللّه و الحج أحق من التزويج و أوجب عليه من التزويج قلت: فإن الحج تطوع؟ قال: و إن كان تطوعا فهي طاعة للّه عز و جل فقد أعتق غلامه‏ (الكافي 7: 455 و التهذيب 2: 333).

أقول: ليس هذا العتق لكونه متعلقا للنذر و لم يكن هناك نذر، إنما هو عتق مشروط و قد تحقق شرطه كان يقول: إذا جاء زيد فغلامي حر، فلا رباط للحديث بباب النذر.

(3) كما

في صحيح أبي الصباح الكناني‏ سألت أبا عبد اللّه (ع) عن رجل قال: علي نذر؟ قال: ليس‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 111

و كما يشترط في النذر أيا كان ألّا يحلل حراما او يحرم واجبا، كذلك ألا يفوّت حقا مفروضا كحق الزوج لزوجه و حق الوالدين للولد و حق الولد لهما، فان لكلّ حقا على الآخر ليس ليفوّته نذر مهما كان في راجح ام واجب هو أدنى من واجب الحق الحاضر في شرعة اللّه، فلا نذر- إذا- لزوجة إلّا بإذن الزوج إلا فيما لا يفوّت له حقا عليها ام هي سفيهة فإذا فوّت عليه حقا ام هي سفيهة لم ينعقد نذرها إلّا باذنه، و ينعقد فيما سواها، و الصحيح المخالف مأوّل أو غير صحيح‏ «1».

و جملة القول في النذر ان يكون متعلقة محبورا مقدورا دون الحرج، و مترقبة في مشروطه مسموحا غير مستحيل على اللّه عقليا او في الحكمة.

و في الحق إن النذر و لا سيما المشروط منه داخل في حقل الدعاء، بل و هو أدعى الدعاء، حيث تفرض على نفسك ما يرضاه اللّه حتى يستجيبك اللّه ما تتقاضاه.

و ليس النذر تشريعا، فإنما هو سماح من اللّه ان تفرض على نفسك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

النذر حتى يسمى للّه شيئا صياما أو صدقة أو هديا أو حجا (الكافي 7: 455 و التهذيب 2: 333).

و

في خبر أبي بصير قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن الرجل يقول: على نذر قال: ليس بشي‏ء حتى يسمي النذر و يقول: عليّ صوم للّه أو يتصدق أو يهدي هديا و إن قال الرجل أن أهدي هذا الطعام فليس هذا بشي‏ء إنما تهدي البدن (المصدر).

(1). و

هو صحيح التهذيب 2: 320 «ليس للمرأة مع زوجها أمر في عتق و لا صدقة و لا تدبير و لا هبة و لا نذر في مالها إلا بإذن زوجها إلا في حج أو زكاة أو بر والديها أو صلة قرابتها».

أقول: علّه يعني المرأة السفيهة حيث إن تصرفاتها المالية منوطة بإذن وليها زوجا أو أبا أو غيرهما، و أما الحج و الزكاة و بر الوالدين وصلة القرابة، فهي منذورة و غير منذورة ليست بحاجة إلى إذن حيث لا يضر فيها السفه، و لا سيما المفروض منها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 112

راجحا مهما كان مفروضا و تحرم على نفسك مرجوحا مهما كان محرما مرفوضا، فهو من العناوين الثانوية من نوع ثان محدد من قبل اللّه موضوعا و حكما و شروطا، كما العناوين الثانوية من النوع الاول مقررة من قبل الشرع كالاكراه و الاضطرار اللذين هما موضوعان للسماح في قسم من المحرمات.

فلا نذر في معصية اللّه‏ «1» كما لا نذر في مباح فعلا او تركا و لا في فعل مرجوح او ترك مندوب، اللهم إلّا بعنوان ثان يجعلها راجحا.

و كذلك لا نذر في تفويت حق او إفراط أو تفريط في حق، أو إسراف أو تبذير.

و ترى ان نذر الوالدين على الولد منّجز بحق الولد كأنه هو الذي نذر؟ ام لا ينجّز إلا على الناذر أن يحقق نذره في ولده و عليه القبول قضية وجوب طاعة الوالدين اللهم إلا في أمر محرج ام مرجوح فضلا عن المحظور، و إذا خالف الولد فهو عاص و لا شي‏ء على الوالدين حيث حققا الواجب عليهما، ثم و مخالفة الولد في النذر المحظور واجبة إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

و هنا نعرف مدى عمران قلب امرأة عمران، حيث تتجه الى ربها بكامل الايمان بأعز ما تملكه تحريرا لغريرة عينها للّه كما و هي محررة في طاعة اللّه، تحررا عن كل عبودية لكل أحد، و عن كل اتجاه إلى أي شي‏ء و أي أحد و أية قيمة سوى اللّه، فقد حررتها بنذرها عن كل تقيّد جماعي بأية مسئولية حتى تتخلى لخدمة اللّه في بيت اللّه‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في صحيح الكتاني عن أبي عبد اللّه (ع) ليس من شي‏ء هو طاعة للّه يجعله الرجل عليه إلّا ينبغي له أن يفي به و ليس من رجل جعل للّه عليه شيئا في معصيته تعالى إلّا ينبغي له أن يتركه إلى طاعة اللّه‏ (التهذيب 2: 335 و نوادر أحمد بن عيسى 58 و اللفظ له).

(2)

نور الثقلين 1: 331 في كتاب علل الشرايع بسند متصل عن إسماعيل الجعفي قال‏ قلت لأبي جعفر عليهما السلام: أن المغيرة يزعم أن الحائض تقضي الصلاة كما تقضي الصوم فقال: ما له لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 113

فالتوحيد الحق في مثلث: العقيدة و النية و العملية، هو الصورة المثلى للتحرر المطلق، إنه يتمثل هنا في نذر التحرر لقرة العين و فلذة الكبد: الولد- و لمّا يولد- مما يشي بعمق الإيمان و خلوص العمران لقلب امرأة عمران.

و لقد كانت تنتظر لذلك التحرر المنظور المنذور ولدا ذكرا هو المحور في نذرها، و النذر للمعابد لم يكن معروفا إلّا للذكران ليخدموا الهيكل و ينقطعوا للعبادة و التبتل، و لكن ها هي تجدها أنثى و ليس الذكر كالأنثى:

فَلَمَّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى‏ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى‏ وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (36).

لقد تتحسر امرأة عمران على ما كان من خيبة رجائها و معاكسة تقديرها، و تحزنت إلى ربها إذ كانت ترجو ذكرا تهبه محررا لبيت اللّه و تقفه على خدمته، و لكن الوليدة أنثى و البنات لا يصلحن لذلك التحرر الطليق، للزوم مقامهن عند أزواجهن في زواجهن، و لزوم الخروج عن بيت اللّه حالة الحيض و الطلق على اية حال.

فهنا «.. قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى‏» ليست اخبارا «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ» بل هو تحسّر أنها لا تصلح لذلك التحرر لأنها أنثى، فقد تناجي ربها كمعتذرة عن تحرّرها او كئيبة لأنها أنثى، راجية ان تقبلها ربها على أنوثتها كما تقبلّها، مشفقة من ألّا يقبل نذرها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

وفقه اللّه إن امرأة عمران قالت: رب إني نذرت لك ما في بطني محررا، و المحرر لا يخرج منه أبدا فلما وضعت مريم قالت رب إني وضعتها أنثى و ليس الذكر كالأنثى فلما وضعتها أدخلتها المسجد فلما بلغت مبلغ النساء أخرجت من المسجد، أنى كانت تجد أياما تقضيها و هي عليها أن تكون الدهر في المسجد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 114

هنا «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ» كجملة معترضة، هي ذود عن ساحة الرب ان يعلّم، على ذود عن ساحتها ان تعلّمه، و بيان انها قائلة قولها متحسرة في ذلك العرض.

و ترى‏ «وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى‏» هي من قولها، و العكس أحرى لأنها وضعتها أنثى فليقل «و ليست الأنثى كالذكر»! ام هي من قول اللّه، و الجملة المعترضة بحاجة الى برهان لأنها خلاف المتعود من سرد الجمل.

قد تكون هي من قول اللّه اشعارا في هذه الاذاعة القرآنية ان الذكر المطلوب هنا ليس كالأنثى الموهوبة، بل هي أعلى منه و أولى، إذ تحمل اضافة الى ما تطلبته من التحرر، فانها تتقبل محررة في نفسها، و والدة لعيساها و هما من آيات اللّه الكبرى، و ليست «و ليست الأنثى كالذكر» لتفيد ذلك المعنى.

ثم هي من قولها على هامش قول اللّه، عناية الى غير معناها: ان الذكر ليس معذورا كما الأنثى، حيث الأنثى لا تصلح لما يصلح له الذكر و لا سيما في حقل التحرر هكذا، لأجل ما يلحقها من الحيض و النفاس، و ما يلزمها من الصيانة عن التبرج للناس، فإذا خالطت الرجال افتتنوا بها و استضروا بمكانها كما تفتتن هي بهم، حيث النساء أوهن عقودا، و أضعف عقلية و صمودا و وساوس الشيطان إليهن أسرع، فأهواءه إليهن أهرع.

ثم العكس يفيد نفس المعنى و لكن في الأصل رجاحات ليست فيه:

1 «وَ لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى‏» اختصار عن قالتين مختلفتي المعنى: قول اللّه و قولها، و ليس العكس ليعني- فيما يعني- قول اللّه.

2 حسن التعبير في وزن الكلام يقتضي تقديم الذكر على الأنثى.

3 حسن المعنى في تقدم الأفضل على الفضيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 115

4 يتقدم الذكر لتقدمه في عناية النذر فيذكر- إذا- تحسرا على فقده.

و إنها تتحسر عن فقد الذكر انه ليس كالأنثى، فلا يتهم في خلوة البيت كما تتهم، و هو أقوى من الأنثى، و هو خلو من اعذار الأنثى، و هو يصلح للنبوة و ما أشبهها دون الأنثى، و «إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثى‏» فهل من علاج أن تقوم الأنثى مقام الذكر و تفي بما يفي؟! فمما تقوي رجاءها في تحقق بغيتها «وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ»: المرتفعة الغالبة- تتغلب على عراقيل الأنوثة و نقائصها و ضعفها و ما سواها، و ترتفع عن كل نقائص الانوثة و الرجولة بجنب اللّه.

ثم‏ «وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ» لا هي فحسب بل‏ «وَ ذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ» مما يلمح صراحا انها ألهمت بمستقبل ذريتها، و علّ‏ «لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى‏» كقول الرب ألهمت إليها بعد قالتها نفس القول أم عنده.

فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ (37).

التقبل هو قبول على تكلف، و إذ لا تكلف في قبول ربنا فقد يعني هنا منتوج كل تكلف في القبول، و هو من ربنا يحلق على كل الفضائل و الفواضل في القبول، فلا رد فيه و لا افول، بل هو قبول على مدار حياة مريم البتول سلام اللّه عليها.

فانه تقبّل في قبول نذرها ان تنوب الذكر، و تقبّل في جعلها كالذكر، ثم حسن زيادة حسنى على قبولها أن جعلها و ابنها آية للعالمين.

و هنا نستوحي من تقبلها منعها عن الزواج، ام و طهارتها عن الدماء، فلتبق كالذكور و فوقهم إذ لم تحتج لرزقها الى خروج حيث ضمنه ربها.

هنا تقبّل رباني لمريم سلام اللّه عليها في مربعة الجهات هي:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 116

1 «إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً» «فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ» محررة للّه لخدمة بيت اللّه.

2 «وَ إِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ‏ ... فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبُولٍ حَسَنٍ» ان تكون مريم:

مرتفعة- في اللغة السريانية- غالبة متغلبة على كل رجس و نقص و نجس في أنوثة و عبودية، و قد تعني تسميتها مريم تفألا من أمها علّها تربو على أقرانها و على الذكر الذي كانت ترجوه أمها تطبيقا لنذرها، ثم لتحقيق هذا المغزى تعيذها باللّه و ذريتها من الشيطان الرجيم، تعيذها ان ينالها نقص في سبيلها كما ينال النساء في خدمة البيت، او ان يصيبها ما تمس عفافها في خلطها بعبّاد البيت، او أن يعترضها ضعف في خدمتها، او تلحقها تهمة في اختلاطها بالرجال.

3 «وَ إِنِّي أُعِيذُها بِكَ» «فتقبلها» معاذة باللّه، فهو يعيذها من الشيطان الرجيم.

4 «و ذريتها» عيسى (عليه السلام) و هو الأصل في ذلك المسرح حيث يحتل القمة الرسالية و المرتبة الرابعة من ولاية العزم بين النبيين (عليهم السلام).

فذلك قبول حسن في مربع الدعاء و الاستدعاء، أحسن مما إذا كان ذكرا.

فرغم ان الذكر ليس كالأنثى في قالتها، «لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثى‏» في قول اللّه، حيث فاقت كل ذكر في تاريخ الرسالات اللهم إلا اولياء العزم و لا سيما محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

«فتقبلها ..» ثم‏ «وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً» منذ ولادتها حتى حملها و وضعها و إلى موتها، فقد كانت تترعرع على رقابة اللّه الخاصة و عينه الحامية لتقبلها محررة مريم معاذة بربها و ذريتها من الشيطان الرجيم، عصمة ربانية في كل أبعادها إلا الوحي الرسالي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 117

و لماذا «نَباتاً حَسَناً» بالإنبات، دون تربية حسنة؟.

علّه للإشارة الى تحليق المراقبة الربانية لها منذ انعقاد نطفتها و تكاملها جنينا و ولادتها والى موتها، فانها كلها من الإنبات‏ «وَ اللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَباتاً». فالسلالة من ماء مهين هي الصفوة المختارة من المني، ثم المواد الكيماوية الكامنة في ماء الرجل و المرأة هي صفوة العناصر الكيماوية المنتزعة من الدم، الذي هو ايضا بدوره صفوة ما نتناوله من مشرب و مأكل، و كل لاحق نابت من سابقه حتى السلالة النطفة، ثم العلقة و المضغة و العظام و اللحم، كلّ نابت من سابقه.

و إخراجنا من الأرض نباتا له دور عام يعم سائر النسل الانساني، و آخر خاص يخص الأصفياء المخلصين.

فقد يعني‏ «وَ أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً» كل هذه المراحل، و لكي تصلح للاصطفاء على نساء العالمين و تلد المسيح (عليه السلام)، فقد جمع في الإنبات نباتا حسنا إلى طهارة الوالدين و طهارتها حين بلغت، الطهارة الربانية المحلّقة على كل مراحل إنباتها على طول الخط.

و من إنباتها النبات الحسن: «وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا» كفالة النبات الحسن و التربية اللائقة الرسالية، فقد جعل اللّه باقتراعهم كفالتها لزكريا- زوج خالتها- أمينا مؤمّنا عليها، مؤمنا بشأنها، و كان رئيس الهيكل اليهودي من ذرية هارون الذين انتقلت إليهم سدانة الهيكل، فنشأت مباركة مجدودة، يهيئ لها اللّه من رزقه فيضا متواصلا.

أ ترى تلك الكفالة كانت ذات بعدين أولهما خصوص الوحي بشأن كفالته إياها، و ثانيهما الاقتراع تأييدا و تأكيدا لذلك الاختصاص؟ النص ساكت عن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 118

بعدين اثنين، و علّ «كفلها» تعني كفالته إياها بوحي الاقتراع، سكوتا عما سكت عنه النص و ذودا عن ساحة القديسين اختصامهم في كفالتها بعد وحيها لزكريا.

هنا فاعل «كفلها» هو اللّه و زكريا المفعول الأوّل و مريم هي الثاني، حيث الكفل متعد بنفسه، فرغم ان الولد في كفالة الأبوين عرفا و شرعا، و لكن مريم النابتة نباتا حسنا بحاجة الى كفالة عاصمة معصومة لم يكن يحملها هناك إلّا زكريا، مهما تخرج بالقرعة الشرعية من بين القديسين المتنازعين بشأنها.

و «المحراب» كأصل هو محل الحرب فان عبادة الرحمن محاربة الشيطان، و لان العبادة الخالصة بحاجة الى الانسراح عما سوى اللّه، فالمحراب الحرب.

هو ايضا من الحريب: السليب، يعني عن اشغال الدنيا، و هو المقدم في كل مسرح‏ «يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ» فالمحراب معنويا هو محل الانسراح عما سوى اللّه لاخلاص عبادة اللّه بحرب الشيطان، و هو مكانيا المقصورة في مقدم المعبد لها باب يصعد اليه بسلّم ذي درجات قليلة، و يكون من فيه محجوبا عمن في المعبد، و «كلما دخل» مما يلمح بهذه الخصوصية لمحرابها، و كما يصرح به‏ «إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ» حيث المعبد المكشوف لا يتصور فيه التسوّر.

و الكفالة- ككل- هي من المواضيع الشرعية، سواء في التربية و الحفاظ بدنيا او معنويا ام ماليا اماهيه مما تصح فيه الكفالة.

و أصلها من الكفل: المركب، في ركب الحياة كبعض او ككل، و قد تكفها زكريا في مسير الحياة كفيلا ضامنا عادلا معصوما في مسيره الى مصيره‏ «كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيَّا الْمِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً» و «رزقا» يعني، رزقا معيشيا إلى رزق معنوي لتكون متحررة عمن يرزقها سوى اللّه مهما كانت للكفالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 119

الرسالية دورها الفعال على عين اللّه و رعايته.

اجل «رزقا» جليلا لا يعرف مصدره و لذلك نكّر، و احتار زكريا من ذلك الرزق المكرور دونما انقطاع‏ «قالَ يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هذا» اي زمان و من أيّ و السبل المألوفة له- و انا الوسيط الوحيد فيها بظاهر الحال- منقطعة عن قمة المحراب، حيث لا يسمح لأحد غيري ان يدخله، «أَنَّى لَكِ هذا»؟.

«قالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» بتقطع الأسباب المتعودة، و كما تحررت عنها في ذلك التحرر «إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ» نحاسبه نحن في حياتنا المتعودة، او يحاسبه اللّه، مهما كان رزقه بغير حساب بميزان و حساب.

و يا لها من خنوع و خشوع امام العطية الربانية، احتفاظا بالسر الذي بينها و بينه، و التواضع في التحدث عن ذلك الرزق السرّ، دون اية مباهاة و تنفج و تبهّج.

هنا لا نخوض في مواصفة ذلك الرزق و نوعيته، و لكننا نعلم حسب النص انه‏ «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» عندية خاصة مباركة طيبة، مختلفة عن سائر الرزق المؤتلفة، فليكن من الجنة أم خلق الساعة.

فلا يرد نقد الجمعية الرسولية الامريكية على ذلك الرزق بان «الجنة ليست محل أكل و شرب بل هي محل التقديس و التسبيح و كل تنعماتها روحية» «1».

أولا ان‏ «مِنْ عِنْدِ اللَّهِ» لا تخص الجنة إلا بتأويل ان اللّه ساكن الجنة فالرزق من عنده ليس إلا من الجنة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كتاب الهداية للجمعية الرسولية الأمريكن 2: 36.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 120

ثانيا ان الجنة حسب القرآن و العهدين فيها تنعمات مادية اضافة الى الروحية.

ثالثا ان هذه الجنة علّها جنة آدم و التي صعد إليها المسيح و هي من جنان الدنيا.

و رابعا ان الرزق من عند اللّه يعني هنا من غير السبل المتعودة و كما «ان الله سخر الغربان لإيليا فكانت تأتيه بلحم صباحا و مساء» (امل 17: 4 و 6).

كما و «هيأ له الكعكعة (نوع من الخبز) و كوز الماء فنبهه الملاك للأكل و الشرب حتى سار بقوة تلك الأكلة أربعين يوما» (امل 19: 5- 9).

و إذا هم يستغربون رزق الطاهرة من عند اللّه حلالا طيبا، فكيف يستقربون شرب المسيح جديدا من نتاج الكرمة- الخمر- في ملكوت اللّه (متى 26: 29 و مرقس 14: 25 و لوقا 22: 18) او مما يأكل منه التلاميذ على مائدة المسيح في ملكوته (لوقا 22: 30) هذه مريم الطاهرة العذراء تجد عندها رزقا من عند اللّه، و هي منقطعة عن عباد اللّه، ثم انظر الى فاطمة الزهراء مولاة العذراء، حيث تجد عندها رزقا و

تتمثل لأبيها (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بقول اللّه عن العذراء با أبت‏ «هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 20- أخرج أبو يعلى عن جابر أن رسول اللّه (ص) أقام أياما لم يطعم طعاما حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئا فأتى فاطمة فقال: يا بنية هل عندك شي‏ء آكله فإني جائع؟ فقالت: لا و اللّه، فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة برغيفين و قطعة لحم فأخذته منها فوضعته في جفنة لها و قالت و اللّه لأوثرن بهذا رسول اللّه (ص) على نفسي و من عندي و كانوا جميعا محتاجين إلى شبعة طعام فبعثت حسنا أو حسينا إلى رسول اللّه (ص) فرجع إليها فقالت له: بأبي و أمي قد أتى اللّه بشي‏ء قد خبأته لك فقال هلمي يا بنية بالجفنة فكشفت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 121

هنا زكريا المكفل مريم لما يرى هذه الكرامة الربانية لها، تتحرك عنده الرغبة في ذرية طيبة، حكمة عالية مرغوبة فيها لامتداد الرسالة في نسله.

هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ (38).

انه لم تكن حتى الآن لزكريا ذرية، و طبيعة الحال في الدعاء انها عند انقطاع الرجاء، و انقطاع الأسباب المتعودة لحصول المدعو له، «هُنالِكَ دَعا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قالَ رَبِّ» الذي ربيتني بالتربية الرسالية و هي خارقة العادة «هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً» كخارقة أخرى.

و «من لدنك» استيهاب من رحمته اللدنية الخاصة، ليست كالعادة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عن الجفنة فإذا هي مملوأة خبزا و لحما فلما نظرت إليها بهتت و عرفت أنها بركة من اللّه فحمدت اللّه تعالى و قدمته إلى النبي (ص) فلما رآه حمد اللّه و قال: من أين لك هذا يا بنية؟ قالت يا أبت هو من عند اللّه ...

و

في نور الثقلين 1: 333 عن تفسير العياشي عن سيف بن نجم عن أبي جعفر عليهما السلام قال‏ أن فاطمة ضمنت لعلي عليهما السلام عمل البيت و العجين و الخبز و قم البيت (كنسه) و ضمن لها علي (ع) ما كان خلف الباب نقل الحطب و أن يجي‏ء بالطعام فقال لها يوما يا فاطمة هل عندك شي‏ء؟ قالت لا و الذي عظم حقك ما كان عندنا منذ ثلاث إلّا شي‏ء نقريك به قال: أ فلا أخبرتني؟

قالت كان رسول اللّه (ص) نهاني أن أسألك شيئا فقال: لا تسألي ابن عمك شيئا إن جاءك بشي‏ء عفوا و إلّا فلا تسأليه، قال فخرج (ع) فلقى رجلا فاستقرض منه دينارا ثم أقبل به و قد أمسى فلقى مقداد بن الأسود فقال للمقداد: ما أخرجك في هذه الساعة؟ قال: الجوع، و الذي عظم حقك يا أمير المؤمنين (ع) قال: قلت لأبي جعفر عليهما السلام: و رسول اللّه (ص) حيّ؟

قال: و رسول اللّه (ص) حي، قال: فهو أخرجني و قد استقرضت دينارا و سأوثرك به فدفعه إليه فأقبل فوجد رسول اللّه (ص) جالسا و فاطمة تصلي و بين يديها شي‏ء مغطى فلما فرغت أحضر ذلك الشي‏ء فإذا جفنة من خبز و لحم، قال: يا فاطمة أنى لك هذا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 122

بأسبابها العادية «إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعاءِ» فهو- إذا- تطلّب لخرق الأسباب المألوفة في الإيلاد.

فقد حمل زكريا «هنالك» مظهرا من مظاهر طلاقة المشيئة الإلهية، الطليقة عن المألوف، رغم ما نحسبه قانونا لا يتخلف فنشك- إذا- في كل حادث خارج عن نطاق هذا القانون المزعوم!.

فها هو زكريا الشيخ الكبير و زوجه- العاقران- اللذان لم يلدا في صباهما، هنالك تجيش في قلبه الرغبة في ذرية طيبة هبة من عند اللّه، و حق له و هو يرى بين يديه مريم العذراء الصالحة الرعناء: «وَ زَكَرِيَّا إِذْ نادى‏ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ. فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ وَهَبْنا لَهُ يَحْيى‏ وَ أَصْلَحْنا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ يَدْعُونَنا رَغَباً وَ رَهَباً وَ كانُوا لَنا خاشِعِينَ» (21: 90)- «ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا، إِذْ نادى‏ رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا، قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ... وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» (19: 6).

فَنادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَ هُوَ قائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى‏ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ سَيِّداً وَ حَصُوراً وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39).

«هنا» نادته الملائكة و في مريم‏ «يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى‏ ...» (7) و لا منافاة بينهما فان الملائكة هم وسطاء في ذلك البلاغ المبين.

و التبشير هنا يحمل مواصفات اربع ليحيى:

1 «مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ» هي المسيح عيسى بن مريم، فانه كلمة قالها من قبل‏ «1» و كلمة دالة على اللّه تكوينيا حيث ولد دون أب، و كلمة رسولية

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما في الأصل العبراني (تث 33: 1- 2) وزئت هبّراخاه أشر برخ موشه إيش ها الوهيم إت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 123

حيث تدل على اللّه بربانية اعماله و فعاله و قاله، و كلمة رسالية تكلم بها المرسل إليهم، مربع الكلمات يحملها المسيح (عليه السلام) و لم يحملها كلها سائر الخلق أجمعين، فقد ولد دون أب ولادة منقطعة النظير في تاريخ الإنسان، و آدم لم يكن وليدا حتى يكون هو الاول في تلك الولادة، فانما خلق من تراب.

و ليس كونه كلمة آية خارقة للعادة من حيث الولادة، ليفضله على سائر الرسل، إذ إنها آية أقوى من سائر الآيات المبصرة لأن بني إسرائيل هم أغوى من سائر الأمم، ثم آية القرآن هي أقوى الآيات الرسولية و الرسالية على الإطلاق لأنها تحلق على كافة المكلفين منذ بزوغها الى يوم الدين.

2 «و سيدا»: عظيما في الحقل الروحي علما و تقى، يمتاز عن كثير من رجالات العلم و التقوى، الرساليين و «سيدا» في كل حقول السيادة الصالحة.

فالتصديق بكلمة من اللّه، و السيادة اللّائقة للقيادة، و الحصر عن كل الشهوات، كل هذه من الشروطات الأصيلة للنبوّة حيث تجمع القيادتين:

الروحية و الزمنية.

3 «و حصورا» مبالغة الحصر، و هو الحصر عن الشهوات محرمة و مرجوحة، دون الراجحة في شرعة اللّه كالنكاح، خلاف ما يهرف بشأنه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بني يسرائيل لفني موتو (1) و يومر يهواه مسّيني باو زارح مسّعير لامو هو فيع مهر فاران و آتاه مرببت قدش مى مينواش دات لامو- «و هذه بركة باركها موسى رجل الله بني إسرائيل عند موته (1) و قال: الله من سيناء جاء تجلى من ساعير، تلعلع من جبل فاران و ورد مع آلاف المقدسين من يمينه ظهرت الشريعة النارية».

أقول: و في دعا السمات: «و بمجدك الذي ظهر على طور سيناء فكلمت به عبدك و رسولك موسى بن عمران و بطلعتك في ساعير و ظهورك في جبل فاران بربوات المقدسين و جنود الملائكة الصافين و خشوع الملائكة المسبحين».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 124

تبجيلا له و تخجيلا لكل هؤلاء الذين تزوجوا من نبيين و سواهم من الصالحين، لا! و انما «حصورا» نفسه عن الشهوات و اللهوات المرجوحات، و حصورا كل وجهه بكل وجوهه إلى اللّه، فهو حصور في «لا إله» ثم حصور في‏ «إِلَّا اللَّهُ» حسرا عما سوى اللّه و حصرا في اللّه.

و الحديث الخبيث المفتري على الرسول الطاهر الأمين (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، المحلق للذنب على الكل إلا يحيى (عليه السلام) لأن ذكره مثل هدبة الثوب‏ «1» مضروب عرض الحائط حيث يمس من كرامة الخالق للعورات و الشهوات المحلّلة، و من كرامة الصالحين الناكحين حلّا!.

اجل! و قد تعني «حصورا» فيه فيما تعنيه، تركه- كما المسيح (عليه السلام)- للزواج على شبقه، ترجيحا لتقدم الدعوة الرسالية على تحقيق الشهوة المحلّلة، إذ لم تكن ظروفه لتسمح له بالجمع بين الزواج و تحقيق الرسالة، معاكسا لمحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) حيث اقتضت ظروفه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 22- أخرج ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن عساكر عن عمرو بن العاصي عن النبي (ص) قال: ما من عبد يلقى اللّه إلّا ذا ذنب إلّا يحيي بن زكريا فإن اللّه يقول: و سيدا و حصورا، قال كان ذكره مثل هدبة الثوب و أشار بأنملته.

أقول: و لا يرجى من ابن العاصي إلّا هكذا اختلاق معادي على رسول الهدى (ص).

و اختلاق آخر حفاظا على «حصور» له إيجابا و على غيره سلبا،

أخرجه الطبراني عن أبي أمامة قال قال رسول اللّه (ص) أربعة لعنوا في الدنيا و الآخرة و امنت الملائكة رجل جعله اللّه ذكرا فأنث نفسه و تشبه بالنساء و امرأة جعلها اللّه أنثى فتذكرت و تشبهت بالرجال و الذي يضل الأعمى و رجل حصور و لم يجعل اللّه حصورا إلّا يحيي بن زكريا،

أقول: ذكره حصورا في الذكر الحكيم دليل أنه من كمالاته الممتازة فنفيه إذا نقص و عوذا باللّه من هذه الجهالة المزدوجة!.

و في نور الثقلين 1: 335 عن المجمع‏

«و حصورا» لا يأتي النساء و هو المروي عن أبي عبد اللّه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 125

الرسالية زواجا و أكثر من الأربع المسموح للأمة تحقيقا حقيقا لكرامة الرسالة بضم عوائل كثيرة الى خضمّه.

إذا ف «حصورا» المحلق على كل داعية الى اللّه تختلف ظروفه و طقوسه في البعض من مصاديقه، فكما النكاح راجح ام واجب أحيانا، كذلك هو مرجوح او محرم أحيانا أخرى، و الحصور هو الذي يتابع صالح الدعوة وفقا لظروفها المواتية المناسبة.

4 «وَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» و ترى هناك أنبياء غير صالحين حتى يوصف هنا «نبيا» ب «مِنَ الصَّالِحِينَ»؟

كلّا، حيث يعني «نبيا» رفيع الدرجة، و لأن رفعة الدرجة درجات هنا يقيد ب «مِنَ الصَّالِحِينَ» يعني المرسلين، حيث المرسلون درجات و النبيون منهم أرفع شأنا و أنبى مكانة و يحيى منهم، كما و «مِنَ الصَّالِحِينَ» آباء و أمهات منذ آدم الى زكريا.

فلقد استجيبت الدعوة الحانية، المنطلقة من القلب الطاهر الحاني، الذي علق رجاءه بسميع الدعاء، و هو يملك الإجابة كيف يشاء حيث يشاء، استجيبت في «يحيى» الذي‏ «لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا»- «مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ» اسمه المسيح عيسى بن مريم «و سيدا» كريما «و حصورا» يحصر نفسه عن الشهوات و يملك زمام نزعات من الانفلات، «و نبيا» رفيع المنزلة «مِنَ الصَّالِحِينَ» الرساليين.

ذلك! و لكننا نسمعه كأنه يستغرب ما استقربه اللّه، استغرابا عن عقره و زوجه لا عن رحمة اللّه:

قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ قالَ كَذلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ (40).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 126

و لكن «أنى» سؤال عن زمن تحقيق البشارة، و ليس استفهام انكار و استبعاد عنها، فلم يقل «كيف- او- اين» و انما «أنّى»- و لكي لا تتأخر اكثر مما تأخرت يعرض حاله‏ «وَ قَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ» و حال زوجه‏ «وَ امْرَأَتِي عاقِرٌ» فأجيب من فوره بتأكيد البشارة «قال كذلك» البعيد البعيد عن حساب الناس، العظيم العظيم عند اللّه‏ «اللَّهُ يَفْعَلُ ما يَشاءُ» دون رادع و لا مانع، فانما امره إذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون ... فلا ينسب إلى اي عاقل فضلا عن نبي ان يستبعد من رحمة اللّه ما رجاه و دعاه و لقد كانت «أنى» في موقعها- حين يرى ان البشارة واقعة موقعها- إذ يبتهج بجدارته لها فوزا بحظوتها، حاصلا على مزيتها، فتطلب زمن تحققها، عالما انه يورق الهشيم و يستنتج العقيم.

و هذه طبيعة الحال لمن بشر بما يتمناه، و هي غريبة عن حاله على رجاءه أن يولد له فرط السرور عند اوّل ما يهجم على سمعه ما تقاضاه، استئنافا في المعرفة و زيادة في الاستبانة، و لا اقل من استعلام زمن الهبة المبشرة.

اجل و «قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا» (19: 8) عرضا لحاله البعيدة عن هذه الرحمة الغالية، بعد ان دعا ربه‏ «هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ» و هو الرحمة اللدنية الخاصة، البعيدة عن المألوف تكوينا و تشريعا، و هذه شيمة كريمة من الصالحين في دعاءهم عرضا لفقرهم و غناه، و استعراضا لسلب اهليتهم في أنفسهم رجاء رحمة اللّه.

فما اقبحه تأويلا عليلا قيلة القائل: ان اللّه لما بشره بالولد- و كان عنده ان العاقر لا تلد- و العقيم لا تنسل- اعترضه الشيطان حين نادته الملائكة ان ما سمعه انما هو منه لا منهم، فشك فيما بشر.

و ذلك جهل عظيم من قائلة و قلة بصيرة بمنازل الوحي، فإنهم تجل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 127

أقدارهم عن تلاعب الشيطان بهم، و ان تخلط النداءان عليهم.

فإذا كانت الملائكة هي التي بشرته كما قال اللّه، و قد جرت عادته الرسالية باستماع كلامها، و ألف مهابطها، و ثلج صدره بما تؤديه عن ربها، فأي عاذرة له- إذا- في ان يعترضه الريب او يختلجه الشك.

و لو كان مرتابا في بشارته فكيف ينادي ربه فيها «رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ...»؟!.

قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَ اذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيراً وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِبْكارِ (41).

هنا «ثَلاثَةَ أَيَّامٍ» و في مريم‏ «ثَلاثَ لَيالٍ» تتجاوبان في مجموع الثلاث الليالي و الأنهار.

و الآية المطلوبة هنا ليست آية لأصل البشارة كأنه شاك فيها، و انما في زمنها حتى يحضّر نفسه في حالة خاصة و هالة من عبادة راصّة لاستقبال تلك البشارة و التفصيل الى سورة مريم (عليها السلام) حيث نفصل فيما فصل اللّه و نجمل فيما أجمله اللّه.

وَ إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاكِ وَ طَهَّرَكِ وَ اصْطَفاكِ عَلى‏ نِساءِ الْعالَمِينَ (42).

هنا تشافه الملائكة مريم الطاهرة المصطفاة و حيا دون رسالة تحمل شرعة رسالية، فلم تصيح به مرسلة من اللّه كالرسل، و كما «أَوْحَيْنا إِلى‏ أُمِّ مُوسى‏ أَنْ أَرْضِعِيهِ» و حيان هما تقدمتان لوحيين رساليين موسوي و عيسوي (عليهما السلام)، كما و المؤمنون المستقيمون‏ «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخافُوا وَ لا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. نَحْنُ أَوْلِياؤُكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 128

الْآخِرَةِ وَ لَكُمْ فِيها ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَ لَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ» (41: 30- 31).

و «اصطفاك» الأولى دون متعلق، قد تعني غير الثانية فانها «عَلى‏ نِساءِ الْعالَمِينَ» دونها، إذ لا تصح «و طهرك على نساء العالمين» حتى تقبل العطف.

و هذه العناية المختلفة هي طبيعة الحال في تكرار، و لا سيما بوسيط غير المكرر «و طهرك» فلتكن الاولى اصطفاء غير التطهير المتوسط و غير الاصطفاء الثاني، فقد تعني اصطفاءها على ذكر تطلبته أمها محررا، كما اصطفاها على كل ذكر لا ينجب ولدا دون أنثى و هي أنجبت دون ذكر، كما و اصطفاها من ذرية الأنبياء المصطفين المرسلين‏ «1» و الى سائر الميزات الأنثوية، و لكنها على قمتها بحاجة الى طهارة قمة تذود عنها مستلزمات تحررها لخدمة البيت خلطا بالرجال على أية حال، فلذلك:

«و طهرك» طهارة مطلقة تناسب الاصطفاء سببا و نتيجة و

«طهرها من ان يكون في ولادتها من آبائها و أمهاتها سفاح» «2»

و من أن تأتي سفاحا ... و من ثم الاصطفاء الثاني: «وَ اصْطَفاكِ عَلى‏ نِساءِ الْعالَمِينَ» اصطفاء يحلق على كل صفوة سامية، و من ذلك اختصاصها في خطاب ربها «يا مَرْيَمُ اقْنُتِي ..» «3».

أ ترى أن سعة «نِساءِ الْعالَمِينَ» هي عرض المكان و طول الزمان؟ فهي- إذا- مفضلة على الصديقة الطاهرة- و هي خير نساء العالمين من الأولين و الآخرين-!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1، 2، 3).

نور الثقلين 1: 336 عن تفسير العياشي عن الحكم بن عتيبة قال‏ سألت أبا جعفر عليهما السلام عن قول اللّه في الكتاب‏ «إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ ...» اصطفاها مرتين و إلّا الاصطفاء إنما هو مرة واحدة؟ قال: فقال لي يا حكم إن لهذا تأويلا و تفسيرا فقلت له ففسره لنا أبقاك اللّه فقال:

يعني اصطفاه إياها أولا من ذرية الأنبياء و طهرها من أن يكون في ولادتها من آبائها و أمهاتها سفاحا و اصطفاها بهذا القرآن: «يا مَرْيَمُ اقْنُتِي ....».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 129

رجالا و نساء كما شرحنا عند تفسيرها في آية التطهير بقول فصل، فهي خير العالمين- كأبيها و بعلها و بنيها المعصومين- رجالا و نساء، فهي مفضلة على نوح و ابراهيم و موسى و عيسى (عليهم السلام) فضلا عن مريم سلام اللّه عليها.

و ما

يروى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ان «أفضل نساء العالمين خديجة و فاطمة و مريم و آسية امرأة فرعون» «1»

لا يعني مساماتهن مع بعض، و انما فضلهن على النساء، على تفاضلهن فيما بينهن.

ذلك كما و هي سيدة نساء اهل الجنة لا مريم البتول‏ «2» فهي- إذا-

«أفضلهن عالما» «3»

في الدنيا و الآخرة.

ذلك- و ليس ذكر مريم سلام اللّه عليها مرات في الذكر الحكيم و تطهيرها و اصطفاءها إلّا ذودا عنها و ابنها المسيح (عليهما السلام) ملابساتهما من الشبهات التي لم يتورع اليهود و النصارى ان يلصقوها بهما، و إلا فلا دافع لذكر النساء بأسمائهن في القرآن كما لم يذكرن فيه إلا هي.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 23- أخرج الحاكم و صححه عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (ص) أفضل ...

و

فيه أخرج ابن مردوية عن أنس قال قال رسول اللّه (ص) أن اللّه اصطفى على نساء العالمين أربعة آسية بنت مزاحم و مريم بنت عمران و خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد (ص)،

و

أخرج أحمد و الترمذي و صححه و ابن المنذر و ابن حبان و الحاكم عن أنس أن رسول اللّه (ص) قال: حسبك من نساء العالمين ....

(2)

المصدر أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير عن فاطمة رضي اللّه عنها قالت قال لي رسول اللّه (ص): أنت سيدة نساء أهل الجنة لا مريم البتول.

(3)

المصدر أخرج ابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبي (ص) قال: أربع نسوة سادات عالمهن مريم بنت عمران و آسية بنت مزاحم و خديجة بنت خويلد و فاطمة بنت محمد (ص) و أفضلهن عالما فاطمة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 130

أم ان القدر المعلوم من «العالمين» عالمي زمانها الحاضر، ام و الغابر الى حواء، و اما المستقبل فلا، فلأن الاصطفاء ماض ف «العالمين» إذا ماضون، فلا يعني إلّا ماضيه في الماضين دون الآتين إلى يوم الدين، فالشمول لمن يأتي بحاجة الى دليل و ليس فليس.

صحيح ان العالمين في‏ «رَبِّ الْعالَمِينَ» يعمهم كلهم و لكنه بقرينة الرب المحلق ربوبيته على كلهم، و اما الخلق فقضية محدوديته هي محدودية العالمين إلا بدليل.

و اما الصديقة الطاهرة فهي حسب النص «خير نساء العالمين من الأولين و الآخرين» «1».

و حتى لو دل دليل على اصطفاء مريم على كل نساء العالمين- و لن- فآية التطهير ترفع دور فاطمة في العصمة الى القمة المحمدية الفائقة على كل العالمين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). مجمع البيان:

أي على نساء عالمي زمانك لأن فاطمة بنت رسول اللّه (ص) سيدة نساء العالمين‏ و هو قول أبي جعفر عليهما السلام‏

، و

في نور الثقلين عن أمالي الصدوق بإسناده إلى النبي (ص) أنه قال‏ أيما امرأة صلت في اليوم و الليلة خمس صلوات و صامت شهر رمضان و حجت بيت اللّه الحرام و زكت مالها و أطاعت زوجها و والت عليا دخلت الجنة بشفاعة ابنتي فاطمة عليها السلام و إنها لسيدة نساء العالمين، فقيل يا رسول اللّه هي سيدة عالمي زمانها؟ فقال (ص) ذاك مريم ابنة عمران و أما ابنتي فاطمة فهي سيدة نساء العالمين من الأوّلين و الآخرين و إنها لتقوم في محرابها فيسلم عليها سبعون ألف ملك من الملائكة المقربين و ينادونها بما نادت به الملائكة مريم فيقولون يا فاطمة إن اللّه اصطفاك و طهرك و اصطفاك على نساء العالمين.

أقول: و هذا النص متواتر من طريق الفريقين تواترا معنويا أنها أفضل من نساء العالمين من الأوّلين و الآخرين دونما استثناء و أنها سيدة نساء أهل الجنة (راجع ملحقات احقاق الحق (10: 69- 96) و سيدة نساء هذه الأمة (103: 115) تجد مئات الأحاديث من طرق إخواننا حيث تعني أفضليتها المطلقة على نساء العالمين في الدنيا و الآخرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 131

و مكثت بالبيت تعبد ربها متحررة للخدمة، مخلصة في القيام بالسدانة حتى صارت مضرب الأمثال، لان ربها «أَنْبَتَها نَباتاً حَسَناً وَ كَفَّلَها زَكَرِيَّا ...».

تقبلها ربها محررة للبيت و لا يحق لخادمة البيت، و المنذور لتلك الخدمة، المقبولة عند ربها، لا يحق لها خدمة أخرى، لزوج و سواه، فلا تفكر- إذا- في زواج و سواه ما استلزم الخروج عن البيت، او خدمته داخل البيت، و لا تعرضها فكرة الخروج لأية حاجة إذ كانت مكفولة الرب في كل حاجياتها محررة بالبيت.

إذا ففكرة الزواج او اختيار خطيب لها نائية عن خلدها، بعيدة عن تحررها، لأنها تنافي و نذر أمها و تقبل ربها بقبول حسن.

ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (43).

«ذلك» الذي أنبأناك من القصص‏ «مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ» و منها الاقتراع بشأن من يكفل مريم‏ «وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ» و ذلك بوحي من اللّه الى زكريا بشأن هذه الكفالة المختصم فيها بين القديسين‏ «وَ ما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ».

فقد كان هناك اختصام بشأن تلك الكفالة الكافلة لصالح مريم سلام اللّه عليها، فلأن القرعة لكل امر مشكل، أمروا بذلك الاقتراع حسما للموقف بما يشاء اللّه فيه، و علّه دون وحي خاص بكفالة زكريا رعاية لذلك الجمع القديس.

لقد كانت كفالتها فريضة بارزة لموقفها الخاص في تحررها، فمن يكفلها إذا بين هؤلاء المختصمين بشأنها و هم كلهم صالحون؟ لا سبيل صالحة لتلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 132

و لأن فاطمة سلام اللّه عليها لم تذكر بأي سوء حتى في ألسنة أعدائها فلا موجب لذكرها اللّهم إلا في جماع الطهارة و العصمة العليا مع أبيها و بعلها و بنيها كما في آية التطهير.

يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43).

ذلك التخصص في خطابها بمثلث القنوت و السجود و الركوع لربها، هو صورة لمّاعة من اصطفاءها على نساء عالمي زمانها و قبلها، حيث لم تخاطب من قبلها كآسية و سواها بذلك الخطاب الحنون، فهو خطاب رسالي مهما لم تكن هي من الرسل، تدليلا على القمة البالغة فيها مبلغ الرسل، فتخاطب كما يخاطبون و يوحى إليها كما يوحى إليهم اللّهم إلا وحي الرسالة.

«اقْنُتِي لِرَبِّكِ» في مطلق الطاعة و العبادة، ثم في خاصتها التي هي عمود الدين، المذكورة بأسمى سماتها في جموع المصلين‏ «وَ اسْجُدِي وَ ارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ».

فكما السجود و الركوع هما معنيان بعناية الصلاة، كذلك الإتيان بهما في جماعة لمكان «مع» الشاملة لكليهما، و ليس جمعهما إلا في الصلاة، فقد تأتي هذه الآية في عداد آيات فرض الجماعة في فرض الصلاة، ك «وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ» و «لا جُنُباً إِلَّا عابِرِي سَبِيلٍ» و هي سبيل المسجد مكانا لزاما للصلاة.

فليكن القنوت للرب، و المتمثل كأفضله في الصلاة، ليكن في جماعة القانتين، كشعيرة عظيمة جاهرة ليل نهار أمام الناظرين، فان‏ «مَعَ الرَّاكِعِينَ» تعم مثلث القنوت و السجود و الركوع.

فلقد نمت مريم و ترعرت و شبت و اشتد ساعدها و عمر قلبها بتقواها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 133

النمام الذي كان في أصحابه بالقرعة بتعليم اللّه سبحانه إياه‏

«و كان رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج اسمها خرج بها»

و

اقترع (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بين اهل الصفة لتخرج إلى من يبعثهم الى غزوة ذات السلاسل‏

و اقترع (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في غنائم حنين ليخرج سهم عيينة و الأقرع،

«و اقترع علي (عليه السلام) في الولد الذي كان بين ثلاثة»

و كذلك القرعة لتعيين الشاة الموطوئة التي دخلت بين الغنم و ليست بمعلومة «1».

و حين يقترع النبيون في المشاكل و هم اصحاب الوحي فأحرى بنا ان نقترع استنانا بسنتهم كما أمضاها اللّه تعالى.

و في ناصية الاقتراعات الرسالية ما اقترع رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم)

كان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه‏ «2».

كما

«فاقرع (صلى الله عليه و آله و سلم) بينهم و الحق الولد الذي اصابته- صارت عليه القرعة» «3».

«فاقرع بينهم فضمن الذي أصابته القرعة ثلثي الدية» «4».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

سفينة البحار 2: 425 عن الصادق (ع) و قد رواها كلها عن الأئمة المعصومين عليهم السلام و قد وردت زهاء ثلاثين حديثا في مختلف الأبواب في وسائل الشيعة كلها تقول ما معناه‏ «القرعة لكل أمر مشكل».

(2) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي 5: 367، أخرجه بألفاظ عدة باتحاد المعنى عن: خ هبة 15- جهاد 64- شهادات 15، 30- مغازي 34، 55- تفسير سورة 34، 6- نكاح 97- م ففضائل الصحابة 88، توبة 56، نكاح 38، جه نكاح 47، أحكام 20، دى جهاد 38، نكاح 26، حم 6، 114، 197، 269.

(3) المصدر د طلاق 32، ن نكاح 50، جه أحكام 20.

(4) المصدر حم 4، 373، و فيه: إن قوما اختلفوا في الأذان فأقرع بينهم سعد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 134

المصلحة الروحية القمة إلّا الاقتراع و هو هنا كان بأقلام الوحي حيث كانوا يكتبون بها، و ما أنسبها بالنسبة لمن يكفل بالوحي، والدة لصاحب الوحي العظيم المسيح (عليه السلام).

و لم يكن اختصام هؤلاء الكرام عدائيا كاللئام، و انما سباقا إلى رحمة اللّه و هم رفاق في اللّه و كما اختصم الملأ الأعلى‏ «ما كانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلى‏ إِذْ يَخْتَصِمُونَ» (38: 69) كما و اهل الجنة «يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَ لا تَأْثِيمٌ» (52: 23).

و لقد جرى في ذلك المجرى قلم زكريا في الماء على خلاف المجرى خرقا للعادة، تبيينا انه هو المخصوص هنا بكرامة الكفالة على كرامتهم جميعا فقضي الأمر كما أراد اللّه.

و ترى ما هي حدود القرعة حكميا و موضوعيا في شرعة اللّه؟.

حين نرى ان اللّه تعالى يرضى هنا بالاقتراع و لم يشكل عليه حكم و لا موضوع، و إنما رعاية لجمع القديسين، فبأحرى لنا الاقتراع حين يشكل لنا أمر في موضوع و قد انقطعت كافة السبل و البراهين لتعيين الموضوع.

لا أقول اننا نستنبط الحكم بالقرعة، حيث الأحكام العامة مبينة في الكتاب و السنة، فانما ذلك هو الموضوع المبين حكمه، المجهول مصداقه، كواجب الكفالة لمريم (عليها السلام)، ثم المصداق يتبين بالقرعة و اللّه عالم بالحكم و الموضوع، و لكن المصلحة تقتضي تعيين الموضوع بالقرعة حسما للاختصام، و تجنبا عن اي ترجيح بلا مرجح ظاهر.

إذا فالاختصام- صالحا و سواه- هو المورد الصالح للاقتراع إصلاحا للموقف و إيلافا للمختصمين، فأي قضية أعدل من القرعة إذا فوض الأمر الى اللّه تعالى لقوله‏ «فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ» و كما استعلم موسى (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 135

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 45 الى 58]

إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45) وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلاً وَ مِنَ الصَّالِحِينَ (46) قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47) وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ (48) وَ رَسُولاً إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49)

وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (50) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (51) فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى‏ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53) وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ (54)

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى‏ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (56) وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57) ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 137

إِذْ قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45).

هنا قالات ملائكية لمريم سلام اللّه عليها بما أوحى اللّه، تحمل البشارة بالمسيح (عليه السلام) مولدا و رسالة عالية بآيات لها، قرا لعينها و قرارا لقلبها، و تخفيفا عن وطئتها بحملها و وضعها دون بعل، «يا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ».

لقد تهدّرت الأيام و تهدلت، ففي يوم مّا و هي في محرابها اضطربت نفسها فجأة و داخلتها رهبة لم تعهدها من ذي قبل إذ تظهر أمامها ملاك الرب يبشرونها بوليد لها وجيه في الدارين، و لا وجه لوجيه و غير وجيه من عذراء لم يمسسها بشر و لم تك بغيا!.

في سائر القرآن آيات ثلاث تواصف المسيح بن مريم (عليهما السلام) ب «كلمة» ثانيتها: «أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيى‏ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ» (3: 39) و ثالثتها: «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى‏ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» (4: 171) فما ذا تعني كلمة اللّه بحقه (عليه السلام) و لم يوصف اي نبي و لا خاتم النبيين ب «كلمة»؟.

الكلمة لغويا هي ما تدل على معنى، شاملة للألفاظ الموضوعة على معانيها، و الموضوعات الدالة على واضعيها، و الأفعال الدالة على فاعليها و كيانهم فيها، أماذا من دلالات في دالات وضعية ام ذاتية ام قصدية أماهيه.

لذلك سميت ذوات محمد و المحمديين صلوات اللّه عليهم أجمعين اسماء هي هي الكلمات‏ «وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْماءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ» كما تقدمت في البقرة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 138

ذلك- إلّا ان اختصاص المسيح (عليه السلام) بوصف الكلمة يزيد على تلك الدلالة الأسمائية بما يخصصه بالكلمة.

فهو نتيجة كلمة «كن» و «اسْمُهُ الْمَسِيحُ» و ان كان كل مولود يكون عند قوله تعالى: «كن» فإن كل مولود سواه إنما يكون ب «كن» على طريق العلوق من الرجال، و وسيط اللقاح المتعود من الرجال، و ليس كذلك المسيح (عليه السلام) فليختص بخاصة «كلمة» لخاصة «كن» الخارقة في بعد ثان بحقه.

فهو الكلمة الملقاة الى مريم: «وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى‏ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» فالروح هو روحه و علّ الكلمة- إذا- هو جسمه: النطفة الرجولية الملقاة إليها دون وسيط رجل، ألقيت من المجرى التناسلي بدفع عبر عنه هنا بالإلقاء و في غيرها بالنفخ، و هما مشتركان في معنى الدفع.

و قد تعني كلمة المسيح- فيما عنت- كرور ذكره في منزلات كتب السماء المتقدمة لميلاده و رسالته، فلما خلقه اللّه قال: هذه كلمتي المتقدمة، فقد كانت البشارة- التي هي كلمة- ابتداء معرفته بواقعه، و المطرقة بين يدي مورده.

و كذلك كلمته التشريعية- إضافة إلى تكوينية- الدالة عليه، الهادية اليه.

و مهما شاركت المسيح سائر الكلمات تكوينية و تشريعية، لم يكن ليشاركه في «كن» الخارقة ولادة دون أب، اللهم إلّا آدم (عليه السلام) و لكنه- مع ذلك- لا يستحق كرامة هذه «الكلمة» لعدم ولادته هكذا و إنما خلق من تراب و لعدم جمعه سائر معاني الكلمة، إلا في بعضها عدّة و عدّة ضئيلة.

و مهما يكن من شي‏ء فكلمة اسمه المسيح تصدق كأصدقه على تكوينه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 139

الخارج عن المألوف، و قد ألقيت الى مريم لقاحا رجوليا دونما رجل!. «وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

«وجيها» عند اللّه، و عند المخصوصين باللّه و المقربين إلى اللّه‏ «وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ» و هم أفضل الوجهاء عند اللّه، و هم السابقون كل الخلق في معرفة اللّه و عبادته: «وَ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» (55: 11).

و المقربون هم الذين قربهم اللّه إليه بما تقربوا إليه سعيا لأعلى قممه، فأتم اللّه تقربهم إليه بما قربهم، فعصمهم من كل زلة و ضلة.

أجل‏ «إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ» ليس من صلب رجل و إنما بنفخ منه‏ «اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» و قد تعني تذكير «كلمة» هنا واقع ذكورة المسمّى، و أنها لا تعني- فقط- كلمة لفظية، بل و تكوينية هي واقع تكوينه المنقطع النظير.

و ذلك من غرائب القرآن و بدايعه و عجائبه، حيث يذكّر الكلمة في الضمير الراجع إليها رجعا الى معناها، فلو قال «اسمها المسيح» لألبس اللفظ إذ لم يتقدم هنا ذكر المسيح (عليه السلام) ما يؤمن الالتباس.

ثم نراها مؤنثة الضمير فيما أمن الالتباس‏ «وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى‏ مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ» حيث تقدمت هناك أسماء المسيح و تعريفاته التي تؤمن الإلباس.

او يقال تأنيث الضمير الراجع الى «كلمة» مرة و تذكيره أخرى دليل الجواز للصورتين اعتبارا لمجاز التأنيث.

أو أن المعنيين معنيّان، جمعا لأدب اللفظ إلى ادب المعنى، و ذلك من ميّزات القرآن العظيم، أن يجمع ميزات الألفاظ الى ميزات المعاني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 140

ثم‏ «الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ» هو أجمع اسم و أشمله له (عليه السلام)، و قد جاء المسيح إحدى عشر مرة، و عيسى بن مريم خمسة و عشرون مرة في القرآن كله، مما يدل على ان عيسى بن مريم هو اسمه الأصيل، و علّ المسيح لقب له يصفه.

وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا وَ مِنَ الصَّالِحِينَ‏ ففي المهد لما أشارت إليه‏ «قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا ...».

«و كهلا» و هو منذ ثلاثة و ثلاثين من سني عمره الشريف او العشرين حيث ابتدأ واقع نبوته و دعوته، و هو بين مهده و كهله لم يكلم الناس رساليا، و إنما في المهد رسوليا ذودا عن ساحته و أمه و كما كان يبشّر به بلسان يحيى (عليه السلام).

فنبوته- و هي بعد رسالته- ابتدأت منذ كهولته، مهما كان نبيا ينبأ بالوحي غير الرسالي بين المرحلتين، كما كان محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قبل بعثته‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 346 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بإسناده إلى محمد بن إسماعيل القرشي عمن حدثه عن إسماعيل بن أبي رافع عن أبيه قال قال رسول اللّه (ص): إن جبرئيل نزل علي بكتاب فيه خبر ملوك الأرض و خبر من بعث قبلي من الأنبياء و الرسل- إلى أن قال-: لما ملك أشج بن أشجان و كان يسمى الكيس و قد كان ملك مأتي و ستا و ستين سنة ففي سنة إحدى و خمسين من ملكه بعث اللّه عز و جل عيسى بن مريم (ع) و استودعه النور و العلم و الحكمة و جميع علوم الأنبياء قبله و زاده الإنجيل و بعثه إلى بيت المقدس إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى كتابه و حكمته و إلى الإيمان باللّه و برسوله فأبى أكثرهم إلّا طغيانا و كفرا فلما لم يؤمنوا به دعا ربه و عزم عليه فمسخ منهم شياطين ليريهم آية فيعتبروا فلم يزدهم ذلك إلّا طغيانا و كفرا فأتى بيت المقدس فمكث يدعوهم و يرغبهم فيما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 141

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عند اللّه ثلاثا و ثلاثين سنة حتى طلبته اليهود و ادعت أنها عذبته و دفنته في الأرض حيا و ادعى بعضهم أنهم قتلوه و صلبوه و ما كان اللّه ليجعل لهم عليه سلطانا و إنما شبه لهم و ما قدروا على عذابه و دفنه و لا على قتله و صلبه لقوله عز و جل‏ «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» فلم يقدروا على قتله و صلبه لأنهم لو قدروا على ذلك لكان تكذيبا لقوله و لكن رفعه اللّه بعد أن توفاه فلما أراد أن يرفعه أوحى إليه أن يستودع نور اللّه و حكمته و علم كتابه به شمعون ابن حمون الصفا خليفته على المؤمنين ففعل ذلك.

و

فيه عن الرضا (ع) قد قام عيسى (ع) بالحجة و هو ابن ثلاث سنين، و فيه 257 عنه (ع) قال: إن اللّه احتج بعيسى (ع) و هو ابن سنتين.

و

في بحار الأنوار 14: 256 عن الكافي الحسين بن محمد عن الخيراني عن أبيه قال‏ كنت واقفا بين يدي أبي الحسن (ع) بخراسان فقال له قائل: يا سيدي إن كان كون فإلى من؟ قال: إلى أبي جعفر ابني، فكأن القائل استصغر سن أبي جعفر عليهما السلام فقال أبو الحسن (ع): إن اللّه تبارك و تعالى بعث عيسى بن مريم عليهما السلام رسولا نبيا صاحب شريعة مبتدأة في أصغر من السن الذي فيه أبو جعفر.

أقول: لا يدل «أصغر» هنا على أنه منذ مهده، فلعله كان منذ سبع أو ثمان قبل التسع التي كان عليها أبو جعفر (ع) و كما

في البحار 14: 255 عن الكافي عن يزيد الكناسي قال: سألت أبا جعفر (ع) كان عيسى بن مريم عليهما السلام حين تكلم في المهد حجة اللّه على أهل زمانه؟

فقال: كان يومئذ نبيا حجة اللّه غير مرسل أما تسمع لقوله حين قال: «إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ»؟ قلت:

فكان يومئذ حجة اللّه على زكريا (ع) في تلك الحال و هو في المهد؟ فقال: كان عيسى في تلك الحال آية للناس و رحمة اللّه من اللّه لمريم عليها السلام حين تكلم فعبّر عنها و كان نبيا حجة على من سمع كلامه في تلك الحال، ثم صمت فلم يتكلم حتى مضت له سنتان و كان زكريا الحجة للّه عز وجل على الناس بعد صمت عيسى (ع) بسنتين ثم مات زكريا (ع) فورثه ابنه يحيى الكتاب و الحكمة و هو صبي صغير أما تسمع لقوله عز و جل: «يا يَحْيى‏ خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا»، فلما بلغ عيسى سبع سنين تكلم بالنبوة و الرسالة حين أوحى إليه فكان عيسى الحجة على يحيى و على الناس أجمعين و ليس تبقى الأرض يا أبا خالد يوما واحدا بغير حجة على الناس منذ خلق اللّه آدم (ع) و أسكنه الأرض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 142

فلو أنه كان يكلم الناس رساليا بينهما كما فيهما لكان صحيح العبارة عنه «و يكلم الناس طول عمره- او- منذ مهده إلى صعوده» و لكنه‏ «فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا» كما يقال مرجعنا مرجع للتقليد في ايران و في باكستان، حيث لا يعني أنه كذلك مرجع في البلاد الفاصلة بينهما فان حق تعبيره- إذا- في ايران الى باكستان.

فقد كان تكليمه الناس‏ «فِي الْمَهْدِ» بشارة تمهيدية لرسالته كهلا، و ذودا عن ميلاده و صمة الرجس، فهو يحمل خارقة حالية في أصل تكليمه و هو وليد سويعات، و أخرى استقبالية حيث يكلمهم رساليا «كهلا».

كما و أن تكليمه «كهلا» و هو في نفسه خارقة، تحقيقا لكلامه في المهد، نور على نور يهدي اللّه لنوره من يشاء.

و نرى كهلا يحض فقط السنّي الثلاث لرسالته الظاهرة؟ و هي ثابتة منذ بعثه الى ابتعاث محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)!.

إن تكليمه «كهلا» ينقسم إلى التكليم الرسالي منذ بعثه الى صعوده جاهرا ظاهرا، و تكليمه برسالته منذ صعوده حتى مبعث الرسول محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم)، ثم و تكلمه بغير الرسالة الفعلية حين ينزل و يصلي خلف الإمام المهدي (عليه السلام)، فإنه منذ الرسالة المحمدية أصبح من أمته (صلى اللّه عليه و آله و سلم) دون عزل عاضل قاحل، و إنما هو انعزال فعلي بشأن الائتمام بمن هو أفضل منه، على عصمته و قداسته الرسالية السامية، حيث العصمة لا تختص بالرسول و الإمام معه أو بعده، فقد حمل العصمة الثالثة بعد الأولى و هي نفسها إلا الرسالة.

و لئن رفع المسيح (عليه السلام) و له ثلاث و ثلاثون سنة و الكهل ما اجتمع قوته و كمل شبابه مأخوذا من اكتهل النبات إذا قوي، ففي غالب الظن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 143

أنه بدأ بالدعوة الرسالية منذ العشرين، إلّا إذا دل دليل قاطع على أكثر منه، و

قد يروى عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ان سني دعوته الرسالية بشخصه كانت ثلاث و ثلاثين سنة، إذا فقد يكون صعوده في ثلاث و خمسين من عمره الشريف، و رسالته منذ كهولته كما تلمحناها من «و كهلا» و يدل عليه الإنجيل‏ «1».

و ترى ما هو دور «وَ مِنَ الصَّالِحِينَ» هنا، بعد «وَجِيهاً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ» هناك؟

قد تعني‏ «مِنَ الصَّالِحِينَ» الصلوح لتلك الرسالة العظمى و النبوة العليا، دون مطلق الصلاح الشامل لمطلق الوجهاء و المقربين.

ذلك- و كما يلتمسه سليمان النبي‏ «وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ» (27: 19) و أفضل منه ابراهيم من قبل‏ «رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» (26: 83)- «وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» (29: 27).

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). في إنجيل يوحنا 1: 19: 27: و هذه شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة و لاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف و لم ينكر و أقر إني لست أنا المسيح فسألوه إذا ماذا؟ إيليا أنت؟ فقال:

لست أنا، النبي أنت؟ فأجاب لا، فقالوا من أنت لنعطي جوابا للذين أرسلونا ماذا تقول عن نفسك؟ قال: أنا صوت صارخ في البرية، قوّموا طريق الرب كما قال أشعياء النبي و كان المرسلون من الفريسيين فسألوه و قالوا له ما بالك تعمد إن كنت لست المسيح و لا إيليا و لا النبي أجابهم يوحنا قائلا: أنا أعمد بماء و لكن وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي الذي صار قدامي الذي لست بمستحق أن أحل سيور حذائه».

أقول: فقد كان المسيح قائما بينهم و هم لا يعرفونه بالرسالة الفعلية و كيف يقوم بينهم و هو في المهد صبيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 144

هذا- و قد تعني‏ «مِنَ الصَّالِحِينَ» فيما عنت تحليق الصلاح على كل كيانه، كعبارة ناطقة عن كل نبوة الصلاح و حلقاته بعد ما ذكر قسم منها عظيم، فهو إذا تعميم بعد تخصيص.

قالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قالَ كَذلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ ما يَشاءُ إِذا قَضى‏ أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ‏ 47.

«قالت» محتارة من بشارة الولادة «رب» الذي ربيتني تكوينيا لا أنتج ولدا إلا بأسبابه المقررة عندك، و تشريعيا إذ طهرتني عن كل سوء و فحشاء ف «أنى» بالإمكان عاديا «أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ» لا حلا و لا- عوذا بك- حراما: «أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا» (19: 20).

«قالَ كَذلِكِ» البعيد في حساب الخلق، العظيم الكريم في تكريم من يشاء «يَخْلُقُ ما يَشاءُ» بمشيئة طليقة دونما رادع أو مانع‏ «إِذا قَضى‏ أَمْراً» ليكون أيا كان، فليس يحتاج إلى تقدمات هو مقرّرها و مقدّرها في متعوّد التكوين‏ «فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ» و هو قول الإرادة الربانية و لا مخاطب له إلا التكوين دون الكائن به فانه من تكوين الكائن‏ «كُنْ فَيَكُونُ» دونما نظرة لآمر آخر او أمر آخر.

وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ‏ 48.

علّ «الكتاب» هنا- و هو جنسه- كل كتابات السماء النازلة قبله، و ذلك من شروطات كل رسالة لاحقة أن يعلّم رسولها سابقتها بسابغتها، حيث الرسالات ككل هي سلسلة موصولة بعضها ببعض، صادرة عن مصدر واحد، واردة إلى امة واحدة، مهما اختلفت شكليات و طقوس ظاهرية فيها.

و «الحكمة» هنا بعد الكتاب، هي تحكيم عرى الوحدة بين كتابات السماء في خلد الرسول، كما هو بأحرى تحكيم الإنجيل عن أي إنفلات في لفظه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 145

او معناه، استفسارا لبعضه ببعض، و استيحاء فيما يحتاج الى تفسيره من اللّه.

و ذلك بعد تحكيم فطرته و عقليته و كل إدراكاته و إحساساته بالعصمة البشرية و الإلهية تحكيما عن كل انفراط و انحطاط ليكون حكيما في حمل رسالة السماء و الدعوة الرسالية الى اللّه.

ثم «التورية و الإنجيل» هما أهم مصاديق «الكتاب» قبل القرآن، و أتمها رباطا بالرسالة العيسوية، حيث التوراة تحمل شريعة الناموس التي لم تبدل في الإنجيل إلّا نذرا.

و مما يلمح له إفراد «التورية و الإنجيل» وحدة كلّ منهما، دون كثرة مختلقة و لا سيما في الإنجيل.

وَ رَسُولًا إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ‏ 49.

أ تراه فقط «رَسُولًا إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ» دون كافة المكلفين؟ و كما يروى‏ «1» و ولاية العزم في رسالة يحملها المسيح تقتضي طليق الرسالة و الدعوة دون اختصاص!.

إنه‏ «رَسُولًا إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ» كمبدء الدعوة و منطلقها كما كانت لموسى و ابراهيم و نوح (عليهم السلام)، و كذلك هذا النبي (صلى اللّه عليه و آله‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 343 في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بإسناده إلى محمد بن الفضل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام حديث طويل يقول فيه: ثم إن اللّه عز و جل أرسل عيسى (ع) إلى بني إسرائيل خاصة فكانت نبوته ببيت المقدس.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 146

و سلم) الذي بدأت رسالته في العرب ثم الى الناس كافة.

و هذه طبيعة الحال لكل داعية ان يتبنى في البداية كتلة خاصة هم اقرب اليه و أحوج الى الدعوة ام و أحرى لحملها الى سائر المدعوين، و قد بلغت عامة الرسالة العيسوية لحد «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» (4: 159) و هي كالرسالة الموسوية: «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى‏ بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (28: 43).

ذلك! مع تصاريح عدة في آيات ان الرسولين أرسلا إلى بني إسرائيل كأم الدعوة في قراها توحيدا و توطيدا لعراها: «وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى‏ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا» (28: 59).

ثم و طبيعة الحال في رسالة ناسخة لما قبلها و إن في حكم واحد، أن تشمل كافة المكلفين، ذودا عن اي ترجيح بلا مرجح، و توحيدا للشرعة الحاكمة على العالمين في كل دور من أدوار الشرايع الخمس‏ «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ» (42: 13) إذا فكيف بالإمكان تفرق شرعة اللّه في دور واحد و بإذن اللّه: «وَ لا يَزالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَ لِذلِكَ خَلَقَهُمْ» (11: 119) و حاكمية اكثر من شرعة واحدة في دور واحد هي حاكمية الاختلاف القاصد و هو خلاف الرحمة.

و اما واقع اتباع شرائع عدة في طائل الزمن الرسالي، فليس الا من واقع التخلف عن شرعة اللّه ما لم يأذن به اللّه، حيث أمرنا «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ»!.

«و رسولا ... أني» و ذلك هو القالة الثانية بعد دعوى الرسالة «أَنِّي قَدْ

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 147

جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ» ربانية على ما أدعيه من رسالة، آية قاطعة قاصعة أنني رسول من اللّه، فليست- إذا- إلّا خارقة ربانية لا يستطيع عليها أحد إلا اللّه: «أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ» كوسيط في تحقيق تخليق الآية الرسالية و «هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ» (35: 3) فنسبة الخالقية إلى المسيح (عليه السلام) ليست إلّا بوساطة فيها و الخالق هو اللّه، كما الوالد والد أصالة و قد يعبر عنه بالخالق وسيطا لخلق اللّه‏ «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» (40: 62).

«أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ» فهنا أذنان تكوينيان: خلقا كهيئة الطير و هي الهيئة الجسدانية للطير بالأجزاء الحيوانية عظما و لحما و عروقا و دما و ريشا، ثم نفخا فيه تكوينا لروح الطير:

«... وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيها فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي ...»

(5: 110) ف «بإذني .... بإذني» تحلقان على كلا الخلقين: خلق جسم الطير ثم خلق روحها.

إذا فلا دور للمسيح هنا في «اخلق» إلا اختلاق صورة طينية من الطير، قد يفوقه فيه عمال التماثيل، و أما تحوّل الهيئة الطينية هيئة جسدانية للطير، ثم نفخ الروح فيها فتكون طيرا، أما هما فليسا إلّا بإذن اللّه.

و دور المسيح هنا، الممتاز عمن سواه، أنه يحمل آية ربانية دالة على رسالته، أن اللّه يأذن لما صنعه أن يكون كهيئة الطير، و يأذن بما نفخ فيها أن تكون طيرا، تدليلا على اختصاصه باللّه، و ما هو هنا إلّا رسالة اللّه.

فلا دور للمسيح في خلق كشريك للّه، أو مخوّل من عند اللّه، و عوذا باللّه! فإنما يحمل آية ربانية على اختصاصه بكرامة الرسالة، دون أن يحيط علما أو قدرة بآية اللّه، و إلا لم تكن آية خاصة باللّه، ليعرف من خلالها رسالة اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 148

و هكذا تكون كافة الآيات الرسالية لكافة رسل اللّه بأسرها في حصرها باللّه، دون تدخّل لهم فيها مستقلين فمستغلين، و لا مخوّلين، و لا شركاء للّه في آيات اللّه، فإنما هم رسل اللّه فيما يأتون به من آية رسولية أو رسالية، ليس لهم من الأمر شي‏ء تكوينا و لا تشريعا، فانما هم حملة شرعة اللّه بعصمة ربانية تعصمهم عن الخطإ في البلاغ بأبعاده تحملا للوحي و إبلاغا و تطبيقا شخصيا و جماعيا.

ذلك! و كذلك الثلاثة الأخرى بأضرابها من آيات رسولية او رسالية:

«وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ» و هو المولود مطموس العين، أو أعم منه و من الضرير بعد كونه بصيرا «و الأبرص» الأبيض الجلد بعضا، و هو داء معروف يصيب الجلد «وَ أُحْيِ الْمَوْتى‏» و كل ذلك كما الطير في بعدية «بِإِذْنِ اللَّهِ» لا سواه: «وَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتى‏ بِإِذْنِي» (5: 110) كذلك‏ «وَ أُنَبِّئُكُمْ بِما تَأْكُلُونَ وَ ما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ» بإنبائي، آيات اربع تتجاوب في كونها آية للرسالة العيسوية «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

هذه خطوة أولى لهذه الرسالة السامية تثبت نفسها، و من ثم كتصديق لها و بيان لمادتها الأصيلة:

وَ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ‏ 50.

فتصديق ما بين يديه من التوراة تصديق لرسالة الإنجيل فإن رسالات السماء تتجاوب في جذورها مهما اختلفت في بعض شواكلها، إلا أن رسالة الإنجيل هي هي رسالة التوراة اللهم إلا في تحليل بعض المحرمات الابتلائية او العقابية: «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ..»

(4: 160) و من هذه الطيبات:- «وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 149

الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ» (6: 146).

و منها: «وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ» (7: 163).

فقد تكفي في ولاية العزم بعض الاختلاف بين أحكام الشرعتين نسخا او تكميلا، توسيعا او تضييقا، و شريعة الإنجيل تابعة لشريعة التوراة إلا في تحليل البعض مما حرم في التوراة.

لذلك ترى رسل الجن يعتبرون شرعة القرآن بعد التوراة دون ذكر للإنجيل: «قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى‏ ...» (46: 29).

فإنما الدعوة الرسالية المسيحية تركز على التصليحات الخلقية في الجو اليهودي القاسي، و تخليص التوراة عما تدخّل فيها من تحريفات و تجديفات، رفعا لأعلام شريعة الناموس‏ «1».

ذلك- و قد يصدقه الإنجيل نقلا عن المسيح (عليه السلام): «لا تظنوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 344 في تفسير العياشي عن محمد الحلبي عن أبي عبد اللّه (ع) قال: كان بين داود و عيسى بن مريم أربعمأة سنة و كان شريعة عيسى (ع) أنه بعث بالتوحيد و الإخلاص و بما أوصى به نوح و إبراهيم و موسى و أنزل عليه الإنجيل و أخذ عليه الميثاق الذي أخذ على النبيين و شرع له في الكتاب إقام الصلاة مع الدين و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و تحريم الحرام و تحليل الحلال و أنزل عليه في الإنجيل مواعظ و أمثال و حدود ليس فيها قصاص و لا أحكام حدود و لا فرض مواريث و أنزل عليه تخفيف ما كان نزل على موسى في التوراة و هو قول اللّه في الذي قال عيسى ابن مريم لبني إسرائيلى‏ «وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ» و أمر عيسى من معه ممن اتبعه المؤمنين أن يؤمنوا بشريعة التوراة و الإنجيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 150

أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى و علّم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات. و أما من عمل و علم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السماوات» (متى 5: 17- 19) «1».

فالإنجيل تكملة و إحياء لروح التوراة، و لروح الدين المطموسة في قلوب بني إسرائيل.

فالتوراة هي قاعدة الإنجيل، حيث تحمل الشرعة التي يقوم عليها نظام المجتمع و لم يعدل فيها الإنجيل إلا القليل، فإنما هو نفخة إحياء و تجديد لروح الدين، و تهذيب و تليين للضمير القاسي الإسرائيلي.

ثم‏ «وَ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» تعني الآية الرسالية و عديدها و مديدها كوحيدها لأنها تتجه إلى جهة واحدة مهما توحدت أو كثرت.

فلما اكتملت الادلة الرسولية و الرسالية و تبين القصد من هذه الرسالة، إذا «فَاتَّقُوا اللَّهَ» عن خلافي «و أطيعون» فيما أدعوا اليه:

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ‏ 51.

ذلك هو أول الأحكام العقائدية المسيحية و كما في (مرقس 12: 29):

«أول الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحد» و «ان الحياة الابدية معرفة الله بالوحدانية و ان المسيح رسوله» (يوحنا 17: 3).

ذلك! فالهرطقات الدخيلة الكنسية الانجيلية في انه «ابن اللّه» (متى 3: 17) و «أول مواليده» (رعب 1: 9) و انه «هو الله و الكلمة»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و قد يشير هنا السيد المسيح (ع) بمن هدّم بناية شريعة الناموس و هو بولص و معناه الصغير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 151

(يوحنا 1: 1) «الأزلي» (وعب 9: 14) و مثل يهوه: «اللّه» (متى 23: 34 و لوقا 11: 49) و ما أشبه، هذه الخرافات المتخلفة عن شرعة اللّه هي من الدخائل الشركية المتسربة المترسبة في الأناجيل! أم مؤوّلة، فقد تعني الكلمة التي هو اللّه كلمة القدرة الذاتية، و التي عند اللّه كلمة القدرة الفعلية و من مظاهرها السيد المسيح و سائر الخليقة.

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسى‏ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ‏ 52.

لقد «أَحَسَّ عِيسى‏ مِنْهُمُ الْكُفْرَ» بقالاته الرسالية الخمس و أهمها خامستها: «وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ» و لم يكن الكفر فقط من اليهود الناكرين لرسالته، المتهمين إياه أنه وليد السفاح، بل و ممن صدقه و لكنه غالى فيه أنه ابن اللّه أو اللّه، فقد هلك فيه اثنان محب غال و مبغض قال، معركة مصيرية صاخبة لا بد من علاجها الصارم، ليس يقوم به وحده فليطلب أنصارا إلى اللّه، ف: «قالَ مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ»؟

«أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ» لا «أنصاري مع الله» خلاف ما قد يهرف بما لا يعرف من مداليل الكلام توجيها ل «إِلَى الْمَرافِقِ» في آية الوضوء لتكون «مع المرافق» تحويلا عليلا لدلالته المزعومة على غاية الغسل في اليدين و هي تعني غاية المغسول «اغسلوا أيديكم» الكائنة «إِلَى الْمَرافِقِ».

أجل‏ «أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ» إذ لا معية في نصرة اللّه أن يستنصر المسيح كتلة مع اللّه، شركاء ثلاث فيما يريده اللّه! و لا معنى للمعية هنا فان اللّه غاية في مسرح التوحيد و ليس سبيلا.

فإنما تعني‏ «أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ» هنا ما تعنيه في الصف: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ‏ ... قالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 152

وَ كَفَرَتْ طائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى‏ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ» (14) أن يتناصروا في سبيل اللّه و الحفاظ على دين اللّه، لا أن يشاركوا اللّه في النصرة الى اللّه‏ «1».

إن نصرة اللّه لا تعني إلّا نصرة دين اللّه، و أما النصرة مع اللّه فقد تكون إشراكا باللّه‏ «وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ» (29: 22) «وَ كَفى‏ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَ كَفى‏ بِاللَّهِ نَصِيراً» (4: 45).

و انما سميت النصارى نصارى لأنهم- في ذلك المسرح الحاسم- أصبحوا أنصار المسيح إلى اللّه فهم- إذا- أنصار اللّه بنفس المعنى لا أنهم أنصاره مع اللّه!.

«أَنْصارُ اللَّهِ» هم أنصار الى اللّه و في اللّه، و ليسوا أنصار المسيح أمن سواه مع اللّه، و تقدير «مع» غير وارد في الاضافة بتاتا، فانما المقدر فيه بين «من- الى- في» و الأوسط هو المعني هنا كما تطلبه المسيح (عليه السلام) مهما صحت «في».

و كما تعني‏ «أَنْصارُ اللَّهِ» أنصارا الى اللّه، كذلك تعنيه‏ «آمَنَّا بِاللَّهِ وَ اشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» فهل انهم بعد أنصار مع اللّه، ايمانا مع اللّه باللّه؟ فبمن يؤمن اللّه و المسيح و الأنصار؟! «أَنْصارِي إِلَى اللَّهِ» و «أَنْصارُ اللَّهِ» و «آمَنَّا بِاللَّهِ» تعبيرات ثلاث عما تطلبه المسيح (عليه السلام) منهم في هذه المعركة الصاخبة.

فلقد كانت ضرورة رسولية و رسالية ذلك الاستنصار في بزوغ الدعوة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع تفسير آية الفرقان (28: 319- 321).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 153

حيث ابتليت بإحساس الكفر و هو ظهوره، و هذه هي قضية كل دعوة أنها إذا بزغت عارضته النكران و المعارضة، فلا بد للداعية أن يستخلص من الجموع كتلة مؤمنة صامدة ليمضي معهم قدما في دعوته، فلا تذهب هملا و سدى منذ بدايته، و كما فعله رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في بيعة العقبة و الرضوان، تركيزا للطاقات و تجميعا للقوات لاستقامة امر الدعوة.

رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ‏ 53.

و تلك هي غاية الايمان بالرسول ان يكونوا معه أنصارا الى اللّه، ايمانا باللّه إسلاما للّه و ايمانا بما انزل اللّه و برسول اللّه، و قد يكون ذلك الايمان الصامد ايحاء لهم من اللّه اضافة الى ايمانهم سلفا باللّه: «وَ إِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قالُوا آمَنَّا وَ اشْهَدْ بِأَنَّنا مُسْلِمُونَ» (5: 111) مما يدل على قمة الإيمان و الإسلام بالوحي، فهم- إذا- أصبحوا رسلا مع المسيح تحت ظله، و لا تجد تنديدا بهم في الذكر الحكيم إلّا تبجيلا و تجليلا بمثلث الوحي و الإيمان و الإسلام.

و ترى‏ «فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ» تعني شهادة الأعمال يوم يقوم الأشهاد، علّه هو مهما عنت معه سواه، فكما المسيح شاهد من الشهود يوم يقوم الأشهاد «فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ» هناك و منهم السيد المسيح إذ نحن معه أنصار الى اللّه.

و قد تعني- مع ما عنت- الشهادة على تبليغ الرسالة بعد ما شهدوا على حقيقتها، فهذه معية مثلثة بمثلث الشهادات، بفارق ان العبارة عن الأخريين «من الشاهدين» و تختص «مع» بالأولى.

و قد تعني رابعة هي الشهادة على التوحيد في الشاهدين‏ «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ» طلبا ان يكتبهم مع اولي العلم: النبيين، في تلك الشهادة الغالية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 154

و خامسة هي شهود اللّه ببصيرة القلب و حقيقة اليقين و كما يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): اعبد ربك كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك.

و سادسة هي شهود العراقيل، و تحمّلها في سبيل الدعوة، أماهيه من شهادات لابقة لائقة بمن هو من أنصار اللّه.

وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ‏ 54.

«و مكروا» هؤلاء الذين كفروا و أحس عيسى منهم الكفر، دون الحواريين- و عوذا باللّه- إذ هم حقا آمنوا باللّه كما و صدقهم اللّه، فانما الماكرون هم الكافرون من اليهود حيث اشتروه بثمن بخمس دراهم معدودة و سلموه- فيما زعموه- الى الصليب، و كما يندّد بهم في الآية التالية «وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» و يعظم موقف الحواريين‏ «وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ ...».

لقد اغتالته اليهود ليقتلوه و يصلبوه بمكر مكروه‏ «وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ»: «وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَ إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَ كانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً. وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» (4: 159).

و تراهم كيف مكروا؟ و ليس القتل و الصلب مكرا إلا تخفيا و اغتيالا!؟.

«وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ» في القدر المعلوم مما تعنيه تبين‏ «وَ مَكَرَ اللَّهُ» أنه ألقي صورة المسيح على ما كره فصلب بديلا عنه و رفعه اللّه، فليس الرفع الجاهر مكرا، انما هو بعد إلقاء صورة المسيح على ما كره و رفعه خفية ف «شبه لهم»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 155

ان المصلوب هو المسيح بما مكروا «ما لهم به من علم الاتباع الظن ..»! و اما كيف مكروا؟ «وَ لكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ» تلمح انهم دلوا عليه حيلة و غيلة.

و المكر في أصله سعي بالفساد في خفية و مداجاة، و هو هو في الماكرين الضالين من الخلق، و هو المقابلة بعملية خافية عدلا و جزاء وفاقا من اللّه إصلاحا لما أفسد الماكرون.

و قد يروى ان المسيح مع تلاميذه كانوا في غرفة منعزلة عن بأس اليهود المتربصين به دائرة السوء فدلهم واحد منهم او من اليهود و هو «يهودا أسخر يوطي» «1» على مكانه فالقى اللّه شبهه عليه فصلب بديلا عنه، و رواية الصلب المفصلة عائدة الى آية النساء، و عندها قول فصل حول تلك المحاولة الماكرة و ما مكرهم اللّه ذودا عن ساحة المسيح (عليه السلام).

هنا «شبه لهم» دون «عليهم» لئلا يخيل إلينا انه مجرد شبهتهم في قتله او

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اتفقت النصارى على أن يهوذا الأسخر يوطي هو الذي دل على يسوع المسيح (ع) و كان رجلا عاميا من بلدة «خريوت» في أرض يهوذا، تبع المسيح و صار من خواص أتباعه و حوارييه الاثنى عشر و من الغريب أنه كان يشبه المسيح في خلقه كما نقل (جورج سايل) الإنكليزي في ترجمته للقرآن فيما علقه على سورة آل عمران، نقل و عزى هذا القول إلى (السيرنثيين و الكربوكراتيين) من أقدم فرق النصارى الذين أنكروا صلب المسيح و صرّحوا بأن الذي صلب هو يهوذا الذي كان يشبهه شبها تاما.

أقول: في كون يهوذا من الحواريين و أنه كان يشبه المسيح (ع) نظر، حيث ان الحواريين ممدوحون في القرآن و موحى إليهم في الإيمان بالمسيح فهم رسل المسيح من قبل اللّه لا يتطرق إليهم أي فسوق فضلا عن تلك الخيانة الكبرى.

ثم «شبه لهم» صريحة في حدوث تلك الشبهة، فتنافى كونه شبيهه خلقا.

فالظاهر أنه كان من اليهود الذين دخلوا بين المؤمنين غير الحواريين، فمكر مكره و مكر اللّه و اللّه خير الماكرين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 156

صلبه، بل و «شبه» غير المسيح كالمسيح «لهم» هؤلاء الذين أرادوا قتله، و اما الحواريون فقد بشرهم المسيح ان اللّه رافعه اليه و ان «ايدي اليهود لم تمسه»:

«فأرسل الفريسيون و رؤساء الكهنة خداما ليمسكوه. فقال لهم يسوع انا معكم زمانا يسيرا بعد ثم امضي الى الذي أرسلني ستطلبونني و لا تجدونني و حيث أكون انا لا تقدرون أنتم ان تأتوا» (يوحنا 7: 32- 34).

و فرية المكر على بعض حواري المسيح (عليه السلام) تدفعها صيانة الحواريين حسب القرآن، و أن ضمير الجمع في «مكروا» راجع الى «الذين كفروا» مهما تقدم واحد منهم لتحقيق مكرهم أن دلهم على مكانه مكرا بما اشتروه منه بثمن بخس دراهم معدودة ليحققوا مكر القتل و الصلب بحقه او و ان يهوذا كان حسب الظاهر من حوارييه منافقا في مظهره فدل على مكانه.

إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسى‏ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَ رافِعُكَ إِلَيَّ وَ مُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ‏ 55.

«وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ‏ ... إِذْ قالَ اللَّهُ» فالمكران هما متقارنان، و توفّيه (عليه السلام) و رفعه هما من تتمة مكر اللّه حيث «شبه لهم» أولا و رفعه أخيرا فنجاه من بأسهم و بؤسهم.

و ترى‏ «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ» تعني توفي الموت؟ و هو حسب اللغة و مصطلح القرآن أعم من الموت! فهو لغويا الأخذ وافيا، سواء كان توفيا يحلق على الإنسان إماتة: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ» (32: 11) حيث يأخذ الأرواح و الأجساد في قبضة الصيانة فلا تضل عنه مهما ضلت عمن سواه، ام إنامة: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنامِها» (39: 42) حيث تضم النوم الى خضمّ التوفي و هو أخذ الروح الانسانية عن البدن و الروح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 157

الحيوانية باقية بقية للحياة، و هما يتشاركان في أخذ الروح الانسانية عن البدن كاملة.

ذلك، و من التوفي أخذ الإنسان بكلا جزئيه عن مسرح الحياة الارضية الى حياة سماوية دون إماتة موتا ام نوما و هذا هو المستفاد من جماع الآيات بحق المسيح (عليه السلام)، فليس التوفي هو الإماتة بعينها مهما كانت منها حيث يتوفى الموت: «فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ» (4: 15) و الموت لا يميت و انما يأخذ الإنسان وافيا طليقا كما يأخذه النوم نسبيا غير طليق، و ثالث يأخذه وافيا دون إماتة و لا إنامة.

فهنا «وَ رافِعُكَ إِلَيَّ» تعني مسرح الأمن عن بأس الكفار «و مطهرك» أمن عن لعنة الصلب المختلقة بينهم، و قد يكفي رفعه الى سماءه تطهيرا له عن بأسه في بعدي الصلب، قتلا و لعنا ... صحيح ان اللّه ليس له مكان حتى تعني‏ «رافِعُكَ إِلَيَّ» مكانا للّه، و لكنه قد يعني مكانا عليا كما تعنيه في إدريس (عليه السلام): «وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا» (19: 57) و كما تعنيه- ايضا- آيات الرجوع الى اللّه، و الحياة عند اللّه‏ «بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ» و الرحمة لدى اللّه، إذا «رافِعُكَ إِلَيَّ» رفع له الى مكان الأمن و مكانة الرحمة غير الخليطة بأية زحمة و كما و صفت‏ «إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيها وَ لا تَعْرى‏. وَ أَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَ لا تَضْحى‏».

ذلك، و تزيده وضوحا آية النساء: «... وَ ما قَتَلُوهُ يَقِيناً. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ‏ ... وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً» (159).

فلأن أهل الكتاب حتى المسيحيين منهم لم يؤمنوا به حتى الآن فهو- إذا- حي إلى الآن و سوف يؤمنون به زمن القائم المهدي (عليه السلام) لما يرونه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 158

يصلي وراءه (عليه السلام)، و كما

«قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) لليهود إن عيسى لم يمت و انه راجع إليكم قبل يوم القيامة» «1».

ثم التحول من مسرح الحياة الأرضية لا يخرج عن خمس تحولات: قتلا- صلبا- موتا- نوما- و انتقالا الى حياة فوق الارضية في جنة من الكواكب‏ «2» قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 36 قال الحسن قال رسول اللّه (ص) لليهود ...

و

في نور الثقلين 1: 571 شهر بن حوشب‏ يسأله الحجاج يا شهر! آية في كتاب اللّه قد أعيتني، قال: أيها الأمير أية آية هي؟ فقال قوله: «وَ إِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ» و اللّه إني لأمّر باليهودي و النصراني فتضرب عنقه ثم أرمقه بعيني فما أراه يحرك شفتيه حتى يخمد فقلت أصلح اللّه الأمير ليس على ما تأولت قال: كيف هو؟ قلت: إن عيسى ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا فلا يبقى أهل ملة يهودي و لا غيره إلّا آمن به قبل موته و يصلي خلف المهدي (ع) قال: ويحك أنى لك هذا و من أين جئت به؟ فقلت: حدثني به محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، فقال: جئت و اللّه بها من عين صافية.

(2)

البحار 14: 335- لي: بإسناده عن حبيب بن عمر قال: لما توفي أمير المؤمنين (ع) قام الحسن خطيبا فقال: أيها الناس في هذه الليلة رفع عيسى بن مريم عليهما السلام.

و

فيه 336 عن حمران بن أعين عن أبي جعفر عليهما السلام قال: إن عيسى وعد أصحابه ليلة رفعه اللّه إليه فاجتمعوا إليه عند المساء و هم إثنا عشر رجلا فأدخلهم بيتا ثم خرج عليهم من عين في زاوية البيت و هو ينفض رأسه من الماء فقال: إن اللّه أوحى إلي أنه رافعي إليه الساعة و مطهري من اليهود ...

و

فيه 337 بسند عن جعفر عن آبائه عن النبي (ص) قال: لما اجتمعت اليهود على عيسى (ع) ليقتلوه بزعمهم أتاه جبرئيل (ع) فغشاه بجناحه و طمح عيسى ببصره فإذا هو بكتاب في جناح جبرئيل:

«اللهم إني أدعوك باسمك الواحد الأعز و أدعوك اللهم باسمك الصمد و أدعوك اللهم باسمك العظيم الوتر و أدعوك اللهم باسمك الكبير المتعال الذي ثبت أركانك كلها أن تكشف عني ما أصبحت و أمسيت فيه» فلما دعا به عيسى (ع) أوحى اللّه تعالى إلى جبرئيل: ارفعه عندي ثم قال رسول اللّه (ص) يا بني عبد المطلب سلوا ربكم بهؤلاء الكلمات فو الذي نفسي بيده ما دعا بهن عبد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 159

تكون هي جنة آدم و قد رفع إليها المسيح (عليه السلام).

و الأولان منفيان بآية النساء: «وَ ما قَتَلُوهُ وَ ما صَلَبُوهُ» و كلّ من النوم و الموت له صيغته الخاصة، فلا يعني رفعه اليه- كما هنا و في آية النساء- إلّا رفعه عن ذلك المسرح النكد البائس، تطهيرا لساحته عن مكر الذين كفروا، و ذودا عن سماحته لعنة الصلب، المزعومة لدى الكنسيين البولسيين، فقد توفاه اللّه أخذا وافيا سليما عن بأسهم ثم رفعه اليه استمرارا لتوفيه.

فليس رفعه اليه تعالى- فقط- رفعا معنويا إذ كان رفيعا في معناه و مغزاه، كما لا يعني رفعه عن الحياة، بل هو رفع عن الحياة الأرضية الى حياة سماوية سامية عاشها أبوانا الأولان سويعات، و يعيشها السيد المسيح (عليه السلام) قرونا طائلة حتى ينزل الى الأرض زمن المهدي (عليه السلام). تلك هي الميزة العيسوية، و من ثم للذين اتبعوه:

«وَ جاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ» الفوقية هنا الى يوم القيامة قد لا تشمل نفس القيامة فهي- إذا- فوقية تناسب الحياة الدنيا تشريعيا و تكوينيا، و الأول يحلق على كافة الكرامات و الاختصاصات في حقل الأحكام الشرعية، و الثاني قد يعني تفوقا بالحجة، ثم تفوقا زمنيا إن قاموا بشروط النصرة الربانية.

و «الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ» هم المؤمنون به كما آمن الحواريون، فهم- إذا-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بإخلاص دينه إلّا اهتزله العرش و إلّا قال اللّه لملائكته: اشهدوا أني استجبت له بهن و أعطيته سؤله في عاجل دنياه و آجل آخرته ثم قال لأصحابه: سلوا بها و لا تستبطئوا الإجابة.

و

فيه 338 عن أبي عبد اللّه (ع) قال: رفع عيسى بن مريم عليهما السلام بمدرعة صوف من غزل مريم و من نسج مريم و من خياطة مريم عليها السلام فلما انتهى إلى السماء نودي: يا عيسى ألق عنك زينة الدنيا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 160

المسيحيون الحقيقيون المتبعون للسيد المسيح عقيديا و خلقيا و عمليا على مختلف درجاتهم، ما دامت رسالته و شرعته محكمة، و لمّا جاء رسول الهدى (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فهم المسلمون منهم و من سواهم، حيث الايمان بشرعة القرآن هو من قضايا الايمان بشرعة الإنجيل، و كما

يروى عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: إنها لن تبرح عصابة من امتي يقاتلون على الحق ظاهرين على الناس حتى يأتي امر اللّه و هم على ذلك ثم قرأ هذه الآية «1».

ذلك و قد تعني هذه الفوقية- بما عنت- فوقية المسيحيين الملتزمين على الكافرين بالمسيح، مهما لم يسلموا، شرط إلا يعاندوا من آمن به المسيح (عليه السلام) و هو محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

و لقد نرى تفوق المسيحيين على اليهود قبل الإسلام و بعده حتى الآن، مهما اختلقت دويلة العصابات الصهيونية منذ زمن قريب، فانها من عملاء الاستعمار المسيحي.

و النقطة الرئيسية في ذلك التفوق الموعود توفية أجور المؤمنين و العذاب الشديد للكافرين منذ الدنيا الى يوم الدين كما تبين الآيتان التاليتان، المفرّعتان هذه التوفية على ذلك التفوق، بما انه من أهم درجاته و أعظم مكرماته.

فهذه فوقية روحية مضمونة للذين آمنوا و خلافها على الذين كفروا على طول خط الحياة في الأولى و الأخرى، و قد تجاوبها الفوقية الزمنية إن قاموا بشرائط الايمان كملا و لم يتركوها هملا و كما قال اللّه‏ «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ». حيث المخاطبون هم المعنيون بآيات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 37- أخرج ابن عساكر عن معاوية بن أبي سفيان قال سمعت رسول اللّه (ص) يقول: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 161

سابقة في خطابات لتحقيق حيويّات الإيمان‏ «1».

و أخيرا «الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» و هي الدولة العاقبة كل الدول بقيادة المهدى من آل محمد (عليهم السلام) كما تعدنا آيات و روايات متواترات.

و من ناحية أخرى يقرر ربّنا سوم العذاب على كفرة اليهود على طول خط الحياة: «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ» (7: 167).

و يقرر بالنهاية سحقا ماحقا لهم في تلك الدولة الكريمة: «فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوؤُا وُجُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيراً» (17: 9).

و قد «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ» (3: 109).

ذلك، و لدرجات الايمان مدخل عظيم في ذلك التفوق في الأولى و الأخرى، فهؤلاء هم فوق الذين كفروا الى يوم القيامة في ميزان اللّه، كما انهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر- بكل حقوله- بحقيقة الايمان، و الذين يتبعون محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) منذ مبعثه هم في الوقت ذاته اتبعوا مواكب الرسل و منهم المسيح (عليه السلام).

«ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»:

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و هي ألّا يطيعوا الكافرين و يعتصموا باللّه و يتقوا اللّه حق تقاته و يعتصموا بحبل اللّه جميعا دون تفرق و يكن فيهم أمة داعية إلى الخير آمرة ناهية- أماهيه؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 162

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ 56 وَ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ‏ 57.

هنا الايمان و الكفر طليقان، ايمانا بالمسيح و سواه و كفرا به و سواه، و إنما الأصل هو الايمان و عمل الصالحات لتوفية الأجور في الأخرى، ثم الكفر لتوفية العذاب فيها.

ذلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآياتِ وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ‏ 58.

«ذلك» العميق المدى الظاهرة الهدى‏ «نَتْلُوهُ عَلَيْكَ» يا رسول الهدى‏ «مِنَ الْآياتِ» الباهرة من كتابات السماء «وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ» و هو القرآن العظيم.

و الآيات هنا تعم الآيات الرسولية و الرسالية، تكوينية و تشريعية، «وَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ» خصوص بعد عموم يعني القرآن الكريم فانه راية بين الآيات و هو غاية الغايات إذ تحمله خاتمة الرسالات.

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 59 الى 74]

إِنَّ مَثَلَ عِيسى‏ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (61) إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63)

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (65) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (66) ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ ما يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (69) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70) يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71) وَ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72) وَ لا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى‏ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى‏ أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (73)

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 164

إِنَّ مَثَلَ عِيسى‏ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ‏ 59.

مثل عيسى عند المغالين بحقه يختلف حقا عن مثله عند اللّه، فهم يزعمونه ابن اللّه او اللّه المتجسد في الناسوت، فهو من جوهرة الألوهية، و مثله عند اللّه‏ «كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 165

فإذا كان خلق المسيح خارقة أن لم يكن له والد، فخلق آدم خارقتان أن لم يكن له والدان، و انما «خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ» في جثمانه هيكلا ترابيا مثال الإنسان‏ «ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ» إنسانا في الجسم و الروح «فيكون» ما كونه اللّه آدم و سواه كما قال اللّه، و قد يعني‏ «خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ» خلق جسمه‏ «ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ» قولا تكوينيا موجها الى جسمه أن كن إنسانا فهو تكوين روحه من جسمه، و هذه عبارة اخرى عن‏ «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ» في تخليق بنيه.

و قد تكون «فيكون» بديلا عن «فكان» إشارة الى استمرارية هذه الكينونة الخارقة للمألوف، دون اختصاص بآدم، حيث ثنّي بالمسيح (عليه السلام)، و من ثم في كافة الآيات المعجزات.

فان كان المسيح لخلقه دون أب ابنا للّه فليكن آدم المخلوق دون أبوين أخا للّه، و ان كان المسيح لذلك هو اللّه فليكن آدم أبا للّه، سبحانه و تعالى عما يشركون، ثم و ان كان المسيح يستحق الولادة مجازيا تشريفيا، فليشرّف آدم بسمة الأخوة للّه.

ذلك! و لا يصح المجاز إلا فيما يمكن حقيقته، و إذ ليس بالإمكان ابن او أخ للّه، فلا تشريف- إذا- بمجاز و سواه، حيث المجاز هو الحقيقة المجاز إذ يجوز اللفظ و يعبر منه الى ما يشابهه.

تنزل هذه الآية جوابا عما سأله جماعة من اهل نجران «هل رأيت مثل عيسى أو أنبئت به؟» «1» فقد تحمل اجابة وافية قاطعة لأعذار مؤلهي المسيح‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 37- أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم من طريق العرفي عن ابن عباس‏ من أهل نجران قدموا على النبي (ص) و كان فيهم السيد و العاقب فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا قال:

من هو؟ قالوا: عيسى تزعم أنه عبد اللّه قال: أجل إنه عبد اللّه قالوا فهل رأيت ... فجاء جبرئيل فقال: قل لهم إذا أتوك: إن مثل عيسى عند اللّه كمثل آدم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 166

و متبنّيه، و مختلقي انتسال آدم من إنسان ام ارتقاء من حيوان!.

و ذلك التساءل حدث بعد ما كتب النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الى اهل نجران يدعوهم فيه الى الإسلام‏ «1».

و هنا المماثلة بين آدم و المسيح (عليهما السلام) ليست إلّا في فقد الأب، ثم يختص آدم بفقد الأم ايضا و خلقه رأسا من تراب، و قد نابت النطفة الرجولية في خلق المسيح مناب اللقاح الرجولي، ان خلقها اللّه تعالى دون صلب و ألقاها نفخا الى رحم البتولة العذراء و كما فصلناه في سورة مريم، و آدم خلق‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

فيه عن قتادة أنهما لقيا نبي اللّه فسألاه عن عيسى فقالا: كل آدمي له أب فما شأن عيسى لا أب له فأنزل اللّه فيه هذه الآية.

و

فيه‏ أتاه (ص) منهم أربعة من خيارهم فسألوه ما تقول في عيسى قال: هو عبد اللّه و روحه و كلمته قالوا هم: و لا و لكنه هو اللّه نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ثم خرج منها فأرانا قدرته و أمره فهل رأيت إنسانا خلق من غير أب فأنزل اللّه هذه الآية.

(1).

أخرج البيهقي في الدلائل من طريق سلمة بن عبد يسوع عن أبيه عن جده‏ أن رسول اللّه (ص) كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: بسم إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب من محمد رسول اللّه إلى أسقف نجران إن أسلمتم فإني أحمد اللّه إليكم إله إبراهيم و إسحاق و يعقوب أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة اللّه من عبادة العباد، أدعوكم إلى ولاية اللّه من ولاية العباد فإن أبيتم فقد أذنتم بحرب و السلام، فلما قرء الأسقف الكتاب فظع به و ذعر ذعرا شديدا فبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له شرحبيل بن وداعة فدفع إليه كتاب رسول اللّه (ص) فقرأه فقال له الأسقف ما رأيك؟ فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد اللّه تعالى إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة فما يؤمن أن يكون هذا الرجل نبيا و ليس لي في النبوة رأي لو كان أمر من أمر الدنيا أشرت عليك فيه و جهدت لك فبعث الأسقف إلى واحد بعد واحد من أهل نجران فكلمهم قال مثل قول شرحبيل فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شرحبيل و عبد اللّه ابنه و حيار بن قنص فيأتوهم بخبر رسول اللّه (ص) فانطلق الوفد حتى أتوا رسول اللّه (ص) فسألهم و سألوه فلم تزل به و بهم المسألة حتى قالوا: ما تقول في عيسى بن مريم؟ فقال رسول اللّه (ص) ما عندي فيه شي‏ء يومي هذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 167

دونما صلب و رحم او نطفة!.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ‏ 60.

أ ترى ان رسول اللّه الهدى امترى في الحق من ربه، و منه مثل عيسى في خلقه حتى يخاطب ب «فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ»؟ طبعا لا و ألف كلّا، فانما ذلك التعبير هو قضية الموقف حيث المتسائلون لم يكونوا ليسكتوا عن قيلاتهم، و كأن ذلك المثل لا يحمل حقا من اللّه.

لذلك يخاطب الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) من باب «إياك اعني و اسمعي يا جاره» تأكيدا لحق الجواب، حسما لكل مرية هي بعيدة عن جادة الصواب.

فهو- إذا- ك «لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ»- «وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» و كيف يجوز الامتراء و الشك و الشرك على من باشر برد اليقين و تلقى عن الروح الأمين .. او ان الخطاب في «ربك» ليس ليختص بمن لا يمتري، بل هو كل من يجوز في حقه الامتراء و هو كل مخاطب سامع للبرهان من المكلفين كائنا من كان، فهو خطاب الإفراد شاملا كل الأفراد على سبيل الأبدال فيشمل الذين قالوا- فيما غالوا بحق المسيح (عليه السلام)- انه اللّه او ابن اللّه، ف «الحق» كله «من ربك» الذي رباك يا رسول الهدى، و كل من يصح خطابه، دون الغالين الدجالين‏ «فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» بحق الحق، و لا تمار فيه مجادلا عن الباطل، و محاجا ضد الحق، و قد فعلوا فنزلت آية المباهلة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فأقيموا حتى أخبركم بما يقال لي في عيسى صبح الغداة فأنزل اللّه هذه الآية إلى‏ «فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ» فأبوا أن يقروا بذلك فلما أصبح رسول اللّه (ص) الغد بعد ما أخبرهم الخبر أقبل مشتملا على الحسن و الحسين في خميلة له و فاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 168

و وجه ثالث- علّه معني مع الأولين- ان ليس الامتراء هو الشك فقط بل و هو المماراة و المجادلة بشأن الحق الجلي مع من لا يخضع لبرهان، فلما ذا- إذا- المماراة مع المعاندين‏ «فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» فكل أمرك الى رب العالمين مع من حاجك حول الحق اليقين، الناصع الأمين:

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ‏ 61.

هذه من غرر الآيات بشأن الغر الكرام من آل الكساء (عليهم السلام)، حيث تعبر عن علي (عليه السلام) ب «أنفسنا» و عن فاطمة (عليها السلام) ب «نساءنا» و عن الحسنين (عليهما السلام) ب «أبناءنا» مما يدل على أخص الاختصاصات لهؤلاء بالرسالة القدسية المحمدية (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

هنا «مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ» دون‏ «بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ» يحمل توسيعا لدائرة العلم، فهو علم الوحي بعد العلم العقلي و قد حصلا معا بتلك المماثلة في‏ «إِنَّ مَثَلَ عِيسى‏ ..».

و ذلك مما يؤكد عدم عناية الشك من امتراءه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لو انه المخاطب ب «فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ».

«فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ» في الحق من ربك، الذي لا مرية فيه و لا ريبة تعتريه‏ «فَقُلْ تَعالَوْا ...» و هذه دعوة صارحة صارخة في هذه الاذاعة القرآنية الى مباهلة الكاذبين المصرين على كذبهم بعد صراح الحق المبين، فقد تجوز المباهلة و تفيد حين تتوفر شروطها «1»، إذ ليس الحق ليقف مكتوف الأيدي أمام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 351 عن أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن محمد بن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 169

الناكرين المكذبين، فإما تقبّله ببرهان أم دخول في لعنة اللّه على الكاذبين.

و لقد دعى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الذين كانوا يحاجونه في قصة المسيح (عليه السلام) الى اجتماع حاشد من أعز الملاصقين من الجانبين، ليبتهل الجميع الى اللّه في دعاء قاصع قاطع ان ينزل لعنته على الكاذبين فخافوا العاقبة و ابو المباهلة «1» و تبين الحق واضحا وضح الشمس في رابعة النهار.

و لأن الابتهال هو التأكد في الدعاء- من البهل: الدعاء- و ليس إلّا في مسرح الاضطرار، و لا أحق من حق اللّه عند اهله- حين ينكر و يكذب و لا ينفع الدليل- ان يستجاب في ابتهال و قد وعد اللّه المضطرين الاجابة «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حكيم عن أبي مشرق (مسروق) عن أبي عبد اللّه (ع) قال: قلت: إنّا نكلم الناس فنحتج عليهم بقول اللّه عز و جل: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» فيقولون نزلت في أمراء السرايا، فنحتج عليهم بقوله عز و جل‏ «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ ...» فيقولون: نزلت في المؤمنين و نحتج عليهم بقول اللّه عز و جل‏ «قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى‏» فيقولون: نزلت في قربى المسلمين، قال: فلم ادع شيئا مما حضرني ذكره من هذا أو شبهه إلّا ذكرته فقال لي: إذا كان كذلك فادعهم إلى المباهلة قلت: و كيف أصنع؟ قال: أصلح نفسك ثلاثا- و أظنه قال: صم و اغتسل- و أبرز أنت و هو إلى الجبان فشبك أصابعك من يدك اليمنى في أصابعه ثم أنصفه و ابدأ بنفسك و قل: اللّهم رب السماوات السبع و رب الأرضين السبع عالم الغيب و الشهادة إن كان أبو مسترق جحد حقا و ادعى باطلا فأنزل عليه حسبانا من السماء و عذابا أليما، ثم رد الدعوة عليه فقل: و إن كان فلان جحد حقا و ادعى باطلا فأنزل عليه حسبانا من السماء أو عذابا أليما ثم قال لي: فإنك لا تلبث أن ترى ذلك فيه فو اللّه ما وجدت خلقا يجيبني إليه.

(1). الدر المنثور 2: 39- أخرج عبد الرزاق و البخاري و الترمذي و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: لو باهل أهل نجران رسول اللّه (ص) لرجعوا لا يجدون أهلا و لا مالا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 170

و حين تستجاب الدعاء بحقنا فهلا تستجاب بحق الحق و لا سيما من رسول الحق في هذه المعركة الصاخبة و معه أخص اهله الطاهرين! و المدعوون في هذه المباهلة ثلاثة «أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ- وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ- وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ» يدعو كلّ من الطرفين أخصاءه الثلاثة، و

قد «دعا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم)- حسب متواتر الأثر- عليا و فاطمة و حسنا و حسينا فقال: اللهم هؤلاء أهلي» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر أخرج مسلم و الترمذي و ابن المنذر و الحاكم و البيهقي في سننه عن سعد بن أبي وقاص قال:

لما نزلت هذه الآية دعا رسول اللّه (ص) ... و

فيه أخرج ابن جرير عن علباء بن أحمر اليشكري قال: لما نزلت هذه الآية أرسل رسول اللّه (ص) إلى علي و فاطمة و ابنيهما الحسن و الحسين ...

و أخرجه مثله الحافظ أحمد بن حنبل في مسنده 15: 185 و الطبري في تفسيره 3: 192 بطرق أربع،

و

أبو بكر الجصاص في أحكام القرآن 2: 16 قال: إن رواة السير لم يختلفوا في أن النبي (ص) أخذ بيد الحسنين و علي و فاطمة و دعا النصارى الذين حاجوه إلى المباهلة.

و الحاكم في المستدرك 3: 150 و في معرفة علوم الحديث 50، و الثعلبي في تفسيره كما في العمدة لابن بطريق 95 و الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة 297 و الواحدي النيسابوري في الباب النزول 74 و ابن المغازلي الواسطي كما في العمدة لابن بطريق 96 و البغوي في معالم التنزيل 1: 302 و في مصابيح السنة 2: 204 و الزمخشري في الكشّاف 1: 193 و ابن العربي الأندلسي في أحكام القرآن 1: 115 و الإمام الرازي في تفسيره 8: 95 و ابن الأثير في جامع الأصول 9: 47 و الذهبي في تلخيصه المطبوع في ذيل مستدرك الحاكم 3: 150 و ابن طلحة الشامي في مطالب السؤول ص 7 و ابن الأثير في أسد الغابة 4: 25 و سبط ابن الجوزي في التذكرة ص 17 و القرطبي في الجامع لأحكام القرآن 3: 104 و البيضاوي في تفسيره 2: 22 و الطبري في ذخائر العقبى ص 25 و مسلم في صحيحه من عدة طرق منها ج 4 باب فضائل أمير المؤمنين (ع) في تفسير هذه الآية و رواه الحميري في الجمع بين الصحيحين في مسند سعد بن أبي وقاص و الثعلبي في تفسيره هذه الآية عن مقاتل و الكلبي و أخرجه في الدر المنثور نقلا عن الحاكم و ابن مردوية و أبو نعيم في الدلائل عن جابر عنه (ص) و البيهقي في الدلائل من طريق سلمة بن عبد يشوع عن أبيه عن جده عنه (ص) و أبو نعيم في الدلائل من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس و ابن أبي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 171

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

شيبة و سعيد بن منصور و عبيد بن حميد و ابن جرير و أبو نعيم عن الشعبي و الترمذي عن سعد عنه (ص) و محمد بن جرير عن علباء بن أحمر اليشكري و روى ابن بطريق في العمدة 95: 96 نزول هذه الآية فيهم بأسانيد من صحيح مسلم و تفسير الثعلبي و مناقب ابن المغازلي و ابن الأثير في جامع الأصول من صحيح مسلم عن سعد و البيضاوي في تفسيره 2: 22 و الطبري في ذخائر العقبى 25 و في الرياض النضرة 188 و النسفي في تفسيره 1: 136 و المهايمي في تبصير الرحمن و تيسير المنان 1: 114 و الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح 568 و الخطيب الشربيني في تفسير سراج المنير 1: 182 و النيشابوري في تفسيره 3: 206 و الخازن في تفسيره 1: 302 و أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط 2: 479 و عماد الدين أبو الفداء بن كثير في تفسيره 1: 37 و في البداية و النهاية 5: 52 و ابن الملك في مبارق الأزهار في شرح مشارق الأنوار للصنعاني 2: 356 و العسقلاني في الاصابة 2: 503 و في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص 26 و ابن الصباغ في الفصول المهمة 108 و ملا معين الكاشفي في معارج النبوة 1: 315 و السيوطي في تاريخ الخلفاء 115 و في الإكليل 53 و في الجلالين 1: 33 و ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة 119 و أبو السعود أفندي في تفسيره 2: 143 و الحلبي في السيرة النبوية 3: 35 و أبو السعود محمد أفندي العمادي في تفسيره، و الشاه عبد الحق في مدارج النبوة 500 و الكشفي الترمذي في مناقب مرتضوي 44 و الشبرواي في الاتحاف بحب الاشراف 5 و الشوكاني في فتح القدير 1: 316 و الآلوسي في تفسير روح المعاني 3: 167 و العلوي الحضرمي في رشفة الصادي 35 و ابن المغازلي في مناقبه كما في كفاية الخصام 388 و السيد صديق حسن خان في كتاب حسن الأسوة 32 السيد أحمد زيني دحلان في السيرة النبوية المطبوعة بهامش السيرة الحلبية 3: 4 و عياض المغربي في الشفاء 2: 41 و البيهقي في السنن الكبرى 63 و ابن تيمية في منهاج السنة 34 و البرزنجي في مقاصد الطالب 11 و أحمد بن حنبل في المسند 1: 185 و سعيد بن محمد بن مسعود الشافعي في المنتقى في سيرة المصطفى 188 و الشيخ أبو الحسن الكازروني في صفوة الزلال المعين و الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي في ذخائر المواريث 1: 226 و القرماني في أخبار الدول و الشيباني في تيسير الوصول 2: 160 و القدوسي الحنفي في سنن الهدي 563 و النقشبندي في مناقب العترة 189 و الشيخ حسن النجار في اتحاف ذوي النجابة 154 و الحسيني البصري في انتهاء الأقسام 197 و الشيباني في المختار في مناقب الأخيار ص 3 و السيد صديق محمد حسنخان ملك بهوبال في فتح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 172

و لأن المباهلة هي ذات جهتين: الدعاء، و استدعاء اللعن على الكاذب، فلا بد- إذا- ان يكون الأبناء و النساء و الأنفس المدعوون فيها من أعزهم و ألصقهم بالداعين و أقربهم الى اللّه استجابة للدعاء.

فليس ضم الأبناء و النساء و الأنفس إلّا لتأكيد الاستجابة و الدلالة على الحق، ثقة بالحال و تصديقا للمقال و استيفاء على خصومه بصدقه و كذبهم، حيث يستجره على تعريض أعز أعزته و أفلاذ كبده.

لقد خص هنا الأبناء و النساء بالدعوة لذلك المسرح الخطير لأنهم أعز الأهل و ألصقهم بالقلب و لربما فداهم الرجل نفسه و كل نفيسه.

لذلك كانوا في الحرب يسوقون مع أنفسهم الظعاين لتمنعهم من الهرب و يسمّون الذادة عنها حماة الحقائق.

ثم خص أحص خواصه المعبر عنه هنا ب «أنفسنا» رمزا الى انه لنفسه المقدسة كأنه هو، ففديته مع نفسه في هذه المعركة الصاخبة تضحية لنفسه مرتين، كما أن فدية النساء و الأبناء تمثل فدية اخرى ثالثة.

فآية المباهلة هي من ابرز الآيات الدالات على موقف الامام علي (عليه السلام) المنقطع النظير مع البشير النذير، أن لو كان للرسول (صلى اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

البيان 2: 55 و الشيخ عبيد اللّه الأمر تسري في أرجح المطالب 37 و السيد أحمد بن سودة الإدريسي في رفع اللبس و الشبهات 40 و خواجه خواند مير في علم الكتاب.

أقول: ذلك و إلى مئات من الرواة و المصنفين و المفسرين (راجع ملحقات أحقاق الحق للمرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي النجفي ج 3 ص 46- 76 و ج 9 ص 71- 91، تجد في خمسين صفحة من هذه الموسوعة بحرا ملتطما من الأحاديث حول آية المباهلة التي ذكرت عليا (ع) نفس الرسول (ص).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 173

عليه و آله و سلم) انفس او نفس أخرى لكانت عليا (عليه السلام) دون من سواه، و قد اجمع المفسرون و المحدثون و الحفاظ انه لم يصاحبه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) بعد ابنيه الحسنين و بنته فاطمة (عليهم السلام) إلّا عليّ صلوات اللّه عليه.

فلم يعن من أبناءه إلا سبطيه و لا من نساءه إلّا فاطمته و لا من نفسه إلّا عليّه، حيث لا يدعو الإنسان- فيما يدعو- نفسه، اللّهم إلّا من هو كنفسه، و لم يكن معه آنذاك من يمثل نفسه إلّا علي (عليه السلام).

و هنا تجاوب لا حول عنه بين الآية و متواتر النقل، كلّ يؤيد الآخر و يتأيد هو الآخر بالآخر ... ف «قل» يا محمد لمن حاجك فيه‏ «تَعالَوْا نَدْعُ» نحن ندعو أبناءنا و نساءنا و أنفسنا و أنتم تدعون كما ندعوا.

و لكن «ندع» في جانب الرسول واحد هو الرسول، و في جانبهم جمع المحاجين، و ليس «ندع» إلا اعتبارا بالطرفين و هما معا- لا محالة- جمع مهما كان الطرف الأول مفردا.

ف «أبناءنا» تعني أعز الأبناء في الجانبين دون تحليق على كل الأبناء، و لقد انحصروا في جانب الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في الحسنين (عليهما السلام)، مما يبرهن على صحة انتساب أبناء البنات الى الجدود، و كما نسب المسيح (عليه السلام) إلى ابراهيم‏ «وَ تِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهِيمَ‏ ...

وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسى‏ وَ هارُونَ‏ ... وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيى‏ وَ عِيسى‏ ..» (6: 85) و هكذا يستدل الذرية المعصمومة بالذكر الحكيم أمام الناكرين‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في العيون بإسناده إلى موسى بن جعفر عليهما السلام في حديث له مع الرشيد قال الرشيد له: كيف‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 174

فاختصاص سهم السادة بالمنتسبين بالأب- فقط- الى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) خرافة لا تملك برهانا من كتاب او سنة، بل هما يعارضان ذلك الإختصاص.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

قلتم: إنا ذرية النبي و النبي لم يعقب و إنما العقب للذكر لا للأنثى و أنتم ولد البنت و لا يكون له عقب؟ فقلت: أسأله بحق القرابة و القبر و من فيه إلّا ما أعفاني عن هذه المسألة، فقال: تخبرني بحجتكم فيه يا ولد علي و أنت يا موسى يعسو بهم و إمام زمانهم كذا أنهي إلي و لست أعفيك في كل ما أسألك عنه حتى تأتيني فيه بحجة من كتاب اللّه و أنتم تدعون معشر ولد علي أنه لا يسقط عنكم منه شي‏ء لا ألف و لا واو إلّا تأويله عندكم و احتججتم بقوله عز و جل: ما فرطنا في الكتاب من شي‏ء، و قد استغنيتم عن رأي العلماء و قياسهم.

فقلت: تأذن لي في الجواب؟ فقال: هات، قلت: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم بسم اللّه الرحمن الرحيم‏ «وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَ سُلَيْمانَ‏ ... وَ عِيسى‏» من أبو عيسى يا أمير المؤمنين؟ فقال: ليس له أب، فقلت: إنما الحقه بذراري الأنبياء من طريق مريم و كذلك ألحقنا اللّه تعالى بذراري النبي من أمنا فاطمة، أزيدك يا أمير المؤمنين؟ قال: هات، قلت: قول اللّه عز و جل‏ «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا ..» و لم يدع أحد أنه أدخل النبي (ص) تحت الكساء عند المباهلة مع النصارى إلّا علي بن أبي طالب و فاطمة و الحسن و الحسين عليهم السلام فكان تأويل قوله: أبناءنا- الحسن و الحسين، و نساءنا: فاطمة، و أنفسنا: علي بن أبي طالب.

و

في نور الثقلين 1: 349 عن الخصال في إحتجاج علي (ع) على أبي بكر قال: فأنشدك باللّه أبي برز رسول اللّه (ص) و بأهلي و ولدي في مباهلة المشركين من النصارى أم بك و بأهلك و ولدك؟

قال: بكم، و فيه أيضا من مناقب أمير المؤمنين (ع) و تعدادها قال (ع): و أما الرابعة و الثلاثون فإن النصارى ادعوا أمرا فأنزل اللّه عز و جل فيه‏ «فَمَنْ حَاجَّكَ ..» فكانت نفسي نفس رسول اللّه (ص) و النساء فاطمة و الأبناء الحسن و الحسين ثم ندم القوم فسألوا رسول اللّه (ص) الإعفاء عنهم و قال: «و الذي أنزل التوراة على موسى و الفرقان على محمد لو باهلونا لمسخهم الله قردة و خنازير»

و

فيه عن عيون أخبار الرضا (ع) عن النبي (ص) حديث طويل يقول فيه: يا علي من قتلك فقد قتلني و من أبغضك فقد أبغضني و من سبك فقد سبني لأنك مني كنفسي روحك من روحي و طينتك من طينتي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 175

و «نساءنا» حيث تعني كل النساء الآهلات للانتساب اليه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) دون خصوص الأزواج، نراهن اختصرن و احتصرن في قرة عينه و فلذة كبده فاطمة الزهراء سلام اللّه عليها، مما يبرهن على فضلها، و انها تجمع في نفسها الخاصة كل الانتسابات الرسالية بين نساءه بالرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فهي- إذا- مفضلة على كل أزواجه و سواهن من النساء المنتسبات إليه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

ثم «و أنفسنا» هي في جانب الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يتمثل في نفس واحدة هي نفسه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و لم يكن معه في مباهلته من غير فاطمته و حسنيه إلّا عليّه (عليهم السلام).

فلو كان للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) انفس يمثلونه لكان عليا (عليه السلام) لا سواه.

ذلك و

قد تواتر عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قوله بحق هذه المماثلة السامية و المباعضة الحانية: «علي مني و أنا منه لا يؤدي عني إلا علي» «1»

-

«علي مني مثل رأسي من بدني» «2»-

«منزلة علي مني منزلتي من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). حديث صحيح رجاله كلهم ثقات أخرجه الإمام أحمد في مسنده 4: 164 و 165 بأسانيد أربعة و الحافظ ابن ماجة القزويني في سننه 1: 57 و الحافظ أبو عيسى الترمذي في جامعه 13: 169 و 2: 460 و في صحيحه 2: 213 و النسائي في خصائصه 62 و 27 و ابن المغازلي الشافعي في المناقب بأسانيد و فيرة و البغوي في المصابيح 2: 275 و الخطيب العمري في المشكاة 556 و الكنجي في الكفاية 557 و النووي في تهذيب الأسماء و اللغات و المحب الطبري في الرياض 3: 74 عن الحافظ السلفي و سبط ابن الجوزي في التذكرة 23 و الذهبي في تذكرة الحفاظ و ابن كثير في تاريخه و السخاري في المقاصد الحسنة و المناوي في كنوز الدقايق 92 و الحمويني في فرائد السمطين ب 7 و السيوطي في الجامع الصغير و جمع الجوامع و ابن حجر في الصواعق 73 و المتقي الهندي في كنز العمال عن (11) حافظا و البدخشاني في نزل الأبرار 9 و الفقيه شيخ بن العيدروس في العقد النبوي و الشبلنجي في نور الأبصار 78 و الصبان في الاسعاف هامش نور الأبصار 155 كلهم أخرجوه و رووه عن حبشي بن جنادة و عمران و أبي ذر الغفاري عن رسول اللّه (ص).

و روى مثله البخاري في 4 من صحيحه عن عمر بن الخطاب و في الجمع بين الصحاح ج 3 من عدة طرق و منها ما

عن ابن جنادة عن رسول اللّه (ص) أنه قال: علي مني و أنا منه.

(2) رواه الإمام أحمد في مسنده و ابن المغازلي بالإسناد عنه (ص) و ابن الأثير في جامع الأصول عن البخاري و مسلم بسنديهما عن البراء بن عازب عنه (ص) (البحار 38: 328).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 176

الله» «1»

مما يؤكد هذه النفسية النفيسة العلوية المحمدية.

فكون علي (عليه السلام) نفس محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لا يدل فقط على أفضليته على سائر الأمة بأسرهم، بل و على أفضليته على كافة السابقين و المقربين و اولي العزم من النبيين صلوات اللّه عليهم أجمعين، و لا فارق بين محمد و علي (عليهما السلام) إلا في الرسالة، فهو يساميه فيما سواها من العصمة القمة و سائر المدارج القدسية الروحية و الزمنية بأسرها.

و مهما يكن من أمر

فقد «خرج (صلى الله عليه و آله و سلم) و عليه مرط من شعر أسود و كان قد احتضن الحسين (عليه السلام) و أخذ بيد الحسن (عليه السلام) و فاطمة تمشي خلفه و علي (عليه السلام) خلفها و هو يقول: إذا دعوت فأمنوا فقال أسقف نجران يا معشر النصارى إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها فلا تباهلوا فتهلكوا و لا يبقى على وجه الأرض نصراني الى يوم القيامة ..» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أمالي الطوسي عن ابن مسعود، و أخرجه الحافظ ابن المغازلي كما في العمدة لابن بطريق 53 بإسناده عن بكر بن سوادة عن قبيضة بن ذويب و أبي سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبداللّه عنه (ص) و السيرة الحلبية 3: 391.

(2)

تفسير الفخر الرازي 8: 80 روى‏ أنه عليه السلام لما أورد الدلائل على نصارى نجران ثم انهم أصروا على جهلهم فقال عليه السلام: إن اللّه أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم فقالوا: يا أبا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 177

و ما أبلغه حجة ان يباهلهم بعد برهانه المبين، تعريضا عريضا على كذبهم دونه بجمع «الكاذبين» تأكيدا أنهم هم جمع النجرانيين دونه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إذ كان واحدا في تلك المجابهة مهما حمل معه حسنيه و فاطمته و عليّه (عليهم السلام) تأكيدا للحجة و إيضاحا للمحجة.

ذلك! و كما أن في «و نجعل» دون «و نسأل» تأكدا بنزول اللعنة لا محاله، و لم يكن إحضار هؤلاء الأربعة كنماذج عن الباقين، و إلا لكان المفروض إحضار اقل الجمع من كلّ من الثلاث، و لكن الجمع الأول اختص في مسرح المباهلة بحسنيه و الجمع الثاني بفاطمته و الجمع الثالث بعليّه مما يدل على حصر تلك الأهلية فيهم و حسرها عمن سواهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك فلما رجعوا قالوا للعاقب- و كان ذا رأيهم- يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: و اللّه لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمدا نبي مرسل و لقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم و اللّه ما باهل قوم نبيا قط فعاش كبيرهم و لا نبت صغيرهم و لئن فعلتم لكان الاستئصال فإن أبيتم إلّا الإصرار على دينكم و الإقامة على ما أنتم عليه فوادعوا الرجل و انصرفوا إلى بلادكم و كان رسول اللّه (ص) خرج و عليه مرط ... ثم قالوا يا أبا القاسم رأينا أن لا نباهلك و أن نقرك على دينك فقال (ص) فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين و عليكم ما على المسلمين فأبوا فقال (ص) فإني أناجزكم القتال فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة و لكن نصالحك على أن لا تغزونا و لا تردنا عن ديننا على أن نؤدي إليك في كل عام ألف حلة: ألفا في صفر و ألفا في رجب و ثلاثين درعا عادية من حديد فصالحهم على ذلك و قال: و الذي نفسي بيده إن الهلاك قد تدلى على أهل نجران و لو لاعنوا لمسخوا قردة و خنازير و لاضطرم عليهم الوادي نارا و لاستأصل اللّه نجران و أهله حتى الطير على رؤوس الشجر و لما حال الحول على النصارى كلهم حتى يهلكوا.

قال: و روي‏ أنه عليه السلام لما خرج في المرط الأسود فجاء الحسن (ع) فأدخله ثم جاء الحسين (ع) فأدخله ثم فاطمة ثم علي عليهما السلام ثم قال: إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و ليطهركم تطهيرا،

و اعلم أن هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير و الحديث.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 178

و من الطريف‏

حوار بين الامام الرضا (عليه السلام) و المأمون حيث قال: ما الدليل على خلافة جدك علي بن أبي طالب؟ قال: آية أنفسنا، قال:

لولا نساءنا قال: لولا أبناءنا «1».

فقد عنى المأمون ب «لولا نساءنا» انها دليل كون الأنفس هم كل الذكور بقرينة المقابلة فليسوا هم عليا فحسب، فأجاب «لولا أبناءنا» ان لو عني ب «أنفسنا» الذكور لشملت الأبناء، فإفراد الأبناء دليل اختصاص «أنفسنا» بذكور خصوص، و هو رجل خاص: علي (عليه السلام)، حيث حمل كل نفسيات الرسول في شخصه الشخيص، فلو كان هناك انفس للنبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يمثلونه لم تكن إلّا عليا (عليه السلام) الذي هو بدوره نفس الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) إلا في رسالته، فلا دور لما أورده بعض المجاهيل على انطباق أبناءنا على الحسنين لمكان التثنية و نساءنا و أنفسنا على فاطمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و

مثله ما في حقائق التأويل للسيد الشريف الرضي ص 112 قال: و من شجون هذه المسألة ما حكي عن القاسم بن سهل النوشجاني قال: كنت بين المأمون في ديوان أبي مسلم بمرو و علي بن موسى الرضا عليهما السلام قاعد عن يمينه فقال لي المأمون يا قاسم أي فضائل صاحبك أفضل؟

فقلت ليس شي‏ء منها أفضل من آية المائدة فإن اللّه سبحانه جعل نفس رسوله (ص) و نفس علي واحدة فقال لي: إن قال لك خصمك: إن الناس قد عرفوا الأبناء في هذه الآية و النساء و هم الحسن و الحسين و فاطمة عليهم السلام و أما النفس فهي نفس رسول اللّه (ص) وحده بأي شي‏ء تحبيبه؟ قال النوشجاني: فأظلم عليّ ما بينه و بيني و أمسكت لا أهتدي بحجة فقال المأمون للرضا (ع) ما تقول فيها يا أبا الحسن (ع) فقال له: في هذا شي‏ء لا مذهب عنه قال: و ما هو، قال: هو أنه رسول اللّه (ص) داع و لذلك قال اللّه سبحانه: «فَقُلْ تَعالَوْا ...» و الداعي لا يدعو نفسه إنما يدعو غيره، فلما دعا الأبناء و النساء و لم يصح أن يدعو نفسه لم يصح أن يتوجه دعاء الأنفس إلّا إلى علي بن أبي طالب (ع) إذ لم يكن بحضرته- بعد من ذكرناه- غيره ممن يجوز توجه دعاء الأنفس إليه و لو لم يكن ذلك كذلك لبطل معنى الآية، قال النوشجاني: فانجلى عن بصري و أمسك المأمون قليلا ثم قال له يا أبا الحسن إذا أصيب الصواب انقطع الجواب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 179

و علي (عليهما السلام) لمكان الإفراد، لأن ذلك من باب الانطباق دون الدلالة اللغوية.

فقد عني من «نساءنا» أخص النساء و ألصقهن بالمباهلين فانحصرن للنبي بفاطمة (عليها السلام) و من أبناءنا أخص الأبناء فانحصروا بالحسنين، بل و لم يكن له أبناء غيرهما، ثم و من أنفسنا خير الممثلين للمباهلين و لم يكن للنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الا علي (عليه السلام)، و اما نساءكم و أبناؤكم و أنفسكم فهم كثرة حسب عديد المباهلين الكاذبين مهما لم يكونوا حضورا إذ طلب منهم إحضارهم و لكنهم تحاشوا عن ذلك المسرح الخطير بقية على أنفسهم و أهليهم.

و لقد نرى من ذكر الجمع و ارادة مصداق واحد عديدا في الذكر الحكيم، ك «إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ» (5: 55) و لا مصداق له الا علي (عليه السلام) حيث زكى في ركوع الصلاة، فكان‏ «الَّذِينَ آمَنُوا» عنوانا مشيرا إلى خصوص ذلك المصداق.

و كذلك الجموع التي نزلت بشأن الوحدات تعميما للأحكام التي تضمنها ك «الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسائِهِمْ ما هُنَّ أُمَّهاتِهِمْ» (58: 2) «وَ الَّذِينَ يُظاهِرُونَ مِنْ نِسائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِما قالُوا» «1»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الشعر الجاهلي هو

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| بنونا بنوا أبناءنا و بناتنا |  | بنوهن أبناء الرجال الأغارب‏ |

و

الحديث ما في الوسائل 6: 188 مرسل الكليني عن العبد الصالح في حديث طويل قال: و من كانت أمه من بني هاشم و أبوه من سائر قريش فإن الصدقات تحل له و ليس له من الخمس شي‏ء فإن اللّه يقول: «ادعوهم لآبائهم».

أقول هذه آية الأحزاب‏ «... وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 180

«لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَ نَحْنُ أَغْنِياءُ» (3: 181) «وَ يَسْئَلُونَكَ ما ذا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ» (2: 219) و ما أشبهها من آيات تذكر جموعا و موارد النزول وحدات، ام تعني وحدات تجمع في أنفسها كيان الجموع كما «إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً» (16: 120) أمّاهيه؟.

ذلك- و حين نرى الإخوة في الدين- ككل- هم حسب القرآن انفس إخوانهم كما «وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ» «فَإِذا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلى‏ أَنْفُسِكُمْ» اجراء للاخوة بالديانة مجرى الاخوة في القرابة، فبأحرى ان يكون علي (عليه السلام) نفس الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بل أنفسه لو كانت له انفس او من يمثلونه.

و إذا وقعت النفس في بليغ العبارة على البعيد النسب كانت أجرى ان تقع على القريب النسب و السبب.

و من غريب التهريف في التحريف أن عليا (عليه السلام) أريد هنا من «أبناءنا» دون «أنفسنا» فرارا عن الإقرار له بتلك المنزلة الكريمة، ثم و بماذا يفسر «أنفسنا» و الداعي أول الحضور فكيف يدعو نفسه؟.

فآية المباهلة- إذا- هي من اظهر الآيات البينات على القدسية القمة لهؤلاء الأربعة و لا سيما علي (عليه السلام) حيث احتل في قدسيته القمة المحمدية و كأنه نفسه المقدسة، فهما- إذا- روح واحدة مهما تعددا في البدن، و تفارقا في ظاهر الرسالة الأخيرة!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ» (4) و لا تعني إلّا الأدعياء، فهل إن أبناء البنات من الأدعياء، أم ترى أن الحسنين عليهما السلام و سائر الأئمة عليهم السلام هم من أدعياء الرسول (ص)؟ إن هي إلّا فرية جاهلة و قحة!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 181

و مما تدل عليه آية المباهلة ان أبناء البنت هم أبناء أبيها كما هم آباءهم فان «أبناءنا» لا تعني الا الحسنين.

إذا فكل أبناء الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) من فاطمة هم ذريته دون فرق بين المنتسبين بالأب و الأم او المنتسبين بأحدهما إليها سلام اللّه عليها.

و لا دليل لمن يختص سهم السادة بالمنتسبين إليها بآباءهم الا الشعر و الحديث الجاهليين فليضربا عرض الحائط فان «ادعوهم لآبائهم» انما هي للأدعياء، فهل ان الحسنين- كذلك- من الأدعياء؟.

إِنَّ هذا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ‏ 63.

«القصص» ككل هو اتباع الأثر تحسسا عما فيه أثر لتبني الحياة الحسنى، و هكذا يقص القرآن القصص الحق الذي لا مرية فيه، رفضا للقصص الباطل الذي ملأ الأجواء المضللة.

«ان هذا» الذي قص من قصة الحوار بين الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و نصارى نجران‏ «لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ» و هو المختصر المختصر «وَ ما مِنْ إِلهٍ إِلَّا اللَّهُ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»- «فَإِنْ تَوَلَّوْا» عن ذلك التوحيد الوحيد، الى توحيد الثالوث- بزعمهم- الوهيد «فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ» عقيديا- ف:

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64).

الشرائع الكتابية مهما اختلفت في البعض من طقوسها العبادية ليست‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 182

لتختلف في توحيد المعبود، فانه الميزة البارزة القمة للشرعة الكتابية عن الإشراك باللّه و الإلحاد في اللّه، فالتزام الكتابي بتوحيد اللّه حق مشترك لا حول عنه إلّا للمرتد عن كتب اللّه الداعية إلى توحيد اللّه، و انها كلمة جامعة قامعة و قد أتت في كتابات للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يدعو فيها الملوك و الشيوخ و الزعماء إلى الإسلام و كما نقرؤه في كتابه الى هرقل عظيم الروم‏ «1».

و هذه الدعوة هي القاطعة القاصعة في كل حوار ان يتبنى المحاورون كلمة سواء بينهم، و لا سواء بين الكتابيين أفضل و أحرى بالبناء من كلمة التوحيد، و هكذا ندرس من القرآن كيف نحاور معارضينا كحجة أخيرة حين لا تنفع سائر الحجج و كما نراها هنا بين الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و الكتابيين.

و كما أن كلمة التوحيد هي كلمة سواء بيننا و بين كافة الموحدين، كذلك القرآن كلمة سواء بيننا نحن المسلمين، فنحن المتابعون للقرآن كأصل هو رأس الزاوية في كل الاسلاميات، نقول للذين اخلدوا الى دراسات غير قرآنية، تعالوا إلى كلمة القرآن و هي سواء بيننا و بينكم، أن نتبناه في كافة الأصول و الفروع.

ألستم تقولون إن القرآن هو الدليل الاول و المحور الأصيل، فلما ذا لا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 1: 40- أخرج عبد الرزاق و البخاري و مسلم و النسائي و ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال حدثني أبو سفيان‏ أن هرقل دعا بكتاب رسول اللّه (ص) فقرأه فإذا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم أسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً- إلى قوله- اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»

و

فيه أخرج الطبراني عن ابن عباس‏ أن كتاب رسول اللّه (ص) إلى الكفار «تَعالَوْا إِلى‏ كَلِمَةٍ سَواءٍ ..»

و

فيه أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن جريح في الآية قال‏ بلغني أن النبي (ص) دعا يهود أهل المدينة إلى ذلك فأبوا عليه فجاهدهم حتى أتوا بالجزية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 183

نجده أصيلا في دراساتكم الحوزوية، و إذا أقبل طلاب مظلومون الى ذلك الكتاب المظلوم تتقولون في نواديكم المنكرة انهم ليسوا من طلاب الحوزة الرسميين؟!.

و ترى‏ «أَهْلَ الْكِتابِ» ككل كانوا يعبدون غير اللّه، و الشرعة الكتابية- ككل- هي شرعة التوحيد و هم كانوا يطعنون في رأي من عبد غير اللّه تعالى من مشركة الأمم و مؤلهي الصنم؟.

اجل فإن منهم من يعبدون المسيح كما اللّه حيث اعتقدوا فيه انه اللّه او ابن اللّه، فعبادته- إذا- هي عبادة اللّه!: «أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» (5: 116).

و من ثم فهم عظموا رؤساءهم و رحبوا علماءهم و قلدوهم في التحليل و التحريم و التأخير و التقديم و تقحموا ما قحّموهم من فاسد العقيدة و المذاهب الرديئة، قلدوهم كأنهم آلهة إلّا اللّه، تقليدا طليقا يحلق على ما يناحر العقلية الكتابية و نصوصها: «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ..» (5: 31).

ذلك و كما نراهم يركعون و يسجدون للصليب و لتمثال المسيح، بل و لعلمائهم، سجودا و تكفيرا و تضاءلا و خضوعا بالغا- كما للّه- لكبرائهم و ديانيهم و اولي التقدم في دينهم، و كذلك ملاك أمورهم زمنيا او اقتصاديا او ثقافيا، يطيعونهم حين لا يطيعون اللّه، فالربوبيات الواقعية تربويا لا بد و ان تنتهي الى ربوبية اللّه دونما محادة و مشاقة.

ففيما يسئل رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ما كنا نعبدهم يا رسول اللّه! يقول: أما كانوا يحلون لكم و يحرمون فتأخذون بقولهم؟ فقال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 184

نعم فقال: هو ذاك‏ «1».

فالتوحيد الحق هو جماع التوحيد المحلّق على وحدة الذات و هي مع الصفات و الصفات مع بعضها البعض، و وحدة الخالقية و المعبودية و الطاعة و ما الى ذلك من شؤون الألوهية و الربوبية في وحدات، فمن نقض واحدة منها فقد نقض كامل التوحيد، داخلا في الإشراك باللّه ما لم ينزل به سلطانا.

«فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» للّه في كامل توحيده و أنتم غير مسلمين له.

فالمسلمون للّه هم المعتقدون المحققون كامل درجات التوحيد، خصيصة تميزهم عمن سواهم، و أهم مراحل التوحيد هي توحيد العبودية و الطاعة، فهو التحرر الطليق عن كل عبودية او طاعة سوى اللّه، اللهم إلّا بأمر اللّه كطاعة رسول اللّه، و أما العبودية فكلّا.

في حقول الانظمة الأرضية تتوفر عبادة من دون اللّه و اتخاذ بعض بعضا أربابا من دون اللّه، سواء أ كان في أرقى الديمقراطيات ام في أحط الدكتاتوريات، مهما كانت تلك العبوديات في سجود او ركوع ام في طاعات طليقة لغير اللّه.

و لكن النظام الاسلامي السامي يحرر الإنسان عن كل عبودية و طاعة لمن سوى اللّه، حيوية سليمة طليقة في بعد واحد هو اللّه.

و لقد تركزت الدعوة التوحيدية الموجهة الى اهل الكتاب إلى مثلثة الجهات، رفضا لثالوث العبوديات.

1 «أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ» في أية مرحلة من مراحل العبودية، في السيرة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 352 و قد روى أنه لما نزلت هذه الآية قال عدي بن حاتم: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 185

و الصورة، في قالة و حالة أماهيه.

2 «وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً» فيما يختص بساحة الربوبية، في اية دركة من دركات الإشراك باللّه قالة و حالة و فعالة، عبادة و طاعة و تأثيرا في تكوين او تشريع.

3 «وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» في الربوبية الخاصة باللّه، و سائر الربوبيات المناحرة لربوبية اللّه.

و في‏ «بَعْضُنا بَعْضاً» برهانان اثنان أحدهما على بطلان الربوبية في هذا البين لمكان المباعضة، إذ لا يمتاز بعض عن بعض لمشاركتها في الكيان أيا كان، و ثانيهما على ان اللّه ليس كمثله شي‏ء فلا مباعضة بين الرب و المربوبين فلذلك يستحق هو الربوبية لا سواه.

فمهما كان لبعض على بعض- في المتشاركين- فضل، و ليس ليأهل ربوبية على قسيمه، فانها غنى مطلقة و الربوبية فقر مطلق.

فيا له برهانا ما أوضحه على كلمة التوحيد «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ» في جميع شؤون الألوهية، كلمة سواء في العقلية الإنسانية و الكتابية، فالمتولي عنها متول عنهما على سواء.

و قد ينضم ثالوث السلب في «لا إله» كما توحيد الإيجاب في «إلّا اللّه» و لا تعني ساير كلمات التوحيد و عباراته إلا كلمة الإخلاص هذه‏ «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

و خطاب اهل الكتاب- ككل- بكلمة سواء، تنديد بهم في كافة الانحرافات و الانجرافات عن التوحيد الحق، هودا كانوا او نصارى ام و مسلمين: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 186

فليست صيغة «الإسلام- و- المسلمون» مما تصوغ كامل التوحيد، كما و أن صيغة التهود و التنصر ليست لتصوغ الإشراك باللّه، «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» (4: 123).

و ليست‏ «كَلِمَةٍ سَواءٍ»- فقط- لفظة تقال مهما تأولوها بما لا تعنيه كتوحيد التثليث او التثنية أماهيه، ام كانت اعمالهم و اتجاهاتهم تضادها ام لا تتجاوب معها، فقد تعني كلمة التوحيد بعد قالها حالها و اعمالها في كافة مدارجها، فهي التي يقول اللّه عنها «كلمة لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي».

و يا له حوارا ما أجمله و أنصفه ان يدخل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) نفسه و الذين معه في جموع اهل الكتاب ل «كَلِمَةٍ سَواءٍ» دون ان يختصهم بمثلث النهي، لئلا يكون تعريضا عليهم صراحا، فانما هو ختام للجدال بالتي هي احسن بأنصف النصفة و هو الالتزام بما هو لزام الشرعة الكتابية لأهلها هودا و نصارى و مسلمين.

ثم و أخيرا «فَإِنْ تَوَلَّوْا» عن‏ «كَلِمَةٍ سَواءٍ»- «فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» دونكم دون «أنتم كافرون».

و هنا ندرس من ادب الحوار الرسالي لكل داعية أنه- ككل- استجاشة للفطرة و العقلية الانسانية و الوحدوية الكتابية ما يقرب الى الحق، او- لأقل تقدير- لا يغرب عنه، دونما سباب او انتقام في الخصام.

فرغم عدم السواء في كلمة التوحيد بيننا و بينهم واقعيا يوجههم اللّه إليها مبدئيا كتابيا، «سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ» بسند الشرعة الكتابية بعد سناد الفطرة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 187

و العقلية الانسانية فالمتخلف عنها متخلف عن الكلمة السواء مهما كان مسلما او من هود او نصارى.

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْراهِيمَ وَ ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (65).

لقد حاج أهل الكتاب رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في إبراهيم كأنه يهودي أو نصراني، حجة واقعية من الرسالة الإبراهيمية المقبولة لدى الكل، فتهوده او تنصره قد يقضي على‏ «كَلِمَةٍ سَواءٍ» او يتهافتان.

و لكنهم محجوجون في هذا المسرح قبل كل شي‏ء بأنه‏ «ما أُنْزِلَتِ التَّوْراةُ وَ الْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ» فكيف يعقل تهوّده و تنصره‏ «أَ فَلا تَعْقِلُونَ» «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى‏ قُلْ أَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ» (2: 140).

ذلك و لقد جرت العادة للمبطلين ان يضموا أنفسهم الى قادة المحقين لكي يبرروا باطلهم كأنه حق، حينما كلّت كل حججهم عن إثبات الباطل و تزييف الحق.

ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فِيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (66).

المحاجة الحقة الصادقة هي التي تتبنى العلم، و التي لا تتبناه هي من الباطل، فلتكن لأهل الكتاب محاجّتان اثنتان حقة و باطلة، فما هي الأولى؟

و الأخيرة ظاهرة من تلك الحوار، من المحاجة الحقة للنصارى ما احتجوا به لإثبات رسالة السيد المسيح على اليهود و هم ناكروها، و منها لليهود عليهم ما احتجوا به لإبطال ألوهية المسيح و التثليث أماذا من حجاجات حقة بينهم أنفسهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 188

و من الباطلة احتجاجها على المسلمين بالتهود و التنصر لإبراهيم الخليل تثبيتا لاختلاقاتهم المعارضة للشرعة الكتابية، و الحجاج الحقة ليست لتثبت الحق في الحجاج الباطلة، و إنما يقدر كل بقدرة.

ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67).

لأن التهوّد و التنصر اختلقا منذ نزول التوراة و الإنجيل، و هما- دون ريب- أنزلتا بعد إبراهيم (عليه السلام) فمن المستحيل كون ابراهيم يهوديا او نصرانيا حتى يتمسك في صحتهما بشيخ المرسلين.

و لكن يبقى سؤال: كيف يشك أي ذي مسكة أو سفيه أن ابراهيم الذي عاش قبل نزول الكتابين يقرون هو يهودي او نصراني، حتى يتطلب ذلك النقاش العريض في عديد من آي الذكر الحكيم؟.

و الجواب أن كلّا من الهود و النصارى كانوا- و لا يزالون- يدعون ان الشرعة الإلهية هي شرعة التوراة او الإنجيل، امتدادا زمنيا خلفيا و أماميا مهما جاء بهما الرسولان، فليكن ابراهيم و من قبله و من بعده إلى يوم القيامة هودا او نصارى: «وَ قالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى‏» فالنبيون الاوّلون و الآخرون و الذين معهم هم هود في الأصل او نصارى حتى يستحقوا دخول الجنة.

و من الامتداد الخلفي المدّعى: «أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطَ كانُوا هُوداً أَوْ نَصارى‏ ..» (2: 140).

فبناء على هذه الضابطة المدّعاة ابراهيم الخليل (عليه السلام) هو من الهود او النصارى، و قضية الشرعة التوراتية أو الإنجيلية هذه التي نعتقدها فنحن- إذا- من أتباع إبراهيم الخليل (عليه السلام).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 189

و القرآن يزيف في آيات عدّة أولا نزول التوراة و الإنجيل إلّا من بعد ابراهيم، ثم و في أخرى يصرح بعديد الشرايع الإلهية: «لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً» (5: 48) «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكُوهُ فَلا يُنازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ» (22: 67).

و ذلك هو الشأن الشائن كل الطائفيّين المتصلبين، كأن شرعتهم هي شرعة الكل، فالمتخلف عنها خارج عن شرعة اللّه، تنديدا بسائر كتابات الوحي و رسالاته بأممها.

و ترى‏ «حَنِيفاً مُسْلِماً» ليس رجوعا الى مثل الدعوى و قد أنزل القرآن من بعده؟.

كلّا، حيث الإسلام هو التسليم للّه في كافة الأدوار الرسالية، فالنبيون و الذين معهم كلهم كانوا مسلمين للّه و كما في آيات عدة، و ما اختصاص المسلمين الآخرين باسم الإسلام، إلا لمقابلته بالذين يكفرون بشرعة القرآن، و انها لم تحرّف أو تبدّل فحفظ إسلامه سليما كما أنزل دون سائر كتابات الوحي حيث حرفت عن جهات اشراعها اصلية و فرعية.

«وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» تأييد أكيد للمعني من إسلام إبراهيم، فان قضيته التقسيم إلى مسلم و مشرك، و كل المسلمين للّه في الأدوار الرسالية مسلمون و من سواهم مشركون او ملحدون.

و هنا تنحل المشكلة في محاجتهم فيما ليس لهم به علم، إذ كانوا يعلمون نزول التوراة و الإنجيل و لكنهم يجهلون ان ليسا هما كتابي الشرعة الإلهية الممدودين خلفيا و أماميا.

هذا ابراهيم، ثم و من هو أولى به انتسابا روحيا هو الأولى في كل الحقول الروحية:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 190

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68).

ليس الأولى بإبراهيم من يدّعون تهوّده و تنصرّه كذبا و زورا، و لا المنتسبون إليه سببا او نسبا، انما هم الذين اتبعوه في حنفه و إسلامه‏ «وَ هذَا النَّبِيُّ ...».

فلقد اختصت الأولوية هنا بالذين اتبعوه و بهذا النبي الذي هو في الحق متبوعه في محتد الإسلام، «وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» على طول خط الرسالات دون فارق بين مؤمن و مؤمن إلا بفارق درجات الايمان، دون سائر الفوارق المختلفة المختلقة، عنصرية أو اقليمية أو طائفية أماهيه.

ذلك- فكذلك إن اولى الناس بمحمد للذين اتبعوه، لا الذين انتسبوا اليه بسبب او نسب ام عاصروه و صاحبوه، مهما كان الاولى بالقرابة و الطاعة اولى من وليه بالطاعة لأنه مجمع النورين و كما

يروى عن علي (عليه السلام): فنحن مرة اولى بالقرابة و تارة اولى بالطاعة «1».

و

يروى عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «ان ولي محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) من أطاع الله و رسوله و ان بعدت لحمته و ان عدو محمد (صلى الله عليه و آله و سلم) من عصى الله و رسوله و إن قربت قرابته» «2»

و:

إن أولى الناس بالنبي المتقون فكونوا أنتم بسبيل ذلك فانظروا لا يلقاني الناس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر عن نهج البلاغة من كتاب له (ع) إلى معاوية جوابا و كتاب اللّه يجمع لنا ما شذ عنا و هو قوله سبحانه‏ «وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى‏ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ» و قوله تعالى‏ «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ».

(2)

نور الثقلين 1: 353 عن المجمع قال أمير المؤمنين علي (ع) ان أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به ثم تلى هذه الآية و قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 191

يحملون الأعمال و تلقوني بالدنيا تحملونها فأصد عنكم بوجهي ثم قرأ هذه الآية «1».

فصاحب الطاعة اولى بالنبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) من صاحب القرابة، و الجامع بينهما أولى من صاحب الطاعة، كما و ان القريب العاصي أغرب من الغريب العاصي و كما قال اللّه في نساء النبي: «يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ .. يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً، وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً».

و انها ضابطة ثابتة على مدار الزمن الرسالي، أن الأصل في الأولوية إيجابية و سلبية هي الطاعة إيجابية و سلبية، ثم تزيدها القرابة بدرجاتها درجات أم دركات.

و هذه الصورة الوضائة المشرقة هي ارق صورة للتجمع الانساني لمجمع واحد، تمييزا له من القطيع، صورة تسمح بتلك الوحدة العريقة غير الوهيدة دون قيود إلا ما يختاره الإنسان من صالح العقيدة و العملية.

فبامكان الإنسان أيا كان أن يغير عقيدته و عمله من طالح الى صالح او من صالح إلى طالح فيدخل نفسه في صالحين ام طالحين، و ليس بامكانه ان يغير لونه و ميلاده و نسبه، مهما كان يملك ان يغير لغته او شغله او طبقته بصعوبة، فتبقى الحواجز- إذا- سارية المفعول لولا عامل الوحدة العقيدية التي يقرب كل غريب و يغرب كل قريب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 43- أخرج ابن أبي حاتم عن الحكم بن ميناء أن رسول اللّه (ص) قال: يا معشر قريش: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 192

وَدَّتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَ ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَ ما يَشْعُرُونَ (69).

«وَدَّتْ‏ ... لَوْ» تحيل ذلك الإضلال المرتجى‏ «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» و «لا يضلون» في ودهم هذا «إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» حيث يتضاعف ضلالهم و عذابهم بما ودّوا «وَ ما يَشْعُرُونَ» أنهم‏ «ما يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ».

ذلك و حتى‏ «لَوْ يُضِلُّونَكُمْ» إن لم تقوموا بشرائط الايمان فإضلالهم راجع بالنتيجة إلى أنفسهم حيث يزدادون جزاء وفاقا: «وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ» (29: 13) «لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا ساءَ ما يَزِرُونَ» (16: 25).

ففيما لا يضل منكم بإضلالهم فالحصر حقيقي دون ريب، إذ ظلت محاولة الإضلال فاشلة إلّا في أنفسهم إذ يزدادون ضلالا، و فيما يضل البعض، فليس الراجع الى المضلّل إلّا ضلال إلى ضلال، و المضلّل إنما ضل بسوء اختياره، فالحصر نسبيّ و الخاسر الأصيل هو المضلّل‏ «مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها» (41: 46) «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ» (30: 44).

ذلك! و لان ذلك الودّ المضلّل ليس عن إيمان بباطلهم و كفر بحقهم و إنما حسدا و ليكونوا سواء: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ» (2: 109) «وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَما كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً» (4: 89).

و من إضلالهم إياهم قولتهم: أنتم تؤمنون بموسى و المسيح كما نحن مؤمنون فما هو برهانكم على رسالة محمد و نحن به كافرون؟ و الجواب أننا نؤمن بالمسيح الذي بشر بمحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لا المسيح اللّه او ابن اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 193

او خاتم الرسل الناكر لرسالة خاتم النبيين (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

و منه ان النسخ قول بالبداء و ان اللّه يجهل ثم يعلم، و الجواب أنه يبين أمد الحكم السابق قضية المصالح الوقتية في الأحكام المتبدلة، ثم لا نسخ في أصول الدين و جذور الأحكام ...

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70).

«أَهْلَ الْكِتابِ» هم كلهم، و «تكفرون» لا تعني- فيما عنت- صراح الكفر باللّه، فانما بآيات اللّه مهما استلزم الكفر باللّه.

و «بِآياتِ اللَّهِ» تعم آيات الربوبية و الآيات الرسولية و الرسالية، و منها هنا آيات البشارات بالرسالة المحمدية (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الموجودة في كتابات العهدين عتيقة و جديدة، كما و منها الآيات التي كانوا يحرفونها، و قضية الأهلية الكتابية تصديق ساير آيات الوحي ثم‏ «وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» ها، أنها آيات اللّه، لأنها في كتاباتكم، و لأنها في هذه الرسالة تشبه سائر الآيات الرسالية و زيادة.

«وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» مشاهد المسلمين بهذه الرسالة، و إذا خلا بعضكم إلى بعض تصدقون، «وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» انطباق آيات البشارات على هذه الرسالة السامية.

«وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» بهذه الآيات أنها حقة في أنفسكم و فيما بينكم.

«وَ أَنْتُمْ تَشْهَدُونَ» عليها في مشهد المسلمين، فكل هذه الشهادات هنا معنية حيث المتعلق المحذوف ل «تشهدون» طليق يليق أن يكون كلا من هذه الأربع مهما اختلفت معانيها، حيث تتوحد في التنديد بذلك الكفر الماكر، و انه من أنحس الكفر و أتعسه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 194

إنهم يكفرون بآيات اللّه- مطلعين على البشارات و غير مطلعين- لا لنقص في الدليل و لكنه المصلحية و التضليل، فتقرعهم بينات الآيات بواقع موقفهم المريب المعيب.

يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَ تَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71).

و لقد كانوا يلبسون الحق و يغمرونه في غمار الباطل، الأمر الذي درجوا عليه منذ البداية و حتى اللحظات الحاضرة، يقدمهم اليهود و يتبعهم النصارى، و

«إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع و أحكام تبتدع يخالف فيها كتاب الله و يتولى عليها رجال رجالا فلو أن الحق خلص لم يكن للباطل حجة و لو أن الباطل خلص لم يكن اختلاف و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان فيجيئان معا فهنالك استحوذ الشيطان على أولياءه و نجى الذين سبقت لهم من الله الحسنى» «1».

فلبس الحق بلباس الباطل و لبس الباطل بلباس الحق شيطنة مدروسة على مدار الزمن الرسالي يصطاد بها السذّج البله الذين لم يعرفوا الباطل و الحق حقهما فهم همج رعاع، أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح و لا يلجأون الى ركن وثيق.

و المهمة الأولى و الأخيرة لهؤلاء المناكيد كتمان الحق حتى لا يتّبع، أن يلبس بالباطل كما يلبس الباطل بالحق، و الحق ضائع في المسرحين.

«لِمَ تَلْبِسُونَ‏ ... وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» لبسكم، و «تعلمون» الحق و الباطل، و أنتم اهل الكتاب الذي يعرّفكم الحق و الباطل فلم تلبسون؟.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من خطب للإمام علي أمير المؤمنين (ع) برواية الكافي و في النهج مثلها بتفاوت يسير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 195

لقد نرى- منذ بزوغ الإسلام حتى الآن جموعا من اهل الكتاب- و لا سيما المستشرقين و المبشرين الصليبيين- يدسون في التراث الإسلامي ككل، اللّهم إلا القرآن المصون عن كل تحريف بما وعد اللّه، دسا في الأحاديث و الأحداث و التاريخ و عامة التراث و حتى في مختلف التفسير للقرآن لحد تركوه تيها لا يكاد الباحث غير الدقيق يهتدي فيه إلى معالم الحق.

فهناك شخصيات مدسوسة على الأمة الاسلامية، مغروسة في أصول حقولها ليؤدوا لأعداء الإسلام من خدمات هامة لا يملكها الأعداء الظاهرون.

و في الحق إنهم هم حملة الفتن الهدامة في أمة الإسلام، و على أعقابهم كتل ساذجة جاهلة او متجاهلة يحسبون هذه الدسائس من صلب الإسلام، و يتهمون ناكريها بأنهم خارجون عن الدين: أ تنكر حديث الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أو أنت منكر روايات الائمة من آل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أنت أنت وحدك ترد ما اشتهر بين جماهير المسلمين، و جادت به أقلام المؤلفين؟!.

و ليتهم في خضمّ هذه المعارك الصاخبة رجعوا الى عقليتهم الإسلامية، إلى القرآن الناطق بالحق، الفرقان بين كل باطل و حق، و كما أمرهم الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فيما يقول «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه حبل الله المتين و سببه الأمين ...».

و لو ان القرآن احتل الأوساط العلمية و العقيدية اختل الدس و التجديف في كل حقوله، و لكنّما المحاولة المستمرة في الوسط الاسلامي- و حتى الحوزات العلمية- مستمدة من الوسط الكتابي المستعمر المستحمر، إنها لا تزال تعمل في إبعاد القرآن و تسفيره عن حوزة الامة و حيازتها، اكتفاء بقراءته و تجويده في عبارته، و تجاهلا عن حق دراسته و ممارسته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 196

نرى لبسهم الحق بلباس الباطل بمختلف المحاولات المضلّلة من قالات و فعالات و منها:

وَ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72).

و قد تعني الآية وجوها يتحملها الأدب لفظيا و معنويا ان:

1 «آمنوا بما انزل على الذين آمنوا» ككل‏ «آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ».

2 «آمنوا بما انزل وجه النهار» «و اكفروا» به «آخره».

3 «آمنوا بما انزل وجه النهار» «و اكفروا» بما انزل عليهم «آخره».

و الجمع المعني منها هو الايمان النفاق البارز ببديل الكفر عن الايمان‏ «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

و هذه المنافقة اللئيمة مما تؤثر بطبيعة الحال في الذين لم يقع الايمان موقعه المكين في قلوبهم، فحين يرون طائفة من اهل الكتاب يؤمنون يزدادون إيمانا، و حين يرونهم يكفرون بعد إيمانهم يرجعون.

و لقد خاب سعيهم بما أوضح اللّه من كامن كيدهم و ميدهم، أن سراع الكفر بعد الإيمان ليس من صادق الإيمان، و لينتبه المسلمون على طول الخط أنه من مكائد الكتابيين- اللئيمة- فلا يدخلوا في هوّاتهم بغوّاتهم.

و هذا أمكر طريقه و أنكرها في تضليل البسطاء و ضعاف العقول، حيث يوقعهم في البلابل، إذ يظنون أن أهل الكتاب اعرف منهم بالبيئة الكتابية، فإذا ارتدوا بعد إيمانهم لم يكن ذلك الارتداد إلّا بسبب اطلاعهم- بعد تطلعهم الصحيح- على بطلان هذا الدين!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 197

و لقد تطرقوا في هذا الكيد اللئيم طرقا شتى تناسب مختلف الحقول و شتى العقول، فاختلقوا جيشا جرارا بصورة مثقفين فائقين في مختلف العلوم و هم يحملون اسم الإسلام لا لشي‏ء إلا لانحدارهم من سلالة اسلامية، رغم انهدارهم عن سلالة الإسلام.

فهم قد يدقون على تقدمية الإسلام و أخرى على رجعيتها دعاية ضالة للتفلت عنه، و إبعادها عن مختلف مجالات الحياة و جلواتها إشفاقا عليها!.

و لا فحسب في ميادين العلوم التجريبية، بل و في العلوم الإسلامية نفسها حيث يمحورون القيلات الشتات التي هي ويلات على المسلمين، تاركين كتاب اللّه وراءهم ظهريا.

فهؤلاء و أولاء- و هم مسلمون!- يشاركون- جاهلين او متجاهلين ام و معاندين- يشاركون رأس الثالوث الماكر و هم طائفة مستشرقة و مبشرة من اهل الكتاب، فهم شركاء ثلاث في سالوسهم بثالوثهم تأدية لدور التضليل.

وَ لا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدى‏ هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتى‏ أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ أَوْ يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ (73).

«وَ لا تُؤْمِنُوا» من خطاب أهل الكتاب بعضهم بعضا «إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ» من المسلمين المضللين و من إخوانكم- ككل- في الدين، و الايمان له ليس كالايمان به او ايمانه او معه، انما هو الوثوق و الاطمئنان إلى إخوتهم في دينهم، فأسرّوا إليهم و جاهروهم كما تحبون.

«قُلْ إِنَّ الْهُدى‏ هُدَى اللَّهِ» لا هدى الهوى التي أنتم تبغونها، فهدى اللّه تعالى طليقة عن عنصريات و قوميات و طائفيات أو لغات، و من هدى اللّه طليقة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 198

«أَنْ يُؤْتى‏ أَحَدٌ» سواكم‏ «مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ» من شرعة اللّه و سلطانه، و لا تعني هذه المماثلة إلّا في اصل الوحي و الشرعة دون درجاتها.

فإذا «يُؤْتى‏ أَحَدٌ مِثْلَ ما أُوتِيتُمْ» فآمنوا به و لهم «او» إذا توليتم‏ «يُحاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ» لماذا كفرتم به و أنكرتموه، أ لأن فضل اللّه بأيديكم؟

«قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ» لا من تشاءون‏ «وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» دونكم أنتم اللئام المتضايقون الأضنّة.

ان الشراسة الاسرائيلية و تصلّبها العنصري كانت و لا تزال تخيّل إليهم أنهم هم الشعب المختار، اختار اللّه لهم شرعته إلى يوم الدين، دونما أية حجة و بينة، صدا عن سبيل اللّه و سدا عن فضل اللّه و هداه إلّا لهم أنفسهم، فمن سواهم أتباعهم على طول الخط الرسالي، كلّا! «وَ اللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ»:

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74).

اختصاصا في الأدوار الرسالية لكل رسالة برسول، و اختصاصا للرسالة الأخيرة بخاتم النبيين و أفضل الخلق أجمعين محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

«أَ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ» (43: 32) «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ» (17: 100).

ذلك! و ليس اهل الكتاب كلهم كفرة ناكرون ماكرون بل هم كما يقول اللّه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 199

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 75 الى 85]

وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلى‏ مَنْ أَوْفى‏ بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى‏ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (77) وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (78) ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79)

وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80) وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (82) أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ عَلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84)

وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (85)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 201

وَ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ‏ 75.

مثال ماثل بين أيدينا لغايتي الأمانة و الخيانة الكتابية، فمنهم‏ «مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ» كالذين ائتمنوا كتاب اللّه فأدوه إلى اهل اللّه بكل البشائر المودوعة فيه لأهليه‏ «وَ مِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ» بخلا عن أداء أمانته على قلتها «إِلَّا ما دُمْتَ عَلَيْهِ قائِماً» تقوم على أمانة البشارة و سواها بحجة كتابية لا حول عنها، و «ذلك» البعيد البعيد «بأنهم» الخونة لا كلهم‏ «قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» و هم غير الكتابين أنفسهم، سلبا لسبيل القيادة الروحية و سواها و سائر الحقوق عن بني إسماعيل الأميين كأنها محصورة في الكتابيين أنفسهم محسورة عمن سواهم! «وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» دونما تقوى في طغواهم‏ «وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» الحق و انهم كاذبون في نكرانه: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً» (4: 53) تعني- فيما تعنيه- الملك الروحي، فكأن لهم نصيبا من ذلك الملك يملكونه فيختصون به أنفسهم و لا يؤتون سائر الناس منه نقيرا!.

و قد يعني المثال الأول قسما من النصارى و الثاني اليهود «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏ ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى‏ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ» (5: 82).

و قد تعني «ليس علينا في الأميين سبيل» كل حق هو لهم، فلا علينا ان نؤدي حقهم مهما كانت امانة،

فلما نزلت قال النبي (صلى اللّه عليه و آله‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 202

و سلم): كذب اعداء اللّه ما من شي‏ء كان في الجاهلية إلّا و هو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فانها مؤداة الى البر و الفاجر» «1».

و اما كيف خص اللّه تعالى أهل الكتاب بتلك الخاصة و في غيرهم- كما هم- الخائن و الأمين و الثقة و الضنين؟.

لأنه لا يعني- فقط- أمانة المال، بل و الأصل هو الممثل له: امانة الوحي المخصوص بأهل الكتاب، و لكيلا يغتر المسلمون بأنهم اهل الكتاب فيأمنوهم على ما ينقلونه لهم من وحي الكتاب.

ثم و لا نحسبهم على سواء في خيانة الأمانة، فلا تمنعنا المشاقة لهم من أن نشهد أن فيهم الثقة و ان كانت الظنة غالبا عليهم، و ان فيهم الأمين و ان كانت الخيانة أشبه بطرائقهم.

و لقد سموا المسلمين أميين زعما منهم ألّا كتاب لهم حيث يحصرونه بالعهدين.

و لقد كان بين اليهود و بين أقوام من العرب بيوع و قروض فلما أسلموا قالوا: ليس علينا ان نقضيكم أموالكم لأنكم قد انتقلتم عن دينكم و استبدلتم بمعتقدكم، حيلة تسلب أموالهم و مطال ديونهم، فقال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قوله: كذب اعداء اللّه ...

و من قيلة اليهود الغيلة ان غيرنا عبيد لنا يحل لنا أكل أموالهم و هتك اعراضهم و «لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» مهما أكلنا من أموالهم و ظلمناهم في سائر حقوقهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 44- أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال لما نزلت هذه الآية قال النبي (ص): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 203

إذا «لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» تعني كل سبيل روحي او زمني او مالي أم اي حق، فنحن اصحاب الحق المطلق، و هم ليس لهم علينا أي حق، و كما يلوح كل ذلك من طيّات الآيات التي تحكي عن مزاعمهم التفوقية على كل الأمم، لحد يحسبونهم حيوانا خلقهم اللّه بصورة الإنسان لكي يصلحوا لخدماتهم!.

هنا «وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ» تلمح انهم ينسبون هذه الفوقية العنصرية الى اللّه و هم يعلمون كذبهم فيه.

و ذلك من أخطر الخطر على الانسانية، ان تحصر حقوقها- الفطرية و العقلية و الشرعية اماهيه- قبيلا واحدا من عامة الناس هم بنو إسرائيل أمّن هم، لا لحق إلا دعوى مكرورة على ألسن و أقلام سامّة تكدّر جو الحياة على من سواهم.

فرغم أن الانسانية أمانة ربانية لهم و عليهم ككل، هم يختصون فضائلها و فواضلها بكل حقوقها بأنفسهم، احتلالا قاحلا جاهلا لشرف الإنسانية و ميّزاتها.

و لقد برزت هذه الأنانية الحمقاء بين اليهود كأصل على مدار الزمن، و من ثم بين سائر الاختصاصيين من المستعمرين المستثمرين المستحمرين المستبدين المستكبرين المستضعفين المستخفين، أصحاب الأبواب السبع الجهنمية على مدار التاريخ الإنساني.

و القرآن يجرف هذه الخرافات الزور الغرور بكلمة واحدة: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ» ثم و ليست الكرامة عند اللّه مما يحمل التقي على الطغوى، فانما هي تقوىّ امام اللّه و امام عباد اللّه و حتى بالنسبة للحيوانات و النباتات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 204

كلا و الف كلا! ليست هذه الأنانية مسموحة في اية فطرة او عقلية انسانية فضلا عن شرعة اللّه.

بَلى‏ مَنْ أَوْفى‏ بِعَهْدِهِ وَ اتَّقى‏ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ‏ 76.

«بَلى‏ مَنْ أَوْفى‏» من هود او نصارى او مسلمين‏ «مَنْ أَوْفى‏ بِعَهْدِهِ» عهد اللّه، الذي عاهد عليه اللّه فطريا و شرعيا، و عهده نفسه، و الذي عاهد اللّه عليه ام عاهد عباد اللّه ام عاهدوه عليه و تقبله بحق «و اتقى» اللّه في عهوده كلها «فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» سواء حملوا اسم الإسلام او سواه و لقد عهد اللّه على عباده‏ «أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَ أَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ».

فليست كرامة الحب الربانية بذلك المبتذل الفوضى حتى ينالها كل مدع زورا و غرورا دونما تقوى، بكل قيلة و ادعاء و ويلة في طغوى الحياة، ان‏ «لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» «نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ»- «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كانَ هُوداً أَوْ نَصارى‏» و «تِلْكَ أَمانِيُّهُمْ قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ».

و هنا نعرف ان الوفاء بالعهد له صلة وثيقة بتقوى اللّه، فلا يتغير في التعامل مع عدو او صديق، إذ ليس الوفاء بالعهد مسألة مصلحة، انما هو تعامل مع اللّه.

أجل ليس هو المصلحة، و لا عرف المجموعة، و لا قضية ظروف، بل قضية واقع الخلق الصالحة الإسلامية السليمة، اللهم إلا في عهود متخلفة فإنها في الأصل باطلة في ميزان اللّه فضلا عن الوفاء بها.

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا أُولئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ لا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ‏ 77.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 205

هنا الرباط بين عهد اللّه و ايمانهم، انهم قد يشترون بالعهد و بأيمانهم ليصدّقوا، على ان لكل وزرا.

«يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ» في مربعه و لا سيما الذي عاهدهم اللّه عليه من وحي الكتاب بشارة و سواها «وَ مِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ» و لكنهم اشتروا به ثمنا قليلا.

«وَ أَيْمانِهِمْ» على الوفاء بعهد اللّه، يشترون بهما «ثَمَناً قَلِيلًا» و كل ثمن بعهد اللّه قليل في كل قليل و جليل: «قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ» (4: 77) من حظوة الرئاسة و زخرفات مالية أماهيه، فان عهد اللّه لا يساوى او يسامى بأي ثمن.

و لماذا «يشترون» و هم يشرون عهد اللّه، لأن المشتري يهمه الثمن المشترى، فلذلك لا يهمه قليله و جليله، و هؤلاء الأنكاد و صلوا في هتكهم لحرمات اللّه الى تقديم كل حظوة فانية في هذه الدانية عليها.

لذلك «أولئك» البعاد البعاد «لا خَلاقَ لَهُمْ» و لا نصيب «في الآخرة»

«فمن لم يكن له نصيب في الآخرة فبأي شي‏ء يدخل الجنة؟» «1»

حيث شروا بعهد اللّه هذا الأركس الأدنى فهم- إذا- إنما تهمهم هذه الأدنى دون الأخرى و «مَنْ كانَ يُرِيدُ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمالَهُمْ فِيها وَ هُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ. أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَ حَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ» (11: 16) و «اللهم إلا من تاب و آمن و عمل صالحا ثم اهتدى» فأولئك لهم خلاق.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 356 بسند متصل عن أبي جعفر عليهما السلام حديث طويل يقول فيه: و أنزل في العهد «إِنَّ الَّذِينَ ...» فمن ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 206

ذلك! و هؤلاء الذين يشترون بعهد اللّه ثمنا قليلا هم أنحس من أولاء و أنكى إذ باعوا بالدين الدنيا.

«لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ» كلام عطف و نظر لطف و رحمة «1» اللهم إلّا «اخْسَؤُا فِيها وَ لا تُكَلِّمُونِ» و «فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها» كما «وَ لا يُزَكِّيهِمْ» بتوبة او شفاعة او تكفير سيئات بحسنات إذ حبطت اعمالهم التي كانوا يرونها صالحة، «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً»- «وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ».

و هذه السلبيات الأربع من حظوة الآخرة لهؤلاء الأنكاد هي- بطبيعة الحال- ايجابيات للمتقين، فلهم في الآخرة خلاق كما سعوا لها و يكلمهم اللّه عطفا و ينظر إليهم لطفا و يزكيهم بمختلف التزكيات، و لهم ثواب عظيم.

هنا «عهد اللّه» معني في كل حقوله، و كذلك «أيمانهم» للّه ام لعباد اللّه، و كما العهد الفاجر يخلف العذاب كذلك اليمين الفاجرة، مهما اختلفت المراحل في كلّ منهما وفاء و نقضا.

و قد رويت عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) روايات عدة بشأن اليمين الفاجرة الشائنة منها

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله و هو عليه غضبان ...» «2»

فضلا عن اقتطاع حق من اللّه في زعمه فأغضب و اشجى!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في كتاب التوحيد حديث طويل عن أمير المؤمنين (ع) يقول فيه- و قد سأله رجل عما اشتبه عليه من الآيات، و أما قوله‏ «وَ لا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ» يخبر أنه لا يصيبهم بخير و قد تقول العرب و اللّه ما ينظر إلينا فلان و إنما يعنون بذلك أنه لا يصيبنا منه بخير فذلك النظر هاهنا من اللّه تبارك و تعالى إلى خلقه فنظره إليهم رحمة لهم.

(2)

الدر المنثور 2: 44- أخرج جماعة عن ابن مسعود قال قال رسول اللّه (ص): ... فقال‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 207

اجل و

«ان اليمين الغموس» «1»

اهتضام لحق الناس و اهتدام لكرامة اللّه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الأشعث بن قيس فيّ و اللّه كان ذلك كان بيني و بين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدمته إلى النبي (ص) فقال لي رسول اللّه (ص) أ لك بينة؟ قلت: لا فقال لليهودي احلف فقلت يا رسول اللّه إذن يحلف فيذهب مالي فأنزل اللّه‏ «إِنَّ الَّذِينَ ...»، و فيه أخرج ابن جرير عن ابن جريح أن الأشعث بن قيس اختصم هو و رجل إلى رسول اللّه (ص) في أرض كانت في يده لذلك الرجل أخذها في الجاهلية فقال رسول اللّه (ص) أقم بينتك قال الرجل ليس يشهد لي أحد على الأشعث قال فلك يمينه فقال الأشعث نحلف فأنزل اللّه‏ «إِنَّ الَّذِينَ ...» فنكل الأشعث و قال:

إني أشهد اللّه و أشهدكم أن خصمي صادق فرد إليه أرضه و زاده من أرض نفسه زيادة كثيرة،

و

فيه أخرج ابن حبان و الطبراني و الحاكم و صححه عن الحرث بن البرصاء سمعت رسول اللّه (ص) في الحج بين الجمرتين و هو يقول: من اقتطع مال أخيه بيمين فاجرة فليتبوأ مقعدة من النار ليبلغ شاهدكم غائبكم مرتين أو ثلاثا،

و

فيه أخرج البزار عن عبد الرحمن بن عوف أن النبي (ص) قال: اليمين الفاجرة تذهب المال‏

، و

فيه أخرج البيهقي عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه (ص) ليس مما عصى اللّه به هو أعجل عقابا من البغي و ما من شي‏ء أطيع اللّه فيه أسرع ثوابا من الصلة و اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع.

و

فيه أخرج الحرث ابن أبي أسامة و الحاكم و صححه عن كعب بن مالك سمعت رسول اللّه (ص) يقول: من اقتطع مال امرئ مسلم بيمين كاذبة كانت نكتة سوداء في قلبه لا يغيرها شي‏ء إلى يوم القيامة،

و

فيه أخرج الطبراني و الحاكم و صححه عن جابر بن عتيك قال قال رسول اللّه (ص) من اقتطع مال مسلم بيمينه حرم اللّه عليه الجنة و أوجب له النار فقيل يا رسول اللّه (ص) و إن شيئا يسيرا؟ قال: و إن كان سواكا،

و

فيه أخرج عبد الرزاق عن أبي سويد سمعت رسول اللّه (ص) يقول: إن اليمين الفاجرة تعقم الرحم و تقل العدد و تدع الديار بلاقع.

(1).

نور الثقلين 1: 355 في عيون الأخبار عن الرضا (ع) حديث طويل في تعداد الكبائر و بيانها من كتاب اللّه و فيه يقول الصادق (ع): و اليمين الغموس لأن اللّه تعالى يقول: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ ..».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 208

وَ إِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتابِ وَ ما هُوَ مِنَ الْكِتابِ وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ‏ 78.

اللّي هو عطف الشي‏ء ورده عن الاستقامة إلى الإعوجاج، و لواه به عطفه بما سواه ليحسب مما سواه.

طرف آخر من مكائد البعض من اهل الكتاب هو تحريفه بألسنتهم إقحاما لما ليس من الكتاب في الكتاب ام تحريفا بزيادة او نقيصة في آي الكتاب او إعرابه، وليّ الألسنة بكتاب يشملهما و لا سيما الثاني خلطا بما ليس منه فيه بنفس العبارة الكتابية لغة و جملة و لحنا و كما في‏ «راعِنا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَ طَعْناً فِي الدِّينِ» «لتحسبوه» أنتم المسلمين غير العارفين بلغة الكتاب «من الكتاب» و يقولون‏ «هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَ ما هُوَ» فيها يلوون «من الكتاب» «وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» كذبهم، و ذلك ايضا «بِأَنَّهُمْ قالُوا لَيْسَ عَلَيْنا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» فلكي يصدوا كل سبيل للحجة على أنفسهم يستحلون الفرية على اللّه حيث الغاية- بزعمهم- تبرّر الوسيلة.

كما و لهم ليّ في كتب الكتاب و ثالث في تفسير الكتاب تحريفا عن جهات أشراعه، و رابع في تخلفهم عمليا عن الكتاب، قواعد اربع يتبنّون عليها عرش السلطة الروحية الكتابية!.

و اللّي الأول يعم ما حرفوه من الكتاب كتبا و سواه، و مثلث الكتاب يعني كتاب الوحي توراة و إنجيلا، و لأن الملوي باللسان لتحسبوه من الكتاب قد يكون من عند اللّه في وحي السنة فقد نفى كونه من عند اللّه، تكذيبا ثانيا لما يلوون، و ثالث يؤكدها و يسمهم بسمة الكذب على أية حال‏ «وَ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ».

و ذلك اللّي و الاشتراء و الخيانة في أمانة الوحي و سواه من تجديفات- هي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 209

بطبيعة الحال- من رجال الدين، و العلماء العملاء لتشويه سمعة الدين.

فآفة رجال الدين و عاهتهم على الدين و الدينين حين يفسدون هي ان يصبحوا أداة لتشوية الدين باسم الدين، ليّا بالكتاب ضدّه و بألسنة ضدها.

هؤلاء الذين يحترفون الدين فيهرفون فيما يحرّفون ضد الدين تلبية لأهوائهم و أهواء آخرين ممن يستفيدون من أموالهم و مالهم من رغبات و شهوات، فيحملون نصوصا من الكتاب و يلهثون بها وراء تلك الأهواء الجهنمية، ليّا لأعناق هذه النصوص لتوافق أهوائهم السائدة المايدة، فإنهم- لكي تتحقق أهوائهم من وراء الكتاب- يبذلون جهودا لاهثة باحثة عن كل تمحّل و كل تصيّد لأدنى ملابسة لفظية أماهيه، ليلبسوها من أهوائهم ما يبغون.

و اللّه يحذر المسلمين من هذا المزلق الوبي‏ء الذي انتهى بانتزاع أمانة القيادة الروحية من بين إسرائيل.

و لقد نرى ليّا و بيئا في الآيات الانجيلية المؤولة الى ثالوثهم و ان المسيح ابن اللّه، و هم فاضحون فيما يفتعلون‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). يصرح الإنجيل في ثمانين موضعا أن المسيح (ع) عبد اللّه و رسوله كما يقول: إن الحياة الأبدية معرفة اللّه بالوحدانية و أن المسيح رسوله (يوحنا 17: 3) و «أول الأحكام أن نعرف أن إلهنا واحد» (مرقس 12: 29) و هو يتحاشي عن أن يخاطب بالرب كما يندد ببطرس لما قال له:

حاشاك يا رب، فالتفت إليه و قال اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما للّه و لكن بما للناس (متى 16: 22- 23) و يعتبر أيضا من يظنه إلها أو ابنه من المجانين: «.. فلما عرفوه أخذوا يصرخون: مرحبا بك يا إلهنا و أخذوا يسجدون له كما يسجدون لله فتنفس الصعداء و قال:

انصرفوا عني أيها المجانين لأني أخشى أن تفتح الأرض فاها و تبتلعني و إياكم لكلامكم الممقوت، لذلك ارتاع الشعب و طفقوا يبكون» (برنابا 92: 19- 20).

و حقا انه لا يوجد في الأناجيل ما يدل صراحا على النبوة و الألوهية و الثالوث المسيحية اللّهم إلّا اختلاقات ليّا بألسنتهم و طعنا في الدين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 210

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فمثل «أنا و الآب واحد» (لوقا 10: 30) من المتشابهات التي تفسرها محكمات كالتي سلفت فالوحدة هنا توحد العبد مع ربه في الدعوة إليه، فلو دعا إلى نفسه لم يكن معه واحدا.

و كذلك: «في البدء كان الكلمة و الكلمة كان عند الله و كان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شي‏ء به كان و بغيره لم يكن شي‏ء مما كان. فيه كانت الحياة و الحياة كانت نور الناس.

و النور يضي‏ء في الظلمة و الظلمة لم تدركه» (يوحنا: 5).

فإن لم تكن هذه الحاقية ليست لتعني الكلمة فيها المسيح بل هي كلمة «كن» التكوينية التي كانت عند اللّه فإنها القدرة الفعلية، ثم كان الكلمة اللّه من حيث القدرة الذاتية و هي من صفات الذات.

فللقدرة كما العلم واجهتان ذاتيتان هما من صفات اللّه التي هي عين الذات، فعليتهما عند اللّه لأنهما من صفات الفعل.

ثم لا نجد في الإنجيل ما يوهم التثليث إلّا كلمة الآب و الابن و الآب تعني الخالق و الابن هو ابن الإنسان كما في ثمانين موضعا.

و أما في الرسالة الأولى ليوحنا 5: 6- 8: 11: هذا هو الذي أتى بماء و دم المسيح. لا بالماء فقط بل بالماء و الدم. و الروح هو الذي يشهد لأن الروح هو الحق. فإن الذين يشهدون (في السماء) هم ثلاثة (الأب و الكلمة و الروح القدس و هؤلاء الثلاثة هم واحد. و الذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة) الروح و الماء و الدم و الثلاثة هم واحد! فما بين الهلالين منها: الآب ..- إلى- هم ثلاثة- مما كتبت أيديهم كذبا و زورا و لا توجد في أقدم النسخ و كما لا تصرح به الترجمة العربية من الأصل اليوناني المطبوعة في المطبعة الأمريكية في بيروت 1906 و هي مدار النقل عندنا في كتبنا الثلاثة: عقائدنا- المقارنات- رسول الإسلام في الكتب السماوية- فالتنبيه الموجود في أوّل هذه النسخة: و الهلالان () يدلان على أن الكلمات التي بينهما ليس لها وجود في أقدم النسخ و أصحها هذا التنبيه دليل أن التثليث المذكور فيه مقحم و كما يقول به كبار المحققين من علماء الإنجيل مثل كريسباج و شولز و هورن المفسر الشهير الإنجيلي، رغم تعصبه في الحفاظ على الأناجيل حيث يقول: هذه الجملة- يعني ما بين القوسين- الحاقية يجب حذفها عن الإنجيل، و تبعه جامعوا تفسير هنيري و إسكات و آدم كلارك، ثم إكستائن و هو من أعلم علماء التثليث و مرجعهم لا ينقل هذه العبارة في رسالاته العشر التي كتبها حول هذه الرسالة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 211

من ذلك لي «الآب» و هو لغة يونانية بمعنى الخالق، الى «الأب» مع الحفاظ على مده في اصل الكتاب، يلوون ألسنتهم بالآب أبا لتحسبوه من الكتاب نصا على ابوة اللّه للمسيح (عليه السلام) و ليس الأب من الكتاب و إنما هو الآب فالابن معه ام سواه هو ابن الإنسان، فقوله (عليه السلام) لمريم المجدلية: امضي الى اخوتي و قولي لهم: إني صاعد الى آبي الذي هو آبوكم و إلهي الذي هو إلهكم (يوحنا: 20) لا يعني من «الأب» إلّا الخالق مهما اسقطوا مدها ام أثبتوها و كما يؤيّده ثانيا «إلهي و إلهكم».

ذلك! و كما يلوون ألسنتهم ب «بريكليطوس» التي تعني غاية الحمد:

أحمد و محمد- فيلفظونها «باراكليطوس»: المسلي، ليحرفوها عن محمد النبي الى المسلي الروح القدس، و «بريكليطوس» هي المسجلة في الأناجيل قبل الإسلام‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الإنجيلية، رغم أنه ممن أسس أساس التثليث، فلم تكن- إذا- هذه العبارة في الإنجيل حتى القرن الرابع زمن إكستائن و إلّا لكانت من أوضح أدلته على التثليث! و قد تكلف في مناظرته مع فرقة إيرين المنكرين للتثليث في الآية (8) فكتب أن المعني من الماء هو الأب و الدم هو الابن و الروح هو الروح القدس!.

فلو كانت عبارة التثليث: الآب و الكلمة و الروح القدس- موجودة في زمنه و أن في نسخة مجهولة ساقطة لكان يتثبت بها و لم يسقط في هوة هذا التأويل البارد.

و ممن يصرح بذلك الإلحاق الدكتور فندر الألماني مؤلف ميزان الحق في رده- بزعمه- على الإسلام، و يكتب المفسر الشهير هورن 12 صفحة في التفتيش عن هذه الجملة و قد لخصها جامعوا تفسير هنري و الإسكات كالتالي: الأدلة المثبتة لكونها الحاقية ما يلي:

(1) لا توجد هذه العبارة في النسخ اليونانية قبل القرن 16 فهي- إذا- ملحقة في هذا القرن.

(2) لا توجد في المطبوعات الأولى ثم نراها بعدها.

3- لا توجد في شي‏ء من التراجم إلّا اللاتينية قليلا.

4- لم يستدل بها أحد من القدماء و المؤرخين الكنسيين.

5- زعماء بروتستانت الروحيون بين مسقط لهذه العبارة و مبق لها بضميمة علامة الريب و التزييف ض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 212

ثم حرفت الى «باراكليطوس» بعد الإسلام.

و من ليّهم في تراجم الكتاب إسقاط «مقرب» في بشارة سفر التثنية بنبي اسماعيلي حيث تقول: «نابى‏ء آقيم لاهم مقرب إحيحم كموشه ..»: نبيّ أقيم لهم من أقرباء أخيهم كموسى ثم نرى سائر التراجم كالمتفقة على إسقاط «مقرب» حيث تقول «من وسط بني إسرائيل من إخوتهم مثلك- من إخوتك مثلي» ترجمة مرتجفة مريبة رغم وحدة الأصل في «مقرب» تنحية لهذه البشارة عن النبي الإسماعيلي الذي بعث من أقرباء أخيهم، ف «أخيهم» هو بنو عيص كما في «تث 28: 8) و أمر القوم و قل لهم إنكم لحد إخوانكم بني عيص» و أقرباء بني عيص هم بنوا إسماعيل، فإن عيص نفسه كان صهرا لإسماعيل‏ «1».

و من ليّهم ترجمة «بمئد مئد شنيم عاسار نسيئيم يولد ..»: بمحمد و اثنى عشر اماما يلدهم- حيث ترجموها ب «الكثير جدا و اثنى عشر رئيسا» «2».

هذه و أشباهها كما تجد قسما منها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِباداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ‏ 79.

لقد نزلت هذه الآية في خضم الحوار مع نصارى نجران حين سئل:

«أ تريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم، فقال رجل من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) 33- 39.

(2) المصدر 40- 43.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 213

اهل نجران نصراني: أو ذاك تريده هنا يا محمد فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): معاذ الله ان نعبد غير الله او تأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني و لا بذلك امرني» «1».

و كما

قال له رجل «يا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أ فلا نسجد لك؟ قال: لا و لكن أكرموا نبيكم و اعرفوا الحق لأهله فانه لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله فأنزل الله هذه الآية «2»،

و

قال (صلى الله عليه و آله و سلم): لا ترفعوني فوق حقي فان الله تعالى اتخذني عبدا قبل ان يتخذني نبيا» «3».

و هنا «ما كان» تنفي عن اعماق الزمان بمثلثه الدعوة المعاكسة لتوحيد اللّه لرسل اللّه و أنبياءه، أن يرتقوا زورا و غرورا عن الرسالة الإلهية الى الإلهية نفسها، نفيا في استحالة ذات بعدين، ان يبعث اللّه من يحاده في ألوهيته، و أن يتبدل المألوه إلها.

و ليست «لبشر» هنا تختص النفي ببشر، و انما لأن المدّعى ألوهيته هنا بشر، و ان البشر- و هو في أحسن تقويم- إذا لم يصلح له ان يكون معبودا من‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 46- أخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود و النصارى من أهل نجران عند رسول اللّه (ص) و دعاهم إلى الإسلام: أ تريد ...

(2) المصدر أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال بلغني أن رجلا قال يا رسول اللّه (ص): ..

(3)

نور الثقلين 1: 357 في عيون الأخبار في حديث سلسلة الذهب‏ قال المأمون يا أبا الحسن (ع) بلغني أن قوما يغلون فيكم و يتجاوزون فيكم الحد فقال الرضا (ع) حدثني أبي- إلى- قال قال رسول اللّه (ص): ... قال اللّه تعالى‏ «ما كانَ لِبَشَرٍ ...» و قال علي (ع) يهلك في اثنان و لا ذنب لي مفرط و مبغض مفرط و أنا لبراء إلى اللّه تعالى ممن يغلو فينا فرفعنا فوق حدنا كبراءة عيسى بن مريم عليهما السلام من النصارى.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 214

دون اللّه فبأحرى من دونه من سائر الخلق، ثم الآية التالية لها تنفي بوجه عام الألوهية عما سوى اللّه.

و هنا «أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ‏ ... ثُمَّ يَقُولَ» دون «ان آتاه الله ثم قال» مما يؤكد الاستحالة في بعديها، ان ليس اللّه يبعث من يتخلف هكذا عن رسالة، «وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ» (69: 45) و ليست تتبدل الرسالة الى المرسل نفسه.

و «الكتاب» هنا هو كتاب الوحي «و الحكم» هو الحكم الرسالي بالكتاب، فقد أوتي المرسل إليهم الكتاب و لم يؤتوا الحكم الرسالي بالكتاب، و من ثم «النبوة» هي الرفعة بين المرسلين بالكتاب، فهي المرحلة القمة الرسالية مهما كانت درجات.

و لقد بلغت دركة الدعاية الثالوثية لحد يستجوب اللّه فيها المسيح (عليه السلام) البري‏ء فيجيب: «وَ إِذْ قالَ اللَّهُ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قالَ سُبْحانَكَ ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ ما لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ‏ ... ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ ..» (5: 117) و «لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَ لَا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ مَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ...»

(4: 172).

ان المعرفة البسيطة باللّه تمنع العارف عن دعوى الألوهية، فضلا عمن يؤتى الكتاب و الحكمة و النبوة، فإنها تحكّم عرى العبودية، إذ ليست واردة إلا مورد العبودية القمة.

«ما كانَ‏ ... ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ» «كُونُوا رَبَّانِيِّينَ»: منتسبين الى الرب بمعرفة غالية و عبودية عالية كما نحن المرسلين، نحن ب «الْكِتابَ وَ الْحُكْمَ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 215

وَ النُّبُوَّةَ» ثم أنتم‏ «بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ» فعلم الكتاب الرسالي و تعليمه يجعلكم ربانيين بعيدين عن الدعاوي الخاوية الشركية.

فالربانيون هم القادة الروحيون، الحاملون لدعوات الرسل بين المرسل إليهم، و هم هنا «الناس» المعنيون ببازغ الدعوة و منطلقها، حيث يتربون في حجر الوحي الرسالي، معرفيا و عمليا ثم يربّون الناس كما تربوا.

وَ لا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَ النَّبِيِّينَ أَرْباباً أَ يَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ‏ 80.

«يأمركم» منصوب عطفا على‏ «أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ»: ما كان لبشر ... «و لا ان يأمركم» ذلك البشر، «أ يأمركم» النبي‏ «بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» او «يأمركم» اللّه بالكفر بتلك الرسالة المضادة «بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

فكلما تبلغ النبوة ذروة عليا يبلغ النبي الى عبودية أسمى، و لئن استحق المسيح (عليه السلام) ان يدعو لنفسه لكرامته على اللّه، فليبلغ إمامه و امام المرسلين: محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الى الامامة على اللّه!.

وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ‏ 81.

آية غرة ترفع من شأن خاتم النبيين (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الى أعلى القمم التي لا تساوى او تسامى حيث تحمّله- و هو آخر النبيين- المجي‏ء إليهم كلهم برسالته القدسية.

هنا زوايا أربع لذلك الميثاق، آخذه و هو اللّه، و المأخوذ منهم و هم النبيون فلا ذكر لأممهم حتى يكونوا هم المعنيين، و المأخوذ له: «رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 216

مَعَكُمْ» و اصل الميثاق: «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» و في اخرى ميثاق آخر غليظ على النبيين و معهم خاتمهم: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى‏ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً» (33: 8) فالميثاقان إذا مختلفان كل ينصبّ في مصبّ غير الآخر.

صحيح ان‏ «مِيثاقَ النَّبِيِّينَ» ادبيا كما يتحمل كونه من اضافة المصدر الى المفعول كما ذكرناه كذلك اضافة الى الفاعل ليكون ذلك الميثاق للنبيين على أممهم، و لكنه معنويا هنا لا يناسب إلّا الأول لمكان‏ «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» حيث المخاطبون فيهما هم النبيون إذ لا خبر هنا عن أممهم، فقد أخذ اللّه الميثاق من النبيين عليهم لرسول جاءهم بعدهم مصدق لما معهم.

فذلك- إذا- ميثاق رسالي لصالح الرسالة الأخيرة المحمدية إيمانا به سلفا و نصرة له و لمّا يولد و يبعث في ظاهر حاله.

و ترى «إذ» تعني زمنا واحدا جمع فيه النبيون لمجمع واحد لأخذ ذلك الميثاق منهم عليهم؟ قد يجوز فيما لا نحيط به علما «1» لكن المفهوم لدينا المعلوم عندنا أن زمن ذلك الميثاق موزع على زمن النبيين كلّ لحده.

ثم و ذلك الزمن الموزّع لذلك الميثاق هو «لَما آتَيْتُكُمْ ...» ميثاقا عشيرا لإتيانهم كتابا و حكمة.

و قد يحتمل أن «إذ» تعني زمن خلق كلّ من النبيين أن فطرهم اللّه على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 15: 22- 36 السرائر عن أبي الحسن الأول (ع) يقول: خلق اللّه الأنبياء و الأوصياء يوم الجمعة و هو اليوم الذي أخذ اللّه ميثاقهم، و قال: خلقنا نحن و شيعتنا من طينة مخزونة لا يشذ عنا شاذ إلى يوم القيامة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 217

ذلك الميثاق، و لكن «النبيين» موضوعا لأخذ الميثاق يبعد ميثاق الفطرة المأخوذ منذ خلقهم لا منذ نبواتهم، ثم‏ «أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي» يبعده ثانيا حيث الفطري رساليا أم خلقيا لا يتخلف.

و قد يقال إن مصير الإقرار هنا هو مصير الإقرار بالتوحيد في آية الذر حيث تعني ميثاق الفطرة على التوحيد، ثم‏ «مِيثاقَ النَّبِيِّينَ» غير صريحة ان ذلك الميثاق أخذ عليهم منذ النبوة، فقد يجوز انه مأخوذ عليهم منذ خلقهم.

و لكن تلك الفطرة الخاصة بالنبيين لا يعبر عنها بأخذ الميثاق، لكنه لا بأس بكونه ضمن المعني من أخذ الميثاق عليهم حين نبواتهم تأكيدا لما أخذ عليهم حين خلقهم.

إذا فكما اللّه فطر الناس على توحيده منذ خلقهم، كذلك فطر النبيين على الايمان بمحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و نصرته.

أم تعني «إذ» مربع الزمان، قبل خلقهم في أرواحهم حيث كانوا أنوارا روحية، و عند خلقهم و قبل نبواتهم و عندها، ميثاق وثيق رفيق عريق مأخوذ عليهم في هذه المواطن الأربع!.

أ ترى‏ «ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ» تعني كل رسول يتلو نبيا منهم، فهم- إذا- كل الرسل، أخذ الميثاق على كل نبي سبقه أن يؤمن به و ينصره؟.

و «رسول» بإفراده أمام جمعية النبيين لا يناسب جمعية الرسل! ثم و كيف يؤخذ ميثاق الايمان من كل نبي لكلّ رسول و النبوة أعلى محتدا من الرسالة، إلا ان يكون الرسول مرسلا الى النبيين فهم كأمته مهما كانوا قبله، و من ثم ليس قضية الرسالة ان يأتي كل رسول تلو سابقة، بل و كذلك النبيون اللّهم إلّا أولي العزم منهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 218

ثم التعبير الواضح الفاصح عن تتالي الرسل «ثم جاء كلا منكم رسول مصدق له» دون‏ «ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ» بل «فجاء» دون «ثم» حيث الرسل كانوا تترى دون فصل، كل هذه و أشباهها مما تبعد جمعية الأبدال في «رسول» بل و تحيلها.

هنا مادة الميثاق‏ «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ» هي منقطع النظير عن كل بشير و نذير، إلا من يكون رسولا الى الرسل و إماما في جموع النبيين.

نجد «آمَنَ مَعَهُ» «فَآمَنَ لَهُ» من نبي لنبي، ثم و لا نجد «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ» إلا هنا «ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ» و بذلك التأكد الأكيد.

صحيح ان على كل رسول سابق تصديق اللاحق، و على كل لاحق تصديق السابق، و اما الايمان به فلا يصح إلّا لمن هو إمام النبيين و رسول إلى المرسلين كما هنا.

و هنا «النبيين» جمعا محلى باللام تعني مستغرق النبوات، فلا تعني بعضا دون بعض، و لا كل الرسل إلا بطريقة أولى، فانما «النبيين» و هم أولو النّبوة و الرفعة بين المرسلين و من نبوتهم‏ «لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ» «1» و ليس كل رسول يأتيه كتاب مهما أتته حكمة، فكما أن أولي العزم من الرسل خمسة، كذلك النبيون منهم و هم اصحاب كتب الوحي ليسوا إلا قسما من المرسلين، فهم الأخصاء المتميزون بين المرسلين.

و هنا «ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ» لها دور العناية بختم الرسالة الإلهية- العظمى-

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). اللام في «لما» للتأكيد و «ما» بمعنى الذي و صلته‏ «آتَيْتُكُمْ ..» و الجملة ظرف تحمل الحكمة الحكيمة ل «لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ..» و قد يحتمل أن اللام للقسم توطئة لبيان حكمة مادة الميثاق، و اللام في «لتؤمنن» جواب القسم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 219

و انها موجهة الى النبيين سلفا كما وجهت الى أمة الإسلام الأخيرة خلفا.

و في «رسول» هنا رغم نبوته العليا، عناية خاصة الى رسالته الروحية الواسعة إلى كافة النبيين قبله، و الرسول الى النبيين هو- بطبيعة الحال- يفوقهم رسالة و نبوة.

ف «جاءكم نبي» لا تعني رسالته إليهم، و انما مجي‏ء نبي قد يعني التزاور بينهم و لكن‏ «جاءَكُمْ رَسُولٌ» هو مجيئه بالرسالة الإلهية إليهم.

فموقف الرسالة هو حمل الوحي ببلاغ الدعوة الرسالية كما هنا الى النبيين و في غيرها الى سائر الأمم الرساليين.

و موقف النبوة هو بيان محتد الرسول النبي في نفسه او بين المرسلين.

و «جاءَكُمْ رَسُولٌ» تضم الموقفين، أصالة في رسالته إليهم، و لمحة بمحتد هذه الرسالة السامية انها الى النبيين، فهو فائق على كافة الرسالات و النبوات.

و نرى القرآن يعبر ب «الرسول- الرسل» في موقف البلاغ الى المرسل إليهم، و قد يعبر ب «النبي- النبيين» في موقفهم الذاتي شخصيا ام بين المرسلين.

و الرسالة قد تكون الى مرسل إليهم عاديين فرسالة عادية، ام والى رسل غير نبيين فأنبى و أعلى، أم والى نبيين غير اولي العزم و هي الرسالة العليا مختصة باولي العزم من الرسل، ام والى اولي العزم و هي فوق العليا و هي التي تعنيها «ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ».

ف «جاءكم نبي» تثبت فقط نبوته مهما كانت فوق رسالة، و لكنها لا تثبت رسالة إليهم، و هي تثبت إمامته الرسالية على النبيين أجمعين.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 220

فالروح الرسالية المحمدية محلقة على كل الأرواح الرسالية قبل خلقها في الجسد، و هي محلقة عليها بعد خلقها في الجسد و بعثها لرسالتها الختمية.

و من ميزات هذه الرسالة الى النبيين واجب الايمان به و نصرته كشرط أصيل لإيتائهم كتبهم، و كما منها رسالته لبلاغ الدين ككل مهما اختلفت شرائعهم مع بعض البعض و مع شريعته، و منها زرق الروح البلاغي استقامة لهم كما أمر، و تضحية في الدعوة كما له و على أضواءه القدسية.

و «مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ» تعني تصديق رسالاتهم بكتاباتهم، فلولا تصديقه لما معهم لما صدقت رسالاتهم، كما ان‏ «ثُمَّ جاءَكُمْ» دليل خاتمية الرسالية العليا، و آية «خاتَمَ النَّبِيِّينَ» دليل خاتمية النبوة له، فهو- إذا- خاتم النبيين و المرسلين على الإطلاق.

و إن خاتميته هي لزام نبوته الرسالية، فنكرانها- إذا- نكران لرسالته.

ترى و متى «جاءكم» هذا الرسول الأخير و هو الجاني بعد ما مضوا و قضوا برسالاتهم.

«جاءكم» هنا تطوي الطول التاريخي الرسالي و عرضه الجغرافي، تعاضيا عن فواصل الزمان و المكان، بيانا لمحتد الرسالة الاخيرة انها لا تحض الأمة الأخيرة، بل و تشمل بروحيتها العالية كافة النبيين، و لأنهم بكتبهم و حكمهم تقدمات لقرآن محمد و محمد القرآن حيث يهيمنان على النبيين بكتاباتهم،

«اما علمت ان الله تبارك و تعالى بعث رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و هو روح إلى الأنبياء (عليه السلام) و هم أرواح قبل خلق الخلق ...» «1»

مهما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

البحار 15: 14 ح 17 بسند متصل عن المفضل قال قال لي أبو عبد اللّه (ع) يا مفضل أما علمت ... بألفي عام؟ قلت: بلى، قال: أما علمت أنه دعاهم إلى توحيد اللّه و طاعته و اتباع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 221

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

أمره و وعدهم الجنة على ذلك و أوعد من خالف ما أجا بوا إليه و أنكره النار؟ فقلت: بلى- الخبر ..

و

فيه 15 ح 19 بسند متصل عن ابن نباتة قال قال أمير المؤمنين (ع) ألا إني عبد اللّه و أخو رسوله و صديقه الأول قد صدقته و آدم بين الروح و الجسد ثم إني صديقه الأول في أمتكم حقا فنحن الأولون و نحن الآخرون الخبر.

و

فيه ح 20 عن ابن سنان قال قال أبو عبد اللّه (ع) أوّل من سبق من الرسل إلى «بلى» رسول اللّه (ص) و ذلك انه كان أقرب الخلق إلى اللّه تبارك و تعالى.

و

فيه ح 21 عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إن بعض قريش قال لرسول (ص) بأي شي‏ء سبقت الأنبياء و فضلت عليهم و أنت بعثت آخرهم و خاتمهم؟ قال: إني كنت أوّل من أقر بربي جل جلاله و أوّل من أجاب حيث أخذ اللّه ميثاق النبيين و أشهدهم على أنفسهم أ لست بربكم؟ قالوا: بلى فكنت أوّل نبي قال «بلى» فسبقتهم إلى الإقرار باللّه عز و جل.

و

فيه ص 18- ح 28 عن مرازم عن أبي عبد اللّه (ع) قال‏ قال اللّه تبارك و تعالى يا محمد إني خلقتك و عليا نورا- يعني روحا- بلا بدن قبل أن أخلق سماواتي و أرضي و عرشي و بحري فلم تزل تهللني و تمجدني ثم جمعت روحيكما فجعلتهما واحدة فكانت تمجدني و تقدسني و تهللني ثم قسمتها ثنتين و قسمت الثنتين ثنتين فصارت أربعة محمد واحد و علي واحد و الحسن و الحسين ثنتان ثم خلق اللّه فاطمة من نور ابتدأها روحا بلا بدن ثم مسحنا بيمينه فأفضى نوره فينا.

و

فيه 21: 34 كتاب فضائل الشيعة بإسناده إلى أبي سعيد الخدري قال: كنا جلوسا مع رسول اللّه (ص) إذ أقبل إليه رجل فقال يا رسول اللّه (ص) أخبرني عن قول اللّه عز و جل لإبليس‏ «أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعالِينَ» فمن هم يا رسول اللّه (ص) الذين هم أعلى من الملائكة؟ فقال رسول اللّه (ص): أنا و علي و فاطمة و الحسن و الحسين كنا في سرادق العرش نسبح اللّه و تسبح الملائكة بتسبيحنا قبل أن يخلق اللّه عز و جل آدم بألفي عام فلما خلق اللّه عز و جل آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له و لم يأمرنا بالسجود فسجدت الملائكة كلهم إلّا إبليس فإنه أبي أن يسجد فقال اللّه تبارك و تعالى: استكبرت أم كنت من العالين، أي من هؤلاء الخمس المكتوب أسماءهم في سرادق العرش.

و

فيه 23- 39 عن أبي حمزة قال سعت علي بن الحسين عليهما السلام يقول: إن اللّه عز و جل خلق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 222

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

محمدا (ص) و عليا و الأئمة الأحد عشر عليهم السلام من نور عظمته أرواحا في ضياء نوره يعبدونه قبل خلق الخلق يسبحون اللّه عز و جل و يقدسونه و هم الأئمة الهادية من آل محمد صلوات اللّه عليهم أجمعين.

و

فيه 23- 40 عن الصادق (ع) إن اللّه تبارك و تعالى خلق أربعة عشر نورا قبل خلق الخلق بأربعة عشر ألف عام فهي أرواحنا فقيل له: يا ابن رسول اللّه (ص) و من الأربعة عشر؟ فقال: محمد و علي و فاطمة و الحسن و الحسين و الأئمة من ولد الحسين آخرهم القائم الذي يقوم بعد غيبته فيقتل الدجال و يطهر الأرض من كل جور و ظلم.

و

فيه 32- 41 عن أبي جعفر عليهما السلام قال: يا جابر كان اللّه و لا شي‏ء غيره لا معلوم و لا مجهول فأول ما ابتدأ من خلقه أن خلق محمدا (ص) و خلقنا أهل البيت معه من نور عظمته فأوقفنا أظلة خضراء بين يديه حيث لا سماء و لا أرض و لا مكان و لا ليل و لا نهار و لا شمس و لا قمر الخبر.

و

فيه ح 43 عن جابر بن عبد اللّه قال‏ قلت لرسول اللّه (ص) أول شي‏ء خلق اللّه تعالى ما هو؟

فقال: نور نبيك يا جابر خلقه اللّه ثم خلق منه كل خير، و عن جابر أيضا قال قال رسول اللّه (ص) أول ما خلق اللّه نوري ابتدعه من نوره و اشتقه من جلال عظمته.

و

فيه ح 45 عن المفضل قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (ع) كيف كنتم حيث كنتم في الأظلة؟ فقال: يا مفضل كنا عند ربنا ليس أحد غيرنا في ظلة خضراء نسبحه و نقدسه و نهلله و نمجده و ما من ملك مقرب و لا ذي روح غيرنا حتى بدا له في خلق الأشياء فخلق ما شاء كيف شاء من الملائكة و غيرهم ثم أنهى علم ذلك إلينا.

و

فيه ح 46 عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إن اللّه كان إذ لا كان فخلق الكان و المكان و خلق نور الأنوار الذي نورت منه الأنوار و أجرى فيه من نوره الذي نورت منه الأنوار و هو النور الذي خلق منه محمدا و عليا فلم يزالا نورين أولين إذ لا شي‏ء كوّن قبلهما فلم يزالا يجريان طاهرين مطهرين في الأصلاب الطاهرة حتى افترقا في أطهر طاهرين في عبد اللّه و أبي طالب عليهما السلام.

و

فيه ح 47 عن جابر بن يزيد قال قال لي أبو جعفر عليهما السلام‏ يا جابر إن اللّه أوّل ما خلق خلق محمدا و عترته الهداة المهتدين فكانوا أشباح نور بين يدي اللّه، قلت: و ما الأشباح؟ قال: ظل النور، أبدان نورانية بلا أرواح و كان مؤيدا بروح واحد هي روح القدس كان يعبد اللّه ....

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 223

جاءهم برسالته إليهم بعدهم مبعثا، فهو على حد قوله (صلى اللّه عليه و آله و سلم) اوّل النبيين ميثاقا و آخرهم مبعثا.

ذلك، و لكن الآية ليست لتعني الإيمان به و النصرة له قبل خلقهم في الجسد، إذ لم تكن لهم حينذاك كتب و لا نبوات و لا أنه إذا جاء بعدهم، فإنه خلق قبلهم.

إنما تعني الإيمان و النصرة «ثُمَّ جاءَكُمْ» طيا لطول الزمان فعليهم أن يؤمنوا كلّ في زمنه بهذا الرسول و ينصروه، كما عليهم ذلك الإصر عند الرجعة.

ففي مربع فرض الإيمان و النصرة كمحتملات، لا تدخل في نطاق الآية إلّا ما بعد خلقهم في الجسد.

و تلك الهيمنة الكبرى من قضيتها الإيمان السابق و النصر من كافة النبيين لصاحب هذه الرسالة السامية.

و لقد لمحت او صرحت آيات عدة بهذه الهيمنة لذلك الرسول كآية الشورى: «شرع لكم من الدين و ما وصى به نوحا و الذي أوحينا إليك و ما وصينا به ابراهيم و موسى و عيسى ان أقيموا الدين و لا تتفرقوا فيه ...» (13).

حيث اعتبر الوحي إلى الاربعة الآخرين من أولي العزم وصية أمام الوحي إلى إمامهم محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لان كتاباتهم تحمل- كأصل- توصيات لهذه الرسالة الأخيرة، مهما حملت شرائع موقّتة لأمم مضت قبلها.

ذلك و كما نرى «رسولنا» في آياتها الأربع و «رسوله» في الأربع و الثمانين، تعنيان هذا الرسول و كأنه هو الرسول لا سواه، مهما شملت جمعية الصيغة الرسالية كل الرسل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 224

و كما نرى- و بأحرى- «النبي» معرفا تختص في عديدها الواحد و الأربعين بهذا النبي لا سواه.

و ليس ذلك الافراد في الرسول و النبي لهذا الرسول النبي صدفة غير مقصودة، بل هو مقصود لبيان محتده الفريد بين كافة الرسل و النبيين.

ففي مثلث الوحي و الرسالة و النبوة محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) هو الأصل و الكل فروعه، و كأن الوحي إليه هو الوحي فقط إذا قورن بسواه كما في آية الشورى، و ان الرسالة و النبوة تخصانه كما في كل الآيات التي أتت بهما بإفراد.

و لقد خصت الرسالة المحمدية بميّزات بين كافة الرسل و على حد

قوله (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين»

فكينونات الرسالة المحمدية أربع لا يشترك سائر الرسل إلّا في أولاها و هي الكينونة الرسالية في علم اللّه، دون الثلاثة الأخرى و هي كيان الإيمان به و نصرته بالتبشير به قبل خلقه و بعثه، و كيان رسالته في الأرواح الرسالية كرأس الزاوية، و كيان الإيمان به و نصرته في رجعته.

و قد نحتمل أن روحه الرسالية كانت مخلوقة قبل الرسل كلهم، انبعاثا إليهم فقط دون سائر المكلفين، و قد يعنيه‏

المروي عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في جواب السؤال: متى نبئت؟ نبئت و آدم بين الماء و الطين- و آدم مجندل في التراب و ....

فقد كانت الروح الرسالية المحمدية مشرفة في واقعها- كما يعلم اللّه- على أرواح النبيين اجمع، هيمنة عليهم و سياجا لهم عن أية تبعثرات في رسالاتهم.

و آية الميثاق هذه تذكر من ميزات هذا الرسول النبي انه خاتمهم و مصدقهم و الرسول إليهم فعليهم‏ «لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ... لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ»- ثم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 225

يأخذ منهم الإقرار بما أخذ عليهم ميثاقه: «قالَ: أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى‏ ذلِكُمْ إِصْرِي» إقرارا بهذه الرسالة الختمية و الايمان به و نصرته، و أخذا بكامل القوات‏ «عَلى‏ ذلِكُمْ» العظيم العظيم، الثقيل الثقيل «إصرى» إصرا في مثلث التصديق و الايمان و النصرة «قالُوا أَقْرَرْنا» إقرارا- بطبيعة الحال- شاملا لأخذ الإصر «قالَ فَاشْهَدُوا» على ما أقررتم‏ «وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

و الإصر- ككل- هو الحمل الثقيل على الآصر و كما «رَبَّنا وَ لا تَحْمِلْ عَلَيْنا إِصْراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنا» (2: 286) «وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ» (7: 157).

و ترى لو أن الإصر موضوع عن الأمة المرحومة رحمة عليهم كما في آيته فكيف يحمّله النبيون أجمعون و هم أحرى بوضع الإصر عنهم، ثم كيف يصبح واضع الإصر عن أمته إصرا على زملائه النبيين؟!.

الإصر لغويا هو عقد الشي‏ء و حبسه بقهره كمأصر السفينة الذي يحبسها بقهر عن تفلّتها، و لكنه قد يكون عقدا و حبسا بشرّ أو ما لا طاقة به كما في آيتيه، و أخرى بخير و هو يطاق، و هكذا يكون إصر الإقرار بالتصديق و الايمان بمحمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لهم و نصرته، فانه يحلّق على كل حياتهم الرسالية أن يكرّسوها- فيما يكرّس- للتعريف و البشارة بهذه الرسالة السامية، فذلك- إذا- إصر في حمله على النبيين، و إصر في حمل أممهم على التصديق به!.

فالإصر و الإصار هما الطنب و الأوتاد التي يعمد بها البيت، و الرسالة المحمدية هي عماد كل بيوتات الرسالات، لولاها لما قام لها عمود، و لولا زندها لما كان لها وقود.

و قد يصعب- بطبيعة الحال- لكل نبي أن يعرف نفسه بين أمته انه- كما

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 226

هم- من أمة رسول ياتي بعدهم كلهم، و كما يصعب على الأمم ان يسمعوا منهم و يصغوا كأن رسلهم ليسوا أصلاء في رسالاتهم، بل هم مبشرون بهذه الرسالة.

و يصعب في الأجواء المتعنتة التي لا تقبل الرسالات التي تعيشها، ان تبشر بالرسالة الأخيرة.

ثم و يصعب الإيمان به و نصرته على طول الخط، قبل ان يجيئهم بما يبشرون و يوطئون لمجيئه، و بعد مجيئه ان يحشروا لحاضر الايمان به و نصرته.

تلك صعوبات و صعوبات يعبر عنها هنا ب «إصري» الحمل الرباني على كواهل النبيين في مثلث تصديقه و الإيمان به و نصرته.

و هنا تنحل مشكلة «ثم جاءكم- لتؤمنن به- و لتنصرنه» كيف جاءهم ثم كيف ينصرونه و قد قضوا نحبهم قبله؟.

فإنه «جاءهم» في الروح الرسالي تاما و طاما، ما ينير عليهم دروب الرسالات بما عرفهم ربهم به في الشبح الروحي و القمة الرسالية، كما «جاءهم» يوم الرجعة فقد يرجع بعدهم كلهم، رسولا إليهم، فهم- إذا- من أمته الرسميين.

و «جاءهم» فيما بشروا به كأنه الحاضر أمامهم و هو إمامهم، فليبشروا به أممهم و انهم من أمته‏ «1».

و «جاءهم» و قد قضوا نحبهم إلّا مسيحهم، فليؤمنوا به بعد موتهم كما آمنوا به قبله و لينصروه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 359 عن المجمع و روي عن علي (ع) أن اللّه تعالى أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبينا (ص) أن يخبروا أممهم بمبعثه و نعته يبشروهم به و يأمروهم بتصديقه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 227

و «جاءهم» في الرجعة المهدوية حيث يرجع الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و عترته المعصومون و النبيون كلهم راجعون اعضادا لدولة الحق الأخيرة «1».

و من ثمّ‏ «ثُمَّ جاءَكُمْ» لها بعد الجمعية و الإفراد: ثم جاء كل واحد منكم حين يتنّبأ فردا فردا، و من ثم جاءكم ككل بعد انقضاء النبوات بأسرها، و تقيد مجيئه إياهم فيما يروى ب «لئن بعث و هو حي» تفسير بمصداق له مختلف فيه و هو زمن الرجعة «2».

فذلك- إذا- إيمان متواصل به و نصرته في هذه المسارح كلها، لم يسبق له نظير و لن، لكل بشير و نذير.

و لقد نرى بشارات له تترى في كتابات الوحي على تحرّفها و لا سيما في تلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر العياشي عن فيض بن أبي شيبة قال سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول‏- و تلا هذه الآية-: قال و لتؤمنن برسول اللّه و لتنصرن أمير المؤمنين، قلت: و لتنصرن أمير المؤمنين؟ قال: نعم من آدم فهلم جرا و لا يبعث اللّه نبيا و لا رسولا إلّا رد إلى الدنيا حتى يقاتل بين يدي أمير المؤمنين (ع).

و

فيه عن سلام المستنير عن أبي عبد اللّه (ع) قال: لقد تسموا باسم ما سمى اللّه به أحدا إلّا علي بن أبي طالب (ع) و ما جاء تأويله، قلت جعلت فداك متى يجي‏ء تأويله؟ قال: إذا جاءت جمع اللّه إمامة النبيين و المؤمنين حتى ينصرونه و هو قول اللّه‏ «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ ...» فيومئذ يدفع رأية رسول اللّه (ص) اللواء إلى علي بن أبي طالب (ع) فيكون أمير الخلائق كلهم أجمعين، يكون الخلائق كلهم تحت لواءه و يكون هو أميرهم فهذا تأويله.

أقول: و ذلك من الجري و التأويل كما في نفس الحديث، فعلي (ع) هو ممثل الرسول (ص) في الرجعة كما هو قبلها.

(2)

الدر المنثور 1: 47- أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب (ع) قال: لم يبعث اللّه نبيا آدم فمن بعده إلّا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث و هو حي ليؤمنن به و لينصرنه و يأمره فيأخذ العهد على قومه ثم تلا هذه الآية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 228

البشارات! نراها بعشرات و عشرات هي عشيرات للوحي الرسالي على طول الخط، فيها نبرات الايمان و النصرة من النبيين لهذا النبي العظيم، نذكر قسما منها بطيّات آيات تناسبها، و قد جمعناها في كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».

فلقد أخذ اللّه تعالى ميثاقا رهيبا عجيبا شهده هو و أشهد عليه أنبياءه، طيّا لكل الفواصل زمانيا و مكانيا بين النبيين المتتابعين في مختلف الأزمنة و الأمكنة، يجمعهم في ذلك المسرح الصارح الصارخ و هو يخاطبهم «أ أقررتم قالوا أقررنا ..».

ذلك المشهد الهائل الجليل يرسمه ذلك التعبير العبير، فيجف له القلب، و ليتذكر السامعون.

و هنالك «إصري» لمكان العصبية الذاتية، لشخص الرسول رساليا و لقومه قوميا و عنصريا، و الاتباع ككل نحلة لهم، أماذا من عصبيات، تراها كلها تنحني و تنمحي أمام‏ «رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ» تناكرا لكل الآصار:

«قالَ فَاشْهَدُوا» لدي ولدي أممكم‏ «1» «وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ» لدى الكل.

فذلك المجي‏ء هو غير متعود المجي‏ء بين المرسلين، فانه المجي‏ء في كل حقوله، رساليا و رسوليا: إيمانا به في الروح قبل مجيئه في الجسم، و هذا ما يعنيه الجائي نفسه في قوله:

«كنت نبيا و آدم بين الماء و الطين»

فلا يعني نبوته في علم اللّه إذ تعم سائر النبيين، بل نبوته في قسم عظيم من لزاماتها و أهمها الإيمان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 48- أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب (ع) في قوله تعالى: فاشهدوا يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك و أنا معكم من الشاهدين عليكم و عليهم فمن تولى عنك يا محمد بعد هذا العهد من جميع الأمم فأولئك هم الفاسقون هم العاصون في الكفر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 229

به، و الميثاق للايمان و النصرة له و كما يروى عنه «انا أول النبيين ميثاقا و آخرهم مبعثا» «1».

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (82).

«فَمَنْ تَوَلَّى» عن خاتميته في رسالته و نبوته‏ «بَعْدَ ذلِكَ» الميثاق المؤكد الجمعي‏ «فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ» لو كانوا من هؤلاء النبيين و لن- و ليس هنا «منهم» حتى يختصهم التولي- او كانوا ممن يدعون نبوة قبله او بعده، ام كانوا من الأمم المبشّرة بتلك الرسالة الختمية.

ذلك، فحتى و لو كانوا من النبيين، فكما لا تصدق نبواتهم إلا بختم و توقيع من خاتم النبيين، كذلك لا يؤتون كتابا و حكمة إلا شريطة الإيمان به و نصرته.

ذلك! فضلا عن المرسل إليهم، فقد انضم النبيون كلهم باممهم الى موكب هذه الرسالة السامية رسالة واحدة الى امة واحدة، كما و ان الرسالات واحدة الى امة واحدة: «وَ إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ، فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (23: 53).

و لو ان ميثاق الايمان و النصر كان- فقط- بين النبيين أنفسهم، كلّ لاحق لسابقة، لم يكن لذلك التهديد دور، فانما تهدد هنا الأمم الناكرة لخاتم الرسل (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

و لو ان‏ «مِيثاقَ النَّبِيِّينَ» كان ميثاقا لهم على أممهم لكان صحيح التعبير «ميثاقا للنبيين على أممهم» أم لو عني من الخطاب في‏ «ثُمَّ جاءَكُمْ» الأمم، لأتى بذكرهم و إن مرة يتيمة!.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع لتفصيل هذه الروايات إلى آية «خاتَمَ النَّبِيِّينَ» في الأحزاب.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 230

فالرواية الهارفة الخارفة ان اقرءوها: «و إذ أخذ الله ميثاق أمم النبيين» «1» هي صادرة من مصدر الجهالة و الحماقة، ممن لا يعرف معاني كلام اللّه و مغازيه فيتورط في ورطة التحريف و التجديف!.

ذلك الدين الشرعة الذي يحمله خاتم النبيين هو الدين كله و ليس ما سبقته من شرعة إلّا شرعة من ذلك الدين:

أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَ لَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83).

«دِينِ اللَّهِ» هو طاعته بمختلف شكليات الشرائع الخمس، و في كل بأشكال مختلفة الظاهر، و الكل تتوحد في أنها «دِينِ اللَّهِ» و طاعته، فالذي يبغى دين اللّه عليه ان يبغى شرعته المتشرعة منه كما يشاء، دون إخلاد إلى شرعة الفها، و تصلب عليها نكرانا لشرعة تلحقها.

و المكلف هو بطبيعة الحال يبتغي دينا و طاعة إمّا للرحمن أو الشيطان أم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 358 في تفسير العياشي عن حبيب السجستاني قال‏ سألت أبا جعفر عليهما السلام عن قول اللّه‏ «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ ..» فكيف يؤمن موسى بعيسى و ينصره و لم يدركه و كيف يؤمن عيسى بمحمد (ص) و ينصره و لم يدركه؟ فقال: يا حبيب إن القرآن قد طرح منه آي كثيرة و لم يزد فيه إلّا حروف أخطأت بها الكتبة و توهمتها الرجال و هذا و هم فاقرأوها «و إذا أخذ الله ميثاق أمم النبيين ..» هكذا أنزلها اللّه يا حبيب فو اللّه ما وفت أمة من الأمم التي كانت قبل موسى بما أخذه اللّه عليها من الميثاق لكل نبي بعثه اللّه بعد نبيها.

أقول: لقد أخطأ الراوي في فهم‏ «ثُمَّ جاءَكُمْ» زعما منه أن «رسول» هو كل رسول بعد رسول، ثم أخطأ في الفرية على باقر العلوم في «قد طرح منه آي كثيرة» و هو خلاف العصمة الربانية للقرآن‏ «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ»، ثم لم يزد في «لم يزد فيه إلا حروف» إلّا أن القرآن الموجود كله حروف أخطأت بها الكتبة و توهمتها الرجال، فبعدا للقوم الظالمين المختلقين هذه الروايات الزور و الغرور!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 231

نفاق بينهما عوان، فالذي يدعي الإيمان، عليه أن يبتغي دين اللّه واصبا لأنه دين اللّه، لا لأنه ألفه هو و آباءه الأولون، فالمبتغي دين اللّه هو في سبيل الحق و لمّا يصل فانه شك مقدس يتحرى فيه الشاك عن دين اليقين، و الراسب على شرعة منسوخة دون تحر عن ناسخها او تجرّ عليه هو على دين غير مقدس، فانما ابتغاء دين اللّه هو الصالح بجنب اللّه لا سواه مهما تقشف و تزهد في شرعة منسوخة مضى دورها.

«دِينِ اللَّهِ» هو طاعته بمعرفته، خالصة غير خليطة بسائر الطاعة، إذا «أَ فَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ» من طاعة لما سوى اللّه، إلحادا في اللّه أو اشراكا باللّه، فالكافر بالشرعة الأخيرة تثاقلا على السابقة هو كافر بدين اللّه، متبع لهواه، تارك لأمر مولاه، لأنه غير مبتغ لدين اللّه، فانما يبتغي هواه مهما أظهرها بمظهر شريعة اللّه!.

«وَ لَهُ أَسْلَمَ» للّه و لدين اللّه‏ «مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً» هم المؤمنون الحقيقيون، إسلاما لطاعته في كل قليل و جليل «و كرها» حيث لا يستطيعون الخروج عن سلطان علمه و قدرته مهما كفروا.

فالإسلام هنا يعم تكوينيّه إلى تشريعيه و تشريعيه إلى تكوينيه، فهما يجتمعان في المؤمنين و يفترقان في الكافرين حيث هم مسلمون كرها مهما تركوه طوعا، ثم و الكل‏ «إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ».

و قد يعني الإسلام طوعا بالنسبة للكفار ايضا حيث أسلمت فطرهم بما فطر اللّه و عقولهم إن كانوا يعقلون، مهما كفروا بما طغت أهوائهم، ثم الطّوع بالنسبة للمؤمنين فيه زيادة اتباع أهوائهم لفطرهم و عقولهم و وحي اللّه.

و بوجه عام قد يعني ذلك الإسلام أن ألقوا اليه السّلم- كلهم- بما يظهر من حاجتهم إلى إرفاقه و فقرهم الى أرزاقه، و نقائصهم التي لا تتم إلا بحسن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 232

تدبيره لهم، و نعمه السابغة عليهم، فقد دانوا له طوعا و كرها و ولهوا إليه فقرا و ضعفا.

فالذين أسلموا له هم الملائكة و النبيون، ثم المؤمنون، و الذين أسلموا كرها هم إبليس و أشباهه من الجن و الإنس و كما قال‏ «رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلى‏ يَوْمِ يُبْعَثُونَ» فقد يدل استنظاره على إقراره بأنه مملوك مدبّر و مصرّف مسخّر، و أنه لا يعتصم من اللّه بمذهب و لا ينجو بمهرب و لا يبقى إلا أن يبقيه، و لا يأمن إلا أن يؤمنه، فهو- إذا- ممن أسلم في وجه مهما كان في آخر شاردا عن طاعته، ماردا عن قيادته.

ف‏ «وَ لَهُ أَسْلَمَ» هنا طليق يشمل كل مراحل الإسلام تكوينا و تشريعا، طوعا و كرها بحيث لا يفلت عنه قالت، و لا يفوت عنه فائت.

فكما الإسلام الإيمان هو باكتساب و اختيار، كذلك الإسلام التسليم قبل الإيمان كما «قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ» (49: 14) فإسلام التسليم ظاهرا عن جبن يشمله‏ «وَ لَهُ أَسْلَمَ» مع إمكانية المنعة و الحياص، مهما كان سببه الخوف و الفرق.

و إسلام التسليم طمعا في الرغائب و منى في الفوائد ايضا إسلام مهما كان سببه الرجاء، و إسلام التسليم حبا للّه و في اللّه إسلام و لا سبب له إلا حب اللّه، و هذه ثلاث كلها الإسلام طوعا.

ثم الإسلام كرها كمن يسلم نفسه للموت إذا حان حينه و لم يكن له سبب للفرار عنه و ما أشبه.

فابتغاء غير دين اللّه انعزال في زاوية بئيسة تعيسة تخالف الفطرة و العقلية السليمة و شرعة الحق، و تخلّف عن موكب الكون ككل، «إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً. لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا. وَ كُلُّهُمْ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 233

آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً» (19: 95) «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ طَوْعاً وَ كَرْهاً» (13: 15) «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ» (22: 18).

هذا إسلام للّه على مدار الزمن، و من ثم إسلام في دولة المهدي (عليه السلام)

إذا قام القائم (عليه السلام) لا يبقى أرض ألّا نودي فيها بشهادة أن لا إله إلّا اللّه و أن محمدا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «1».

و هنا طوعا هو إسلام الايمان و كرها هو إسلام الاستسلام، فلا يبقى- إذا- ملحد في اللّه او مشرك باللّه، مهما بقيت بقية ضئيلة من أهل الكتاب، و لكن ليس لهم دور دائر، فإنهم في دولة المهدي (عليه السلام) يعيشون تحت ذمة الإسلام، مراعين شروط الذمة بتمامها.

و لأن دين اللّه بعد نزول القرآن منحصر فيه، منحسر عما سواه، فابتغاء ما سواه محظور حتى في دراسة كتابات الوحي اللهم إلّا مقارنة بينها و بين القرآن، تزييفا لها بما حرفت و تثبيتا للقرآن.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 362 العياشي عن رفاعة بن موسى قال سمعت أبا عبد اللّه (ع) يقول في الآية: إذا قام القائم (ع).

و

عنه عن ابن بكير قال: سألت أبا الحسن (ع) عن الآية قال: أنزلت في القائم (ع) إذا خرج باليهود و النصارى و الصائبين و الزنادقة و أهل الردة و الكفار في شرق الأرض و غربها فعرض عليهم الإسلام فمن أسلم طوعا أمره بالصلاة و الزكاة و ما يؤمر به المسلم و يحب اللّه عليه و من لم يسلم ضرب عتقه حتى لا يبقى في المشارق و المغارب أحد إلّا وحد اللّه، قلت له: جعلت فداك إن الخلق أكثر من ذلك فقال: إن اللّه إذا أراد أمرا قلل الكثير و كثر القليل.

أقول: الإسلام هنا التوحيد و يشهد له «إلا وحد الله» و كذلك الآيتان في بقاء بقية من اليهود و النصارى إلى يوم القيامة «و ألقينا- و أغرينا بينهم العداوة و البغضاء إلى يوم القيامة ...»

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 234

لذلك نرى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يتغير وجهه بما يكتب للخليفة عمر من جوامع التوراة قائلا:

«و الذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتم إنكم حظى من الأمم و أنا حظكم من النبيين» «1».

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ عَلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ وَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84).

«قل» كما هو خطاب للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) شخصيا كذلك هو خطاب لكل مكلف بدليا ك «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» و ما أشبه، انه رغم العصبيات الجاهلة و العنصريات و الإقليميات القاحلة و تأريخية الشرعة الكتابية و جغرافيتها الماحلة، يومر رسول الهدى ان يعلن حقيقة الإسلام و الإيمان، و انهما لا يحدّان بأية حدود إلّا ابتغاء دين اللّه، فيعلن- إذا- إيمانه و الذين معه بجميع الرسالات، و احترام جمعى الرسل، معرفة بطليق دين اللّه الذي لا يقبل اللّه من المكلفين سواه، مهما أمر المسلمون الآخرون باتّباع شرعة القرآن اتباعا لأصل الدين كما امر سائر الأمم قبلها باتباع شرائعهم: «قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ عَلَيْنا» قرآنا و سنة «وَ ما أُنْزِلَ عَلى‏ إِبْراهِيمَ» كشريعة اصيلة ثانية ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 48- أخرج أحمد عن عبد الله بن ثابت قال: جاء عمر إلى النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال يا رسول الله أني مررت بأخ لي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ فتغير وجه رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فقال عمر: رضينا بالله ربا و بالإسلام دينا و بمحمد رسولا فسرى ع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و قال: و الذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ...

و

فيه أخرج أبو يعلى عن جابر قال قال رسول الله الله (صلى الله عليه و آله و سلم) لا تسألوا أهل الكتاب عن شي‏ء فإنهم لن يهدوكم و قد ضلوا إنكم إما أن تصدقوا بباطل و أما أن تكذبوا بحق و أنه و الله لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 235

«وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ» كأتباع للشرعة الإبراهيمية.

و من ثم‏ «ما أُوتِيَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏» كشريعتين أصيلتين بعد الأوليين، كما و أن بعد الأربعة «ما أُنْزِلَ عَلَيْنا»- و ما اوتي هامشيا- «النبيون» على مدار الزمن الرسالي «من ربهم» و قد يعني ما اوتي نوح ضمن ما اوتي النبيون، و علّ عدم اختصاصه بالذكر لانقطاع الخبر الصادق عما اوتى من صحف.

فذلك هو الايمان المحلق على كل كتابات الوحي و رسالاتها «لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ» في الإيمان بهم و أنهم رسل اللّه، لا يتفرقون في حمل رسالة اللّه واحدة موحدة في دين اللّه، لأنهم في موكبهم الرسالي صادرون من مصدر واحد و إلى امة واحدة، لا يتفرقون في أصول الدين و فروعه، اللهم إلّا طقوسا ظاهرية من فروع أحكامية حسب الحكمة العالية الربانية «لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ» «وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

و هنا «أُنْزِلَ عَلَيْنا» قد يعني أخص مما أنزل اليه، إنزالا دون وسيط كما في «أنزل معه» فهما يعنيان في سائر القرآن الإنزال الرسالي مهما جاء يتيما لغير الرسل‏ «آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا» و انزل اليه هو طليقه الشامل للامة.

و ذلك لان النص هنا يعني الرسول كأصل لمكان «قل» مهما شمل الأمة لمكان «آمنا».

لذلك ترى في أخرى‏ «أُنْزِلَ إِلَيْنا» حيث تعني الأمة مهما عنت الرسل فيما يتلوها: «قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ ما أُنْزِلَ إِلى‏ إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ ما أُوتِيَ مُوسى‏ وَ عِيسى‏ وَ ما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (2: 136).

ثم «ما أوتي» أعم مما أنزل، حيث الإيتاء يشمل الآيات الكونية لتلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 236

النبوات، المتوفرة لموسى و عيسى و من بينهما من النبيين، و الإنزال قد يختص بالآيات الكتابية شرعة و آية رسالية، و هكذا تكون الآيات النازلة على محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ثم لا تذكر آية كونية لإبراهيم إلى الأسباط مهما كانت لهم آيات.

او يقال‏ «وَ النَّبِيُّونَ» و الشاملة لهم كلهم تجمع إلى الآيات النازلة عليهم، الآيات المؤتاة إياهم، فرسولنا العظيم هو الوحيد المنقطع النظير بينهم في ان ما انزل عليه فيه الكفاية عما يؤتى أي نبي من آيات عينية «أَ وَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلى‏ عَلَيْهِمْ ..».

ذلك هو الإسلام في سعته لكل الرسالات الإسلامية، و في الإيمان لكافة الرسل و كتاباتهم، إذا ف:

وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَ هُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ (85).

فالشرائع الإلهية كلها إسلام اللّه بدرجاتها، و لكن لا إسلام بعد الإسلام الأخير، فابتغاء ما سواه من شرعة غابرة منسوخة او شرعة مدعاة بعده، إنه ابتغاء لغير الإسلام المرتضى.

و كيف لا و قد

«أرسله بحجة كافية و موعظة شافية و دعوة متلاقية، أظهر به الشرائع المجهولة، و قمع به البدع المدخولة، و بين به الأحكام المفصولة، فمن يبتغ غير الإسلام دينا تحقق شقوته، و تنفصم عروته، و تعظم كبوته و يكون مآله إلى الحزن الطويل و العذاب الوبيل» «1».

ف «الإسلام» هنا يخص الإسلام الأخير موردا و ان كان يعم سائر

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نهج البلاغة عن الإمام علي أمير المؤمنين (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 237

الإسلام واردا، فالنص هنا «وَ مَنْ يَبْتَغِ» يشمل منذ ذلك الإسلام حتى يوم القيام، و أما سابق الإسلام فقد لا يشمله صيغة الاستقبال: «وَ مَنْ يَبْتَغِ» مهما كانت كافة الشرايع إسلاما، اللهم إلا أن تعني ضابطة ثابتة من القضايا الحقيقية التي تحلق على مثلث زمن التكليف، و ذلك أشبه بحق الإسلام و الإسلام الحق.

ذلك هو الإسلام كما يريده اللّه، دون الإسلام الذي تريده الأهواء المتأرجفة المتفاوتة في أجيال نكدة من الناس النسناس الخناس، و لا كما تصوره أغلبية أعداءه المتربصين به كل دوائر السوء ليجعلوه اسما بلا معنى أو رسما بلا مغزى او شعارا بلا شعور ام زادا- فقط- لأهل القبور!.

بل هو إسلام اللّه، طليقا في كافة الحقول الحيوية، فإن للّه أحكاما تحلّق على كل متطلبات الحياة و لزاماتها و رجاجاتها، دونما حاجة إلى أنظمة مختلفة مختلقة للحياة.

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 86 الى 95]

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (87) خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (88) إِلاَّ الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ‏ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى‏ بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (91) لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْ‏ءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92) كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلاَّ ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى‏ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (93) فَمَنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 238

أ ترى ان اللّه «يهدي‏ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ»؟ أن يهديهم توفيقا لهم رفيقا ليتوبوا:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 239

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ وَ شَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَ جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86).

لا تعني الهداية المنفية هنا التشريعية لأنها عامة غير مخصوصة بفريق دون آخرين، و لا التكوينية المسيّرة لأنها منفية عن القبيلين، إنما هي هداية التوفيق للتوبة و قبولها، فإنها خاصة بالصالحين ثم الضالين المتحرين عن الهدى، فهم‏ «ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا».

أ فبعد الإيمان بالبينات و الشهادة بحق الرسول يكفرون؟ و في ذلك عناد للحق و تضليل للمؤمنين، و هذا من أظلم الظلم في مثلثه: بأنفسهم و بالحق و بحق الآخرين المتزعزين بذلك الكيد المكين!.

مهما كانت هذه الشهادة أقوى و الكفر بعدها أغوى- كما في كفرة أهل الكتاب بعد إيمانهم- كان الارتداد أظلم و أطغى، فالارتداد دركات كما الإيمان درجات.

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَ الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (87).

«لعنة» تلبسهم و تغمسهم في الدارين، من اللّه ألّا يهديهم سبيل الرشاد، و من‏ «الْمَلائِكَةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ» ألّا يطلبوا لهم من اللّه هدى، بل لعنا وبيلا.

و ترى هؤلاء ملائكة اللّه يلعنونهم بسند إيمانهم و كفر هؤلاء، فكيف يلعنهم‏ «النَّاسِ أَجْمَعِينَ» و فيهم كفار هم سناد و عتاد لهؤلاء الأنكاد؟.

علّ «أجمعين» يعني جمع الناس إلى الملائكة و الملائكة الى الناس، مهما استثني عن الناس نسناس، ام و هم كل الناس، فالمؤمنون منهم يلعنون بسند الايمان، و الكافرون منهم المتأثرون بارتدادهم يستلعنون حيث يضاعف العذاب‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 240

لهؤلاء المضللين بما ارتدوا عارفين: «رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً» (33: 68)، و سائر الكفار ايضا يلعنونهم يوم الدين و يتلاعنون:

«ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً» (29: 25) «كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها ..» بل و يوم الدنيا حيث يلعنون الضالين مهما حسبوهم انهم المؤمنون، و لكن اللعنة تجد واقع موردها كما يشاء اللّه.

و حتى إذا عرفوا أنهم أنفسهم الضالون و لكنهم بتأييدهم الكفار يلعنونهم واقعيا حيث يزدادونهم عتوا و نفورا.

خالِدِينَ فِيها لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (88).

«خالِدِينَ فِيها»: في ثالوث اللعنة، في نار اللّه الموقدة التي تطلع على الأفئدة «لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ» و كما لا يستزاد، و إنما هو جزاء العدل الوفاق قدر الكفر الواقع، خلودا يضاهي خلود الكفر «وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ» حين الحكم بالعذاب فلات حين مناص و قد فات يوم خلاص.

ذلك للذين لم يتوبوا عما ارتدوا و لم يصلحوا ما أفسدوا بما ارتدوا:

إِلَّا الَّذِينَ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَ أَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89).

«تابوا» إلى اللّه‏ «مِنْ بَعْدِ ذلِكَ» الارتداد المضلّل «و أصلحوا» ما فسد تحت وطأته، إصلاحا لأنفسهم الماردة و لأنفس الآخرين الشاردة عن الإيمان بما ارتدوا «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 49- أخرج جماعة عن ابن عباس قال: كان رجل من الأنصار فأسلم ثم ارتد و لحق بالمشركين ثم ندم فأرسل إلى قومه أرسلوا إلى رسول اللّه (ص) هل لي من توبة فنزلت:

«كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ»- إلى قوله- «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فأرسل إليه قومه فأسلم.

أقول: و أخرج جماعة مثله في أشخاص آخرين، و ليس مورد النزول و هم كلهم من المرتدين مليا،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 241

و القدر المعلوم من عدم قبول التوبة هو الموت على الكفر:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90).

فازدياد الكفر بعد الارتداد عن إيمان دليل العناد في اللّاإيمان فهم المضلّلون- إذا- لكتلة الايمان و «لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ» لأكيد الكفر المعاند، المضلل للبسطاء.

و ليس يعني‏ «ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً»- فيما يعنيه- ازدياد الزمان إلى وقت الموت، حيث تتكفله الآية التالية لها.

فكما لا تقبل توبة الكافر حين يموت على كفره، كذلك حين يزداد كفرا بعد ارتداده، ثم تقبل توبات الآخرين على شروطها:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْ‏ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَ لَوِ افْتَدى‏ بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (91).

فاستحالة الملكية ل «مِلْ‏ءُ الْأَرْضِ ذَهَباً» و استحالة الافتداء به لو ملك ضنّة بتلك الثروة الهائلة- و قد سئلوا ما هو أيسر من ذلك فضنوا «1»- ثم و عدم قبولها منهم لو افتدوا، ذلك المثلث من الاستحالة يفسر قدر الإحالة في «لن»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بالذي يخصص الآية بنفسه فإنما العبرة بعموم الآية دون خصوص المورد، و لو كان الحكم مختصا بالمرتد مليا لاختص به نصا أو ظاهرا.

(1).

المصدر- أخرج عبد بن حميد و البخاري و مسلم و النسائي و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردوية و البيهقي في الأسماء و الصفات عن أنس عن النبي (ص): قال يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له: أ رأيت لو كان لك مل‏ء الأرض ذهبا أ كنت مفتديا به؟ فيقول: نعم فيقال:

لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك و ذلك قوله تعالى‏ «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ماتُوا وَ هُمْ كُفَّارٌ ...».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 242

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذابِ يَوْمِ الْقِيامَةِ ما تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» (5: 36).

و «أولئك» الأنكاد البعاد «لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» في الآخرة «وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ» شفعاء و سواهم- ينفعهم نصرهم لو نصروهم.

و ترى توبة المرتد الفطري كما الملي تقبل- ان تاب و أصلح- ظاهرا كما تقبل باطنا؟ طليق النص‏ «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» يقتضي طليق القبول في بعدية، فتقبل توبة الفطري ظاهرا كما الباطن كقبول توبة الملي.

فانما الموت على الكفر هو الذي يقطع التوبة عن قبولها و تحقّق مفعولها:

«وَ مَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَ هُوَ كافِرٌ فَأُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ» (2: 217).

فهناك‏ «كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ» لا تختص بالملي حيث الفطري قد يكفر بعد ايمانه كما الملي، و «ايمانهم» هو واقعه قبل الكفر فطريا و مليا.

و كذلك هنا «عن دينه» الكائن أيا كان، مليا او فطريا.

اجل قد لا تقبل توبة المرتد و ان تاب بعد ارتداده مليا او فطريا، و هو المكرّر لارتداده المستزيد في كفره: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَ لا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا» (4: 137).

و ذلك لضخامة كفره و وخامته، حيث لا يجبرها شي‏ء، و «لم يكن» نفي مؤكد مؤبد لا يقبل اي استثناء ابدا «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). السيد الشريف الرضي في حقائق التأويل لمتشابه التنزيل ص 161 و قد روي أن هذه الآيات نزلت في قوم ارتدوا مع الحارث بن سويد ابن الصامت الأنصاري و لحقوا بمكة ثم راجع الحارث الإسلام و وفد إلى المدينة فتقبل النبي (ص) توبته فقال من بقي من أصحابه على الردة: نقيم بمكة ما أردنا فإذا صرنا (عدنا) إلى أهلنا رجعنا إلى المدينة و أظهرنا التوبة فقبلت منا كما قبلت من الحارث قبلنا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 243

فكما لا تقبل توبة المرتد الذي يموت و هو كافر، كذلك الذي يزداد كفرا بارتداده مرتين، و هما يعمان الفطري و الملي، ثم من سواهما تقبل توبته فطريا او مليا شريطة الإصلاح لما أفسد بارتداده.

و لا ينافي عدم قبول التوبة في الدنيا أو الآخرة وعده تعالى- طليقا- أنه يقبلها: «وَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَ يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ وَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ» (42: 25).

إذ تعني خاصة التوبة بشروطها دون عامتها الفوضى، فهي غير مقبولة بعد الموت إطلاقا، و لا قبل الموت إلا إذا كانت نصوحا مصلحا دون ازدياد الكفر بعد كرور الارتداد، كما تدل عليها آياتها الأخرى فإن القرآن يفسر بعضه بعضا و ينطق بعضه على بعض.

تلحيقة بقول فصل حول الواو في‏ «وَ لَوِ افْتَدى‏ بِهِ»:

لقد أشبعنا الكلام بطيات الفرقان حول ان القول بالزائد في القرآن زائد من القول، رغم ما تورط فيه ضعفاء العقول.

فمن قيلهم ان الواو هنا زائدة لا تعني اي عناية، و آخر أنها مقحمة كما في‏ «حَتَّى إِذا جاؤُها وَ فُتِحَتْ أَبْوابُها» حيث تعني‏ «فُتِحَتْ أَبْوابُها».

و الجواب- ككل- تحليقا على كل ما يزعم زيادته في القرآن- أنه لا شي‏ء من كلمات و حروف جاءت في القرآن إلا لمعنى مفيد، مهما كان تجويدا لظاهر البيان كما الباء في خبر «ليس» أما أشبه.

فالزيادات و النقائص في الكلام إنما يضطر إليها للمضطرين فيها لضرورة قافية شعرية أماهيه، مدا للمقصور و قصرا للممدود، او زيادة زائدة و نقيصة بائدة، فحين تهجم القافية و يغل الزمام عن يد الشاعر يضطر الى زيادة او نقيصة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 244

فأما إذا كان الكلام محلول العقال، مخلوع العذار، ممكّنا من جري المضمار، غير محجور بينه و بين غاياته، فان شاء صاحبه أرسل عنانه فخرج جامحا، أو شاء قدع لجامه فوقف جانحا، لا يحصره أمد دون أمد، و لا يقف به حد دون حد، فلا تكون الزيادة فيه إلا عيّا و استراحة و لغوبا و إلاحة.

و لكن كلام اللّه مرفّع عن كل إلاحة و لغوب، فانه المتعذر المعوز، و الممتنع المعجز.

ذلك، بل قد يرتفع عن ذلك كلام الفصحاء فضلا عما هو أعلى و هو في القمة العليا! ... إننا نجد كلام الإمام علي أمير المؤمنين (عليه السلام) و هو بعد النبي العظيم (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أبلغ البلغاء و أفصح الفصحاء، نجده على علو طبقته و حلو طريفته و انفراد طريقته، إذا حوّل ليلحق غاية من أداني غايات القرآن وجدناه ناكصا متقاعسا، و مقهقرا راجعا، و واقفا بليدا، و واقعا بعيدا، على أنه كلام يسبق كل المجارين، عاليا على المسامين.

ذلك! فضلا عن كلام من دونه فإذا قيس إليه و قرن به شال في ميزانه، و قصر عن رهانه، و صار بالإضافة إليه قالصا بعد سبوغه، و قاصرا بعد بلوغه، و ليصدق قول أصدق الصادقين: «وَ إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (41: 42) «1».

ثم الواو في‏ «وَ لَوِ افْتَدى‏ بِهِ» تعني- فيما تعنيه- عدم حصر «لن تقبل» على اللاافتداء، كأنه إن لم يفتد بمل‏ء الأرض ذهبا- لو ملكه هناك- «لن تقبل توبته» فيقول هنا «وَ لَوِ افْتَدى‏ بِهِ» فالمفتدي و سواه سواء في‏ «لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). بين الهلالين ملتقطات من كلام السيد الشريف الرضي في كتابه حقائق التأويل في متشابه التنزيل، مع زيادات أو نقيصات منا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 245

لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْ‏ءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92).

«لن» تحيل نيل البر أيا كان‏ «حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» و أما غير المحبوب مبغوضا كان او عوانا بينهما فلا ينيل إنفاقه خيرا، و علّ العوان- ايضا- داخل في نطاق «ما تحبون» مهما كان أدناه فان قضية الملك حبه مهما لم يكن مرغوبا و الإنفاق هنا هو في سبيل اللّه إذ لا خير في غير سبيله تعالى.

و «ما تحبون» يعم النفس و النفيس من النواميس الخمس: نفسا و عقلا و دينا و مالا و عرضا أن ينفق كلّ في سبيل اللّه، إما عن بكرته كالتضحية بالنفس و المال، ام مع الحفاظ على أصله كالقوات النفسية و الفوائد المالية التي تنفق في سبيل اللّه، و كذلك الإرشادات العقلية و العلمية، و تعريض العرض- فيما يجوز- للحفاظ على عرض أعرض كعرض الدين و الديّنين، و كل ذلك تشمله‏ «حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ».

ذلك و كما «مما تحبون» الشرعة التي تعود تموها ان تنفقوها في سبيل اللّه و مرضاته و تبدلوها بشرعة محكّمة بعدها.

و لأن للمحبوب درجات كذلك لنيل الخير في إنفاق الدرجات درجات، كما و الإنفاق في كمه و كيفه و مورده درجات.

و لقد أشار الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الذي ينفق مما يحب ان يجعله في قرابته الفقراء، فإنه أحب من غيرهم‏ «1» و هذا «مما تحبون» موردا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 50 أخرج جماعة عن أنس قال‏ كان أبو طلحة أكثر أنصاريّ بالمدينة نخلا و كان أحب أمواله إليه بيرحاء و كانت مستقبلة المسجد و كان النبي (ص) يدخلها و يشرب من ماء فيها طيب فلما نزلت‏ «لَنْ تَنالُوا ..» قال أبو طلحة يا رسول اللّه (ص) إن اللّه يقول: لن تنالوا البر

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 246

و من الإنفاق الأحسن كيفية ما كان دون سؤال و لا سيما بالنسبة للوالدين،

«الإحسان أن تحسن صحبتها و أن لا تكلفها أن يسألاك شيئا مما يحتاجان إليه و إن كانا مستغنيين ...» «1».

و مما تنفقون مادة طيبات المكاسب فان «تحبون» هو الحب على ضوء الإيمان: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» (3: 267).

هنا «مما تحبون» دون «ما تحبون» تبعّض الإنفاق كيلا تضلوا حاسرين عما تحبون ككل، و الرواية القائلة «ما تحبون» «2» تخالف النص هنا، و تخالف هنالك الآيات في الإنفاق العوان بين الإفراط و التفريط، و لم يكن إطعام الطعام من أهل بيت الرسالة القدسية مسكينا و يتيما و أسيرا، إطعاما لكل المحبوب إذ

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

حتى تنفقوا مما تحبون و ان أحب أموالي إلي بيرحاء و انها صدقة للّه أرجو برها و ذخرها عند اللّه فضعها يا رسول اللّه حيث أراك اللّه فقال رسول اللّه (ص) بخ ذاك مال رابح ذلك مال رابح و قد سمعت ما قلت و إني أرى أن تجعلها في الأقربين فقال أبو طلحة أفعل يا رسول اللّه (ص) فقسمها أبو طلحة في أقاربه و بني عمه، و فيه نقل آخر قال (ص): اجعله في فقراء أهلك.

و

فيه أخرج جماعة عن محمد بن المنكدر قال‏ لما نزلت هذه الآية «لَنْ تَنالُوا ..» جاء زيد بن حارثة بفرس له يقال لها شبلة لم يكن له مال أحب إليه منها فقال: هي صدقة فقبلها رسول اللّه (ص) و حمل عليه ابنه أسامة فرأى رسول اللّه (ص) ذلك في وجه زيد فقال إن اللّه قد قبلها منك، و في نقل آخر فكان زيد أوجد في نفسه فلما رأى ذلك منه النبي (ص) قال: أما إن اللّه قد قبلها.

(1).

نور الثقلين 1: 363 في أصول الكافي بسند متصل عن أبي ولاد الحناط قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه عز و جل‏ «وَ بِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً» ما هذا الإحسان؟ قال:

الإحسان ... أليس اللّه عز و جل يقول: «لَنْ تَنالُوا ...».

(2)

المصدر في روضة الكافي بسند عن يونس بن ظبيان عن أبي عبد اللّه (ع) «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» هكذا فاقرأها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 247

كان عندهم ما يبدلوا به عنه و ان على صعوبة فأبدلهم اللّه بأحسن منه.

و ترى ما هي رباط الآية بما قبلها، المنددة بالمتصلبين على القومية الكتابية، و المتلونين في الايمان و الكفر؟

علّها لأن التجاهل و التنازل عما هم عليه من شرعة انتقالا إلى شرعة أخرى و لا سيما إلى نبي غير إسرائيلي، هو معدود في عداد الإنفاق مما تحبون، فإيثار حب اللّه على ما تحبون يقتضي الانتقال عن كل شرعة سابقة- مهما كانت طولها و طولها- إلى الشرعة الأخيرة.

و ذلك مما يوسّع نطاق الإنفاق المحبوب في الآية، دون حصر في إنفاق المال حسرا عن سائر الإنفاق.

إن انفاق المحبوب في حب اللّه يختص بما يمكن إنفاقه مشكورا محبورا، و أما غير الممكن او المنكور و المحظور فلا، فانفاق النفس في سبيل اللّه فيما يتوجب أو يرجح، و انفاق المال كذلك عوانا بين الإفراط و التفريط، و انفاق العقلية الصالحة و العلم النافع و العظة الحسنة أماهيه من إنفاقات صالحة، إنها كلها مشمولة لطليق الآية دونما تحدّد بحد إلّا ما حدده اللّه.

فالإنفاق مما تحب- و لا سيما إذا كان من أحب ما تحب- ذلك رمز إلى انك تؤثر حب اللّه على كل حب، مهما كان ما تحب شيئا قليلا ضئيلا، كما ان الإنفاق مما لا تحب رمز الى عدم الإيثار و انك لا تفضّل حب اللّه على حبّك مهما كان ما لا تحب شيئا كثيرا محبوبا لمن تنفق، اللهم إلا ألّا تجد إلّا ما تنفقه، و أنك في طويتك تفضل محبوب ربك على محبوبك.

إذا فإطعام علي و فاطمة و الحسنين كسير خبزهم هو من أفضل الإنفاق:

«وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى‏ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَ يَتِيماً وَ أَسِيراً» (76: 8) و في نفس الوقت إطعامك طعاما أفضل منه و أنت لا تحبه ليس من أفضله و لا فضيله،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 248

اللّهم إلّا أن يحبه المنفق عليه و لذلك ينفقه عليه المنفق.

فالإنفاق الصالح يرتكن أولا على الحب الأفضل، ثم الإنفاق من الأفضل أو الفضيل دون الرذيل ثم الكيفية الفضلى.

ذلك، «وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْ‏ءٍ» في حبه و كيفه و كمه و مورده‏ «فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ» لا عليكم أن تبدوه إلا إذا لزم الأمر بعيدا عن الرئاء و السمعة.

ذلك، فهل ترى الذي ينفق مما لا يحبه و لا يبغضه لا ينال خيرا و قد أنفق؟ انه ينال خيرا إذا تمت اركان السماحة و الرجاحة في الإنفاق، و لكنه لن ينال البر ككل حتى ينفق مما يحب، و البر هو واسع الخير من البرّ لا اصل الخير، و هنا بر بديل بر، حيث الإنفاق مما تحب بر تنال به البر «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

فالمنفق في سبيل اللّه إذا لم يأت بمحظور في إنفاقه مأجور قدر إنفاقه، و لكنه لن ينال البر حتى ينفق مما يحب.

و في الإنفاق في سبيل اللّه مما تحبون تحرّر من شح النفس على النفس و النفيس، فالمنفقون مما يحبون يصعدون في ذلك المرتقى الراقي السامق الوضي‏ء أحرارا خفافا طلقاء، لا يرتبطون بشي‏ء إلّا اللّه و الحب في سبيل اللّه، و هم ينالون البر و الخير الواسع حسب السعة في إنفاقهم مما يحبون فطوبى لهم و حسن مآب.

و ترى حين تحب شيئا يكرهه اللّه، او تكره شيئا يحبه اللّه، فهل تنال البر في انفاق ما تكرهه في حب اللّه او ما تحبه في كره اللّه؟.

للمحبوب هنا بعدان اثنان‏ «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» و يحبه اللّه، و كون الإنفاق في سبيل اللّه هو قضية الإيمان باللّه يجعل محبوب اللّه محبوبا لنفسه، و محبوبه ليس إلّا محبوبا للّه، و هنا زاوية ثالثة للمحبوب ان يحبه المنفق‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 249

عليه حتى يتم مثلث الحب فيتم نيل البر من اللّه.

فمن ينفق في اللّه ما يكرهه و يكرهه اللّه يكرهه اللّه: «وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ ما يَكْرَهُونَ وَ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنى‏ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَ أَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ» (16: 62).

فالمحور الأصيل في نيل البر «ما تحبون» كمؤمنين، و قد تشمل الزاوية الثالثة للمنفق عليه كما المنفق في سبيله، فحين تحب شيئا يحبه اللّه و لا يحبه المنفق عليه فعليك ألا تحب إنفاقه، فليست مادة الحب ما تحبه- فقط- لنفسك، بل و لمن تنفق عليه.

«وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى‏ حُبِّهِ» قد تعني مثلثة الجهات، «على حبه لهم- على حبه للمطعم- و على حبه لله و حب الله» و ذلك أحسن الإنفاق.

و يتلوه ان تنفق ما لا تحبه و يحبه اللّه إنفاقا و يحبه المنفق عليه سؤلا.

و المحور الأصيل في «على حبه» هو حب اللّه و له درجات أعلاها مثلث الحب كما في‏ «وَ يُطْعِمُونَ الطَّعامَ».

فما لم يكن الإنفاق على حب اللّه‏ «لَنْ تَنالُوا الْبِرَّ» فيه و ليس المؤمن ليحب ما لا يحبه اللّه.

إذا ف «مما تحبون» تعني ما تحبون في محبة اللّه و تحبونه- كذلك- لأهل اللّه، و كلما كان الإنفاق أحب إليكم كمؤمنين باللّه كان البر أبر لكم من اللّه.

كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى‏ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (93).

أ ترى ما هي الرباط بين هذه الآية و ما قبلها، و لا دور للطعام هنا سلبا و إيجابا على الإطلاق؟.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 250

علّها- بمناسبة الحوار الاسلامي الكتابي حول الشرعة الجديدة- وجه الى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) اعتراض على حلية لحوم الإبل و البقر و الغنم بكل أجزاءها، ناقمين عليه ذلك التحليل الطليق و التوراة يحرمها، فأجاب‏ «كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرائِيلَ ...».

و هنا «كل الطعام» و ليس «كل الطعام» لتعني الطعام المعروف حلّه في شرعة الإسلام- و طليق الحل هو مصب اعتراضهم على الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- او و الطعام الحل في الشرعة الابراهيمية فان بني إسرائيل كسائر المكلفين- هم و أنبياءهم- كانوا أتباع الشرعة الابراهيمية «مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ» و «كل الطعام» الحل في شرعة ابراهيم هو الحل في شرعتنا، إذ لا تناسخ شرعيا في حل الطعام إلا عقوبيا كما حرم قسم منه في شرعة التوراة.

و هنا يتهدم صرح زعمهم أن النسخ مستحيل، حيث خيّل إلى اهل التوراة انها هي الشرعة الإلهية منذ البداية الى النهاية، فلا شرعة- إذا- بعدها كما لم تكن قبلها، إلا إعدادات لها، و تخيل ثان ان ما حرم عليهم من الطيبات لم تكن عقوبة.

و قد يروى ان إسرائيل حرّم على نفسه لحم الإبل- أماذا- مما فيه عروق إذ كان يهيج عليه وجع الخاصرة او نذر إن عافاه اللّه من وجعه ألا يأكل ما فيه عرق حيث تأذى به‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 51 عن ابن عباس‏ «كُلُّ الطَّعامِ ..» قال: العرق أخذه عرق النساء فكان يبيت له زقاء- يعني صياح- فجعل للّه عليه إن شفاه أن لا يأكل لحما فيه عروق فحرمته اليهود، و فيه عن ابن عباس قال: جاء اليهود فقالوا يا أبا القاسم أخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يسكن البدو فاشتكى عرق النساء فلم يجد شيئا يداويه إلّا لحوم الإبل و ألبانها فلذلك حرمها، قالوا: صدقت.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 251

و أيا كان التحريم و دوره لم يكن تشريعا يخص اللّه تعالى، و لا حكما ناسخا لشرعة ابراهيم إذ لم يكن إسرائيل من اولي العزم، فانما كان تحريما شخصيا لمصلحة ملزمة كما حرم الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ما احلّه اللّه في شرعته على نفسه من زوجة قضية الفضيحة الدعائية من بعض نساءه حتى كفل اللّه أمره فرجع الى الحل.

و قد حرمت التوراة عقوبيا على أهلها- طيبات أحلت لهم: «وَ عَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ» (6: 146)- «فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ..»

(4: 160) ثم نراها ان المسيح (عليه السلام) أحلها: «وَ رَسُولًا إِلى‏ بَنِي إِسْرائِيلَ‏ ... وَ لِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ...» (3: 50).

فالطعام الذي حرمه إسرائيل على نفسه لمصلحة شخصية وقائية ليس ليحرم على أحد فضلا عن أن تحرمه التوراة اتباعا لما حرّم‏ «قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» ألا نسخ و لا جديد في حكم التوراة تحريما و سواه، كما و ترون ليس فيه تحريم ما حرم إسرائيل على نفسه اتباعا لما حرّم بل فيها حل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و عنه قال: حرم على نفسه العروق و لحوم الإبل كان به عرق النساء فأكل من لحومها فبات ليلة يزقوا فحلف أن لا يأكله أبدا، و

فيه عن ابن عباس قال‏ قالت اليهود للنبي (ص) نزلت التوراة بتحريم الذي حرم إسرائيل فقال اللّه لمحمد (ص) «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين، و كذبوا، ليس في التوراة و إنما لم يحرم ذلك إلّا تغليظا لمعصية بني إسرائيل بعد نزول التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين و قالت اليهود لمحمد (ص) كان موسى يهوديا على ديننا و جاءنا في التوراة تحريم الشحوم و ذي الظفر و السبت فقال محمد (ص): لم يكن موسى يهوديا و ليس في التوراة إلّا الإسلام يقول اللّه: قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين أ فيه ذلك و ما جاءهم بها أنبياءهم بعد موسى فنزلت في الألواح جملة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 252

كل الطعام الحل على المسلمين، إلا ما حرمت على بني إسرائيل عقوبة لبغيهم.

و هنا «مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ» تلمح بقيلتهم الكذب ان إسرائيل حرم في التوراة ما حرمه عليه نفسه، كقيلتهم ان ابراهيم كان يهوديا، و القرآن يذب هذا التحريم الخاص عن التوراة، لأنه كان‏ «مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ»، و ذلك القبل يعم «حلا .. و حرم» فكلا الحل العام و التحريم الخاص كان من قبل أن تنزل التورات.

ثم‏ «قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها» فيه قضاء حاسم على استحالة النسخ، حيث تنسخ التوراة حلية بعض الطيبات، و على مزعمة عدم التحريم عقوبة لأنهم شعب اللّه الخصوص.

فقد تصرح التوراة ان للإبل منافع كثيرة و وهب إسرائيل ثلاثين إبلا ذات لبن أخاه عيص (التكوين 32: 15) و لكنها محرمة في شرعة التوراة (اللاويين 11: 4 و التثنية 14: 7).

ثم في اللاويين 11: هذه هي الحيوانات التي تأكلونها من جميع البهائم التي على الأرض 3 كل ما شق ظلفا و قسمه ظلفين و يجترّ من البهائم فإياه تأكلون 4 إلّا هذه فلا تأكلوها مما يجترّ و مما يشق الظلف: الجمل لأنه يجتر لكنه لا يشق ظلفا فهو نجس لكم و الدب و الأرنب و الخنزير ... و جميع البهائم التي لها ظلف و لكن لا تشقه شقا أو لا تجتر فهي نجسة لكم و كل ما يمشي على كفوفه من جميع الحيوانات الماشية على أربع فهو نجس لكم.

ذلك و كما حرمت عليهم الشحوم (اللاويين 3: 16 و 17 و 7: 24- 27).

فقد اعترضوا على الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فيما اعترضوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 253

كيف يأكل لحم الإبل و قد حرمه إسرائيل، فيجيب القرآن انه من إسرائيل كان تحريما خاصا على نفسه وقائيا، من قبل أن تنزل التوراة، ثم التوراة حرمه عقوبيا و من ثم أحله فيما أحله المسيح (عليه السلام) و استمر الحل في الإسلام.

و في نظرة ثانية إلى الآية نقول‏ «إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى‏ نَفْسِهِ» استثناء منقطع لأن إسرائيل ليس داخلا في بنيه، و لا ما حرمه على نفسه داخلا في عموم التحريم، فقد يلمح انقطاع الاستثناء باستغراق الحل في «كل الطعام».

ثم‏ «مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ» يصح تعلقها بكلّ من «كان حلا» و «إِلَّا ما حَرَّمَ» و الجمع أجمع و الاول أوقع إذ «كان» هو أصل الكلام و الاستثناء- و لا سيما المنقطع كما هنا- فرع لا يأخذ زمام المتعلقات إلا ضمنيا إذا صح المعنى.

إذا «كُلُّ الطَّعامِ كانَ حِلًّا ... مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ» فليست المحرمات التوراتية أبدية، و منها عقوبية يدل عليه حلّها قبل نزول التوراة و بعد نزول الإنجيل و كما في متى: 3: 4 انه يحل لحم الجمل و لبس و بره و جلده.

كما و «كُلُّ الطَّعامِ‏ ... إِلَّا ما حَرَّمَ إِسْرائِيلُ عَلى‏ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْراةُ» حسما لزعم أن التوراة حرمت ما حرمه إسرائيل.

«قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْراةِ فَاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» في زعم استحالة النسخ و أبدية التوراة، و أن محرمات فيها عقوبية لبغيهم‏ «ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ» و هم كاذبون في رغم الحرمة الأبدية لما حرم فيها و منها لحم الإبل حيث كانوا ينددون بالرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) كيف يأكل ما حرمته التوراة كشرعة أبدية دائمة.

و «إسرائيل» هي في أصلها العبراني «ييسرائل»: عبد اللّه، و لكن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 254

التوراة فسّرتها في قصة فنوئيل: صارع اللّه فصرعه فأخذ منه بركة النبوة!.

فَمَنِ افْتَرى‏ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94).

افتراء الكذب على اللّه قبل ذلك البيان ظلم و لكنه‏ «مِنْ بَعْدِ ذلِكَ» كأنه الظلم لا سواه‏ «فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» لأنهم على بينة من القرآن بحجته بعد التوراة، و على بينة من صدق هذه الرسالة القرآنية.

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95).

«قُلْ صَدَقَ اللَّهُ» في كل قال و أنتم كاذبون، فان كنتم صادقين انكم على ملة ابراهيم‏ «فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً» فلا تشركوا باللّه فانه‏ «ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» باللّه في أي شأن من شؤون الربوبية.

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 96 الى 97]

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ (96) فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (97)

إعلان صارخ في هذه الإذاعة القرآنية- العالمية- بأولية مطلقة لبيت اللّه الحرام، ردا على شطحات يهودية أن القدس أقدس منه‏ «1» فليكن هو المطاف‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 53- أخرج ابن المنذر و الأزرقي عن ابن جريح قال‏ بلغنا أن اليهود قالت بيت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 255

و القبلة و كما كان في فترة، و الأصل على مدار الزمن الرسالي هو الكعبة المباركة قبلة و مطافا للعالمين!: «وَ ما جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْها إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلى‏ عَقِبَيْهِ ..» (2: 142).

يذكر البيت الحرام في ساير القرآن عشرا مجردا كما هنا، و ثلاثا منسوبا فيها إلى اللّه، و ثلاثا أخرى إلى الناس، مما يدل على أنه ليس للّه بيتا كما للناس، فهو للناس بيت قبلة و مطاف و معتكّف، و للّه بيت يعبد فيه، فهو بيت اللّه و بيت الناس‏ «1».

و هنالك مواصفات لهذا البيت العتيق في عدة آيات، منها هنا سبع، عدد السموات السبع و الأرضين السبع و الأسبوع السبع و الطواف بالبيت و بالصفاء و المروة السبع، و الجمرات السبع، كما و ان عدد أبواب الجحيم سبع تسكّر بسبعي الطواف و سبعات الجمرات.

1 «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ...»

علّ الصلة القريبة لهاتين الآيتين بما قبلهما- و لا سيما و اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا- أن من أهل الكتاب معترضين على الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) إذا تأمر باتباع ملة ابراهيم فكيف تستقبل الكعبة و تطوف حولها و نحن نقدس‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المقدس أعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء و لأنه في الأرض المقدسة فقال المسلمون بل الكعبة أعظم فبلغ ذلك النبي (ص) فنزلت‏ «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ»- إلى قوله-: «فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ» و ليس ذلك في بيت المقدس‏ «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» و ليس ذلك في بيت المقدس‏ «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» و ليس ذلك في بيت المقدس.

(1). الثلاث الأولى هي‏ «وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ» (22: 26) «أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ» (2: 125) «عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ» (14: 37) و الثانية هنا «أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» و «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ» (5: 97) «وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً» (2: 125).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 256

القدس و هو كعبتها و شرعتها من شرعة ابراهيم؟ فجاء الجواب: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ ..» و كذلك الآيات التي تقول إن ابراهيم هو الذي رفع القواعد من البيت.

الأول هو السابق الذي لا يسبقه أو يقارنه مثيل له في الممكنات، أم و لا يتأخر هو عنه كما اللّه تعالى، حيث هو الأول لا ثاني له و الآخر لا أول قبله:

«هُوَ الْأَوَّلُ وَ الْآخِرُ وَ الظَّاهِرُ وَ الْباطِنُ وَ هُوَ بِكُلِّ شَيْ‏ءٍ عَلِيمٌ» (57: 3) و الأول هنا هو من الأول إذ له أمثال بعده مهما كانت درجات، كما هو في الدرجة القمة العليا، لا يساوى او يسامى.

و «بيت» كمطلقه هو مكان البيتوتة و الرياحة، بدنيا او روحيا او هما معا، فسواء أ كانت أرضا ملساء، ام و عليها بناية، فليشمل أرض الكعبة و هي مكان البيت كما يشملها بعد عمارتها.

و الأولية هنا مطلقة تطم الزمنية و المكانية «1» و في المكانة، مهما كان القصد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). هنا روايات متواترة بشأن هاتين الأوليين‏

ففي الدر المنثور 2: 52- أخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (ص): أول بقعة وضعت في الأرض موضع البيت ثم مهدت منها الأرض ..

و

عن أبي جعفر (ع) عن آبائه عليهم السلام قال: إن اللّه بعث ملائكته فقال: ابنوا لي في الأرض بيتا على مثال البيت المعمور و أمر اللّه تعالى من في الأرض أن يطوفوا كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور (رواه بلفظه الرازي في تفسيره 8: 152 و التبيان بتفاوت يسير 1: 157 و بوجه أبسط الخازن 1: 252 عن علي بن الحسين عليهما السلام و الأزرقي في أخبار مكة عن أبي جعفر (ع) عن أبيه عن علي بن الحسين عليهم السلام 1: 35 و حسين بن عبد اللّه بإسلامه في تاريخ الكعبة 40.

و

روى الكليني في الصحيح عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد اللّه (ع) قال: لما أراد اللّه عز و جل أن يخلق الأرض أمر الرياح فضرب متن الماء حتى صار موجا ثم أزبد فصار زبدا واحدا فجمعه في موضع البيت ثم جعله جبلا من زبد ثم دحى الأرض من تحته و هو قول اللّه عز و جل: إن أوّل‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 257

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بيت وضع للناس .. و قال تعالى و الأرض بعد ذلك دحاها و رواه سيف بن عميرة عن أبي بكر الحضرمي عن أبي عبد اللّه (ع)

(انظر الكافي (: 16) و الفقيه 2: 154 و الأخبار الدالة على دحو الأرض من موضع الكعبة كثيرة انظر العياشي 1: 186 و البرهان 1: 297 و نور الثقلين 1: 303 و الوسائل الباب 18 من أبواب مقدمات الطواف 297 و 298 و الدر المنثور 1: 145- 147 و الطبري 4: 8 و أخبار مكة الأزرقي 1: 31.

و البيت في هذه الأحاديث هو مكان البيت، فله الأوّلية المطلقة على كل بيت كما

روى العياشي عن عبد الصمد بن سعد قال‏ أراد أبو جعفر أن يشتري من أهل مكة بيوتهم أن يزيد في المسجد فأبوا عليه فأرغبهم فامتنعوا فضاق بذلك فأتى أبا عبد اللّه (ع) فقال له: إني سألت هؤلاء شيئا من منازلهم و افنيتهم لنزيد في المسجد و قد منعوا ذلك قد غمني غما شديدا فقال أبو عبد اللّه (ع) لم يغمك ذلك و حجتك عليهم فيه ظاهرة، قال: و بما احتج عليهم؟ فقال: بكتاب اللّه، فقال:

في أي موضع؟ فقال: قول اللّه‏ «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ» قد أخبرك اللّه أن أوّل بيت وضع هو الذي ببكة فإن كانوا هم نزلوا قبل البيت فلهم افنيتهم و إن كان البيت قديما قبلهم فله فناءه فدعاهم أبو جعفر (ع) فاحتج عليهم بهذا فقالوا له: اصنع ما أحببت.

و فيه عن الحسن بن علي النعمان قال: لما بني المهدي في المسجد الحرام بقيت دار في تربيع المسجد فطلبها من أربابها فامتنعوا فسأل عن ذلك الفقهاء فكل قال له: أنه لا ينبغي أن تدخل شيئا في المسجد الحرام غصبا فقال له علي بن يقطين يا أمير المؤمنين إني أكتب إلى موسى بن جعفر عليهما السلام لأخبرك بوحي الأمر في ذلك فكتب إلى و الي المدينة أن يسأل موسى بن جعفر عليهما السلام عن دار أردنا أن ندخلها في المسجد الحرام فامتنع عليها صاحبها فكيف المخرج من ذلك؟ فقال ذلك لأبي الحسن (ع) فقال أبو الحسن (ع) فلا بد من الجواب في هذا؟ فقال له:

الأمر لا بد منه فقال له أكتب: بسم اللّه الرحمن الرحيم إن كانت الكعبة هي النازلة بالناس فالناس أولى بفنائها و إن كان الناس هم النازلون بفناء الكعبة فالكعبة أولى بفنائها، فلما أتى الكتاب إلى المهدي أخذ الكتاب فقبله ثم أمر بهدم الدار فأتى أهل الدار أبا الحسن (ع) فسألوه أن يكتب إلى المهدي كتابا في ثمن دارهم فكتب إليه أن أرضخ لهم شيئا فأرضاهم.

و أما ما

يروى عن علي (ع) أن رجلا قال له: أهو أوّل بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت و لكنه أوّل بيت وضع للناس مباركا فيه الهدى و الرحمة و البركة و أوّل من بناه إبراهيم (ع) ثم بناه قوم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 258

من‏ «بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ» بيوت العبادة «1» فالواضع هو اللّه، و الموضوع لهم هم كل الناس، فلا بيت يضعه الناس، بالإمكان ان يوضع لكلّ الناس دونما اختصاص.

إلّا انه يشمل بيوت الناس بجنب بيوت اللّه، فهو الأول زمانا إذ وضعه اللّه للناس قبل كل وضع و موضوع له، حين دحى الأرض من تحتها.

إن مكان البيت هو الأم لسائر الأمكنة الأرضية، كما مكة هي أم القرى من الناحية الرسالية، فللبيت بمكانه أمومتان اثنتان، فهو «أم القرى» في كافة الجهات، حيث دحيت كل شرعة إلهية- كأصل- منها، كما دحيت الأرض كلها من تحتها.

و الوضع هنا تكويني و تشريعي، و «للناس» تعم جميع الناس طول الزمن الرسالي، مطافا للطائفين و قبلة للمصلين، و كما نرى قبور النبيين و سائر الصالحين قبل الإسلام تجاه الكعبة المباركة دونما استثناء، في القدس نفسه و في الخليل و دمشق و لبنان و ايران أم أيا كان من بلاد تضم قبور هؤلاء الكرام، و كما حجه النبيون اجمع‏ «2» فهذا أقدس بيت على الإطلاق، فان واضعها هو اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

العرب من جرهم ثم هدم فبناه قريش فقد يعني من المتأخر عن بيوت عمارة البيت لإمكانه‏ (رواه في البرهان 1: 301 عن ابن شهر آشوب عنه (ع) و أخرجه السيوطي عن ابن المنذر و ابن أبي حاتم من طريق الشعبي عنه (ع) و الرازي في تفسيره 8: 154 و الأزرقي في أخبار مكة 1: 61 و 62 عنه (ع) بوجه أبسط.

(1).

الدر المنثور 2: 53- أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و عبد بن حميد و البخاري و مسلم و ابن جرير و البيهقي في الشعب عن أبي ذر قال‏ قلت يا رسول اللّه (ص) أي مسجد وضع أوّل؟ قال:

المسجد الحرام، قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى ..

(2)

في روضة المتقين 4: 97 قال أبو جعفر (ع) أتى آدم (ع) هذا البيت ألف أتية على قدميه منها سبعمائة حجة و ثلاثمائة عمرة و كان يأتيه من ناحية الشام و المكان الذي يبيت فيه الحطيم ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 259

الجليل، و المهندس هو جبرئيل، و الباني هو الخليل و التلميذ إسماعيل، لذلك‏

«المقام بمكة سعادة و الخروج منها شقوة» «1»

و هي‏

«دعامة الإسلام ..» «2»

و الصلاة فيه تسوى الف الف صلاة «3» و الطواف به صلوة، و المقام عنده فيه الفضيلة الكبرى، كما الصوم في رمضانه مائة الف‏ «4».

لقد رسم الخط حول مكان البيت و بناه آدم الصفيّ‏ «5» و رفع القواعد منه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

فيه 114 في الموثق كالصحيح عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر (ع) يقول: مر موسى بن عمران (ع) في سبعين نبيا على فجاج الروحاء عليهم العباء القطوانية يقول: لبيك عبدك و ابن عبديك ..

و

فيه في الحسن كالصحيح عن هشام بن الحكم عن أبي عبد اللّه (ع) قال: مر موسى النبي (ص) بصفاح الروحاء على جمل أحمر خطامه من ليف عليه عبائتان قطوانيتان و هو يقول: لبيك يا كريم لبيك- قال: مر يونس بن متى بصفاح الروحاء و هو يقول: لبيك كشاف الكرب العظام- قال:

و مر عيسى بن مريم بصفاح الروحاء و هو يقول: لبيك عبدك ابن أمتك و مر محمد (ص) بصفاح الروحاء يقول لبيك ذا المعارج لبيك.

و

فيه 116 روى زرارة في الصحيح عن أبي جعفر (ع) أن سليمان (ع) قد حج البيت في الجن و الإنس و الطير و الرياح و كسى البيت القباطي.

(1). الدر المنثور 2: 53- أخرج الأزرقي عن عطاء بن كثير رفعه إلى النبي (ص): المقام ...

(2)

المصدر- أخرج الأزرقي و الطبراني في الأوسط عن جابر بن عبد اللّه أن رسول اللّه (ص) قال: هذا البيت دعامة الإسلام من خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضمونا على اللّه إن قبضه أن يدخله الجنة و إن رده أن يرده بأجر أو غنيمة.

(3) كما

في الوافي عن الفقيه 8: 10 قال (ص) الصلاة في مسجدي كألف صلاة إلّا في المسجد الحرام فإنه كألف صلاة في مسجدي.

(4)

الدر المنثور 2: 53- أخرج الأزرقى و الجندي و البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (ص) من أدرك شهر رمضان بمكة فصامه كله و قام منه ما تيسر كتب اللّه له مائة ألف رمضان بغير مكة و كتب له كل يوم حسنة و كل ليلة حسنة و كل يوم عتق رقبة و كل ليلة عتق رقبة و كل يوم حملان فرس في سبيل اللّه و كل ليلة حملان فرس في سبيل اللّه و له بكل يوم دعوة مستجابة.

(5)

روضة المتقين 4: 116 روى أبو بصير في الموثق عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إن آدم هو الذي بنى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 260

الخليل الوفيّ، و وضع الحجر الأسود في مكانه الآن بعد خرابه هذا النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و يظهر عنده متكئا ظهره على جداره القائم المهدي (عليه السلام) فأم القرى هي العاصمة الإسلامية الكبرى كما كانت لرسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و هي على طول خط الرسالات أم القرى لا تساوى ام تسامى.

و لماذا «وُضِعَ لِلنَّاسِ» و هو «مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ» أجمعين، من الجنة و الناس و من سواهما من المكلفين أجمعين؟.

علّه لأنهم هو المحور الأساس في التكوين و التشريع، و الجنة هم على هامش الناس ثم لا خبر لنا عن سائر العالمين.

لَلَّذِي بِبَكَّةَ ...

و لماذا «لَلَّذِي بِبَكَّةَ» دون «الكعبة» و هي أخصر، او «مكة» و علّها أظهر؟ علّه إذ قد تسمى غيره «كعبة» مهما أصبحت بعد علما له! و أن «الكعبة» تختص بالمبني عليه تلك البناية، و «لَلَّذِي بِبَكَّةَ» تشملها قبل البناية و بعدها، و الأولية الزمنية بالنسبة لبيوت العبادة المبنية ليست للكعبة المشرفة،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

البيت و وضع أساسه و أوّل من كساه الشعر و أوّل من حج إليه ثم كساه تبع بعد آدم الأنطاع ثم كساه إبراهيم الخصف و أوّل من كساه الثياب سليمان بن داود (ع)، أقول: فالبيت الحرام هو قبل القدس بقرون فإن أوّل من خط بيت المقدس و اتخذه مسجدا داود (ع) و بناه سليمان من بعده فشاد بنيانه و فسح أعطانه و جاء في الخبر أنه أصاب بني إسرائيل على عهد داود طاعون أسرع فيهم و ذهب بعامتهم فخرج داود بالناس إلى موضع بيت المقدس فدعى اللّه سبحانه أن يرفع عنهم ذلك الموتان فاستجيب له فاتّخذ ذلك الموضع مسجدا تبركا به و تعظيما له و بدأ ببنائه فنودي قبل أن يستتمه بأوصى إلى سليمان (ع) باستتمامه فعامته من بناء سليمان (حقائق التأويل للسيد الشريف الرضي).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 261

و انما لمكان البيت و بالنسبة لكافة البيوت عبادة و سواها، مبنية و سواها.

ثم «بكة» من البك و هو الدفع حيث يدفع عنها من يقصد تهديمها هتكا من الطغاة اللئام لم يقصدها جبار بسوء الا اندقت عنقه‏ «1».

و هو الزحام لأنه مزدحم الحجاج و المعتمرين، و الأول يخص البيت و الثاني محطّه البيت مهما عم الزحام كل البلد الحرام،

«انما سميت مكة بكة لان الناس يتباكون فيها» «2»

و

«لأنها يبتك بها الرجال و النساء و المرأة تصلي بين يديك و عن يمينك و عن شمالك و معك و لا بأس بذلك إنما يكره في سائر البلدان» «3»

و

«لان الناس يبك بعضهم بعضا فيها بالايدي» «4»

لا

«لبكاء الناس حولها و فيها» «5»

لاختلاف «بكّ» عن «بكى» في اصل اللغة و المعنى.

و اما «مكة» فهي من المكّ: الدّحو و التحريك، حيث مكّ اللّه الأرض من تحتها، و علّ اختصاص «بكة» بالذكر هنا دون «مكة» و هما تعنيان البلد الحرام، للتأشير الى أن مظهر البركة و الهدى فيها للعالمين بادى من أذان الحج من بانيها الخليل، مهما كانت قبلة و مطافا قبله.

و قد تعني «مكة» البلد الحرام كله، او الحرم كله، و «بكة» هي موضع البيت، او موضع الحجر الذي يبك الناس بعضهم بعضا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في الموثق عن أبي جعفر (ع) كانت تسمى بكة لأنها تبك أعناق الباغين إذا بغوا فيها.

(2) نور الثقلين 1: 367 في كتاب العلل بإسناده إلى العرزمي عن أبي عبد اللّه (ع) ...

(3) المصدر 367 عن العلل بسند متصل عن الفضيل عن أبي جعفر (ع) قال: ..

(4) المصدر 367 عن العلل بإسناده إلى عبيد اللّه بن علي الحلبي قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) لم سميت مكة بكة؟ قال: ..

(5)

المصدر 366 عن العلل و بإسناده إلى عبد اللّه بن سنان قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) لم سميت الكعبة بكة؟ فقال: لبكاء الناس حولها و فيها أقول:: و هذا من المختلقات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 262

2- 3 مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ‏ علهما حالان لمربع المتعلقات: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ»: مباركا و هدى- وضع:

مباركا و هدى- للناس: مباركا و هدى- للذي ببكة: مباركا و هدى، بركات بعضها فوق بعض و هدايات منذ وضعه اللّه الى يوم الدين.

ثم «مباركا» اسم مفعول من بارك، و البرك هو في الأصل ثبات الشي‏ء و يستعمل في كل فضل و فيض ماديا او معنويا او هما معا ف «ان للحق دولة و للباطل جولة» فهذا البيت مبارك ثابت النفع دون زوال، و منه استقرار العبادة فيه و اليه و الطواف حوله دونما نسخ و تحوير.

و في الأصل العبراني 6: 6- 6: بارك ركع- سجد- أحنى الركبة، و: 6: 6- 6:: برك بارك- مجّد- رحّب- حنّأ- هنّأ، و: 6: 6- 6: براكاه مباركة- تهنئة- تحية- تسبيح.

و البيت الذي ببكة فيه كافة البركات مادية و معنوية: «حَرَماً آمِناً يُجْبى‏ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ‏ءٍ» (28: 57) «وَ ارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ وَ مَنْ كَفَرَ ..» (2: 126).

و من أهمها البركات الجماعية ثقافية و عقيدية و سياسية و اقتصادية أماهيه، فانه: «قياما للناس- و مثابة و أمنا ..» و «لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ..» (22: 28).

و تراه كيف يكون‏ «مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ» و حتى المسلمين لم يتبركوا به و يهتدوا كما يحق فضلا عن سائر العالمين؟.

إن بركته و هداه للعالمين فرض و واقع، فرض لمن استطاع اليه سبيلا، و واقع لغير المستطيعين من المسلمين، لو ان الأولين حجّوه كما يجب شاهدين فيه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 263

منافع لهم و للكتلة المؤمنة، ثم واقع بصورة أوسع حيث تؤسس الدولة الإسلامية العالمية على كاهل الكون ايام المهدي القائم عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.

ذلك! و لأن «للناس» هنا طليقة غير محدودة بناس دون ناس، نتأكد أنه‏ «وُضِعَ لِلنَّاسِ» كلهم دون طائفية او اقليمية او عنصرية لناس البيت كما في سائر البيوت.

ثم «وضع» دون «بني» للتدليل على كل وضع فيه تكوينيا و تشريعيا و بركة و قبلة و مطافا و عبادات أخرى، و سائر البيوت لا أولية لها في هذه الأوضاع و لا تسامي او تساوي الكعبة المباركة على الإطلاق.

كما و ان صيغة المجهول مع «الناس» نائبا للفاعل دليل ان الفاعل الواضع ليس من الناس، إذا فذلك وضع تكويني و تشريعي من اللّه تعالى في اولية طليقة حقيقة بالأولوية الطليقة تشريعا و تكوينا.

4 فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ ...

و تراها فقط «آيات» تخرق العادات، دالة على اللّه بوحدانيته، فما هيه؟

و لم يذكر هنا إلّا «مَقامُ إِبْراهِيمَ» و هي آية واحدة!.

أم هي علامات مؤشرات الى الأفضلية القمة المرموقة لهذا البيت بالنسبة لأي بيت؟ و قد لا تسمى العلامات- فقط- آيات، و لم تأت بمعنى العلامة إلّا التي في الشعراء «أَ تَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ» (128).

أم هي آيات تشريعية تخصه، و تكوينية خارقة، و سواها علما لاختصاصه بين سائر البيوت بكل هذه الآيات؟ كأنها هيه جمعا بين المحتملات.

و نجد في مثلث الآيات المذكورات: «مَقامُ إِبْراهِيمَ- وَ مَنْ دَخَلَهُ‏ ...- وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» تأشيرا عشيرا إلى كلها، «مَقامُ إِبْراهِيمَ» تكوينية،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 264

«وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» تعمها و التشريعية «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ» تشريعية، و التكوينية منها تعم الخارق للعادة و مطلق العلامة.

فآية تشريعية منقطعة النظير تدل على أوّليته التشريفية «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ» و لم يضع اللّه بيتا على مدار الزمن الرسالي، يفرض حجه لمن استطاع اليه سبيلا إلا الكعبة المشرفة.

و أخرى هي فرض الأمن لمن دخلها زائدا على ما سواها من بيوت اللّه و سواها.

و ثالثة تحريم الصيد و قطع الشجر في حرمها دون سواها، و ما الى ذلك من محرمات و واجبات فيها و في إحرام حجها و عمرتها.

و آية تكوينية خارقة العادة هي الرابعة من آياته البينات بكّ من قصده بسوء كما حصل في اصحاب الفيل: «أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ»؟! و ما هدم حينما هدم توهينا كأصحاب الفيل‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). فما زالت الكعبة على بناء إبراهيم (ع) حتى جددها بنو جرهم ثم العمالقة ثم قريش، ثم هدمت الكعبة بالسيل رابعة قيل البعثة بخمس.

و كان البناء على هذه الحال حتى تسلط عبد اللّه بن الزبير على الحجاز في عهد يزيد بن معاوية فحاربه الحصين قائد يزيد بمكة و أصاب الكعبة بالمنجنيق فانهدت و أحرقت كسوتها و بعض أخشابها ثم انكشف عنها لموت يزيد فرأى ابن الزبير أن يهدم الكعبة و يعيد بناءها فأتى لها بالجص النقي من اليمن و بناها به و كان فراغه من بناءها 17 رجب 64 هجرية.

و هذه الإصابة لم تكن قاصدة إلى هدم البيت و هتك حرمته، و إنما هي من مخلفات هذه الحرب الظالمة، و لو كانت قاصدة ما قصده أصحاب الفيل لأصابهم ما أصابهم.

ثم هنا روايات صحيحة أن البيت لم يغرق في طوفان نوح (ع) كما

في الصحيح عن سعيد الأعرج‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 265

و خامسة هي موضع قدم ابراهيم من الحجر الموجود في المقام حيث هو الآن، إذ أثرت قدمه المباركة حين بنى البيت و حين أذّن في الناس بالحج‏ «1».

و سادسة ان الطيور المحلقة على فضاء المسجد الحرام، تكسّر عند وصولها الى فضاء الكعبة، اللّهم إلّا شاردة ماردة، فقد تراها- ككل- ممتنعة من العلو على البيت الحرام، فلا يطير طائر إلا حوله من غير ان يعلو فوقه و قد تناصر الخبر و تواتر الأثر بذكره.

و لقد شاهدت أنا عند مقامي بمكة المكرمة في سنتين من سني هجرتي من شر الطاغوت الشاه عليه لعنة اللّه، شاهدت متقصدا تلك الآية البينة، فرأيت امتناع الطير من التحليق فوق البيت، حتى لقد كنت أرى الطائر يدنو من مكان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إنما سمي البيت العتيق لأنه أعتق من الغرق و أعتق الحرم معه كف عنه الماء (روضة المتقين 4: 4).

ثم لما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعث الحجاج بن يوسف قائده فحارب ابن الزبير حتى غلبه فقتله و دخل البيت فأخبر عبد الملك بما أحدثه ابن الزبير في الكعبة فأمره بإرجاعها إلى شكلها الأول فهدم الحجاج من جانبها الشمالي ستة أذرع و شبرا و بنى ذلك الجدار على أساس قريش، و هذه خامسة.

و لما تولى السلطان سليمان العثماني سنة (906) غير سقفها، و لما تولى السلطان أحمد العثماني سنة (1021) أحدث فيها ترميما، و لما حدث السيل العظيم سنة (1039) هدم بعض حوائطها الشمالية و الشرقية و الغربية فأمر السلطان مراد الرابع من ملوك آل عثمان بترميمها، و لم يزل على ذلك حتى اليوم (1405) هجرية، و لم تعمر إلّا داخليا سنة (1400) زمن الملك خالد.

فلا نجد في تاريخ الكعبة تهديما قاصدا هتكا لحرمتها إلّا من أصحاب الفيل، و قد جعل كيدهم في تضليل!.

(1).

في حسنة ابن سنان أو صحيحه على الأصح قال‏ سألت أبا عبد اللّه (ع) «فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ» ما هذه الآيات البينات؟ قال: مقام إبراهيم حيث قام على الحجر فأثرت فيه قدماه، و الحجر الأسود و منزل إسماعيل.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 266

سحيق و منزع عميق في أحدّ طير أنه و أمدّ خفقان جناحه حتى أظن انه قد قطع البيت عاليا عليه و جائزا به، فما هو إلا ان يقرب منه حتى ينكسر منحرفا و يرجع متيامنا او متياسرا فيمر عن يمين البيت او شماله، كأن لافتا يلفته او عاكسا يعكسه، و ذلك من أطراف ما شاهدته هناك و جربته، اللهم عد بي الى بيتك و اجعلني فيه من أنصار مهديك القائم عجل اللّه تعالى فرجه، و كما رجوته حين أقمت فيه و لكن اللّه قضى امرا كان مفعولا.

و سابعة هي بئر زمزم حيث نبع فوارا أرتزيا منذ مس إسماعيل عقبه على أرضه، و لا يزال نابعا يزيد و لا ينقص، ثم و ماءه لا يتسنّه على طول المكوث مكشوفا على أية حال.

و ثامنة هي قصة الخليل (عليه السلام) لما أمر في المنحر بذبح ابنه إسماعيل، فأخذ يضغط على المدية و لكنها لا تقطع حيث «الخليل يأمرني و الجليل ينهاني».

و تاسعة هي ترك الذباب و البراغيث في منى يوم الأضحى و يومين بعدها، و أرضها مليئة بالأشلاء العفنة و النتنة، فلا تجد أية مؤذية فيها!.

و عاشرة هي حصى الجمار التي تؤخذ من المشعر الحرام بالملايين الملايين سنويا، و ليس سبيل ماء و لا مهب رياح شديدة! ثم ترى ذهاب تلك الحصى و خلو مواضعه منه على كثرة الرامين به و اجتماعه في مواضعه.

و حاد يعشرها انها تجبى إليها ثمرات كل شي‏ء، و البلد الحرام نفسه كان قاحلا لا ماء فيه و لا كلاء، و حتى الآن و هما فيه قدر الحاجة لا ثمرات فيه من نفسه إلّا من كل أكناف العالم.

و ثاني عشرها الأمن النسبي فيه- مهما شذ فيه اللّاأمن- حيث الحروب و إراقة الدماء بعيدة عنه اكثر من غيره بكثير، و لحدّ لا تجد فيه افتراس السباع‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 267

فضلا عن غيرها، كما و هو من احكامه تشريعيا.

فترى الوحش و السباع إذا دخلته و صارت في حدوده لا تقتل بعضها بعضا، و لا يؤذي بعضها بعضا، و لا تصطاد فيه الكلاب و السباع سوانح الوحوش التي جرت عادتها بالاصطياد لها، و لا تعدو عليها في أرض الحرم كما تعدو عليها إذا صادفتها خارج الحرم.

فهذه آية عظيمة من آيات اللّه البينات في هذا البيت المبارك تدل دلالة عظيمة على أن اللّه تعالى هو الذي أبان هذا البيت بذلك من سائر بقاع الأرض، حيث حال بين السباع فيها و بين مجاري عاداتها و حوافز طباعها و عمل النفوس السليطة التي ركبت فيها حتى تمنع من مواقعة الفرائس و قد اكثبت لها و صارت أخذ أيديها، بل و تأنس بأضدادها و تأنس الأضداد بها!.

و قد تعني‏ «مَقامُ إِبْراهِيمَ» كل هذه الآيات لأنها في مقامه الكعبة حيث رفع قواعدها، و مقامه الواضع قدمه عليه حيث موضع قدمه، و مقامه الزمزم حيث مقام اسماعيله بأمه، و مقامه المنحر و منى، فكل هذه يصدق عليها مقام إبراهيم، زمان قيامه و مكانه و أصل قيامه بما قام، و إنما خص بالذكر أمن المقام و فرض حج البيت، كنموذجين من الآيات التكوينية و التشريعية.

كما و ان مقام ابراهيم أيا كان لهذا البيت المبارك هو من الآيات البينات لفضله على القدس و ما سواه من البيوت المقدسة طول الرسالات، حيث ترى موضع قدم الخليل في الصخرة حيث ألان اللّه سبحانه له أصلادها بعد الصلابة و خلخل أجزاءها بعد الكثافة حتى أثرت قدمه فيها راسخة و تغلغلت سانحة كما يتغلغل في الأشياء الرخوة و الأرض الخوارة.

فلذلك البيت فضله المنقطع النظير، لا يخلو قريبا من طائف او مصل، و لا بعيدا من مستقبل له في صلاة و سواها، آناء الليل و أطراف النهار، فان‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 268

قضية كروية الأرض دوران الآفاق فتداوم أوقات الصلوات الخمس في كل الأوقات دونما استثناء.

و «مَقامُ إِبْراهِيمَ» ادبيا قد يكون مبتدء خبره المحذوف «منها» او بدلا من «آيات» مع «من دخله- و لله ...» او عطف بيان.

5 وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً ....

أ تراه أمنا شرعيا؟ و لا يخص البيت! فكل داخل في بيت و سواه و خارج عنه آمن في شرعة اللّه إذا لم يستحق خلاف الأمن كالجاني!.

ام امنا واقعيا؟ و لم يأمن فيه سيد الشهداء الحسين بن علي (عليهما السلام) و كثير مثله تقتيلا او نفيا و تشريدا! فكيف يكون الأمن من ميّزاته بين البيوت و سواها من مدخل او مخرج؟!.

و قد سأل ابراهيم أمنه: «وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً ...»

(2: 126) فاستجيب له: «وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَ أَمْناً» (125)!.

قد يعني «آمنا» أمنا زائدا على سواه شرعيا و واقعيا كما هو الواقع طول تاريخه المجيد، و لم يختص به أصل الأمن بنوعيه، و إنما أصبح أمنه الخاص فيهما من ميزاته.

فالكعبة آمنة كما هنا، و الحرم الحاوي لها و لمكة كلها آمن: «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً» (28: 75) و لكن اين أمن من أمن.

فالداخل في الكعبة أو المسجد الحرام آمن مهما كان مجرما، و لكن يضيّق عليه في المأكل و المشرب حتى يخرج فيقام عليه الحد، إلّا إذا جنى في نفس المسجد الحرام أو الكعبة المباركة فيقام عليه الحد فيما جنى‏ «1» و الكعبة المباركة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 55- أخرج البيهقي عن ابن عباس قال قال رسول اللّه (ص) من دخل البيت‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 269

هي منقطعة النظير في ذلك الأمن كما في سواه.

ثم «آمنا» يعم بأس الآخرة إلى الدنيا و بأحرى، إلّا إذا دخل غير تائب عما اقترف، غير خارج عن معصية اللّه و هو في حرم اللّه، فانه ناقض أمنه، لأنه ناقص في دخوله‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

دخل في حسنة و خرج من سيئة مغفورا له‏

و

فيه أخرج البيهقي في الشعب عن جابر قال قال رسول اللّه (ص) من مات في أحد الحرمين بعث آمنا-

و

فيه عن سلمان قال قال رسول اللّه (ص): من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي و جاء يوم القيامة من الآمنين.

و

في نور الثقلين 1: 368 عن علي بن عبد العزيز قال: قلت لأبي عبد اللّه (ع) جعلت فداك قول اللّه‏ «فِيهِ آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» فقد يدخله المرجى و القدري و الحروري و الزنديق الذي لا يؤمن باللّه؟ قال: لا و لا كرامة! قلت: فمه جعلت فداك؟ قال: من دخله و هو عارف بحقنا كما هو عارف به خرج من ذنوبه و كفى هم الدنيا و الآخرة.

و

فيه عن أمالي الصدوق بإسناده إلى النبي (ص) عن جبرئيل عن ميكائيل عن إسرافيل عن اللّه جلى جلاله حديث طويل و فيه يقول في حق علي (ع): و جعلته العلم الهادي من الضلالة و بأبي الذي أوتى به منه و بيتي الذي من دخله كان آمنا من ناري.

و

فيه في الكافي بسند متصل عن عبد الخالق الصيقل قال‏ سألت أبا عبد اللّه (ع) عن هذه الآية فقال: لقد سألني عن شي‏ء ما سألني أحد إلّا من شاء اللّه، قال: من أمّ هذا البيت و هو يعلم أنه البيت الذي أمره اللّه عز و جل به و عرفنا أهل البيت حق معرفتنا كان آمنا في الدنيا و الآخرة.

و

فيه عن القمي بسند متصل عن معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إذا أردت دخول الكعبة فاغتسل قبل أن تدخلها و لا تدخلها بحذاء و تقول إذا دخلت: اللّهم إنك قلت: «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» فآمني من عذاب النار ...

و

بإسناده إلى سعيد الأعرج عن أبي عبد اللّه (ع) قال: لا بد للصرورة أن يدخل البيت قبل أن يرجع، فإذا دخلته فادخله بسكينة و وقار ثم أئت كل زاوية من زاوياه ثم قل: اللّهم إنك قلت: «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» فآمني من عذاب يوم القيامة.

(1).

روى الحلبي في الحسن عن أبي عبد اللّه (ع) قال‏ سألته عن قول اللّه عز و جل‏ «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً» قال: إذا أحدث العبد جناية في غير الحرم ثم فرّ إلى الحرم لم يسع لأحد أن يأخذه في الحرم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 270

و أمن الداخل في الكعبة او المسجد الحرام أءمن من الداخل في مكة او الحرم، و لم يأت «آمنا» لداخل إلّا هنا، ثم «بلدا- او- حرما آمنا».

و قد يقال ان ضمير الغائب في «دخله» راجع- فقط- الى البيت، فلا أمن إذا إلّا للداخل في نفس البيت، دون المسجد الحرام فضلا عن الحرم كله؟.

لكن المرجع الأقرب الصالح لرجوعه إليه هو «مَقامُ إِبْراهِيمَ» و يسع الحرم كله، اضافة الى آيات أمن مكة، و الحرم كله و تظافر الروايات ان المأمن هو الحرم كله‏ «1».

و القول ان «فيه» راجع الى البيت، فمقام ابراهيم لا بد و ان يكون- فقط- في نفس البيت ف «من دخله» يعني مقام ابراهيم و هو نفسه في البيت فلا يعني الحرم كله؟.

قد يجاب عنه إضافة الى ما قد مناه أن «فيه» تعني في البيت بما يتعلق به و هو الحرم كله، كما «ثُمَّ مَحِلُّها إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ» لا يعني انه نفسه محل الذبح.

ثم و ليس من المتعوّد دخول نفس البيت إلّا للخصوص من الزائرين، دون العامة فضلا عن المجرمين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و لكن يمنع من السوق فلا يبايع و لا يطعم و لا يكلّم فإنه إذا فعل ذلك يوشك أن يخرج فيؤخذ و إذا جنى في الحرم جناية أقيم عليه الحد في الحرم لأنه لم يرع للحرم حرمته،

أقول و بمضمونه أخبار متظافرة قد يصح دعوى التواتر فيها معنويا.

(1). كما

في حسنة عبد اللّه بن سنان قال‏ سألته عن الآية البيت عنى أو الحرم كله؟ قال: من دخل الحرم مستجيرا من الناس فهو آمن من سخط اللّه و من دخله من الوحش و الطير كان آمنا أن يهاج أو يؤذى حتى يخرج من الحرم‏ (التهذيب 5: 449 و الفقيه 2: 163 و الكافي 1: 228 و الوافي 8: 17 و الوسائل الباب 14 من أبواب مقدمات الطواف ح 12).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 271

و كذلك‏ «مَقامُ إِبْراهِيمَ» ليس داخل البيت نفسه، حتى القدر المتيقن منه و هو الحجر المقام فضلا عن سواه من مقامه الواسع.

ثم‏ «كانَ آمِناً» دون «أمن» و هي أخصر، قد تلمح لعمق الأمن و ثباته الى يوم الدين، ف «كان» تضرب الى عمق الماضي، و «آمنا» الشامل لمثلث الزمان يستجرّ الأمن الى عمق المستقبل، فقد يأمن داخله عما مضى من ذنوبه و ما يأتي إلّا ان يحدث حدثا يبطل دخوله في البيت.

و ترى «من دخله» يخص الناس دون الحيوان؟ و أمن الإنسان- بطبيعة الحال و بأحرى- أمن للحيوان، ف «من» هنا يشمل كل ذي روح إنسانا و حيوانا «1» ثم و سائر آيات أمن الحرم لا تخص الإنسان: «حَرَماً آمِناً ...».

أو يصح ان يكون حرم اللّه آمنا للإنسان و ليس آمنا للحيوان و هي أحوج إلى الأمن!؟ ثم الأمن مطلق يعم النفس و العرض و المال، فلا يطالب المديون في الحرم و لا يروّع‏ «2».

6 وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ...

اللّام في «للّه» ليست للانتفاع إذ لا ينتفع اللّه من حج العباد و سواه من فعالهم، و إنما لاختصاص العهدة على الناس للّه، ف «على الناس» ليست‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 370 عن العلل بسند متصل عن أبي عبد اللّه (ع) أنه سئل عن طير أهلي أقبل فدخل الحرم؟ قال: لا يمس لأن اللّه عز و جل يقول: «وَ مَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً».

و

فيه عن الفقيه و سأل محمد بن مسلم أحدهما عليهما السلام عن الظبي‏ يدخل الحرام؟ فقال: لا يؤخذ و لا يمس لأن اللّه يقول: و من دخله كان آمنا.

(2)

المصدر في الكافي بسند متصل عن سماعة بن مهران عن أبي عبد اللّه (ع) قال: سألته عن رجل لي عليه مال فغاب عني زمانا فرأيته يطوف حول الكعبة أ فأتقاضاه مالي؟ قال: لا- لا تسلم عليه و لا تروعه حتى يخرج من الحرم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 272

لتثبت- فقط- فرض الحج على الناس، بل هو مع العهدة الثابتة عليهم، فلا تسقط بتركه و لا بالموت إذا استطاع إليه سبيلا لوقت مّا و تركه دون عذر.

و «الناس» هنا كل الناس من مختلف الملل و النحل دونما تمييز، و كما أمر ابراهيم الخليل بأذانه العام: «وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ..» (22: 27) و آية ثالثة مدنية «وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ ...» و لكنها لا تخاطب إلّا من يحج، أم هو شاغل بأداء مناسكه، حيث الإتمام لا يصح إلّا فيما اشتغلت به.

و لقد أذّن النبي كما أمر في أخريات العهد المدني قبيل الفتح، مرة للمسلمين حيث أمر المؤذنين ان يؤذنوا .. «1» و اخرى للملل الستة.

فلما نزلت آية الحج هذه جمع الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أهل الأديان الستة المسلمين و النصارى و اليهود و الصابئين و المجوس و المشركين فخطبهم و قال: «ان الله تعالى كتب عليكم الحج فحجوا فآمن به المسلمون و كفرت به الملل الخمس و قالوا لا نؤمن به و لا نصلي إليه و لا نحجه فأنزل الله تعالى قوله: وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

فروع الكافي 1: 233 صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (ع) قال: إن رسول اللّه (ص) أقام بالمدينة عشر سنين لم يحج ثم أنزل اللّه سبحانه: «وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ...» فأمر المؤذنين أن يؤذنوا بأعلى أصواتهم بأن رسول اللّه (ص) يحج في عامه هذا فعلم من حضر المدينة و أهل العوالي و الأعراب.

أقول: و آية الأذان و الاستطاعة مدنيتان، فلم يكن تأخير للحج عن فرضه، و حتى لو كان فلجهات أمنية أماهيه، و الرسول أعرف بتكليفه من كل عارف!.

(2) الدر المنثور 2: 57- أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن الضحاك قال:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 273

و ترى كيف تفرض فريضة على الناس كلهم من استطاع .. و اصل الشروط في صحتها الايمان باللّه و اليوم الآخر و الإسلام، فكيف تفرض على المشركين و سواهم من غير المؤمنين؟ إنها فريضة جماهيرية يستطيعها كل من استطاع إليه سبيلا، و من السبيل إليها تحصيل شرطها الأصيل و هو الإسلام، و ليس الحج فقط فرضا على كافة المستطيعين من المكلفين بل هو في كل فرائض الدين كما الصلاة و الزكاة: «قالوا ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ. قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَ لَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَ كُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ. وَ كُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ.» (74: 45).

و هنا الأساس في فرض الحج هم كافة الناس و على هامشهم الجن و سائر المكلفين: «مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» و أما الكفار القصّر المستضعفون الذين لا يستطيعون حيلة و لا يهتدون سبيلا إلى الايمان غير مقصرين فلا، كما المسلمون غير البالغين او المجانين او المرضى و الفقراء او المحجوزين عن الحج، أم أيا كانوا ممن لا يستطيع إليه سبيلا لا يشملهم فرضه كما في سائر الفرائض.

إلا ان الحج فيها تأكيدات اكثر من غيرها إلّا الصلاة، ف «للّه» تأكيد لفرضه أنه من حقوق الألوهية، و «على الناس» تأكيد ثان، و ثالث إذ قدم عامة الناس كأنه فرض عليهم دونما شروط، ثم استثنى ب «مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» ظروف الحرج و العسر عن أداءه، و في الإبدال تثنية للمراد فتأكيد له حيث يلمح المبدل عنه كأنه فرض مطلق، ثم البدل بيان لحدّه، و ذلك تأكيد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و

في الدر المنثور 2: 57 أخرج سعيد بن منصور و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و البيهقي في سننه عن عكرمة قال: لما نزلت‏ «وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً ..» قالت اليهود فنحن مسلمون فقال لهم النبي (ص) إن اللّه فرض على المسلمين حج البيت فقالوا: لم يكتب علينا و أبوا أن يحجوا قال اللّه: «وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 274

أكيد لفرض الحج على المستطيعين، ثم‏ «وَ مَنْ كَفَرَ ...» تهديد شديد بالكافر بفرضه، ثم التارك له على فرضه و هو مؤمن به و هو الكفر عمليا قرنا بكفر عقائدي!.

«.. حِجُّ الْبَيْتِ» لقد ذكرت هذه الفريضة مرات عشر في القرآن كله، تسعا «الحج» فتحا، و مرة يتيمة كما هنا «حِجُّ الْبَيْتِ» كسرا، و ليس بين التسع آية تحمل فرض الحج كهذه إلّا آية الأذان، فما هو الحج هنا و الحج في غيرها؟.

«الحج» في الأصل هو القصد، ثم اصطلاحا في شرعة اللّه هي القصد الأصل من الزيارات، فهو القصد إلى زيارة بيت اللّه، و هو كثرة القصد الى من يراد تعظيمه، و هو الكف، و الغلبة بالحجة، و القدوم، و كثرة التردد، و قد يضمها كلها حج البيت، فانه القصد الى من تعظمه زيارة لبيته الحرام بديلا عن زيارته نفسه المستحيلة، و من شروطه الأصيلة الكف عن غير اللّه، و الكف في هذه السبيل عن محارم اللّه، و قد يتمثل الكف في تلبيات الإحرام، و هو الغلبة بدليل على هواك و الغلبة بمؤتمره على النسناس، او ان الناس حضروه كما يجب، و شهدوا منافع لهم كما يجب، و قاموا قومتهم الجماهيرية على النسناس المعارضين شرعة الناس، إذا فالحج حجة و غلبة بالحجة!، و هو القدوم الى بيت اللّه، و كثرة التردد اليه، و يجمعها كلها القصد القاطع لزيارة بيت اللّه.

و اما «الحجّ» فهو اسم لذلك المصدر، فهو حاصل الحج، زيارة مقصودة، فليس للّه على الناس- فقط- حجّ البيت و هو قصده- دون واقعه، بل حجّ البيت، و هو الزيارة المقصودة بكل مناسكها، و المقصودة بكافة جنباتها السياسية العبادية الجماهيرية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 275

و «حِجُّ الْبَيْتِ» تعم الحج و العمرة «1» فهما كالظرف و المجرور إذا اجتمعا افترقا و إذا افترقا اجتمعا، «وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ» تفصل بينهما، و الحج بمفردها تشملهما، فالعمرة واجبة كما الحج، سواء أ كانت مع الحج، ام مفردة لمن يستطيع الحج معها او لا يستطيعه.

«حِجُّ الْبَيْتِ» هو زيارة البيت، عمرة مفردة، ام تمتعا مع حجها، و من آياتها «وَ أَذانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِي‏ءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ» (9: 3) فيقابله الحج الأصغر و هو العمرة مفردة و تمتعا، إذا فهي حج كما هو حج.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

جامع الأحاديث 10: 221 حسنة عمر بن أذينة قال‏ كتبت إلى أبي عبد اللّه (ع) بمسائل بعضها مع ابن بكير و بعضها مع أبي العباس فجاء الجواب بإملائه: سألت عن قول اللّه عز و جل: و للّه على الناس حج البيت من استطاع سبيلا، يعني به الحج و العمرة جميعا لأنهما مفروضان و سألته عن قول اللّه تعالى: «وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ» قال يعني بتمامهما أداءهما و اتقاء ما يتقى المحرم فيهما، و سألته عن الحج الأكبر قال: الحج الأكبر الوقوف بعرفة و رمي الحجار و الحج الأصغر العمرة.

و

فيه 222 عن دعائم الإسلام عن جعفر بن محمد عليهما السلام‏ أنه سئل عن قول اللّه عز و جل:

و للّه على الناس حج البيت .. يعني به الحج دون العمرة؟ قال: لا و لكن يعني به الحج و العمرة جميعا لأنهما مفروضان و تلا قول اللّه عز و جل: و أتموا الحج و العمرة للّه و قال: تمامهما أدائهما.

أقول و فيه أحاديث جمة كلها تفرض العمرة كالحج بسناد آية الاستطاعة و آية العمرة دون فصل بين أقسام العمرة.

و

فيه ص 223 صحيحة معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (ع) قال: العمرة واجبة على الخلق بمنزلة الحج على من استطاع لأن اللّه تعالى يقول‏ «وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ» و إنما نزلت العمرة بالمدينة، قال قلت له: فمن تمتع بالعمرة إلى الحج أ يجزي ذلك عنه؟ قال: نعم- أقول أجزاء عمرة التمتع عن العمرة لا يصلح إلّا أن تكون المجزى عنه العمرة المفردة، و مثله موثقة يعقوب بن شعيب عنه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 276

و مما يفرض العمرة كما الحج‏ «وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ...» (2: 196).

مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ..

«من» هنا بدل عن «الناس» إذا فالناس المستطيعون إليه سبيلا هم المعنّيون بفرض الحج، و هل إنه أمر بفوره فور استطاعته لوقته فلا يجوز تسويفه دون عذر؟ طبعا نعم! فإنه قضية أصل الأمر، و لا سيما المحدّد بالاستطاعة الحاصلة، فليؤدّ فورها لموسمه.

و هل تكفي حجة الإسلام مرة واحدة طول عمر التكليف؟ طبعا نعم! فلو كانت فرضا أكثر منها أم كل سنة ما دامت الاستطاعة لصرحت بها الآية، و الآتي بها مرة مستطاعة لم يكفر بها عمليا إذ حققها، فلا تندد به‏ «وَ مَنْ كَفَرَ» و «حِجُّ الْبَيْتِ» ليست لتدل على اكثر من مرة واحدة، إلا إذا صرحت الآية أو صرحت به السنّة، و

الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يقول جوابا عن سؤال: «أفي كل عام يا رسول الله؟ لو قلتها لوجبت و لو وجبت لم تعملوا بها و لم تستطيعوا أن تعملوا بها، الحج مرة فمن زاد فتطوع» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 55- أخرج عبد بن حميد و الحاكم و صححه و البيهقي في سننه عن ابن عباس قال: خطبنا رسول اللّه (ص)، فقال يا أيها الناس إن اللّه كتب عليكم الحج فقام الأقرع بن حابس فقال: أفي كل عام ...

و

أخرج مثله باختلاف يسير أحمد و الترمذي و حسنه و ابن ماجة و ابن أبي حاتم و الحاكم عن علي (ع) قال: لما نزلت‏ «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ..» قالوا يا رسول اللّه (ص) ...- بزيادة- فأنزل اللّه: لا تسألوا عن أشياء إن تبدلكم تسؤكم.

و

فيه أخرج عبد بن حميد عن الحسن قال‏ لما نزلت «و للّه ..» قال رجل يا رسول اللّه أ في كل عام؟

قال: و الذي نفسي بيده لو قلت نعم لوجبت و لو وجبت ما قمتم بها و لو تركتموها لكفرتم فذروني ما وذرتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم أنبياءهم و اختلافهم عليهم فإذا أمرتكم بأمر فأتمروه ما استطعتم و إذا نهيتكم عن أمر فاجتنبوه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 277

و الاستطاعة هي طلب الطوع عقليا و عقلائيا و ماليا و أمنيا من صحة و حفاظ عرض و نفس و سواهما من النواميس الخمس، و أمن طريق، أمّا ذا من طوع دون عسر و لا حرج، لا في طريق الحج قبله و لا في مناسكه و لا في رجوعه، بحيث لا يتعسر او يتحرج بسبب الحج.

فمادة الوجوب هنا هي استطاعة سبيل إلى حجّ البيت، و طبعا دون عسر و لا حرج، و ليس تفسيرها بالزاد و الراحلة في المستفيضة المروية عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و أئمة اهل بيته (عليهم السلام)، إلا تفسيرا بالأكثرية الساحقة من مصاديق الاستطاعة حيث القلة القليلة هم المستطيعون دون زاد حاضر و راحلة، بل المشاة هم السابقون في آية الحج على الرّكب:

«وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ...» (22: 27) «1».

إذا

«حجة الإسلام واجبة على من أطاق المشي من المسلمين و لقد كان أكثر من حج مع النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) مشاة» (1)

و ليس من عنده زاد و راحلة إلا ممن يستطيع الحج، لا أنه المستطيع لا سواه‏ «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 56 أخرج تفسير الاستطاعة بالزاد و الراحلة عن الرسول (ص) الدار قطني و الحاكم و صححه عن أنس عنه (ص) و مثله عن الحسن و عائشة و ابن مسعود عنه و عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عنه (ص) و جابر بن عبد اللّه عنه (ص) و

عن علي (ع) عنه (ص) في الآية قال: تجد ظهر بعير.

و قد روى أصحابنا بطرق عدة عن أئمة أهل البيت تفسير الاستطاعة بالزاد و الراحلة و كذلك تخلية السرب و صحة البدن، و دور الراحلة هو الأكثرية الساحقة من استطاعة السبيل إلى الحج فلا تستغرق كل المستطيعين.

(2)

جامع أحاديث الشيعة 10: 251 صحيحة معاوية بن عمار قال‏ سألت أبا عبد اللّه (ع) عن رجل عليه دين أ عليه أن يحج؟ قال: نعم إن حجة الإسلام واجبة ... و لقد مر رسول اللّه (ص)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 278

ثم المحتاج الى زاد حاضر و راحلة، ان استطاع الحصول عليها دون عسر و لا حرج، فهو ممن استطاع اليه سبيلا، و ليس تحصيلهما تحصيلا للاستطاعة، إلّا إذا كانا هما- فقط- الاستطاعة، كيف لا و قد أمر الفقير ان يخدم القوم و يخرج معهم‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

بكراع الغميم فشكوا إليه الجهد فقال: شدوا أزركم و استبطنوا ففعلوا ذلك فذهب عنهم.

و

فيه صحيحة عبد الرحمن بن الحجاج قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (ع) الحج على الغني و الفقير؟ فقال:

الحج على الناس جميعا كبارهم و صغارهم فمن كان له عذر عذره اللّه.

و

صحيحة حفص عن أبي عبد اللّه (ع) عن آية الاستطاعة ما يعني بذلك؟ قال: من كان صحيحا في بدنه مخلى سربه له زاد و راحلة فهو ممن يستطيع الحج.

و

في الدر المنثور 2: 56- أخرج سعيد بن منصور و أحمد في كتاب الإيمان و أبو يعلي و البيهقي عن أبي أمامة قال قال رسول اللّه (ص) من مات و لم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة فليمت على أي حال شاء يهوديا أو نصرانيا.

و

في جامع الأحاديث 10: 229 صحيحة الحلبي عن أبي عبد اللّه (ع) في آية الاستطاعة ما السبيل؟ قال: أن يكون له ما يحج به، قال: قلت من عرض عليه ما يحج به فاستحيى من ذلك أهو ممن يستطيع إليه سبيلا؟ قال: نعم ما شأنه يستحي و لو يحج على حمار أبتر فإن كان يطيق أن يمشي بعضا و يركب بعضا فليحج.

أقول و روى مثله العياشي في تفسيره عنه (ع) و دعائم الإسلام عنه (ع) و التهذيب في الصحيح عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر (ع) و الصحيح عن معاوية بن عمار عن أبي عبد اللّه (ع) و التوحيد في الصحيح عنه (ع)

فالروايات في ذلك قد تبلغ حد التواتر و الأصل هنا هو نص آية الأذان و الإطلاق كالنص في آية الاستطاعة، فلا مجال للقول أن فاقد الزاد و الراحلة، المستطيع للحج دون عسر و لا حرج ليس مستطيعا للحج.

(1).

جامع أحاديث الشيعة 10: 251 صحيحة أبي بصير قال‏ قلت لأبي عبد اللّه (ع) قول اللّه عز و جل‏ «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ...» قال: يمشي إن لم يكن عنده، قلت: لا يقدر على المشي؟ قال:

يمشي و يركب، قلت: لا يقدر على ذلك؟ قال: يخدم القوم و يخرج معهم، و رواه مثله العياشي في تفسيره عن أبي بصير عنه (ع).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 279

كيف لا! و آية الأذان تقدم المشاة على الركب: «وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ...» (22: 27).

هنا «يأتوك» دون «يأتونك» جواب لأمر الأذان، و الأمر بالأمر يخلف واجب الأمر، ثم «رجالا» جمع راجل‏ «وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ»: هزيل «يأتين»:

كل ضامر بركبها، و «مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» يعم‏ «رِجالًا وَ عَلى‏ كُلِّ ضامِرٍ»:

يأتوك- يأتين: «مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ».

و لأن «سبيلا» هي الطريق المنحدرة، فإذا كانت السبيل اليه حاصلة فقد استطاع اليه سبيلا، و إذا استطاع الحصول على هذه السبيل، إزالة لعسرها أو حرجها، دونما عسر او حرج فيها فقد استطاع اليه سبيلا، حيث السبيل المستطاعة هي الميسورة و إن بوسائط قريبة ام غريبة.

إذا فالملحد له اليه سبيل بالإيمان باللّه فانه ميسور ببراهينه، و المشرك له إليه سبيل بتوحيد اللّه، و الكتابي له إليه سبيل بالإسلام، و المسلم الفقير المريض الذي ليس له أمن الطريق أمّاذا من السبل غير الحاصلة بالفعل، انه له اليه سبيل ما استطاع الحصول على المال و الصحة و أمن الطريق اما هي من السبل دون حرج و لا عسر، فالمستطيعون الى الحج سبيلا- إذا- هم الاكثرية المطلقة من الناس، فلذلك‏ «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا».

و ما اشتراط الزاد و الراحلة إلّا اشتراطا لكونهما ميسورين حاضرا و سواه، فرب زاد و راحلة غير ميسورين و هما حاضران، ام هما ميسوران و ليسا بحاضرين، فالأصل هو استطاعة السبيل الى الحج بمقدمات قريبة ام بعيدة ما دامت غير حرجه و لا معسورة.

و الاستطاعة المشروط بها فرض الحج تعم العقلية و العقلائية و الشرعية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 280

و البدنية و الأمنية و المالية و العرضية أمّاهيه مما تجعل الحج بطوع الحاج دونما عسر و لا حرج.

فما أمكن منها الحصول عليها بمحاولات مستطاعة كتحصيل الزاد و الراحلة و الصحة البدنية و الحالة الأمنية أماهيه، وجب الحصول عليها، فان هذه الإمكانية هي من استطاعة السبيل الى الحج، حيث السبل إليه مختلفة، و ما لم يمكن او كان في عسر أو حرج فلا يجب، فالمدار هو استطاعة السبيل اليه أيا كان و أيان، دونما حصر بزاد و راحلة ام و صحة و امنية فعلية ما أمكن الحصول عليه و استطاع السبيل اليه.

ثم الاستطاعة قد تكون فردية كما بيناها، و اخرى اجتماعية، فلئن حج عامة المكلفين بقي وجوب الحج على جمع من الجماهير المؤمنة ثابتة إذ يحرم تعطيل هذا المؤتمر السنوي الاسلامي العالمي، كما تلمح له الآية «عَلَى النَّاسِ» و تصرح مستفيضة الروايات‏ «1».

7 وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ‏ و الكفر هنا راجع الى نكران فرض الحج فانه المحور الأصيل في الآية «2»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). جامع أحاديث الشيعة 10: 217- 221 باب حرمة تعطيل البيت عن الحج في كل عام و أن الناس لو عطلوه لوجب على الوالي أن يجبرهم عليه و إن لم يكن لهم مال ينفق عليهم من بيت المال فإن الدين قائم ما قامت الكعبة ..

و من هذه الأحاديث (637)

عن الكافي و الفقيه عن حفص بن البختري و هشام بن سالم و معاوية بن عمار و غيرهم عن أبي عبد اللّه (ع) قال: لو أن الناس تركوا الحج لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك و على المقام عنده و لو تركوا زيارة النبي (ص) لكان على الوالي أن يجبرهم على ذلك و على المقام عنده فإن لم يكن لهم أموال أنفق عليهم من بيت مال المسلمين.

(2)

جامع الأحاديث 10: 229 القطب الراوندي في لب الألباب عن رسول اللّه (ص) و قال رجل يا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 281

و من ثم عمل الحج‏ «1» بفارق أن الأوّل كفر عقيدي و الثاني عملي، ثم الكفر بثواب الحج إن أتى به و عدم العقاب على تركه سواء أتى به في هذه الحالة ام ترك، و هذه الأربع كلها معنية ب «وَ مَنْ كَفَرَ ..» حيث الآية تشمل هذه الزوايا: فرضه- تطبيقه- ثوابه، و عقاب تركه- ثم و تركه، كما و الأحاديث تدلنا على هذا الإطلاق.

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 98 الى 112]

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى‏ ما تَعْمَلُونَ (98) قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (100) وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (101) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102)

وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى‏ شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103) وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (107)

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (108) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109) كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (110) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ (111) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ (112)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

رسول اللّه (ص) من ترك الحج فقد كفر؟ قال: لا و لكن من جحد الحق فقد كفر.

و

فيه 230 علي بن جعفر عن أخيه موسى (ع) في حديث حول الآية قلت فمن لم يحج فقد كفر؟

قال: لا و لكن من قال: هذا ليس هكذا فقد كفر.

و

في الدر المنثور 2: 57 لما نزلت آية الحج جمع رسول اللّه (ص) أهل الملل فقال إن اللّه فرض عليكم الحج فحجوا البيت فلم يقبله إلّا المسلمون و كفرت به خمس ملل قالوا لا نؤمن به و لا نصلي إليه و لا نستقبله فأنزل اللّه‏ «وَ مَنْ كَفَرَ ..»

و

فيه أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن أبي داود نفيع قال قال رسول اللّه (ص) «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ‏ ... وَ مَنْ كَفَرَ ..» فقام رجل من هزيل فقال يا رسول اللّه (ص): من تركه كفر؟ قال: من تركه لا يخاف عقوبته و من حج لا يرجو ثوابه فهو ذاك.

(1). و

فيه 230 عن الإحتجاج في إحتجاج أمير المؤمنين (ع) على الخوارج: و لقد قال اللّه جل ذكره‏ «وَ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ ...» فلو ترك الناس الحج لم يكن البيت ليكفر بتركهم إياه و لكن كانوا يكفرون بتركهم إياه لأن اللّه قد نصبه لهم علما و كذلك نصبني علما حيث قال رسول اللّه (ص): يا علي أنت مني بمنزلة الكعبة تؤتى و لا تأتي، و فيه عن فقه الرضا (ع) و سمى تارك الحج كافرا و توعد على تاركه من النار فنعوذ باللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 284

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى‏ ما تَعْمَلُونَ (98).

استفهام إنكاري بتعريض عريض أن كيف يكفر الكتابي بآيات اللّه و هو عشيرها لكونه من اهل الكتاب، و ذلك النكران هو أضل سبيلا لهم أولاء الأنكاد و للذين آمنوا ببساطة و لمّا يقع إيمانهم موقعه الصامد، حاسبين أن لو كان القرآن و رسوله حقا من اللّه لآمن به أهل الكتاب قبلنا، إلّا من هداه اللّه و نجاه بما جاهد في سبيل اللّه و كرّس حياته للّه‏ «الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ» (47: 17).

«لِمَ تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ» رسالية و رسولية، النازلة بعد ما أنزل إليكم من كتاب‏ «وَ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى‏ ما تَعْمَلُونَ» في كفركم و بمختلف أساليب التضليل، لا تخفى عليه منكم خافية، و قد كانوا يظنون ان اللّه لا يعلم كثيرا مما يعملون‏ «أَ تُحَدِّثُونَهُمْ بِما فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَ فَلا تَعْقِلُونَ. أَ وَ لا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُونَ» (2: 76).

قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99).

ليس فحسب أنكم‏ «تَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ» في أنفسكم، بل و «تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ» صدا بكفركم، و آخر بإيمانكم ثم كفركم: «آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهارِ وَ اكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» و ثالث بدعاياتكم الباطلة الخواء، عائشين ثالوث الصد عن سبيل اللّه من آمن، حال أنكم‏ «تَبْغُونَها عِوَجاً» تطلّبا للسبيل العوجاء «وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ» سبيل اللّه لمكان الكتاب، و «شهداء» الحق بما شهد لكم الكتاب و رسول الكتاب، «و أنتم» يجب عليكم ان تكونوا «شهداء» الحق لمن لم يشهده‏ «وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ» على ماذا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 285

تعملون بكفرهم و صدكم عن سبيل اللّه من آمن تبغونها عوجا!.

فشهادة الحق و الشهادة بالحق و الشهادة على الحق و شهادة نكران الحق هي زوايا اربع من‏ «وَ أَنْتُمْ شُهَداءُ» مما يضخّم مسئولية الكافرين الصادين عن سبيل اللّه.

ذلك كيد لعين لئيم من اهل الكتاب الكافرين، فحذار حذار للذين آمنوا أن يتخذوا فريقا منهم أولياء لأنهم اهل الكتاب:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ (100).

و إنما حذروا عن طاعة فريق منهم و طاعة غير المؤمن محظور أيا كان؟

لأن اهل الكتاب فرق ثلاث، منهم الصادون عن سبيل اللّه و هم الذين حذّر عن طاعتهم، و منهم المؤمنون بهذا الرسول و كتابه و هم آهلون للطاعة في سبيل اللّه و هم قادة الايمان بسند الكتاب، و منهم عوان لأنهم‏ «أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتابَ إِلَّا أَمانِيَّ» لا يدعون إلى شي‏ء حتى يطاعوا و هم حائرون في أمرهم أنفسهم، مهما افترقوا إلى متحر عن الحق ليتبعه، و مهمل يعيش حائرا مائرا، و الجامع بينهما ألا دور لهما في دعوة حتى يأتي دور الطاعة سلبا و إيجابا، ثم و لما ذا يطاع أهل الكتاب؟ أ لكي يهدوكم سبيل الرشاد؟ و أنتم راشدون بكتاب اللّه و رسوله!:

ذلك و كما

قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) حينما دس يهودي بين الأوس و الخزرج فأخذا يتقاتلان: «يا معشر المسلمين الله الله أ بدعوى الجاهلية و أنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله الى الإسلام و أكرمكم به و قطع عنكم أمر الجاهلية و استنقذكم به من الكفر و ألف به بينكم ترجعون الى ما كنتم عليه كفارا فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان و كيد من عدوهم فألقوا السلاح‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 286

و بكوا و عانق الرجال بعضهم بعضا ثم انصرفوا مع رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله ...» «1».

وَ كَيْفَ تَكْفُرُونَ وَ أَنْتُمْ تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (101).

«كَيْفَ تَكْفُرُونَ» بعد ايمانكم- بطاعتهم ثم كفركم- مهما دخلت فيكم الدعايات الكتابية الكافرة و أنتم أقوى منهم حجة، «وَ أَنْتُمْ تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ» خالصة عن كل دس و تجديف، آيات هي دلالات ذات بعدين على الحق، إذ تدل بنفسها على انها من اللّه، ثم تدل على حظائر القدس، و هي اتقن الآيات الرسالية على مدار الزمن الرسالي.

ثم‏ «وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ» و ليس فيهم رسولهم، فأنتم مزودون بالحجتين‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 57- اخرج ابن إسحاق و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابو الشيخ عن زيد ابن اسلم قال: مرّ شاس بن قيس و كان شيخا قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من اصحاب رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) من الأوس و الخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من ألفتهم و جماعتهم و صلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملا بني قيلة بهذه البلاد و اللّه ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار فأمر فتى شابا معه من يهود فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث و ما كان قبله و أنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الاشعار و كان يوم بعاث اقتتلت فيه الأوس و الخزرج و كان الظفر فيه للأوس على الخزرج ففعل فتكلم القوم عند ذلك و تنازعوا و تفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قيظى احد بني حارثة من الأوس و جبار بن صخر احد بني سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه ان شئتم و اللّه رددناها الآن جذعة و غضب الفريقان جميعا و قالوا قد فعلنا السلاح السلاح موعدكم الظاهرة و الظاهرة الحرة فخرجوا إليها و انضمت الأوس بعضها إلى بعض و الخزرج بعضها الى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية فبلغ ذلك رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 287

البالغتين الإلهتين؟؟؟ و هم خواء عنهما، لا يعيشون إلا خليطا من وحي السماء بوحي الأرض‏ «كَيْفَ تَكْفُرُونَ»؟! ثم‏ «وَ مَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ» باللّه كأصل في كافة الحالات و لا سيما في أجواء التضليل و التجديل، و بكتاب اللّه و رسوله دلالة صادقة معصومة على اللّه لأنه اعتصام باللّه، حيث يذكر بعد «آياتُ اللَّهِ وَ ... رَسُولُهُ» بل هو الأصل و السبيل الوحيد في الاعتصام باللّه، ثم زيادة الهدى من اللّه تتبنّاه: «وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَ آتاهُمْ تَقْواهُمْ».

فمن يزعم انه معتصم باللّه، تاركا لكتاب اللّه و رسوله، فقد ضل ضلالا مبينا، «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ...».

اجل هناك اعتصام باللّه دون وسيط و هو ان تدعوا اللّه ان يهديك و يغفر لك ذنوبك، و لكنه لا يفيد ما لم تعتصم باللّه بوسيط كتابه و رسوله و هما العاصمان باللّه عن ورطات الجهل و الطغوى الى درجات العلم و التقوى‏ «1»

«من جعل الهموم هما واحدا كفاه الله ما أهمه من امر الدنيا و الآخرة و من تشاعبت به الهموم لم يبال الله في أي أودية هلك» «2».

و

«أيما عبد أقبل قبل ما يحب الله عز و جل أقبل الله قبل ما يحب و من اعتصم بالله عصمه الله و من أقبل الله قبله و عصمه لم يبال لو سقطت السماء على‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 59- اخرج تمام في فوائده عن كعب بن مالك قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): أوحى الله الى داود يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا و ما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف منه نيته إلا قطعت أسباب السماء من بين يديه و أسخت الهواء من تحت قدميه.

(2) المصدر اخرج الحاكم و صححه عن ابن عمر قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 288

الأرض ...» «1»

و

«المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله» «2».

فمثلث الاعتصام باللّه ينجي اهل اللّه عن ثالوث الصد عن سبيل اللّه‏ «فَقَدْ هُدِيَ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَ لا نَبِيٍّ إِلَّا إِذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ لِيَجْعَلَ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ. وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ إِنَّ اللَّهَ لَهادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (22: 54) «.... فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» (2: 213).

و هنا «تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ» مما يثبت ان الكتاب و السنة يكفيان في التدليل على الحق المطلق في أجواء التضليلات فضلا عما سواها، فما دام الرسول فينا فهو الذي يهدينا الى ما خفي عنا من دلالات الكتاب و تأويلاته و إذا ارتحل عنا فسنته الثابتة المعروفة بموافقة الكتاب هي الحجة بعد الكتاب، ثم لا حجة بعدهما لأي سلب او إيجاب، في أي قليل او جليل.

و لأن العترة الطاهرة المعصومة هم حملة السنة الصالحة نسمع‏

الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يقول فيما تواتر عنه: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي»

فمهما صدقنا ما يروى عنه: «و سنتي» بدلا عن عترتي ما كنا نصدق حاملا للسنة إلا الأمناء المعصومين و هم عترته.

ف «سنتي» لأنها سنتي، ثم «عترتي» لأنهم المأمونون على سنتي، كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 276 عن اصول الكافي بسند متصل عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ...

(2) المصدر عن معاني الأخبار باسناده الى حسين الأشقر قال قلت لهاشم بن الحكم ما معنى قولكم ان الامام لا يكون الا معصوما؟ فقال: سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن ذلك فقال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 289

و هم الذين يفسرون الكتاب حقه كما أنا الرسول.

و لو أن هناك غير الكتاب و السنة هاديا الى الصراط المستقيم- من إجماعات و شهرات تخالف القرآن و نظرات و اجتهادات بقياسات و استحسانات و استصلاحات و أشباهها من غير الكتاب و السنة- لجاء ذكره- و إن مرة يتيمة او اشارة- في الذكر الحكيم.

فانما هو الاعتصام باللّه في خضم الضلالات و التضليلات مهما قويت فان اللّه أقوى و المضلون هم أضعف و أغوى.

و ماذا بعد الهدي الى صراط مستقيم، فالمؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف و لا تزيله القواصف ... و هنا اعتصام فردي للحفاظ على الايمان الفردي، دفعا لمكائد الصادين عن سبيل اللّه، ثم اعتصام جمعي جماهيري للمؤمنين باللّه يعصمهم عن المكائد الجماهيرية الكافرة، و يحافظ على دولة الايمان عالية خفاقة، تبين الآيات التالية شروطا متأصلة لذلك الاعتصام.

هذه الآيات تبين لنا الشروط الايجابية الأربع و السلبية الثلاث و النتائج المنتوجة على ضوء تطبيقها و منها «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً ...»:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102).

ركيزة أولى بعد الايمان تقوم عليها الجماعة المسلمة تحقيقا لكيانها و تأدية لدورها، صمودا في وجه أعداءها الألداء، هي تقوى اللّه حق تقاته و الموت مسلما، فبدون هذه الركيزة تكون الأمة فالتة في تجمّع جاهل قاحل مهما ملكت من ادعاءات و حملت من أسماء براقة مشرقة ك: «المؤمنون».

«اتَّقُوا اللَّهَ» و لكن كيف و كم و إلى اين؟ «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ» كما و كيفا «وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» مدى و غاية، أن تصبح حياة الإيمان تقوى حقة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 290

حقيقية بحذافيرها في كل صغيرة و كبيرة.

و ليس ل «حَقَّ تُقاتِهِ» حدّ يتصور، فكلما أوغل القلب في هذه السبيل تكشفت له آماد و آفاق وجدت له أشواق، في تيقظ من شوقه الى درجات فوق ما ارتقى.

و

قد يروى عن أحق الأتقياء في‏ «حَقَّ تُقاتِهِ»- «ان يطاع فلا يعصى و يذكر فلا ينسى» «1»

و

«لا يتقي الله عبد حق تقاته حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه و ما اخطأه لم يكن ليصيبه» «2».

إذا

فبادروا العمل و خافوا بغتة الأجل فانه لا يرجى من رجعة العمر ما يرجى من رجعة الرزق ما فات اليوم من الرزق رجى غدا زيادته و ما فات أمس من العمر لم ترج اليوم رجعته الرجاء مع الجائي و اليأس مع الماضي‏ «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» «3».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 276 عن معاني الأخبار باسناده إلى أبي بصير قال‏ سألت أبا عبد اللّه (عليه السلام) عن الآية قال: «يطاع و لا يعصى و يذكر فلا ينسى و يشكر فلا يكفر».

و

في تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب عن تفسير وكيع عن عبد خير قال‏ سألت علي بن أبي طالب (عليه السلام) عن قوله «يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله حتى تقاته ...» قال: و اللّه ما عمل بها غير بيت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) نحن ذكرناه فلا ننساه و نحن شكرناه فلا نكفره و نحن أطعناه فلم نعصه فلما نزلت هذه الآية قال الصحابة لا نطيق ذلك فأنزل اللّه: فاتقوا اللّه ما استطعتم.

أقول: لا نطيق- ان صح- يعني تلك الدرجة المعصومة من التقوى، فالآية الثانية بيان ل «حَقَّ تُقاتِهِ» انه على قدر الاستطاعة فلا يكلف غير المعصوم بتقوى المعصوم.

(2) المصدر اخرج الخطيب عن أنس قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم): ...

(3) نور الثقلين 1: 276 عن نهج البلاغة قال (عليه السلام): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 291

و التقى الحقة هي المحلّقة على ظاهر التقي و باطنه علما و اعتقادا و عملا صالحا اسرارا و إعلانا ف:

«الدنيا كلها جهل إلا مواضع العلم و العلم كله حجة إلا ما عمل به و العمل كله رياء إلا ما كان مخلصا و الإخلاص على خطر حتى ينظر العبد بما يختم له» «1».

و ترى كيف يؤمر المؤمنون ان يتقوا اللّه حق تقاته و هو غير مستطاع لأحد او مستحيل على كل أحد حتى أوّل العابدين محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فضلا عمن دونه من المؤمنين؟.

فهل إنها منسوخة بآية الاستطاعة «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» (64: 16)؟ و «لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها» (3: 286) و «إِلَّا ما آتاها» (65: 7)! فكيف يكلفهم بغير ما يستطيعون، و ما لم يؤتهم من الطاقة حتى يتقون‏ «حَقَّ تُقاتِهِ»؟.

فرواية النسخ‏ «2» منسوخة- لأن فيها نسخا للمحال بالممكن- أو مأولة بمعنى التخصيص، أنها خصت بآية الاستطاعة بقدر المستطاع فحق تقاته من الرعيل الأعلى، غير المستطاع ممن دونهم، انه لا يكلف به من لا يستطيعه، فل «حَقَّ تُقاتِهِ» درجات، لا يكلف منها أحد إلا قدر استطاعته، فقد تحلّق‏ «حَقَّ تُقاتِهِ» على كل مدارج «تقاته» حسب المستطاع، و «مَا اسْتَطَعْتُمْ» بيان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في عيون الأخبار باسناده إلى داود بن سليمان القاري عن أبي الحسن الرضا عن أبيه عن آبائه عن أمير المؤمنين (عليهم السلام) انه قال: ...

(2) الدر المنثور 2: 59- اخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم فقاموا حتى وردت عراقيبهم و تقرحت جباههم فأنزل اللّه تخفيفا على المسلمين‏ «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» و فيه عن ابن عباس قال: لم تنسخ و لكن حق تقاته ان يجاهدوا في اللّه حق جهاده و لا تأخذهم في اللّه لومة لائم و يقوموا للّه بالقسط و لو على أنفسهم و آباءهم و أمهاتهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 292

ل «حَقَّ تُقاتِهِ» انه ليس الحق الاول للسابقين في «تقاته» فأين النسخ او التخصيص اللهم إلّا التفسير و التوضيح.

ذلك، فل «حَقَّ تُقاتِهِ» درجة مستحيلة على الكل و هي كما يحق لساحته تعالى، و اخرى مستطاعة للرعيل الأعلى غير مستطاعة لمن دونهم، و ثالثة مستطاعة لمن دونهم، و لا تعني‏ «حَقَّ تُقاتِهِ» إلا الأخيرين كلّا في درجته حسب المستطاع.

فلا يعني‏ «حَقَّ تُقاتِهِ» إلا الحق المطلوب منهم، المستطاع لهم، كلّ على قدره و قدره، فكما الايمان درجات كذلك تقوى الايمان درجات من أعلاها كما لأول العابدين الى أدناها كما لآخر العابدين و بينهما عوان من المتقين.

و علّ الخطاب هنا في أعلاه موجه الى المعصومين (عليهم السلام) كما في «و جاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم ... ملة أبيكم ابراهيم» (22: 78).

ثم المستحيل على العباد هو معرفة اللّه حق معرفته و عبادته حق عبادته، و اما تقواه حق تقاته فكما

قال الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «ان يطاع فلا يعصى و ان يذكر فلا ينسى»

و هذا يطم في خضمّه كل مراتب التقوى الحقة حسب مختلف القابليات و الفاعليات، شاملة لحق العدالة و العصمة، ثم العاصي المقصر خارج عن نطاق الآية، و المعصومون هم في قمتها العالية.

و لا يعني «يذكر فلا ينسى» أن المؤمن مأخوذ بذكره تعالى أبدا فانه غير مستطاع إلا للمعصومين حيث الغفلات المتاهة تخلّله، و الشهوات المباحة تتوسطه، و النوم و الإغماء و التقية و المرض تحول دونه.

فانما أمروا أن يتقوا اللّه حق تقاته كما يستطيعون، و ليهابوا بلوغ أدنى حدود المعصية، و يقفوا عن اولى مراتب السيئة، فلا يقتربوها كيلا يقترفوها،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 293

فالمعاصي حمى اللّه و من حام حوم الحمى أوشك ان يوقع فيها، فاجعل بينك و بين الحرام حاجزا من الحلال، فانك متى استوفيت جميع الحلال تاقت نفسك الى فعل الحرام، و كلما كثرت الزواجر كانت على المعاصي اردع، و الى فعل الطاعات أحوش و اجذب.

ذلك- فمن جانب جميع ما نهاه اللّه عنه دون مقارفة و لا مقاربة، و أتى بجميع ما امره اللّه به، و كل ذلك قدر المستطاع دون إهمال و لا تقصير، فقد اتقى اللّه حق تقاته.

و ترى بعد كيف‏ «وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» و الموت مسيّر لا مخير؟

و كما «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفى‏ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» (2: 132).

هنا النهي موجه الى الموت دون إسلام، ناظرا الى عاقبة الأمر لمن اتقى اللّه حق تقاته، فلا تكفي هذه التقوى الحقة لفترة من حياة التكليف، بل و الاستمرار فيها تكليف فوق تكليف، و مهما كان الموت مسيرا، فالموت حالة الإسلام مخيّر، أن يستمر التقي في تقواه، او تكون كل لاحقة منه خيرا من أولاه، تقدما على طول خط الحياة في تقوى اللّه، دون تنازل عن حدها المستطاعة و لا وقفة عليه.

و في صيغة أخرى إن الإنسان مكتوم عنه أجله أيا كان لما في كتمانه من مصلحة تربوية، فلا يعرف متى تكون منيّته، و على أي جنب صرعته، فحين ينهاه اللّه أن يموت إلا مسلما فقد ألزمه في كل حال على ذلك الإسلام، إذ لا يأمن على أية حال أن يموت عبطة او هرما.

ذلك و من جملة كمال إسلام المؤمن التوبة و استدراك الذنوب الفارطة، فقد الزمه سبحانه بما أمره و نهاه- مع التمسك بفرائض الأوقات و طاعاتها

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 294

و اجتناب محارمه و مقبحاته- ان يستدرك ماضيه بتوبته لكيلا يموت إلا و هو مقطوع بإسلامه السليم.

ثم هنا خطاب المؤمنين ان يتقوا اللّه حق تقاته مما يشي بان التقوى أخص من الايمان، و من ثم‏ «إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» غاية لتقوى المؤمنين مما يوضع أنه الإسلام بعد الإيمان بوسيط التقوى، فليس هو الإسلام قبل الايمان و لا مع الايمان و تقواه، بل هو الإسلام للّه خالصا مخلصا نتيجة لتقوى الإيمان، إذا فالإسلام الأول و هو الإقرار ذريعة الايمان و الايمان ذريعة التقوى و التقوى ذريعة للإسلام الثاني فهو ذروة الايمان و التقوى و نتيجة لهما.

وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى‏ شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103).

إن ذلك الايمان و التقوى و الإسلام لا تصح إلا أن تتبنّى اعتصاما بحبل اللّه جميعا، فبدونه ليست هي عاصمة لحامليها و لا معصومة عن الاخطاء الموجهة إليها الهاجمة عليها.

و الحبل حبلان مادي و معنوي، سمي به لأن المتعلق به ينجو مما يخافه كالمتشبث بالحبل إذا وقع في غمرة أو ارتكس في هوّة، و كذلك الحبل العهد وثيقا حيث يستأنس بها من المخاوف، و الحبال يستنقذ بها من المتالف و هذا هو التشابه بينهما.

فكلما كان صاحب الحبل أعلم و أقوى فحبله أعصم و أنجى، فحبل اللّه ينجي المتمسك به من كلّ عطب و هوّة و يعصمه عن كل خوفة.

لقد امر اللّه المؤمنين- ككل- ان يتقوا اللّه حق تقاته و لا يموتن ألا و هم مسلمون، فلا بد- إذا- من حبل رباني يعتصمون به في حق تقاته، فالتقوى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 295

دون حبل هي قد تكون طغوى فان اللّه يحب ان يعبد كما يحب.

و الاعتصام هو طلب العصمة و هي درجات ثلاث، عصمة بشرية دون حبل اللّه، و عصمة غير المعصومين بحبل اللّه، و عصمة المعصومين بحبل اللّه.

فلان العصمة البشرية بالفطرة و العقلية و الفكرة لا تكفي لها هديا الى صراط مستقيم، ثم العصمة المطلقة خاصة بالمعصومين، لذلك يؤمر المؤمنون ان يعتصموا بحبل اللّه جميعا حتى يحصلوا على عصمة دون الطليقة، فكما المعصومون يعصمون علميا بحبل اللّه، كذلك من دونهم، كل على قدره.

الاعتصام بحبل اللّه جميعا يعصم المعتصمين فطريا و عقليا و فكريا، علميا و عقيديا و خلقيا، سياسيا و حربيا و اقتصاديا و سلطويا، فهذه العشرة الكاملة من العصمة فردية و جماعية مضمونة للمعتصمين بحبل اللّه على أقدارهم‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

و ذلك الاعتصام يعتمد على أركان: المعتصم- المعتصم به- المعتصم عنه- المعتصم لأجله.

فالمعتصم هم المؤمنون على درجاتهم من أعلى الايمان كما المحمديون (عليهم السلام)، و إلى أدناه و بينهما متوسطون في الإيمان، حيث الكل مأمورون بتقوى اللّه حق تقاته، و من حقها التقوى الجماعية بعد الفردية.

و المعتصم به هو حبل اللّه، و هو وحي اللّه الأصيل غير الدخيل.

و المعتصم عنه هو كافة المزالق في الحياة الفردية و الجماعية.

و المعتصم لأجله الحصول على كامل مرضات اللّه في معرفته و طاعته و عبادته.

و على هذه الأركان الأربع يتبنى عرش الايمان الصالح الصامد.

و للاعتصام بحبل اللّه شروط ثلاثة هي الاعتصام جميعا- للمعتصمين‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 296

جميعا- بحبل اللّه جميعا، فان «جميعا» تتعلق بهذه الثلاث جميعا.

و «بِحَبْلِ اللَّهِ» على وحدته تعم الحبل الرسولي الى الحبل الرسالي، وحدة ثنوية و ثنوية و وحدوية، فان محمدا هو القرآن و القرآن هو محمد، طالما كان القرآن بنفسه أطول و أدوم و أكمل و أعظم من محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فهما وحدة متماسكة متجاوبة في كافة الحقول دونما اي أفول إلّا شخص الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لكن سنته باقية كما القرآن، مهما لم تتبين إلا بالقرآن كما القرآن يتبين بها تفسيرا باطنيا و تأويلا.

و كما المعصوم بالروح القدسي و العصمة الربانية يعتصم علميا بالقرآن، كذلك سائر المعتصمين بالقرآن يعتصمون به على درجاتهم في العصمة البشرية و فرقان من اللّه‏ «إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً».

فلان القرآن هو طليق النور من نور السماوات و الأرض، فالاستنارة به للمعتصمين به تعصمهم على أقدار أنوارهم البهية المرضية.

ليس القرآن كتاب العلوم الرسمية التي تفتح أبوابها لكل شارد و مارد، إنما «أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ» فلا تفتح أبوابه المعنية في عناية اللّه إلّا لأهل اللّه.

و خير المخارج عن المضايق هي مخارج الآيات و «من يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث لا يحتسب .. قد جعل الله لكل شي‏ء قدرا» (65: 2).

فإتقان اللغة و الأدب و إتقان التدبر و التفكير في استفسار الآيات بعضها ببعض، إن ذلك كله راحلة لسفر القرآن و الزاد هو التقوى التي بها توصل إلى مرادات اللّه جل و علا.

ثم و جميعا في جمعية الاعتصام نفسه تعني جميع الطاقات و الامكانيات التي تصلح لذلك الاعتصام حيث تصلحه.

فعلى كل مؤمن بالرسالة الاسلامية تجميع كل طاقاته في مهام أوقاته‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 297

و أحسنها و انضرها و انظرها، تكريسا لها كلها للاعتصام بحبل اللّه، تقديما له على سائر الحبال و كما قال: «وَ أَنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ».

ذلك و الى تدبر واسع حول آية الاعتصام بحول اللّه الملك العلام.

و لنعرف «حبل الله» جيدا جادا لكي نتمكن من الاعتصام به جميعا و لا نتفرق عنه او فيه؟ «حبل الله» لا تحمله إلّا هذه الآية اليتيمة، اللهم إلّا «بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» (3: 112) و قد تعني‏ «بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ» حبل اللّه هنا مهما اختلفا محتدا في شريعتي القرآن و التوراة.

فقد يخيل الى البسطاء انه غير مفسّر في القرآن، و القرآن هو ككلّ حبل اللّه، إذ لا وسيط- منذ بزوغ الإسلام حتى القيامة الكبرى- بين اللّه و بين المرسل إليهم إلا القرآن كأصل ثابت لا عوج له و لا حول عنه و لا أفول لشمسه، و من ثمّ الرسول و ذووه المعصومون (عليهم السلام) تفسيرا له و تأويلا، و حبل القرآن أتم و أدوم و أكمل و أعظم، و الحبل الظاهر الدائم هو المحور الأصيل لواجب الاعتصام على مدار زمن التكليف، كما انه الحبل للرسول و الائمة من آل الرسول (عليهم السلام).

فهو الصراط المستقيم و النور المبين و حجة اللّه على الخلق أجمعين و الشهيد لرب العالمين، فمواصفات القرآن في نفسه بأسمائه و في آيات منه تؤكد لنا انه حبل اللّه المتين و سببه الأمين لا يعوج فيقام و لا يزيغ فيستعتب، و كما

يروى عن ثاني الحبلين رسول القرآن (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قوله: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء الى الأرض» «1»

و

«ان هذا القرآن سبب طرفه بيد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 60- اخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 298

الله و طرفه بأيديكم فتمسكوا به فانكم لن تضلوا و لن تضلوا بعده أبدا» «1»

و

«إني تارك فيكم كتاب الله هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى و من تركه كان على الضلالة» «2».

ذلك حبل اللّه الأصيل، و من ثم الرسول البديل الدليل على اللّه الجليل، ثم الذين يحملون ذلك الروح الرسالي المعصوم، الذين يقال عنهم:

«أولنا محمد- أوسطنا محمد- آخرنا محمد و كلنا محمد (صلى الله عليه و آله و سلم)» فإنهم هم الصادرون عن محمد كما محمد صادر عن اللّه في كتاب اللّه و سنته الشارحة لكتاب اللّه.

صحيح أن‏ «بِحَبْلِ اللَّهِ» بإفراده يعني حبلا واحدا لا ثاني له، و إلا لقال حبلي اللّه أو حباله، و لكن محمدا (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) هو القرآن كما القرآن هو محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فرقدان لا يفترقان‏ «3» و قد أشير إليها قبل بعد «وَ أَنْتُمْ تُتْلى‏ عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَ فِيكُمْ رَسُولُهُ» مما يبرهن ثنوية الحبل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر اخرج ابن أبي شيبة عن أبي شريح الخزاعي قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): ...

و

في معاني الأخبار عن السجاد (عليه السلام) في حديث: و حبل اللّه هو القرآن.

(2) المصدر اخرج ابن أبي شيبة و الطبراني عن زيد بن أرقم قال خطبنا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: اني ...

(3)

نور الثقلين 1: 277 في كتاب معاني الأخبار باسناده إلى موسى بن جعفر (عليهما السلام) عن أبيه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين (عليهم السلام) قال: الامام منا لا يكون إلا معصوما و ليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها و لذلك لا يكون الا منصوصا، فقيل له يا بن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فما معنى المعصوم؟ فقال: هو معتصم بحبل اللّه و حبل اللّه هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة و الإمام يهدي الى القرآن و القرآن يهدي الى الإمام و ذلك قول اللّه‏ «إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 299

حال وحدويته، و كذلك الآيات الآمرة باتباع الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مصرحة بهذه التثنية الموحدة الموحدة.

لذلك لا يصدق أي حديث يروى عن الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) او حملة علم الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) إلّا إذا وافق كتاب اللّه- أم لأقل تقدير- لم يخالفه، شريطة اطمئنان بصدوره عنهم بوجه صالح دونما تقية.

فلذلك نجد في الحديث المتواتر عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ان حبل اللّه هما الثقلان، أحدهما أطول- اكبر- أفضل- أول- أعظم- و هو كتاب اللّه و الآخر الأصغر هم عترة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) رواه بمخمّس الافضلية للكتاب الفريقان في قمة التواتر من أحاديث الإسلام عن زهاء ثلاثين من اصحاب الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و نفر من الصحابيات عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

ففي الدر المنثور 2: 60- اخرج احمد عن زيد بن ثابت قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): إني تارك فيكم خليفتين كتاب اللّه عز و جل حبل ممدود ما بين السماء و الأرض و عترتي اهل بيتي و انهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض،

و

فيه اخرج الطبراني عن زيد بن أرقم قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) إني فرط لكم و انكم واردون علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين قيل و ما الثقلان يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: الأكبر كتاب اللّه عز و جل سبب طرفه بيد اللّه و طرفه بأيديكم و فتمسكوا به و لا تضلوا و الأصغر عترتي و انهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض و سألت لهما ذاك ربي فلا تقدموهما لتهلكوا و لا تعلموهما فإنهما اعلم منكم، و فيه مثله أخرجه ابن سعد و أحمد و الطبراني عن أبي سعيد الخدري عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم).

و في جامع أحاديث الشيعة لاستاذنا الأقدم الا علم المغفور له آية اللّه العظمى السيد البروجردي نقلا عن العقبات انه روى حديث الثقلين نفر كبير من الصحابة ثم ذكر اسماء كل واحد منهم من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 300

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المائة الأولي إلى الثالثة عشر، في كل مائة نحوا من عشرين الى ثلاثين رجلا من كبار أحبار الحديث و إليكم نماذج من اسمائهم: منهم علي بن أبي طالب (عليه السلام) أخرجه عنه خمسة من الأعاظم مثل الطبري و السيوطي، و منهم الحسن بن علي (عليهما السلام) و سلمان و أبو ذر رواه عنهم ثمانية، و منهم ابن عباس و أبو سعيد الخدري رواه عنهما تسعة و أربعون رجلا، و منهم جابر بن عبد اللّه الأنصاري رواه عنه ثلاثون رجلا، و منهم ابو الهيثم بن التيهان رواه عنه خمسة و أبو رافع مولى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و حذيفة بن اليمان و حذيفة بن السيد أخرجه عنه إحدى و عشرون رجلا و خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين روى عنه خمسة و زيد بن ثابت روى عنه ستة و عشرون رجلا، و أبو هريرة روى عنه ستة و عبد اللّه بن حنطب ثلاثة، و جبير بن مطعم ثلاثة، و براء بن عازب و انس بن مالك و طلحة بن عبيد اللّه التميمي و عبد الرحمن بن عوف و سعد بن أبي وقاص و عمرو بن العاص و سهل بن سعد الأنصاري خمسة، و عدي بن حاتم و عقبة بن عامر و أبو أيوب الأنصاري و أبو شريح الخزاعي و ابو قدامة الانصاري و ضميرة الاسلمي، روى حديثهم الاجله و الأكابر من أحبار الحديث من إخواننا السنة و عامر بن ليلى بن حمزة تسعة، و من هؤلاء الرواة صحابيات مثل الصديقة الطاهرة سلام اللّه عليها و ام سلمة رواه عنهما ستة و ام هاني اخت الامام علي (عليه السلام) رواه عنها اربعة.

أقول: و قد ذكر المرجع الديني السيد شهاب الدين المرعشي النجفي في سفره العظيم «ملحقات احقاق الحق، أسماء ممن اخرج عن هؤلاء في ج 9 ص 309- 276 و نختصرهم كالتالي:

1 حديث ابو سعيد الخدري: روى عنه جماعة منهم ابن سعد في الطبقات الكبرى (2: 194) و احمد بن حنبل في المناقب و الطبراني في المعجم الصغير (72) و المعجم الكبير (127) و ابن المغازلي في المناقب و النيسابوري في الرسالة القوامية في مناقب الصحابة (مخطوط) و موفق بن احمد في مقتل الحسين (104) و محب الدين الطبري في ذخائر العقبى (15) و الحمويني في فرائد السمطين (المخطوط) و الزرندي في نظم درر السمطين (232) و الهيثمي في مجمع الزوائد (9: 162) و السيوطي في احياء الميت المطبوع بهامش الاتحاف (111) و في الدر المنثور- كما نقلناه- و المتقي الهندي في كنز العمال (1: 342) و العسقلاني في المواهب اللدنية (7: 7) و البدخشي في مفتاح النجا (المخطوط) و محمد الصبان في اسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار (122) و القندوزي في ينابيع المودة (21) و زيني دحلان في السيرة النبوية المطبوع بهامش السيرة الحلبية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 301

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(3: 220) و النقشبندي في راموز الأحاديث (144) و الأمر تسرى في أرجح المطالب (226) و النبهاني في الأنوار المحمدية (425).

2 حديث زيد بن أرقم رواه عنه جماعة منهم الدارمي في سننه (2: 431) و مسلم في صحيحه (7: 122) و البيهقي في الاعتقاد (164) و الترمذي في صحيحه (13: 200) و النيشابوري في مستدركه (3: 148) و احمد بن حنبل في مناقبه (مخطوط) و الطبراني في المعجم الكبير (127) و البيهقي في السنن الكبرى (10: 112) و ابن المغازلي في مناقبه (مخطوط) و الاندلسي في الجمع بين الصحيحين (المخطوط) و البغوي في مصابيح السنة (205) و الصغاني في مشارق الأنوار و الجزري في جامع الأصول (1: 187) و ابن الأثير في اسد الغابة (2: 12) و محب الدين الطبري في ذخائر العقبى (15) و ابن حبان في المقتبس في احوال الأندلس (167) و الحمويني في فرائد السمطين (المخطوط) و ابن مسعود الشافعي في المنتقى في سيرة المصطفى (198) و الخازن في تفسيره (1: 4) و ابن تيميّة في منهاج السنة (4: 104) و السيد خواجه الهندي: درر في علم الكتاب (254) و الزرزى في نظم درر السمطين (231) و الذهبي في تلخيص المستدرك (3: 148) و عبد القادر في منتخب تاريخ ابن عساكر (5: 426) و الأزدي في تفسير التبيان (177) و ابن كثير في تفسيره المطبوع بهامش فتح البيان (9: 114) و الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (568) و الميبدي في شرح ديوان امير المؤمنين (188 المخطوط) و السيوطي في احياء الميت المطبوع بهامش الاتحاف (110) و في الخصائص الكبرى (2: 266) و الدر المنثور (2: 60) و الجامع الصغير (112) و الأكليل (190) و محمد بن طولون في الشذورات الذهبية (66) و الكركي في نفحات اللاهوت (55) و ابن حجر في الصواعق المحرقة (226) و الشيباني في تيسير الوصول (1: 16) و المتقي الهندي في كنز العمال (1: 152) و في منتخب كنز العمال المطبوع بهامش المسند (5: 59) و الشيخ سعدي الآبي الشافعي في أرجوزته (207) و المفسر البغوي في معالم التنزيل (5: 101) و الكشفي في المناقب المرتضوية (97) و الشيخ منصور بن علي المصري في التاج الجامع للأصول (2: 308) و ابن حمزة الحنفي في البيان و التعريف (1: 164) و البدخشي في مفتاح النجا (8) و النابلسي في ذخائر المواريث (1: 215) و الشبراوي المصري في الاتحاف بحب الأشراف (6) و شاه ولي اللّه الحنفي في ازالة الخفاء (2: 445) و الصبان في اسعاف الراغبين المطبوع بهامش نور الأبصار (121) و السهودي المصري في جواهر العقدين على ما في ينابيع المودة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 302

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(26) و البلخي في ينابيع المودة (30 و 25 و 191) و القدوسي الحنفي في سنن الهدى (565) و الدهلوي في تجهيز الجيش (المخطوط 141 و 304) و زيني دحلان الشافعي في السيرة النبوية المطبوع بهامش السيرة الحلبية (3: 220) و البهوبالي في حسن الأسوة (292) و الإدريسي في رفع اللبس و الشبهات (52) و النبهاني في الفتح الكبير (1: 252) و في الأنوار المحمدية (425) و في الشرف المؤبد (17) و في جواهر البحار في فضائل النبي المختار (1: 261) و الحضرمي في رشفة الصادي (70) و الحداد في القول الفصل (462) و الأمر تسري في أرجح الطالب (225) و القلندر في الروض الأزهر (258) و الفهري القاسي في رياض الجنة (1: 2) و التونسي في السيف اليماني (10) 3 حديث حذيفة- ذكر ثمانية من المؤلفين أخرج عنه 4 حديث زيد بن ثابت- عن عشرة منهم 5 حديث جابر عن عشرين منهم 6 حديث علي (عليه السلام) عن سبعة منهم 7 حديث فاطمة (عليها السلام) و ممن أخرجه عنها القندوزي في ينابيع المودة (40).

8 حديث ابن عباس و ممن أخرجه عنه ابن المغازلي في المناقب (15) و القندوزي في ينابيع المودة 9 حديث الحسن بن علي عليهما السلام) و ممن أخرجه عنه القندوزي في ينابيع المودة (20).

10 حديث انس، أخرجه عنه في الينابيع (191).

11 حديث ابو رافع و ممن أخرجه عنه الأمر تسري في أرجح المطالب (227) 12 حديث ابن أبي الدنيا، و ممن أخرجه عنه ابن المغازلي في مناقب امير المؤمنين (عليه السلام) 13 حديث جبير بن مطعم و ممن أخرجه عنه القندوزي في الينابيع (31 و 246).

14 حديث عبد اللّه بن حنطب و ممن أخرجه عنه ابن الأثير في اسد الغابة (3: 147) و السيوطي في احياء الميت و ابن أبي بكر في مجمع الزوائد (5: 195).

15 حديث حمزة الأسلمي و ممن أخرجه عنه القندوزي في ينابيعه (28) و الأمر تسري في أرجح المطالب (562).

16 حديث عبد بن حميد و ممن أخرجه عنه القندوزي (28).

17 حديث أبي ذر و ممن أخرجه عنه الأمر تسري في أرجح المطالب (227).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 303

و

قد يروى‏ ان الخليفة عمر سأل الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بعد ما يقول كتاب اللّه و عترتي- اما كتاب اللّه فقد عرفناه فمن عترتك يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فقال: عترتي اهل بيتي و انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض» «1».

و لا ريب ان اهل بيته هم المعنيون معه في آية التطهير و المباهلة و اولي الأمر و أشباهها، فهم الائمة الاثنى عشر المعصومون و الصديقة الطاهرة سلام اللّه عليهم أجمعين.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

18 حديث أبي هريرة و ممن أخرجه عنه علي بن أبي بكر في مجمع الزوائد (9: 162) و السيوطي في احياء الميت المطبوع بهامش الاتحاف (122) و القندوزي في ينابيع المودة (29) و الأمر تسري في أرجح المطالب (227).

19 حديث ام هاني و ممن أخرجه عنها القندوزي في الينابيع (40) و الأمر تسري في الأرجح (227).

20 حديث ام سلمة و ممن أخرجه عنه الأمر تسري في الأرجح (228).

21 حديث محمد بن فلاد ... (241).

و الى عشرات ممن أخرجوه عن اصحاب الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بمختلف الألفاظ و المذكور في الجميع الثقلين كتاب اللّه و عترتي، و في أكثرها أحدهما أكبر أو أطول أو أعظم أو أتم و هو كتاب اللّه.

و مما أخرجوه في تفسير حبل اللّه بالعترة ما ذكره الثعلبي كما في العمدة لأبن بطريق (150) بسند متصل عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال: نحن حبل اللّه الذي قال اللّه تعالى:

وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ‏.

و اخرج مثله الهيثمي في الصواعق المحرقة (149) و الحضرمي في رشفة الصادي (15) و الثعالبي و قال الإمام الشافعي:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| و لما رأيت الناس قد ذهب بهم‏ |  | مذاهبهم في أبحر الغي و الجهل‏ |
| ركبت على اسم اللّه في سفن النجا |  | و هم اهل بيت المصطفى خاتم الرسل‏ |
| و أمسكت حبل اللّه و هو ولاءهم‏ |  | كما قد أمرنا بالتمسك بالحبل‏ |

(1). رواه عنه ابن بابويه في كتاب النصوص على الائمة الاثني عشر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 304

و عدم افتراقهم عن كتاب اللّه يعني انهم ليسوا حجة مضادة مفترقة عن كتاب اللّه فإنهم صادرون عنه، فما يروى عنهم من خلاف للكتاب نصا او ظاهرا مستقرا ليس ليصدّق عليهم.

و عدم افتراق كتاب اللّه عنهم عام في تأويله، خاص في تفسيره، فإنهم معلموا الكتاب بعد اللّه و رسوله.

و الثقل الأصغر حسب ما

يروى عن و الدهم الأكبر علي امير المؤمنين (عليه السلام) «هم الدعاة و هم النجاة، و هم أركان الأرض، و هم النجوم بهم يستضاء، من شجرة طاب فرعها و زيتونة طاب أصلها، نبتت من حرم و سقيت من كرم، من خير مستقر إلى خير مستودع، من مبارك إلى مبارك، صفت من الأقذار و الأدناس، و من قبيح ما يأتيه شرار الناس، لها فروع لا تنال، حصرت عن صفاتها الألسن، و قصرت عن بلوغها الأعناق، و هم الدعاة و هم النجاة، و بالناس إليهم الحاجة، فأخلفوا رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) فيهم بأحسن الخلافة فقد أخبركم أيها الثقلان أنهما لن يفترقا هم و القرآن حتى يردا علي الحوض فألزموهم تهتدوا و ترشدوا و لا تتفرقوا عنهم و لا تتركوهم فتفرقوا أو تمرقوا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

شرف النبي لأبي اليقظان أبي الحسن الكازروني ص 288 قال: بلغنا عن امير المؤمنين (عليه السلام) في وصية للمسلمين الذين حضروا حين ثقل من الضربة و من جملة ما قال: و فيكم من تخلف من بينكم (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ما تمسكتم به لن تضلوا، هم الدعاة ...

و

من ملحقات احقاق الحق (14: 521- 522) عن الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل (1: 120) بسند متصل عن علي (عليه السلام) قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): من أحب ان يركب سفينة النجاة و يستمسك بالعروة الوثقى و يعتصم بحبل اللّه المتين فليوال عليا وليا ثم بالهداة من ولده.

و

في لفظ آخر روى عن جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال: نحن حبل اللّه قال اللّه:

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 305

و إذا كان الثقل الأصغر هكذا فالأكبر- إذا- أنبل و أعلى، و الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) هو رأس الزاوية في الثقل الأصغر و هم خليفته في تعليم الثقل الأكبر و تطبيقه.

و لأن الاعتصام لا بد و ان يكون بمعتصم حاضر على مدار الزمن فهو القرآن أولا و أخيرا و ليس الثقل الأصغر له دور إلا دور البيان المعصوم و التطبيق المعصوم، و لا سبيل للوصول إليهم بعد ما قضوا نحبهم إلا أحاديثهم المروية عنهم، و لا سبيل للتأكد من صدورها عنهم إلا موافقتها للثقل الأكبر.

ثم الاعتصام- و هو طلب العصمة- بحبل اللّه طليق في كافة الحقول الحيوية الايمانية و التقى و الإسلامية فردية و جماعية، فطرية- عقلية- فكرية- ثقافية- عقيدية- خلقية- عملية- سياسية- حربية و اقتصادية.

فلا تكفي العقلية الانسانية ان تعصم الإنسان حتى في نفسها فضلا عن سائر الحقول العشرة العشيرة للإنسان في حياته الفردية و الجماعية.

و العصمة الطليقة لا تحصل إلا بعصمة المعصوم بالحبل المعصوم، ثم دونها بعصمة معصومة بالشورى مع تفكير صالح و تطبيق صالح لمرادات اللّه تعالى.

فلا عصمة في مثلث الايمان التقوى الإسلام إلّا بالاعتصام بحبل اللّه، و ليس فحسب اعتصاما شخصيا، ان يتقبّع كلّ في زاويته الخاصة في اعتصامه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

«وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً ...» فالمستمسك بولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) المستمسك بالبر فمن تمسك به كان مؤمنا و من تركه كان خارجا عن الايمان.

و

روى عن ابن عمر قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال لي جبرئيل: قال اللّه تعالى: ولاية علي بن أبي طالب (عليه السلام) حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 306

بالقرآن، بل «جميعا» في كل حقوله فإن‏ «أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ».

صحيح ان حبل اللّه- في بعدية- معصوم، و الاعتصام بالمعصوم عاصم، و لكن الأخطاء العارضة في ذلك الاعتصام لا تجبر في الأكثر إلا بشورى الاعتصام، فهنالك العصمة الكاملة الكافلة لحياة اسلامية سامية، اللهم إلا اخطاء قليلة لا محيد عنها للمعتصمين غير المعصومين، مهما جبرت الشورى الصالحة فيه قسما عظيما من تلكم الأخطاء.

و ذلك دواء لأواء الفتن المقبلة علينا و كما

في خطبة للرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «فإذا أقبلت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه حبل الله المتين و سببه الأمين لا يعوج فيقام و لا يزيغ فيستعتب»

«و اعتصموا ..

و لا تفرقوا» في ثالوثه المنحوس: تفرقا عن حبل اللّه، تفرقا فيه، و تفرقا فيما بينكم في ذلك الاعتصام عن حبل اللّه أو فيه.

فالمتفرقون عن كتاب اللّه إلى روايات او نظرات او إجماعات و شهرات تعارضه ، او قياسات و استحسانات او استصلاحات أمّاذا من مصادر، هم متفرقون عن شرعة اللّه المتمثلة ككل في حبل اللّه.

كما المتفرقون عن الحبل الثاني زعما منهم انه حسبنا كتاب اللّه- و السنة المباركة لزامه تبيينا و تفسيرا و تأويلا- هم- كذلك- متفرقون عن شرعة اللّه.

فالاعتصام الوحدوي بالحبلين هو العاصم، فترك احد الحبلين الى الآخر تفرق عنهما جميعا فإنهما لا يفترقان و «حسبنا كتاب الله» هي كلمة حق أريد بها الباطل، حق كما قال اللّه «او لم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم» و باطل حين يراد بها تنحية السنة الرسالية عن الكتاب، حيث الكتاب الذي هو حسبنا يأمرنا باتباع الرسول، فالتارك لسنة الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الآخذ بكتاب اللّه، كما التارك له الآخذ بسنة الرسول (صلّى اللّه عليه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 307

و آله و سلّم) هما من المقتسمين‏ «الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ»، بفارق ان الآخذ بالسنة أضل سبيلا فانها لا تعرف إلا بكتاب اللّه، مهما لم يعرف تأويل الكتاب إلّا بالسنة.

فالذي يصدق بالمتن، هو- بطبيعة الحال- يصدق بالهامش الذي كتبه الماتن نفسه، و ليست السنة الاسلامية إلّا هامشا بيانيا من الماتن نفسه.

و ان اختلاف الهوامش عن المتون في الكتابات غير الإلهية، هو قضية اختلاف الماتن و المحشي في النظرات العلمية، و أما متن الوحي و هامشه فلا فرق بينهما إلّا جملة و تفصيلا.

لذلك ليست السنة لتخالف الكتاب او تنسخه، كما التبصرة القانونية لا تنسخ القانون، و انما تشرحه و توضّحه، مهما كان من غير المقنن، فضلا عن السنة الاسلامية التي هي عبارة ثانية شارحة للمقنن!.

ذلك و كما المتفرقون عن حبل اللّه اعتصاما لطائفة و تركا له لأخرى، و المتفرقون في حبل اللّه بشطحات الآراء في تفاسير شاردة ماردة، و المتفرقون فيما بينهم في مادة الاعتصام و كمه و كيفه، كل أولئك شرع سواء في تركهم الاعتصام بحبل اللّه جميعا دون طليق التفرق عنه و فيه و بين، مهما اختلفت دركاته.

فكما اللّه واحد في كافة شئون الربوبية و كل تفرق بشأنه مارد عن توحيده، كذلك كتابه الكريم واحد في كافة الشئون التربوية، فكل إلحاد فيه أو إشراك به أو تفرق فيه او عنه، كل ذلك مارد شارد.

فالذلة هي لزام المتفرقين في حقل ذلك الحبل‏ «إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» فربانية الاعتصام هي التمسك الصالح بكتاب اللّه، ثم‏ «وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» هو ذو بعدين: الثقل الأصغر «1» و هم الناس المعلمون لكتاب‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

تفسير البرهان 1: 205 محمد بن ابراهيم النعماني المعروف بابن زينب بسند متصل عن جابر بن‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 308

اللّه، و الكتلة المؤمنة ككل و هم الناس المتعلمون من الحبلين بجمعية المحاولات و الشوراءات في ذلك الاعتصام.

فالعصمة الاسلامية عن كل بأس و بؤس فردي و جماهيري مكفولة على ضوء الاعتصام بحبل اللّه جميعا دون تفرق، حيث الحبل في بعدية معصوم، و جمعية الاعتصام بحبل اللّه عاصمة، مهما لم تبلغ هذه العصمة مبلغ العصمة المطلقة للمعصومين و لكنها تبلغ إلى أشرافها حيث تقل الأخطاء في ذلك الاعتصام المشرّف.

ذلك «و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا» و «نِعْمَتَ اللَّهِ» هنا الوحيدة غير الوهيدة هي الوحدة الإيمانية بألفة القلوب، فقد تألف العقول و العلوم، و القلوب شتّى، و النص القرآني هنا يعمد إلى مكمن المشاعر- الأصيل- و هو القلب، تصويرا للقلوب كحزمة مؤلفة متآلفة.

فقد كانوا اعداء متناحرين لا يأمنون لحياة فألف اللّه بين قلوبهم بنعمة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

عبد اللّه الأنصاري قال‏ وفد على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) اهل اليمن فقال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) جاءكم اهل اليمن يبسون بسيسا فلما دخلوا على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال قوم رقيقة لهم راسخ ايمانهم منهم المنصور يخرج في سبعين ألفا ينصر خلفي و خلف وصيي حمايل سيوفهم المسك فقالوا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و من وصيك؟ فقال: هو الذي أمركم اللّه بالاعتصام به فقال عز و جل‏ وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا فقالوا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بين لنا ما هذا الحبل؟ فقال هو قول اللّه‏ «إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» فالحبل من اللّه كتابه و الحبل من الناس وصيي فقالوا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و من وصيك؟ فقال: هو الذي انزل اللّه فيه: «أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتى‏ عَلى‏ ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ» فقالوا يا رسول اللّه و ما جنب اللّه هذا؟ فقال: هو الذي يقول اللّه فيه‏ «وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلى‏ يَدَيْهِ يَقُولُ يا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا» هو وصيي و السبيل إلي من بعدي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 309

الوحدة الايمانية المترابطة ف: «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ. وَ أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (8: 63).

و عامل التأليف بين قلوبهم باللّه هو حبل اللّه: قرآن محمد و محمد القرآن، فإنهما يؤلفان باللّه بين القلوب الداعية لذكر اللّه، الداعية إلى اللّه، «فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً» في اللّه، تاركين كافة المفارقات و المنازعات‏ «1».

فكل وحدة وهيدة زهيدة إلّا ما كانت بين القلوب في اعتصام جماهيري بحبل اللّه، فلا تنفصم بأي فاصم، و لا تنقصم او تنقسم باي قاصم او قاسم.

«و اذكروا ... إذ كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ...» و شفا حفرة هو أشرافها، فان شفى الشي‏ء حرفه و طرفه المائل اليه و قد كانوا على شفا حفر النيران، في جهالات و شهوات و لهوات و كل رذالات الحياة، فليست هذه النار- إذا- نار الدنيا، بل هي الأخرى‏ «2»، فشفاها هي الحياة الدنيا الكافرة، و «حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ» هي النار البرزخية و من وراءها الأخرى، و ليس بين شفاها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر في كتاب كمال الدين و تمام النعمة بسند متصل عن علي (عليه السّلام) قال لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أمنا الهداة ام غيرنا؟ قال: بل منا الهداة الى اللّه إلى يوم القيامة، بنا استنقذهم اللّه عز و جل من ضلالة الشرك، و بنا استنقذهم اللّه من ضلالة الفتنة، و بنا يصبحون إخوانا بعد ضلالة الفتنة كما بنا أصبحوا إخوانا بعد ضلالة الشرك و بنا يختم اللّه كما بنا يفتح اللّه.

(2)

نور الثقلين 1: 279 في كتاب ثواب الأعمال عن رجل عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) قال قال امير المؤمنين (عليه السّلام): أصبح عدونا على شفا حفرة من النار قد انهارت به نار جهنم فتعسا لأهل النار مثواهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 310

و حفرتها إلا فاصل الموت، و قد شبه هنا المشفي- بسوء عمله- على دخول النار، بالمشفي- لزلة قدمه- على الوقوع في النار، استعارة لطيفة ما ألطفها:

«أ فمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم» (9: 109) و ضمير التأنيث في «منها» راجع الى ثالوث: شفا- حفرة- من النار- إذ نجّاهم اللّه منها كلها، او ان‏ «حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ» تعم النارين، فالأولى هي العقبات السوء الى الاسوء فالأسوء، حيث المجتمع المبني على شتات القلوب و الأهواء ليس- على أية حال- إلّا في نار هي شفا حفرة من نار هي أحرّ و أشجى، حتى يسقطوا في هوات النار الأخرى.

فالحياة اللّاايمانية، بل و الايمانية غير المعتصمة جميعا بحبل اللّه، إنها حياة رذيلة على أشراف سقطات في حفر النيران، اللهم إلّا اعتصاما بحبل اللّه جميعا «بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» و «كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

فيا لها نعمة ما أعظمها إن يخرجوا منها الى غيرها و يا لها مصيبة إن لم يؤمنوا بها فيرغبوا عنها «1»، و لقد أنقذنا اللّه تعالى من نار الدنيا و الآخرة بحبله المتين القرآن المبين و الرسول الأمين، و لعمر محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لم تنزل «محمد» في لفظ التنزيل‏ «2» مهما كان واردا في واقع التأويل.

فحياة التكليف غير المعتصمة بحبل اللّه جميعا هي‏ «شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن كشف المهجة لأبن طاوس عن امير المؤمنين (عليه السّلام) حديث طويل يقول فيه:

و أما الآية التي عم بها العرب فهو قوله: و اذكروا نعمة اللّه عليكم ... فيا لها ...

(2)

المصدر في روضة الكافي بسند متصل عن أبي عبد اللّه (عليه السّلام) في الآية ... فأنقذكم منها محمد هكذا و اللّه نزل بها جبرئيل (عليه السّلام) على محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 311

و «شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ» في شطري البرزخ و القيامة.

قول فصل حول حديث الثقلين:

اولية الثقل الأكبر و كونه أفضل و اكبر و أعظم من الثقل الأصغر هي في الكيان، و أطوليته في الزمان، و الأخيرة باهرة حيث لا افول للقرآن و الثقل الأصغر ميتون‏ «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ».

و اما التفاضل في الكيان فقد يعنى منه معنيان:

1 محمد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و هو رأس الزاوية في الثقل الأصغر، هو قبل هذه العصمة الإلهية عصم بعصمة بشرية، مزودة بهدي رباني من روح القدس، ثم عصم بعصمة ربانية قمة متصلة بقلبه و منفصلة بحامل الوحي، و من ثم بعصمة وحي القرآن و السنة، و وحي القرآن دون ريب هو أثقل من كل العصم التي تزود بها فانها كمقدمات و تهيئات و العصمة القرآنية هي الغاية القصوى.

إذا فالقرآن هو الثقل الأكبر و محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الأصغر، طالما الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بما حوى قلبه القرآن بكل حلقاته و حقوله، هو اكبر من احد الثقلين، إلّا ان حديث الثقلين يعني المقارنة بين الكيانين.

2 ان العصمة الإلهية هي أثقل من العصمة البشرية في كل دور من ادوارها، فضلا عن مثلثها، فهي- إذا- اكبر منها على أية حال، و مهما كان مجمع الثقلين أفضل من كلّ منهما و لكن الثقل الأكبر لا ريب انه أطول و أدوم.

فلا ملجأ زمن غيبة الثقل الأصغر إلّا الثقل الأكبر، ثم الأصغر يعرف بموافقة الأكبر، «و انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 312

فالأصغر لن يفترق عن الأكبر فان عصمته العلمية ليست إلا بالأكبر، و بلاغه الرسالي ليس- في الأصل- إلا عن الأكبر، و سناده في كل قليل و جليل ليس إلا إلى الأكبر، و هو يعيش الثقل الأكبر في النشآت الثلاث.

و الأكبر لن يفترق عن الأصغر حيث يأمر بالرجوع الى الأصغر «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» و انه لا يعرف تأويلات و مآخذ أحكامه ألا الأصغر، و لا يحكم به عاصما معصوما إلا الأصغر، و لا ينذر به و يذكر كأكمل ما يرام إلّا الأصغر.

فليس يعني عدم افتراق الأكبر عن الأصغر انه- ككل- لا يفهم إلا بتفسير الأصغر، لأنه بيان للناس، فإنما الأليق لتبيينه و تطبيقه و الحكم به، و اللائق لتأويله هو الأصغر، و حين لا يكون الثقل الأصغر ثقلا لو افترق عن الأكبر فما ذا تكون أحوال سائر الأمة المفترقة عن الثقل الأكبر.

إن افتراق الحوزات الإسلامية عن الثقل الأكبر ملموس محسوس ككل، ثم المدعوون اتصالهم بالثقل الأصغر خاوون فانه لا يعرف إلّا بالعرض على الأكبر، إذا فهم تاركوا الحبلين، حبل من اللّه: القرآن، و حبل من الناس هم اهل بيت القرآن.

و «ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا ابدا» تحكم بضلالنا إذ تركنا التمسك بهما إلى مستمسكات أخرى هي ويلات على الامة الإسلامية السامية.

و «لن يفترقا» ليست لتعني افتراقا في السلطة الروحية الزمنية حيث ينتقص بزمن الغيبة، انما هو افتراق وحي الكتاب عن وحي السنة، فالسنة لا تفترق عن الكتاب فانها الوحي الفرع الهامش المفسر و المأول للوحي الأصل، و هي مستفادة من القرآن، فلا تنسخه او تخالفه.

و الكتاب لا يفترق عن السنة لأنه الذي يأمر باتباع السنة و ان الرسول‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 313

(صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) هو المذكّر بالقرآن‏ «فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ».

لقد كان الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) صاحب الحبلين، فخلف عن الأصغر- و هو نفسه- عترته، و خلف عن الأكبر- و هو القرآن- نفسه، إذ لا بديل عنه، و إنما البديل في غير الأصيل الذي يعرضه الموت دون القرآن الذي يجري كجري الشمس.

و إن الذلة مضروبة على كل أمة رسالية «إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» فالحبل الأوّل هو الحبل الرسالي الذي يحمله وحي اللّه، و الثاني هو الرسولي الذي يحمله رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و من ثم عترته، ثم المؤمنون بالرسالة حيث كان‏ «أَمْرُهُمْ شُورى‏ بَيْنَهُمْ».

فلا حياة صالحة إيمانية إلا بالاعتصام بالحبلين الربانيين، و نحن تركناهما إلى حبال متفرقة متشتتة!.

فالاعتصام بغير المعصوم مأثوم، و الاعتصام بالمعصوم بقسمة العضين مأثوم، و الاعتصام بأحد الثقلين دون الآخر مأثوم، و الاعتصام بالثقلين دون جمعية فيه و في الجماعة المسلمة كما في جمعية حبل اللّه، مأثوم، فانما الاعتصام العاصم المعصوم هو الاعتصام بحبل اللّه جميعا دون أي تفرق عنه أو فيه أو بين المعتصمين، فإن حبل اللّه يجمع المعتصمين به و لا يفرق، إذا اعتصموا به كما يحق، تحرّيا عن مرادات اللّه، دون تحميل و لا تدجيل.

لقد روى حديث الثقلين عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في ستة مواضع: يوم عرفه على ناقته القصوى و في مسجد خيف و في خطبة يوم الغدير في حجة الوداع و يوم قبض في خطبته على المنبر و في بيته عند وفاته، و عند

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 314

رجوعه عن سفر له، و يا لها من مواضع هامة عامة تضم الغفير من المسلمين! «1».

و من ألفاظه‏

«عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) انه قال: اني أوشك ان ادعى فأجيب و اني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه و عترتي كتاب اللّه حبل ممدود من السماء إلى الأرض و عترتي أهل بيتي و إنّ‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). كما

في المناقب في كتاب سليم بن قيس قال علي (عليه السّلام) ان الذي قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يوم عرفة على ناقته القصوى و في مسجد خيف و يوم الغدير و يوم قبض في خطبته على المنبر ايها الناس اني تركت فيكم الثقلين ان تضلوا ما تمسكتم بهما الأكبر منهما كتاب اللّه و الأصغر عترتي اهل بيتي و ان اللطيف الخبير عهد الي انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض كهاتين و أشار بالسبابتين ...

و

في ملحقات الاحقاق 254 و من ألفاظ الثقلين، رواه زيد بن أرقم قال: اقبل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يوم حجة الوداع فقال: إني فرطكم على الحوض و انكم تبعي و انكم توشكون ان تردوا علي الحوض فأسألكم عن ثقلي كيف خلفتموني فيها فقام رجل من المهاجرين فقال: ما الثقلان؟ قال: الأكبر منهما كتاب اللّه سبب طرفه بيد اللّه و طرفه بأيديكم فتمسكوا به، و الأصغر عترتي فمن استقبل قبلتي و أجاب دعوتي فليستوص لهم خيرا او كما قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «فلا تقتلوهم و لا تقهروهم و لا تقصروا عنهم و اني سألت لهم اللطيف الخبير فأعطاني ان يردوا علي الحوض كهاتين و أشار بالمسبحتين، ناصرهما الي ناصر و خاذلهما الي خاذل و وليهما الي و الي عدوهما لي عدو». (ملحقات 9: 327).

و

اخرج الطبراني عن زيد بن أرقم قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) اني لكم فرط و انكم واردون علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين قيل: و ما الثقلان يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: الأكبر كتاب اللّه عز و جل طرفه بيد اللّه و طرفه بأيديكم فتمسكوا به لن تزالوا و لا تضلوا و الأصغر عترتي و انهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض و سألت لهما ذلك ربي فلا تقدموهما لتهلكوا و لا تعلموهما فإنهما اعلم منكم.

و

في حديث جابر قال‏ أخذ النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بيد علي و الفضل بن عباس في مرض وفاته فاعتمد عليها حتى جلس على المنبر فقال: ايها الناس قد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 315

اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما.

و منها ما

رواه عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: خرج علينا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في مرضه الذي توفي فيه و نحن في صلاة الغداة فقال: اني تركت فيكم كتاب اللّه عز و جل و سنتي فاستنطقوا القرآن بسنتي فانه لن تعمى ابصاركم و لن تزل أقدامكم و لن تقصر أيديكم ما أخذتم بهما ثم قال: أوصيكم بهذين خيرا.

و لقد بلغت الأهمية الكبرى الرسالية في حديث الثقلين لحد يكرره الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في تلكم المجامع الستة أخيرتها في خطبته يوم وفاته ثم في بيته، و نحن نعلم انه لم يكتب في شي‏ء من مهام الدين إلّا بعض كتاباته إلى الأمراء و الملوك دعوة إلى الإسلام، ثم نراه يطلب ان يكتب عند وفاته كما

تواتر عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «لما حضر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الوفاة و في البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): هلم اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده فقال عمر:

إن النبي قد غلب عليه الوجع و عندكم القرآن حسبنا كتاب اللّه، فاختلف أهل البيت فاختصموا منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) كتابا لا تضلوا بعده و منهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو و الاختلاف عند النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال لهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «قوموا» «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). أخرجه البخاري في باب قول المريض: قوموا عني، كتاب المرضى (4: 5) و في كتاب العلم (1: 22) و بعض الاجزاء الاخر من صحيحه و أخرجه مسلم في آخر الوصايا من صحيحه و رواه احمد من حديث ابن عباس في مسنده و كذلك سائر اصحاب السنن و سند البخاري هكذا: الى عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس، و

روى البخاري في باب جوائز الوفد من‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 316

و من حديث امير المؤمنين علي (عليه السلام) قال: لما ثقل رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في مرضه و البيت غاص بمن فيه قال: ادعو لي الحسن و الحسين فجاؤا فجعل يلثمهما حتى أغمي عليه فجعل علي (عليه السلام) يرفعهما عن وجه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ففتح عينيه و قال: دعهما يتمتعا مني و أتمتع منهما فستصيبهما بعدي أثرة ثم قال: ايها الناس قد خلفت فيكم كتاب اللّه و سنتي و عترتي اهل بيتي فالمضيع لكتاب اللّه تعالى كالمضيع لسنتي و المضيع لسنتي كالمضيع لعترتي أما إن ذلك لن يفترق حتى اللقاء على الحوض‏ «1».

و

من حديث فاطمة الزهراء (عليها السلام) قالت سمعت أبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في مرضه الذي قبض فيه يقول:- و قد امتلأت الحجرة من أصحابه- أيها الناس يوشك أن أقبض قبضا سريعا و قد قدمت إليكم القول معذرة إليكم ألا إني مخلف فيكم كتاب ربي عز و جل و عترتي أهل بيتي ثم أخذ بيد علي فقال: هذا علي مع القرآن و القرآن مع علي لا يفترقان حتى يردا علي الحوض فأسألكم ما تخلفوني فيهما» «2».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

كتاب الجهاد و السير من صحيحه (2: 7) قال حدثنا قبيضة ابن عيينة عن سلمان الأحول عن سعيد بن جبير عن ابن عباس انه قال: «يوم الخميس و ما يوم الخميس ثم بكى حتى خضب دمه الخصباء فقال: اشتد برسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) وجعه يوم الخميس فقال: ائتوني بكتاب اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده ابدا فتنازعوا و لا ينبغي عند نبي تنازع فقالوا: هجر رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قال (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) دعوني فالذي انا فيه خير مما تدعوني اليه.

(1). المصدر 352.

(2) المصدر 354.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 317

و

من حديث ابن عباس‏ ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) رجع من سفر له و هو متغير اللون فخطب خطبة بليغة و هو يبكي ثم قال: ايها الناس قد خلفت فيكم الثقلين: كتاب اللّه و عترتي و ارومتي و لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ألا و إني أنتظرهما ألا و إني أسألكم يوم القيامة في ذلك عند الحوض ألا و إنه سترد علي يوم القيامة ثلاث رايات من هذه الامة راية سوداء فأقول: من أنتم فينسون ذكري فيقولون نحن أهل التوحيد من العرب فأقول: أنا محمد نبي العرب و العجم فيقولون: نحن من أمتك فأقول: كيف خلفتموني في عترتي و كتاب ربي فيقولون: أما الكتاب فضيعنا و أما عترتك فحرصنا على أن نبيدهم فأولّي عنهم فيصدرون عطاشا قد اسودت وجوهم، ثم ترد راية أخرى أشد سوادا من الأولى فأقول لهم: من أنتم؟ فيقولون كالقول الأوّل نحن من اهل التوحيد فإذا ذكرت اسمي قالوا: نحن من أمتك فأقول: كيف خلفتموني في الثقلين كتاب اللّه و عترتي؟ فيقولون: أما الكتاب فخالفناه، و أما العترة فخذلنا و مزقناهم كل ممزق فأقول لهم: إليكم عني فيصدرون عطاشا مسودة وجوههم، ثم ترد راية أخرى تلمع نورا فأقول: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل كلمة التوحيد و التقوى نحن أمة محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و نحن بقية أهل الحق حملنا كتاب ربنا و أحللنا حلاله و حرمنا حرامه و أحببنا ذرية محمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فنصرناهم من كل ما نصرنا به أنفسنا و قاتلنا معهم و قتلنا من ناواهم فأقول لهم: ابشروا فانا نبيكم محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و لو كنتم كما وصفتم ثم اسقهم من حوض فيصدرون رواء ألا و ان جبرئيل اخبرني بان امتي تقتل ولدي الحسين بأرض كرب و بلاء الا و لعنة اللّه على ما قاتله و خاذله ابد الدهر.

و

من حديث الحسن بن علي (عليهما السلام) في خطبة له قال‏ خطب جدي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يوما فقال بعد ما حمد اللّه و اثنى عليه،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 318

معاشر الناس إني ادعى فأجيب، و اني تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه و عترتي اهل بيتي ان تمسكتم بهما لن تضلوا و انهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض فتعلّموا منهم و لا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم و لا تخلوا الأرض منهم و لو خلت لانساخت بأهلها ثم قال: اللّهم إنك لا تخلي الأرض من حجة على خلقك لئلا تبطل حجتك و لا تضل أولياءك بعد إذ هديتهم أولئك الأقلون عددا و الأعظمون قدرا عند اللّه عز و جل و لقد دعوت اللّه تبارك و تعالى أن يجعل العلم و الحكمة في عقبي و عقب عقبي و في زرعي و في زرع زرعي إلى يوم القيامة فاستجيب لي» «1».

و لان الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و الائمة من آل الرسول هم مجمع الثقلين فهم- إذا- أفضل من أحدهما و كما

يروى عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم): «اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله و علي بن أبي طالب (عليه السلام) أفضل لكم من كتاب الله لأنه مترجم لكم عن كتاب الله» «2».

ذلك و لكن الرسول و عترته دون القرآن هم دون القرآن كما القرآن دونهم هو فوقهم.

هذا الثقلان هما المثقلان المعتصمين بهما جميعا عن كل خفة و استخفاف فكما

«المؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف و لا تزيله القواصف»

كذلك- و بأحرى- الامة المعتصمة بحبل اللّه جميعا، و هو الثقلان، لا يستخفها مستخف.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر 357.

(2) تفسير البرهان 1: 28.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 319

و كلما كان الاعتصام أقوم كان ثقل الأمة أعصم، و إلى القمة العليا في زمن القائم المهدي عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.

فإنه من الثقلين، يحكّم الثقل الأكبر و هو من الأصغر، فلا تبقى- إذا- أرض إلّا نودي فيها بالتوحيد و الرسالة الإسلامية.

إن آية الاعتصام هي القمة في محاور الأمر المؤكد في هذه الآيات التي تتبنى قوة المؤمنين، فتقوى اللّه حق تقاته غير ميسورة إلّا بذلك الاعتصام، و حين تتفلت أفراد من المؤمنين أو جماعات عن ذلك الاعتصام فهنا أمر وقائي للحفاظ على ذلك الاعتصام الذي يحتضن حق تقاة اللّه، و قد تكفلته هنا آيتان فرضا لمثلث الدعوة الى الخير و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بفصل آيات خمس فيها تنديدات شديدة بالمسودّة وجوههم المتخلفين عن حبل اللّه.

وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104).

«مِنْكُمْ أُمَّةٌ» في تكوين هذه الأمة دليل الكفائية في ذلك الفرض الجماهيري وقاية للامة ككلّ عن كل تشرد و تخلف، و حماية لتحقيق الواجبات الفردية و الجماعية، حيث التخلف هو طبيعة الحال في أية امة من الأمم، فواجب الوقاية لهم يفرض عليهم تكوين أمة داعية إلى الخير آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر «و أولئك» الأركام داعين و مدعوين‏ «هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

و خطاب «و لتكن» هو موجه إلى كافة المؤمنين، دون خصوص الداعين لمكان «منكم» فعلى المؤمنين ككل تكوين هذه الأمة من أنفسهم، انتخابا لنخبة صالحة إن كانت كائنة، ام تكوينا لها- ان لم تكن- قدر الكفاية لواجب الدعوة و الأمر و النهي.

و قد تعني «من» هنا التبيين إلى جانب التبعيض، تبعيضا بالنسبة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 320

للمسلمين أنفسهم، و تبيينا بالنسبة لكافة المكلفين، ان يكون المؤمنون أنفسهم ككلّ دعاة الناس إلى الخير ثم أمرا بالمعروف و نهيا عن المنكر.

فواجب الدعوة و الأمر و النهي في الوسط الإسلامي كفائي، و في الوسط العالمي عينيّ إذ لا كفاية في دعوة البعض، و لا أقل من أن يكونوا دعاة الناس بغير ألسنتهم، و أمثولات الحق بأقوالهم و أفعالهم و أحوالهم.

و واجب التكوين ذو بعدين اثنين ان يصنع كلّ نفسه لصالح الدعوة و يصنع آخرين لها أو يدعوهم لذلك الصالح الجماهيري، تواصيا بينهم بذلك الحق الحقيق بالتواصي كرأس الزاوية في التواصي الإيماني السامي.

و «الخير» المدعو إليه هنا هو خير الايمان و التقوى و الإسلام المتبنية خير الاعتصام بحبل اللّه جميعا دون تفرق، و الجامع لها على حد

قول الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) «إتباع القرآن و سنتي» «1»

الذي يتوحد في الاعتصام بحبل اللّه جميعا دون تفرق، فكما حبل اللّه واحد في أصله، كذلك الخير، فأصل الخير هو حبل اللّه كما ان حبل اللّه هو الخير.

ثم الخير هنا مبتدء بالسلب و هو ترك ما يناحر الاعتصام بحبل اللّه، و مختتم بالإيجاب و هو نفس الاعتصام، و هكذا يكون كل خير كما و مبدء كل خير هو المركب من السلب و الإيجاب: «لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ».

إذا ف «الخير» تعم خيرا ثقافيا- عقيديا- خلقيا و عمليا، إيجابا للواجبات و سلبا للمحرمات، و هذا هو رأس الزاوية في «الحافظين لحدود الله» ثم يأتي‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 62- اخرج ابن مردويه عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام) قال: قرأ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) «وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ..» ثم قال: الخير اتباع القرآن و سنتي.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 321

دور الأمر و النهي بشروطهما المسرودة في الكتاب و السنة، فلا أمر و لا نهي قبل الدعوة الصالحة إلى الخير، «ادْعُ إِلى‏ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» (16: 25).

و أيم اللّه إن‏

هذه لآل محمد (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و من تابعهم يدعون إلى الخير و يأمرون و ينهون عن المنكر «1»

دون هؤلاء الذين يجب ان يدعوا الى الخير و يؤمروا و ينهوا.

و لقد أمضينا القول الفصل حول هذين العمادين الإسلامين على ضوء قوله تعالى‏ «أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ» و «لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ» و اضرابهما فلا نعيد «2».

و الجدير بالذكر هنا ضرورة الطاقة القوية الصامدة في هذه الأمة الداعية الآمرة الناهية، و لا سيما الأخريان، حيث إن القضية الطبيعية للأمر و النهي هي السلطة الصالحة لتنفيذهما قدر المقدور.

لا أقول إنها هي السلطة الزمنية، فقليل هؤلاء المرسلون و الذين معهم لهم تلك السلطة، و واجب الدعوة و الأمر و النهي كان عليهم لزاما أوليا.

إنما أقول، هي الطاقة النفسية و الثقافية أماهيه من طاقات تسمح لتلك الدعوة الصارمة و الأمر و النهي من وراءها.

فهذه الزوايا الثلاث المحمّلة على تلك الأمة ليست باليسيرة الهينة، حيث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين في تفسير علي بن ابراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية: فهذه ..

(2) الفرقان 1: 373- 385 و 28: 298- 301.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 322

تصطدم بطبيعة الحال بشهوات الناس و نزواتهم و مصلحياتهم، بغرورهم و كبريائهم و نخوتهم، و فيهم جبارون غاشمون، و الهابطون الكارهون لكل صعود روحي او عملي، و فيهم المسترخي المهمل الكاره لكل جدّ و اشتداد، فلتتزود تلك الأمة بكل قوة و سداد، و هزم و اجتهاد و استعداد لمواجهة المكاره المضنية و المعارك الدموية «وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

و تعقيبة الآية هذه الواصفة لهذه الامة الداعية بالإفلاح، هي من عساكر الدلائل على اشتراط المعرفة بالخير و فعل المعروف و ترك المنكر للداعي الآمر الناهي، فان فاقدها أم فاقد أحدها ليس من المفلحين، بل هو من الفالجين المفلجين!.

وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (105).

«لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا» عن حبل اللّه، و عن الاجتماع في الاعتصام به «و اختلفوا» فيما بينهم عن جمعية الاعتصام، اعتصاما بحبل و تركا لآخر، ام تبعيضا في كل حبل كتابا و سنة، و ذلك السقوط الجارف الخارف‏ «مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ» الداعية إلى الوحدة الإيمانية الجماهيرية، و أية بيّنة أبين من بينة الوحي الصارم و هو حبل اللّه المعتصم به لمن أراد الاعتصام.

«و أولئك» الحماقى البعاد «لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ» في الأولى و الأخرى، إذ يعيشون شفا حفرة من النار ... أجل و إن الاختلاف في المذاهب هو نتيجة طبيعية للتفرق عن حبل اللّه، أن يتخذ كلّ لنفسه و ذويه مذهبا يعتبره كأنه الإسلام كله و ما سواه كفر، و كما ابتليت الأمة الإسلامية كالذين من قبلهم بذلك فاختلفوا بعد ما تفرقوا أيادي سبا، و فصلت بينهم شتى المذاهب و استعبدتهم السلطات الاستعمارية، فأصبحت الأمة الإسلامية على سعتها و سيادتها شذر مذر أيادي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 323

سبا! و قد تواتر عن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) إنباءه عن افتراق الأمة الإسلامية إلى ثلاث و سبعين فرقة واحدة منها ناجية و هي الجماعة «1» تعني المعتصمين بحبل اللّه جميعا، دون أية جماعة فان كل فرقة جماعة لا محالة، فالفرقة المعتصمة بحبل اللّه في ثقليه هي الفرقة الناجية، و غيرها من الفرق غير ناجية! مهما كانت سنة او شيعة، «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً» (4: 123).

و في أخرى ان الواحدة ما انا عليه اليوم و اصحابي‏ «2» و هم الذين معه في حمل هذه الرسالة السامية بحذافيرها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 62- أخرج أحمد و أبو داود و الحاكم عن معاوية قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إن اهل الكتاب تفرقوا في دينهم على ثنتين و سبعين ملة و تفترق هذه الأمة على ثلاث و سبعين ملة كلها في النار الا واحدة و هي الجماعة و يخرج في امتي أقوام تتجارى تلك الأهواء بهم كما يتجارى الطلب بصاحبه فلا يبقى منه عرق و لا مفصل إلّا دخله، و فيه عن انس عنه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في لفظ آخر قال: الجماعة الجماعة.

(2)

المصدر اخرج الحاكم عن عبد اللّه بن عمرو قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يأتي على امتي ما أتى على بني إسرائيل افترقوا على إحدى و سبعين ملة و تفترق امتي على ثلاث و سبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة فقيل له ما الواحدة؟ قال: ما انا عليه اليوم و اصحابي.

في ملحقات احقاق الحق (7: 184) الشيخ حسين الصيمري في الإلزام قال روى الحافظ أحمد بن موسى الشيرازي- الى ان قال-: رووا عن انس بن مالك قالوا كنا جلوسا عند رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ... فقال: يا أبا الحسن إن امة موسى افترقت على إحدى و سبعين فرقة فرقة ناجية و الباقون في النار و ان امة عيسى افترقت على اثنتين و سبعين فرقة فرقة ناجية و الباقون في النار و ستفترق أمتي على ثلاث و سبعين فرقة فرقة ناجية و الباقون في النار فقلت يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فما الناجية؟ قال: المستمسك بما أنت و شيعتك و أصحابك ...

و ممن أخرجه علي بن عبد العال الكركي في نفحات اللاهوت (86) و التونسي الشهير بالكافي في السيف اليماني المسلول (169).

و

فيه (14: 596) الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل (1: 68) أخبرنا محمد بن علي بن محمد

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 324

و ترى التفرق و الاختلاف في الفروع الأحكامية لاختلاف في تفهم البينات، و لان المجتهدين ليسوا بمعصومين، هل هو داخل في تهديد العذاب الأليم؟.

كلّا، و إنما هو التفرق عن حبل اللّه و الاختلاف فيه أو عنه بعد البينة علما و عتوا و تقصيرا، و أما القصور بعد صالح الجهد و الاجتهاد- جمعا بين جمعية الاعتصام التي تضمن شورى بينهم- فلا، بل هو مشكور محبور مهما كان للمخطئ غير المقصر أجر واحد و للمصيب أجران.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَ تَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106).

هنا اسوداد خاص للوجوه الخصوص، هؤلاء الذين كفروا بعد ايمانهم اهل كتاب او مسلمين حيث تفرقوا و اختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات، و هي ضمن سائر الوجوه الكافرة، و من العجاب أن كل مذهب يذهب الى ان غيره من المسودة وجوهم باختلاق روايات و تكلف تأويلات‏ «1» تفرقا في ذلك‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

المقري ان أبي قال: ... عن علي بن أبي طالب (عليه السلام) قال‏ قال لي سلمان الفارسي ما طلعت على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يا أبا الحسن و انا معه إلا ضرب بين كتفي و قال: يا سلمان هذا و حربه هم المفلحون.

و

في لفظ آخر عن سلمان الخبر فقال‏ يا أبا الحسن قلما أقبلت أنت و انا عند رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إلا قال: يا سلمان هذا و حزبه هم المفلحون يوم القيامة.

و رواه عن الحسن حسين بن الحكم الجري و أبو القاسم سهل بن محمد بن عبد اللّه مثله.

(1).

الدر المنثور 2: 62- اخرج الخطيب في رواة مالك و الديلمي عن ابن عمر عن النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) في الآية قال: تبيض وجوه اهل السنة و تسود وجوه اهل البدع،

و

فيه اخرج ابو نصر السنجري في الامانة عن أبي سعيد الخدري‏ أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قرأ هذه الآية قال: تبيض وجوه اهل الجماعات و السنة و تسود وجود اهل البدع و الأهواء.

أقول: ان كان هذا قول الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فهو لا يقول الا عن اللّه، فالجماعة

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 325

و اختلافا بعد ما جاءتهم البينات، و إن المسودة وجوههم هم المتخلفون عن الاعتصام بحبل اللّه جميعا، و من المجمع عليه ضروريا بين كافة المسلمين أن عليا (عليه السلام) من المبيضة وجوههم، فالذين معه هم من هؤلاء الوجوه النيرة، فسواهم سواهم، و على الجملة فهذه الوجوه المسودة هي من ضمن سائر الوجوه الكالحة: «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ» (39: 60) «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ تَرْهَقُها قَتَرَةٌ» (80: 40) «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ» (75: 24).

ثم هنا «فَذُوقُوا الْعَذابَ» يعم خالده و سواه، فان الضالين من المسلمين ليسوا على سواء، فمنهم من يذوق العذاب ثم ينجو، و في ذوق العذاب دون دخوله تلميح مليح أنهم لا يستحقون دخول النار و لا خلوده، إلا من يستحقه بارتداد و سواه من شاكلة الكفر بعد الايمان.

وَ أَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَتِ اللَّهِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (107).

فالخلود في رحمة اللّه هو الأبدية اللانهائية فإنها عطاء غير مجذوذ قضية الفضل في واسعة الرحمة، و ذوق عذاب اللّه مقدر بقدر الاستحقاق فإنه جزاء وفاق قضية العدل فإنه مضيق، و اللّانهائية في العذاب ظلم فانها جزاء غير وفاق.

هكذا ينبض المشهد بحوار مع المعتصمين بحبل اللّه و الكفار في دار

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و الجماعات هم المعتصمون بحبل اللّه جميعا، و اهل السنة هم المعتصمون بسنة الرسول على هامش كتاب اللّه، و نرى قسما ممن يسمون باهل السنة تاركين للكتاب و السنة و كما نرى قسما ممن يسمون بالشيعة أمثالهم، فالمعتصمون جميعا بالكتاب و السنة جميعا هم من الذين ابيضت وجوههم.

أ ترى القائل هذا كتاب اللّه حسبنا رفضا لوصية رسول اللّه و هي أسنى السنة و أسنّها، هو من الذين ابيضت وجوههم، و المعتصمين بتلك الوصية و سائر السنة التي حملها العترة الطاهرة هم من الذين اسودت وجوههم؟!

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 326

القرار، معروضة عليهم في دار الفرار، نبهة لهم عن غفوتهم، و أدركا بعد سهوتهم و:

تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ (108).

«تلك» البعيدة المدى، القريبة الهدى‏ «آياتُ اللَّهِ» رسولية و رسالية «نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ»- آيات بالحق- نتلوها بالحق- عليك حالكونك بالحق، بسبب الحق و مصدره، مصاحبة للحق، لغاية الحق، بيانا للحق، «وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ» بل هم أنفسهم يظلمون، و كما

في حديث قدسي‏ «خلقتهم ليربحوا علي لا لأربح عليهم» «1».

ف «تلك» المساير و المصاير، تلك الحقائق البينة الصادرة من رب العزة غير السادرة، «تلك» هي‏ «آياتُ اللَّهِ» دون من سواه، دالة بأنفسها انها ربانية المصدر و الصدور، «نَتْلُوها عَلَيْكَ» يا حامل الرسالة الأخيرة «بالحق» الثابت الحقيق بالبقاء دون نسخ و لا تجديف او تحريف‏ «وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ» و هو القوي العزيز، فإنما يحتاج إلى الظلم الضعيف!.

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109).

و ترى ماذا يعني رجوع الأمور إلى اللّه، و هي في علمه و سلطانه، غير خارجة عنهما ما وجدت؟ إنه تعالى ملّكنا في دار التكليف و الامتحان أمورا نحن فيها مستخلفون ليبلونا أينا أحسن عملا، ثم عند تقضّي هذه الدار و انتقال هذه الحال ترجع أمورنا المخيرة لنا الى اللّه مسيّرة علينا، و كما كنا أجنة في بطون أمهاتنا دون حول و لا قوة إلّا باللّه.

إن الأمور المسيّرة هي راجعة الى اللّه على أية حال حيث لا فاعل لها إلا اللّه، فانما الأمور المخيرة هي الراجعة الى اللّه في يوم اللّه، حيث اللّه يحاسبها

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). تفسير الفخر الرازي 8: 172 قال عليه الصلاة و السلام حاكيا عن رب العزة سبحانه: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 327

و يجازي عليها، و قد كان قبل يعلم مصادرها و مسايرها و مصائرها، و الى ما ترجح أوائلها و أواخرها، فقد رجعت الآن إلى ما كان يعلم اللّه فاتقوه ان توافوه بمعاصيكم و مآسيكم.

كما و ان ناسا في هذه الأدنى ربما يخيل إليهم زورا و غرورا أنهم يملكون لأنفسهم أم و لسواهم نفعا أو ضرا دون تخويل من اللّه أو تمويل، إضافة للمخصوص باللّه إلى أنفسهم، خلعا لبعض صفاته عنه الى خلقه، فإذا انحسر قناع الشك، و انكشف غطاء الرأس، و اضطر الناس الى معارف و انقطع التكليف و تقوضت الدنيا بحذافيرها، علم الجميع ألّا مؤثر في الكون إلا اللّه‏ «وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ» على أية حال في الأولى و الأخرى مهما اختلفتا تخييرا و تسييرا.

فهنا الرجوع ليس إلّا بالنسبة لمعرفة الغافلين، و ليس حقيقة الرجوع لأنها كائنة على أية حال.

ذلك! و أصل الرجوع هو الانعطاف و الانقلاب بشي‏ء، لا أنه كان عندك ففارقك تماما او بعضا، و إنما الانعطاف بعد الانحراف، و الانقلاب بعد الانغلاب، فالسابقون هم راجعون بأمورهم إلى اللّه إذ ما يشاءون إلا أن يشاء اللّه و كما

يروى عن علي (عليه السلام): لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ (110).

أ ترى من هم المعنيون هنا ب «كنتم»؟ أهم أمة الإسلام كلهم و منهم- و هم أكثرهم- فسقة يدعون إلى الخير و يؤمرون و ينهون و قد لا يأتمرون او ينتهون! ثم و لا تختص الفريضتان بهذه الأمة، بل تحلقان على كل الأمم الرسالية حفاظا عليها: «وَ مِنْ قَوْمِ مُوسى‏ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ» ام هم‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 328

الأمة الآمرة الناهية، و هم عدول الأمة الإسلامية و ربانيّوها، المتوفرة فيهم شروطات الأمر و النهي، حيث الخطاب يخص السابق ذكرهم في‏ «وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ»؟ فكذلك الأمر في ثاني الأمرين و هو أممية ذلك الفرض الرسالي دون اختصاص بالدعاة المسلمين!.

فهم الأمة الوسط بين الرسول و الأمة، التي وجبت لها دعوة ابراهيم (عليه السلام) «1»: «رَبَّنا وَ اجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ» (2: 128).

ذلك! مهما شملت هذه الأمة في ذيلها ربّانيّ الامة الاسلامية، فهما- بين كل الأمم الداعية في التاريخ الرسالي- خير امة أخرجت للناس و هم كل المرسل إليهم، أم هم المسلمون الأوّلون إذ كانوا خير أمة آمرة ناهية مؤمنة؟ و متى كانوا هم كلهم كذلك ثم تحوّلوا عن ذلك! أفي العهد المكي؟ و لم يكن هناك أي مجال لأمر او نهي أللّهم إلّا امن الحفاظ على أنفسهم و عقائدهم! ام في العهد المدني؟

و الآية نازلة فيه! أم في بدايته؟ و النهاية كانت أحسن من البداية و قد تمركزت دولة الإسلام!.

ثم و هم بداية و نهاية في ذلك العهد لم يكن الآمرون منهم و الناهون إلّا الأقلين، و كما الحالة نفس الحالة في كل الأدوار الإسلامية!.

هنا «أمة» هم الأمة الآمرة الناهية، فالآمرون الناهون من المسلمين هم خير الدعاة في تاريخ الدعوات‏ «2» على مدار الزمن الرسالي، لا سيما بمن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 382 في تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) في قول اللّه: «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» قال: يعني الأمة التي وجبت لها دعوة ابراهيم (عليه السلام) فهم الأمة التي بعث اللّه فيها و منها و إليها و هم الأمة الوسطى،

و في تفسير البرهان (1: 207) القمي في‏

(2)

الدر المنثور اخرج جماعة عن معاوية بن حيدة انه سمع النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في هذه الآية قال: انكم تتمون سبعين امة أنتم خيرها و أكرمها على اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 329

فيهم من السدة العليا لرسولية و الرسالية محمد و عترته المعصومون (عليهم السلام) «1» صحيح أن الأمة الإسلامية هي خير الأمم رسوليا و رساليا لإسلامها السليم، و لكنهم ليسوا- ككلّ- خير الأمم، و انما هو مبدئيا بارز في دعاتهم إلى اللّه، و خيرهم- كما هم خير الدعاة- هم الدعاة المعصومون (عليهم السلام).

فالخطاب هنا يشمل مثلث الدعاة إلى اللّه في هذه الأمة، و المعصومون منهم هم رأس الزاوية، ثم الربانيون، و من ثم سائر الآمرين- من الامة- و الناهين.

إذا فهو خطاب يحلّق على كل الأدوار الرسالية الإسلامية منذ الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) إلى يوم الدين، فهم أولاء الثلاثة هم‏ «خَيْرَ أُمَّةٍ» آمرة ناهية على مدار الزمن الرسالي بكل خيوطه و خطوطه.

«أخرجت» اصطفاء بين الكل «للنّاس» كل الناس، فهم كل من سواهم من سائر المكلفين مسلمين و كتابيين و سواهم.

و قد تلمح «كنتم» الماضية، دون «أنتم» «2» الطليقة عن اي زمان خاص، أن الميزة البارزة في دعاة هذه الأمة ماضية في بشارات من كتابات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (عليهما السلام) في الآية: فهذه الآية لمحمد (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و آله و من تابعهم يدعون ...

و

في الدر المنثور اخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفر (عليهما السلام): كنتم خير امة ... قال:

اهل بيت النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

(2)

نور الثقلين 1: 382 في كتاب المناقب لأبن شهر آشوب‏ و قرأ الباقر «أنتم خير امة» بالألف نزل بها و هم الأوصياء من ولده.

أقول: «أنتم» مرفوضة لمخالفتها نص الكتاب «كنتم».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 330

الوحي، و كما نراها فيها «1» كما هي ماضية في علم اللّه، فلا تخالفوه، و حقّقوه بأعمالكم ليكون آكد لحجتكم على أعدائكم تحقيقا حقيقا لتلكم البشارات، و إلا فقد يجد الطاعن منهم فيكم مطعنا و الغامز مغمزا.

إذا فلا تعني «كنتم» هنا إلا العليّة من هذه الأمة دون الدنية او الوسيطة البسيطة، أنهم كانوا قبلئذ «خير أمة» ثم غيروا منذ الخطاب!.

إذا فهي ماضية في الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و عترته الطاهرة و الذين معهم طول الزمن دعاة إلى اللّه حتى القيامة الكبرى.

و مما يبرهن بقاء هذه الكينونة المشرفة الماضية واقع الداعية الإسلامية من رباني الأمة مهما قلوا، كما و «تأمرون و تنهون» في مضارعتهما دليل استمرارية هذه الخيرية بالخيرين، «كُنْتُمْ‏ ... تَأْمُرُونَ ..» ماض بعيد مستمر مع الزمن الرسالي الاسلامي دونما انقطاع مهما لم تكن فيهم الكفائة بتقصير من قصّر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). ففي سفر التثنية 17: 20 يقول ما ترجمته الحرفية كالتالية: و لإسماعيل سمعته (إبراهيم) ها انا أباركه كثيرا و انميه و اثمره كثيرا و ارفع مقامه كثيرا بمحمد و اثني عشر اماما يلدهم (إسماعيل) و اجعله امة كبيرة.

و يعبر داود (عليه السلام) عن دعاة هذه الأمة بالأصفياء، كما في مزمور (149: 1 و 6- 9) من الزبور هللويا. رنّموا للرب ترنيما جديدا، أقيموا تسبيحه في مجمع الأصفياء، يبتهج الأصفياء في المجد يرتمون على أسرتهم. تعظيم اللّه في أفواههم و بأيديهم سيف ذو حدين. لإجراء الانتقام على الأمم و التأديب على الشعوب. لا يثاق الملوك بالقيود و شرفائهم بكبول من حديد ليمضوا عليهم القضاء المكتوب. هذا فخر يكون لجميع أصفياءه هللويا.

و فيه 45: 18 يكون بنوك عوضا من آباءك تقيمهم رؤساء على جميع اهل الأرض، سأذكر اسمك في كل جيل فجيل. لذلك يعترف لك الشعوب.

و في «نبوئت هيلد»: وحي الطفل: ستأتي امة تزعزع العالم و تحدث خرابات و إطفاءات بيد ابن الأمة (راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية).

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 331

و صحيح ان الدعاة المعصومين (عليهم السلام) هم خير أئمة «1» و لكن لقط الآية «خَيْرَ أُمَّةٍ» تعني خير الأمم الداعية الآمرة الناهية، فهم في التنزيل‏ «خَيْرَ أُمَّةٍ» و في التأويل «خير أئمة» كقادة لهؤلاء الأكارم.

و لقد تكفي آية الفتح بيانا لهم و تعريفا بهم: «... وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَ رِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ مَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى‏ عَلى‏ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً» «2» ف اختلاق «أنتم خير امة» دلالة على ثبوت هذه المواصفة لهم دون تقض قضية المضي في «كنتم» ليس إلّا لسوء الفهم و قلة الحزم.

و ما أجهله في تفهم معاني القرآن من يبتدر باختلاق أمثال هذه المختلقات‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). من مثلهم في التوراة ما أخرجناه من البشارات، و من مثلهم في الإنجيل: «في أبناء الملكوت حبات الحنطة التي تعطي مأة ضعف و فيهم أولاد إبليس» (متى 13: 24- 30 و 3: 47- 5 و 22: 10) «أبناء الملكوت هم ملح الأرض و بقدر ما يحتاج الطعام الى الملح فكذلك كل العالم و جميع أقوام كرة الأرض يفتقرون الى أبناء ملكوت الله» (متى 5: 14- 16) راجع ص 126- 127 رسول الإسلام).

(2)

المصدر في تفسير القمي بسند متصل عن ابن سنان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال‏ قرأت على أبي عبد اللّه (عليه السلام) «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» فقال ابو عبد اللّه (عليه السلام) خير امة تقتلون امير المؤمنين و الحسن و الحسين ابني علي (عليهم السلام)؟ فقال القارئ جعلت فداك كيف نزلت؟

فقال: كنتم خير أئمة أخرجت للناس، الا ترى مدح اللّه لهم‏ «تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ»؟.

و

فيه عن تفسير العياشي ابو بصير عنه (عليه السلام) قال: انما أنزلت هذه الآية على محمد (صلى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 332

الزور، تزييفا لموقف القرآن‏ «وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً»!.

«أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» هو الإخراج التصفوي من كل الناس المرسل إليهم على مدار الزمن الرسالي، أخرجهم اللّه إلى الوجود في آخر الزمن بين من من الدعاة على ضوء هذه الرسالة السامية الأخيرة، فعليهم- إذا- دعوة الناس جميعا إلى الخير، سواء ناس الإسلام و من سواهم من الناس، حملا لحمل الرسالة الإسلامية بكل أعباءها الثقيلة إلى مشارق الأرض و مغاربها كأفضل ما يرام، حيث الدعوة في مادتها و مدتها، في عدّتها و عدّتها شاملة كاملة.

و خير أدوارها المحلقة على كافة المكلفين هو دور القائم المهدي من آل محمد صلوات اللّه عليهم أجمعين الذي به يملأ اللّه الأرض قسطا و عدلا بعد ما ملئت ظلما و جورا، و على الأمة الإسلامية على مدار الزمن و قبل آخر الزمن تحقيق هذه الفضيلة الكبرى قدر المستطاع و الإمكانية، تخليصا لأنفسهم عن حكم الطواغيت و تعبيدا لطريق المهدي عجل اللّه تعالى فرجه الشريف.

و المواصفات الثلاث لهم: «تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ- وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ- وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» في كونهم خير أمة، تقتضي أنهم في القمة المرموقة من هذه الثلاث، فان أصولها مشتركة بين الأمم كلها، و كما ان «كنتم تأمرون» تضرب الى اعماق الماضي الرسالي بشارة، كذلك استمرارية استقبالية واقعا مهما تخلف عن واجبهم متخلفون، فإنهم لا يعنون من «كنتم» و لا «تأمرون».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

اللّه عليه و آله و سلم) فيه و في الأوصياء خاصة فقال: كنتم خير أئمة أخرجت للناس ... هكذا و اللّه نزل بها جبرئيل و ما عنى بها إلا محمدا و أوصيائه صلوات اللّه عليهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 333

و كما ان الدعاة المعصومين من هذه الأمة هم خير أمة أخرجت للناس، فليكن كذلك من يخلفهم من الربانيين المسلمين، ثم المسلمون ككل.

و «أخرجت» مجهولة لتشمل الإخراج الرباني أمرا منه في «و لتكن» و انتصابا للقمة العليا و هم المعصومون في الرسل و الرسالات، و انتخابا من الأمة هذه الأمة الصالحة للدعوة و الأمر و النهي.

فما لا بد منه في كافة الأمم الرسالية إخراج امة منهم لهذه المسئولية الكبرى التي هي استمرارية للرسالات حيث تعنيهم- فيما تعني- «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَ كَفى‏ بِاللَّهِ حَسِيباً».

فكما الرسل و الائمة المعصومون هم الأمة العليا في حمل مسئوليات الرسالات كأصول فيها، و اللّه هو المكّون لهم و المنتصب إياهم، كذلك سائر الدعاة الى اللّه، الآمرين الناهين، يجب تكوينهم في كل أمة، و ذلك على عواتق الأمم كلهم، أن يكونوا هؤلاء الدعاة الذين هم خلفاء الرسل و ربانيو الأمم.

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ» تعني دعاة الإسلام الآمرين الناهين، انهم‏ «خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» توحيدا للأمة الداعية الآمرة الناهية على مدار الرسالات كما الرسل واحدة و أممهم امة واحدة في أصل الدعوة مصدرا و مسيرا و مصيرا مهما اختلفت شكليات من فروع لهم شرعية.

فكما «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى‏ بَعْضٍ» على وحدتهم، كذلك «أمة» الدعوة بعد الرسل، و كما أن خاتم الرسل هو خير الرسل، كذلك الدعاة- معه و بعده- الى اللّه هو «خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» في‏ «تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» حيث الدعوة درجات بمادتها و شكليتها و حملتها.

فقد أراد اللّه تعالى قمة القيادة لهذه الأمة البارعة، لتقود الناس ككل الى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 334

كل مصالح الدين و الدنيا على ضوء الاعتصام بحبل اللّه جميعا و تقوى اللّه حق تقاته.

فلا مجاملة هنا و لا محاباة او مصادفة، إنما هو امر قاصد هادف ان تكون الإمامة العليا لهذه الأمة، فكما أن رسولها هو رسول الرسل و وليهم، كذلك أئمتها و سائر الأمة.

ليس توزيع الاختصاصات و الكرامات هنا كما كان و لا يزال يزعمه اهل الكتاب‏ «نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ» فانما هو العمل الإيجابي الجاد لحفظ الحياة الايمانية الجماهيرية على رعاية اللّه، بكل ما يتطلبه هذه التكاليف من متاعب، قضية الأمر و النهي الصارم اللذين يتبناهما الإيمان الصارم مهما كلف الأمر الإمر في هذه السبيل الشائكة الملتوية المليئة بالاشواك و العقبات، فإن زادهم في هذه السبيل هو الإيمان باللّه، اعتصاما بحبل اللّه جميعا دون تفرق، بتقوى اللّه حق تقاته، لكي يمضوا في طريقهم الشاقة الطويلة قدما، احتمالا لكل تكاليفها و هم يواجهون الطغاة البغات بكل عرامتها و شقوتها و شدتها.

ذلك! «وَ لَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتابِ» ككل «لكان خيرا لهم، إذ يصبحون»- إذا- من خير امة أخرجت للناس، و لكن‏ «مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ» فالإيمان خير لهم في أولاهم و أخراهم، فهنا يستعصمون به من الفرقة و الهلهلة المحلقة على كل حياتهم و حيوياتهم، و يكسبون السودد- الذي يخافون على زواله- و زيادة، و هناك في الأخرى رحمة اللّه و رضوانه.

و هنا «المؤمنون و الفاسقون» معرّفين تاشيرا الى المعلوم من أحوالهم لدى المتفرسين من المؤمنين، و ليس يختص «المؤمنون» هنا بمن آمن منهم بالفعل إذ لا يشملهم‏ «أَهْلُ الْكِتابِ» بل هم من لا يفسق عن الايمان مقصرا، و أما القصور

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 335

عن الايمان بالرسالة الأخيرة مع الحفاظ على أصل الإيمان، فهو يدخل القاصرين في المؤمنين.

و ترى بإمكان الفاسقين منهم ان يضروا خير أمة أخرجت للناس، المتوفرة فيها المواصفات السابغة السابقة؟ كلا!:

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ‏ 111.

الأذى هي دون الضرر او الضرر الأدون و إلّا لتناقض المستثنى منه إلا بانقطاعه منه، و علّ القصد منها ما يقولونه بألسنتهم تعريضا بكم و تعييرا لكم، دون واقع الاصطدام بإيقاع الغليظ المكروه الشديد.

ام و أذى الجراح و القراح و القتل بدنيا إن يقاتلوكم، دون ضرر الغلبة بحجة أم سلطة عسكرية أماهيه، فحسن استثناء «أذى» من‏ «لَنْ يَضُرُّوكُمْ» حيث إن تلك الأذى هي بالنسبة لتلك الإضرار كأنها لا تضر إذ لا تؤثر عميقا و لا تجحف، فحاصل المعنى «لن يضروكم الا ضررا قليلا».

و لم تذكر الأذى في سائر القرآن إلّا في قليل الضرر اللّهم إلا إذا أفردت بذكر، فعامته ك «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ».

ذلك و متى بلغ الأمر الى المدافعة و المقاتلة و انتهى الوعيد إلى المواقعة كان المؤمنون أقوى ظهورا و أشدا استظهارا، و الكفار أنقض ظهورا و أضعف عمادا و أكثر استدبارا، و ذلك من ملاحم الغيب و دلائل صحة هذه النبوة السامية و كما رأينا في ماضي تاريخنا المجيد أن اليهود لم يقاتلوا المسلمين إلا منحوهم أكتافهم و أجزروهم لحومهم كبني قريظة و بني قينقاع، و يهود خيبر و بني النضير و كم لهم من نظير!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 336

ف «لن» لها دور الإحالة لمدخولها و هو هنا «يضروكم» و هم فسقة اهل الكتاب و افسقهم اليهود و «لن يضروكم» هؤلاء بحذافيرهم أي ضرّ بأنفسكم و عقائدكم و كل كيانكم الإسلامي السامي «إلا أذى» و هو دون ضرّ «وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ» عليكم.

أ ترى بعد أن تلك الإحالة تعم كافة المسلمين و هو خلاف الواقع الملموس طول القرون الإسلامية حتى الآن؟.

كلّا، فإنها خاصة بمن خوطبوا من ذي قبل بتحقيق شروط السيادة:

اعتصاما باللّه- حيث تتلى عليهم آيات اللّه و فيهم رسوله- و بتقوى اللّه حق تقاته، و أن يعيشوا على طول الخط مسلمين للّه، و أن يعتصموا بحبل اللّه جميعا و لا يتفرقوا، و تكن منهم أمة داعية آمرة ناهية، و أخيرا يصبحوا من خير أمة أخرجت للناس، إذا ف «لن يضروكم» أنتم المخاطبون بهذه الأوامر، المحققون لها كما أمرتم‏ «لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَ إِنْ يُقاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ»!.

فلأن الأذى هي دون الضرر فالاستثناء- إذا- منقطع، أو هو الضرر القليل الضئيل فمتصل، و على أية حال فالنص يبشر باستحالة الضرر من فسقة اهل الكتاب على هؤلاء المؤمنين القائمين بشرائط الإيمان، المسرودة من ذي قبل.

فالانهزامات العقيدية و الثقافية و العسكرية أماهيه لمن يسمون مسلمين ليست إلا من خلفيات الانهزامات الإيمانية «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

إنه ليست صيغة الإسلام و الإيمان هي العاصمة لحامليها عن الشر و الضر، الكافلة للخير، و لا أن صيغة التهود و التنصر هي القاضية على حامليها، إنما الكافل هو الإيمان الصامد أيا كان ف: «لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَ لا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 337

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ ما ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ‏ 112.

هذه تضرب عليهم الذلة إلا بحبل من اللّه و حبل من الناس، ثم تضرب عليهم المسكنة دون استثناء، و أخرى تضربهما عليهم دون ذكر للحبلين:

«وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَ الْمَسْكَنَةُ وَ باؤُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ» (2: 61).

و هذه مقيدة بتلك قضية تقييدها و طبيعة الحال في زوال تلك الحال.

و من الذلة الدائبة على اليهود سوم العذاب عليهم من المجاهدين مسلمين و سواهم في دويلاتهم النحسة الويلات كما قال اللّه‏ «وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَ قَطَّعْناهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذلِكَ وَ بَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَ السَّيِّئاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» (7: 168).

و ترى الذلة المضروبة «عليهم»: فسقة اهل الكتاب، هي التشريعية لمكان‏ «أَيْنَ ما ثُقِفُوا» أي وجدوا في تحري المؤمنين الملاحقين إياهم، حيث الثقف هو الحذق في إدراك الشي‏ء و منه الثقافة فانها حذق في ادراك العلوم.

فبحذق المؤمنين تكميلا لشروط الإيمان، و حذقهم في ملاحقة المؤذين من فسقة اهل الكتاب، «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ» «فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ» (8: 57) «مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا» (33: 61) «وَ اقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَ أَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ» (3: 191) فحذار حذار ألّا يثقفوكم بفاشل إيمانكم ف‏ «إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 338

لَكُمْ أَعْداءً وَ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ» (60: 2).

أم و هي الذلة التكوينية حيث الفسق ذل في نفسه و ذل في المجتمع الصالح، و ذل عند الفاسق نفسه إذ لا يفلح الفاسقون مهما أبرقوا و أرعدوا ردحا من الزمن، و «ذلك» الضرب في ذلة و سكنة «بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَ يَقْتُلُونَ الْأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذلِكَ بِما عَصَوْا وَ كانُوا يَعْتَدُونَ».

«ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ..» و لكن لا على أية حال و مهما تحولت الأحوال، بل هي دون الحبلين ف‏ «إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» يصد عنهم الذلة تشريعا و تكوينا، فما هما الحبلان؟.

«بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ» معروف انه «حبل الله» اعتصاما باللّه و بكتاب اللّه و تنكير «حبل» تلميح بان كل قدر من حبل اللّه له عصمته عن الذلة، فإذا اكتمل يصبح عاصما طليقا عن كل ضرّ.

فبزوغ الإيمان من فسقه اهل الكتاب هو «حبل من الله» و لمّا يكمل، ثم تكامل إيمانهم بشروطه تكامل لاعتصامهم بحبل اللّه، فليس الاعتصام إلا بقدر فتل الحبل، و لا الذلة إلا على قدر فلّ الحبل، إذا ف «حبل من الله» طليقة بالنسبة لكل درجات الحبل: رسوليا و رساليا، فحين يؤمن الكتابي الفاسق بكتابه كما يحق فلا ذلة له، مهما لم يؤمن برسالة الإسلام قصورا كما في آية اللاسواء التالية، و حين يؤمن بهذه الرسالة و لمّا يكمل إيمانه تكامل عزه، حتى يصل إلى القمة المعنية بالآيات السالفة اعتصاما كاملا بحبل اللّه.

و هكذا الأمر «حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» حيث تقصد بعد اللّه بكتابه، رسول اللّه، ثم الدعاة الرساليين ثم سائر المؤمنين، او و من ثمّ سائر الناس أجمعين حيث الجمعية المعاضدة لها أثرها عضدا مهما كانت باطلة فضلا عن الجمعية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 339

الحقة الحقيقية و بين «حبل من الله» و «حبل من الناس» عموم من وجه، ف «حبل من الله» فقط هو الاعتصام باللّه و بكتاب اللّه ف «حبل من الناس» فقط هو الاعتصام بالناس غير الرساليين، و مجمع بينهما هو الناس الرساليون معصومين و سواهم من المؤمنين حيث يجتمع هنا الحبلان مع بعضهما البعض.

و لقد بين الحبلان في آية الاعتصام‏ «وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً» «بِحَبْلِ اللَّهِ» هو الأصل ل «بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ» و «جميعا» هو الأصل ل «حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» و لا سيما الثقل الأصغر رسولا و عترته‏ «1».

فالحبلان العاصمان يعصمان المعتصمين بهما عن كل ذل و مسكنة في كافة الحقول الحيوية ضمانا صارما من اللّه و هو حسبنا و نعم الوكيل: «وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ».

«وَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ» و كما نلمسها في اليهود مهما كانوا أثرياء فإنهم مساكين فقراء في ذوات نفوسهم.

و ترى ان هذه المسكنة تزول عنهم كما الذلة بحبل من اللّه و حبل من الناس؟ طليق المسكنة بعد الاستثناء يقول: لا، ثم‏ «لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ ساءَ ما يَعْمَلُونَ»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 2: 383 في تفسير العياشي عن يونس بن عبد الرحمن عن عدة من أصحابنا رفعوه الى أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال: الحبل من الله كتاب الله و الحبل من الناس هو علي بن أبي طالب (عليه السلام).

أقول و هذا من التفسير بالمصداق الوسيط بين الرسول و الأمة، تلحيقا له بالرسول امام ناكريه، و قد مضى‏

الحديث عن تفسير البرهان عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) في جواب السائل بين لنا ما هذا الحبل؟ فقال هو قول الله: الا بحبل من الله و حبل من الناس فالحبل من الله كتابه و الحبل من الناس وصيي ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 340

(5: 66)، هذه و اضرابهما من الواعدة زوال الذلة و المسكنة تقول: نعم، فقد تلمح تأخر المسكنة بطليقها تأخر زوالها عن هؤلاء الفسقة، أم و بأحرى أن زوال الذلة يكفيه حبل من اللّه و حبل من الناس، و ليس زوال المسكنة ليكفيه حبل ما الموافق لبقاءهم على دينهم قاصرين، و كما نرى اليهود القاصرين في مسكنة بيّنة، و هذا هو الفارق بين الذلة و المسكنة هنا، حيث الثانية هي لزام التأخر عن كامل الحبلين كما هو ملموس في اليهود!.

و ذيل الآية المعلّل للذلّ و المسكنة يقرر أنهم هم فسقة اليهود، إذ لم يعهد من النصارى أن يقتلوا النبيين، فمصب الآية منذ «لَنْ يَضُرُّوكُمْ»- حتى- «المسكنة» هم اليهود، مهما شمل استحالة الضر كل فسقة اهل الكتاب لمكان رجوع ضمير الجمع إلى‏ «وَ أَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ» حيث لا يختص بفسقة اليهود.

إذا فثالوث: الذلة و المسكنة و باءوا بغضب من اللّه- يشمل كل فسقة أهل الكتاب على قدر فسقهم و مروقهم، و لا سيما اليهود المغضوب عليهم و هم أشد عداوة للذين آمنوا و أضر ضراوة عليهم كما قال اللّه: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَداوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارى‏ ذلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْباناً وَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ. وَ إِذا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرى‏ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنا آمَنَّا فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ» (5: 83).

و ترى إذا السابقون كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق فما على اللاحقين الذين لم يقتلوا؟ ذلك لأنهم سلسلة موصولة طوال تاريخهم المنحوس المدسوس، فأولئك قتلوا الأنبياء و هؤلاء قتلوا النبوات، فلو وصلت أيديهم إليهم لقتلوهم، فهم نمط واحد على طول الخط، فتشملهم الذلة و المسكنة كذلك‏ «إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَ حَبْلٍ مِنَ النَّاسِ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 341

و قتل الأنبياء و سواهم هو في مثلث مهما اختلفت زواياه:

1 سفك دمائهم بأيديهم عنادا و عتوا على رسالات اللّه.

2 التسبب لتقلهم ان يذيعوا عنهم أمورا يسبب قتلهم‏ «1».

3 الرضا بما فعل القتلة حيث الراضي بفعل قوم هو منهم.

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 113 الى 129]

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114) وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (116) مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118) ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (119) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120) وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122)

وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلى‏ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125) وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرى‏ لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (127)

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (128) وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 283 في اصول الكافي يونس عن ابن سنان عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) و تلا هذه الآية قال: و اللّه ما قتلوهم بأيديهم و لا ضربوهم بأسيافهم و لكن سمعوا أحاديثهم فأذاعوها فأخذوا عليها فقتلوا فصار قتلا و اعتداء و معصية.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 343

لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ أُمَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَ هُمْ يَسْجُدُونَ 113 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 344

الْمُنْكَرِ وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ 114 وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ‏ 115.

إن اللّاسواء بين اهل الكتاب هو قضية عدل اللّه كما اللاسواء حاكم بين المسلمين و سائر الموحدين على شتات مذاهبهم، ف «ليسوا» اهل الكتاب الماضي ذكرهم بسوء «سواء» ام‏ «لَيْسُوا سَواءً مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ» آخرين منهم‏ «مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ» إذا هي ذات تعلقين اثنين.

فبمجرد أن فلانا يهودي أو نصراني لا يقضى عليه بذلة و مسكنة أماهيه من أحكام الكفرة العصاة المعتدين، حيث العبرة الأصيلة في ميزان اللّه هي الإيمان باللّه و اليوم الآخر و عمل الصالحات، كما و أن مجرد اسم الإسلام و الإيمان ليس لزامه الأمان من ذلك الحكم العدل الحكيم.

و هذه الآيات الثلاث تحمل عشرة كاملة من ميزات بين موجبات و منتوجات لزمرة- مهما كانت قليلة- من أهل الكتاب، تعدّهم أخيرا من المتقين.

و هذه ضابطة ثابتة في منطق القرآن أن الإيمان باللّه و اليوم الآخر و عمل الصالحات ليست لتهدر على أية حال، مهما كان حاملها كتابيا أو مسلما، «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هادُوا وَ النَّصارى‏ وَ الصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ» (2: 62) «1».

و ترى هنا «أُمَّةٌ قائِمَةٌ» تعني الكتابيين الذين آمنوا بشرعة الإسلام؟

و صالح التعبير عنهم «المؤمنين» او «الَّذِينَ آمَنُوا» لسابق كونهم كتابيين ثم‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). راجع الفرقان 1: 434- 444 تجد قولا فصلا حول موضوع الآية فلا نعيد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 345

آمنوا!، إنهم هم المؤمنون من أهل الكتاب سواء الذين آمنوا منهم بالفعل فندد بهم زملاؤهم الكتابيون‏ «1» أم لمّا يؤمنوا و هم يتحرون عنه، أم القاصرون عن معرفة الإسلام مهما كانوا تالين الكتاب، و قد شملهم‏ «لَيْسُوا سَواءً» مهما كان الأول هامشيا لأن حساب السواء لم يكن من الأحبار المنددين بمن أسلم منهم.

هذا، و الى تلك العشرة الكاملة العشيرة لأهل التقى من اهل الكتاب:

1 «أُمَّةٌ قائِمَةٌ» في تحقيق الحق و إبطال الباطل، دون فشل و لا كسل، حيث الفاشلون الكسالى من أية امة كتابية او مسلمة لا تحسب بحساب المتقين.

إذا ف «قائمة» تعم كل قيامة و قوامة بالعدل و القسط و ما يحق القيام به و فيه و له و عليه و إليه في شرعة اللّه و كما يذكر من مهامها:

2 «يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ» فالليل الرياحة حين تتلى فيه آيات اللّه، تكون المتلوة فيه أخلص و أنبى: «إِنَّ ناشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَ أَقْوَمُ قِيلًا».

و «آياتِ اللَّهِ» دون المسماة بتوراة او إنجيل، تلمح ان القصد منها آيات الوحي غير الخليطة بسواها، فهي القرآن و ما قبله من آيات وحي التوراة و الإنجيل.

و ترى إذا كان التوراة و الإنجيل محرفين كما يصرح به القرآن فكيف بإمكان‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 64- اخرج جماعة عن ابن عباس قال: لما أسلم عبد اللّه بن سلام و ثعلبة بن سعيد و أسيد بن سعيد و اسد بن عبيد و من اسلم من يهود معهم آمنوا و صدقوا و رغبوا في الإسلام قالت أحبار يهود و اهل الكفر منهم: ما آمن بمحمد و تبعه إلا شرارنا و لو كانوا خيارنا ما تركوا دين آباءهم و ذهبوا الى غيره فأنزل اللّه في ذلك‏ «لَيْسُوا سَواءً ...» أقول: ليسوا سواء قد لا يناسب خصوص هذا الشأن لنزول الآية إذ لم يحب الأحبار لهم حساب السواء بل كان حسابهم اللاسواء.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 346

مؤمني أهل الكتاب و لا سيما القاصرين منهم ان يتلوا آيات الوحي منهما؟.

قد يعني من‏ «آياتِ اللَّهِ» ما يعرفونها من أصل الوحي مهما اخطأوا قاصرين، دون الآيات التي يعرفونها دخيلة في وحي الكتاب.

فتلاوتهم للتوراة و الإنجيل تعني تلاوة آيات اللّه ما لم تتبين لهم منها أنها دخيلات متسربات.

او يقال «يتلون» حسب المستطاع حيث يحاولون- فقط- تلاوة آيات اللّه دون المختلفات الزور و الغرور.

و لأن هؤلاء هم الذين يعلمون الكتاب اجتهادا او تقليدا فهم أولاء الذين يميزون الأصيل من الآيات عن الدخيل، فهم بامكانهم تلاوة آيات اللّه، ثم آيات اللّه تعم مع سائر كتب السماء القرآن العظيم، و المحاول إيمانيا أن يتلوا آيات اللّه مهما غلط فيها او عنها الى الدخيلة فيها قاصرا صادق عليه انه يتلوا آيات اللّه.

3 «وَ هُمْ يَسْجُدُونَ» للّه دون سواه من مسيح و سواه عند من حسبوه ابن اللّه او اللّه، و أما الساجدون لمن سوى اللّه مسيحا و سواه فهم الضالون مهما كانوا قاصرين، حيث الفطرة الإنسانية السليمة تشجب السجود لغير اللّه مع السجود للّه.

و هنا «هُمْ يَسْجُدُونَ» تعم السجود لآيات اللّه و هو غاية الخضوع الطليق لها في كل مراحلها، الى السجود في الصلاة للّه، و الى غاية الخضوع للّه، فلا تخص سجودا خاصا حيث الكل هو شريطة صالح الإيمان دون تبعيض.

4 «يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ» ايمانا صالحا غير دخيل، حيث التثليث و ما أشبه من انحرافات عن الإيمان باللّه ليس ايمانا باللّه، و كذلك اليوم الآخر كما هو مسرود في آيات اللّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 347

5- 6 «وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» و هما البعد الثاني من الإيمان لفاعل المعروف و تارك المنكر، و لأن الأمر و النهي بحاجة اساسية الى معرفة المعروف و المنكر و عمل المعروف و ترك المنكر، فهم أولاء العدول منهم كما و هم علماء لمكان‏ «يَتْلُونَ آياتِ اللَّهِ» دون اختصاص بعلمائهم فان شرط المعرفة بالمعروف و المنكر و الائتمار و الانتهاء يحصل بتقليد كما يحصل باجتهاد، مهما كان على المقلد الاجتهاد السليم في تقليده.

7 «وَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ» في كل ميادين سباقات الخيرات، دون ركود و لا جمود، فحياتهم كلها حركات في مسارعة الخيرات.

8 «وَ أُولئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ» و هم الرابع من مربع الصراط المستقيم:

«وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ الرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ وَ حَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً» (4: 69).

9 «وَ ما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ» كفرانا لكونهم كتابيين ام لسابق حالهم قبل ان يكونوا مسلمين.

10 «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ» يثيبهم كما يتقون مسلمين ام كتابيين.

و هذا العشرة لا تجتمع إلا في نبلاء اهل الكتاب و قليل فيهم قاصرون، و كثير هؤلاء الذين آمنوا أم هم يتحرون عن صالح الإيمان فهم مسلمون.

فلا كفران لمساعي المتقين أيا كانوا، دون ان تنقص منها سابقة سوء هم عنها الآن خارجون، و طالما الكتابي الذي يؤمن أم هو في سبيل الإيمان مكفّر عند من يجهل المقاييس و لكنه غير مكفور عند اللّه بل هو مشكور، بل إن المؤمن مكفر و ذلك أن معروفه يصعد الى اللّه عز و جل و لا ينتشر في الناس و الكافر مشهور و ذلك ان معروفه للناس ينتشر في الناس و لا يصعد إلى اللّه‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 222 في كتاب علل الشرائع عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 348

و

قد يروى عن أول العابدين: «يد الله فوق رؤوس المكفرين ترفرف بالرحمة» «1»

، و

«كان رسول الله مكفرا لا يشكر معروفه و لقد كان معروفه على القرشي و العربي و العجمي و من كان أعظم معروفا من رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) على هذا الخلق و كذلك نحن أهل البيت مكفرون لا يشكر معروفنا و خيار المؤمنين مكفرون لا يشكر معروفهم» «2».

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ‏ 116.

هنا «كفروا» اللامحة إلى حادث الكفر بعد إيمان تعم الكفر بعد الإيمان واقعيا، أم إيمان هو قضية الفطرة السليمة و العقلية غير الدخيلة، و الكفران هما بدركاتهما مشمولان ل «الَّذِينَ كَفَرُوا» و نتيجته‏ «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوالُهُمْ وَ لا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» في الدنيا و الآخرة «و أولئك» البعاد هم‏ «أَصْحابُ النَّارِ» على مدار الحياة في الأولى و الأخرى‏ «هُمْ فِيها خالِدُونَ» قدر كفرهم دون خلود لا نهائي مزعوم!.

مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ‏ 117.

رغم انه لا بد في الإنفاق أن يثمر نتاجا قدره، و لكنهم‏ «مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا» إنفاقا فيها و في سبيلها- مهما كان في زعمهم في سبيل اللّه‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر عن العلل باسناده الى السكوني عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه (عليهم السلام) قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ...

(2)

المصدر عن العلل بسند متصل عن علي بن أبي طالب قال: كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مكفرا ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 349

و هم خالفوها الى سواها حيث يبغونها عوجا و الإفكل إنفاق هو في هذه الحياة، سواء أ كانت لها أم للأخرى، و لقد كانت اليهود تنفق أموالا طائلة لإيذاء رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و إلاتاحة به، كأنهم ينفقونها في سبيل اللّه، و هو في الحياة الدنيا «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً» (8: 36).

ذلك مثله‏ «كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ» و الصرّ هو الشدة و السرعة التي تصحبها لهيب النار أم برودة ثلجيّة لا تبقي للحرث باقية، و كلاهما من شؤون النار حريقا او زمهريرا «1» فكلما كان صرّ إنفاقهم و شدته عدة و عدة اكثر، كان هلاكهم في عدتهم و عدتهم أوفر، فإنفاق الكافر أيا كان لا يخلو عن ثالوثه المنحوس للكفر المحبط لأعماله:

إنفاقا في سبيل اللّه، او الذي يزعمه انه في سبيل اللّه، او يعلمه انه في الصد عن سبيل اللّه مهما اختلفت دركاتها.

و ذلك المثل يلمح- ضمن ما يمثل انفاق الكفار- ان الصر إنما يصيب حرث قوم ظلموا أنفسهم، مهما شمل حرث من سواهم محنة دون من أصابهم مهنة.

«وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ» مثلا و ممثلا بهم‏ «وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» و ذلك الهلاك لما ينفقون ليس إلا من خلفيات ظلمهم أنفسهم.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و شاهدا على صر البرد:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| لا يبردون إذا ما الأرض جللها |  | صر الشتاء من الأمحال كالادم‏ |

و من ذلك‏ «بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عاتِيَةٍ. سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى‏ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 350

ثم‏ «ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» تشمل ثالوث الظلم- نفسا و سواها و بالحق- حيث المرجع فيها أنفسهم، مهما انضرّ به غيرهم‏ «وَ ما ظَلَمَهُمُ اللَّهُ» بإهلاك حرثهم عن بكرته‏ «وَ لكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» حيث كفروا فأحبط اللّه اعمالهم فانه عليهم أضر و أنكى.

«وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ» (40: 31) لا ظلما بهم بما أمرهم و نهاهم و جازاهم، و لا ظلما منهم بأنفسهم و سواهم، فلا ظلم في ساحة الربوبية على أية حال، فإنما الظالم هم العباد بسوء اختيارهم.

ذلك! فهم أولاء الانكاد البعاد الذين تنكبوا المنهج الجامع لمفردات الخيرات، الحافلة للمبرات الكافلة للمكرمات، فاختاروا لأنفسهم الشرود و الضلال و الانفلات من عصمة حبل اللّه جميعا، فعملهم- إذا- و كل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا، هباء، إذ لا قيمة لخير إلّا ان يتبنى منهج صالح الإيمان.

ذلك، و إلى تحذير من هؤلاء الملاعين، المبايعين للدين بهذا الأركس الأدنى من زخرفات الحياة الدنيا، كيلا ينفر المؤمنون بما يعرفون فينضروا بما يضرون إسرارا و إعلانا:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ‏ 118.

البطانة خلاف الظهارة، و تستعار لمن تختصه بالاطلاع على خفيات أمورك المستسرة، فقد تكون بطانة خير فمحبورة مشكورة، ام بطانة شرة فمحظورة محذورة «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

في غريب القرآن للراغب و روي عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) انه قال: ما بعث اللّه من بني‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 351

و «بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ» تعم من سوى المؤمنين، ملحدين او مشركين او مسلمين: منافقين او الذين أسلموا و لما يدخل الإيمان في قلوبهم، و لكن‏ «لا يَأْلُونَكُمْ‏ ... وَدُّوا ... قَدْ بَدَتِ ...» تستثني الآخرين، كما و قد تستثني غير المعاندين من الكفار، و لكن غير المؤمن أيا كان لا يصلح أن يكون بطانة للمؤمن، مهما اختصت هذه العلل لسلبية البطانة بالأعداء الألداء منهم.

و «بطانة» هنا قد تكون ذات تعلقين اثنين‏ «لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً» هي «من دونكم» و «لا تتخذوا من دونكم بطانة» فدون المؤمنين لا يصلح لكونهم بطانة للمؤمنين و لا سيما في جمعية المصالح الإسلامية التي هي بحاجة إلى شورى العابد من أمة الإسلام كما فصلناها على ضوء آية الشورى.

و هنا مربع الحكم الحكيمة تعلّل «لا تتخذوا» لنكون على بصيرة في أمرنا معهم:

1 «لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا» و الخبال لغويا هو الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطرابا، كما بالنسبة للمنافقين في أخرى: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا وَ لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ. لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَ قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَ ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَ هُمْ كارِهُونَ» (9: 48).

و «خبالا» في آيتنا، نكرة في سوق النفي، تشمل كل خبال ثقافي- عقيدي- خلقي- اقتصادي- سياسي، أمّا ذا من فساد و اضطراب.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و لا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالخير و تحضه عليه و بطانة تأمره بالشر و تحثه عليه.

أقول: و لكن بطانة الشر ما كانت تقدر على إضلاله و ما كان نبي و لا خليفة نبي يتخذ لنفسه بطانة شر مهما لصقوا به.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 352

و «يألونكم»: يقصرونكم من الألو: التقصير، فهم أولاء لا يقصرونكم خبالا و فسادا في أيّ من حقوله، فذلك مدى جهدهم في خبالكم ما استطاعوا إليه سبيلا، فإن لم يقدروا على خبالكم بذات أيديهم فهم- لأقل تقدير- يودونه:

2 «وَدُّوا ما عَنِتُّمْ»: ودوا عنتكم- في مصدرية «ما»- و الذي عنتموه- في موصوليته- و العنت هو الأمر الذي يخاف منه التلف، فهم- إذا- لا يألونكم خبال العنت و سواه حيث يودون أن يكون كل أمركم إمرا و صعوبة و هلاكا حيث يبغضونكم على أية حال:

3 «قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ» أتوماتيكيا رغم ما يحافظون على قيلاتهم أمامكم، فما يضمر أحد أمرا إلّا و قد يظهر في صفحات وجهه و فلتات لسانه.

4 «وَ ما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ» مما تبدو من أفواههم، و هذه هي آيات عداءهم العارم- «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ».

و يا لها من صورة بينة السمات، ظاهرة الوصمات لاعداءنا الالداء، تنطق لائحة بدخائل هذه النفوس البئيسة التعيسة، تسجل المشاعر الباطنة و الانفعالات الظاهرة و الحركات المتأرجفة ذاهبة و آئبة، و كل ذلك لنموذج بشري شرير في الطول التاريخي و العرض الجغرافي، نستعرضها في حالنا و مستقبلنا كما عرضوا علينا في ماضينا.

هؤلاء الانكاد الذين يتظاهرون للمسلمين بالمودة في ساعة القوة، فتكذبهم كل خالجة منهم و خارجة، و ينخدع بهم المسلمون لظاهر رحمتهم غفلة او تغافلا من باطن زحمتهم فيمنحونهم الثقة و الوداد، و هم لا يألونهم خبالا و نثرا لأية شائكة في طريقهم ما سنح لهم و فسح من شر و ضر.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 353

تلك الصورة كانت منطبقة تماما على قسم من اهل الكتاب الحضور زمن الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) حيث جاوروه في المدينة بكل غيظ كظيم مضمر على المسلمين، و النوايا الخبايا السيئة التي كانت تجيش في صدورهم، و البعض من المسلمين كانوا- و لا يزالون- ينخدعون بمظاهرهم الحلوة، فيلقون إليهم بالمودة، و يأمنونهم على اسرار لهم كبطانة امينة، فجاء ذلك التنوير التحذير، دون اختصاص بزمن دون زمن، بل هو حقيقة ثابتة تواجه ذلك الواقع المرير الشرير من هؤلاء المنافقين، اهل كتاب او مسلمين.

ذلك! فهل من عقل الإيمان أن تودوهم و تحبوهم دونما عائدة إلا ضرا؟.

ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَ لا يُحِبُّونَكُمْ وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ 119.

«ها» تنبيه لهامة الموقف الخطير «أنتم» المسلمين «أولاء» «تحبونهم» أولاء الكافرين، و ذلك خلاف العقلية الإيمانية، فأنتم «أنتم» المؤمنون الصالحون و «أولاء» أولئكم الكائدون الحاقدون، فكيف «تحبونهم» و «الحال أنهم» لا يحبونكم، أ فحبا من ناحية إمام بغض من أخرى، و دون أن يؤثر ذلك الحب تخفيضا من ذلك البغض البغيض، بل تعزيزا لبغضهم، و تمكينا لهم من خبال و إدغال؟.

ثم‏ «وَ تُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ» هذا القرآن و ما بين يديه من كتاب، و هم لا يؤمنون بالكتاب كله، و لا حقّا بالكتاب بعضه، إذ لا يتبعون كتاباتهم فضلا عن كتابكم.

و قد تلمح‏ «بِالْكِتابِ كُلِّهِ» دون «الكتب كلها» بوحدة الكتاب لوحدة الأمم الكتابية بوحدة الرسالات.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 354

ثم‏ «وَ إِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَ إِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ» إذ يرونكم جميعا و هم شتى، و لكم قوة و سداد و هم في ضعف و بداد، و لا جواب لهم في بغضهم البغيض إلّا:

«قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» و منها صدوركم المليئة من بغض المؤمنين، و هنا «مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ» أمرا، يعاكس‏ «وَ لا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» نهيا، و هما في مجرى واحد في حالة الإختيار، فمهما لم يكن الموت تحت الإختيار و لكن الإسلام و الكفر هما تحت الإختيار، فقد تعني‏ «مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ» استمروا بغيظكم المميت عن حيويتكم، او حتى الموت، امرا تحذيريا هو ابلغ من النهي ك «اعْمَلُوا عَلى‏ مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

و قد تعني باء الغيظ كلا المعية و السببية، فذلك الغيظ يميت صاحبه حين لا يجد مفلتا منه و لا من سببه، و هو معه أينما حل و ارتحل حتى الموت، و استمرارية الغيظ تزيد فيه و تزيد حتى يميت.

و في ذلك لمحة أن استمرارية الغيظ بمزيد هي من أسباب الموت، لأنها حالة نفسية رديئة لا تستطيع النفس أن تتحملها، فيوما مّا هي تتغلب عليها فتميت صاحبها.

و إذا كان الغيظ في سبيل الطاغوت فالموت موتان لصق بعض و ردف بعض، موتا حال حياته روحيا، و موتا يقضي على حياته جسميا فيتم الموت و يطم كل كيانه: «ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ»، و اما «بِذاتِ الصُّدُورِ» دون «الصدور» مجردة، فلأن «ذات»: الصاحبة هي مؤنث «ذو»: الصاحب، و صاحبة الصدور هي التي تصحبها من الضيق و الإنشراح بكفر أو إيمان أم أي كان من حالات محبورة او محظورة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 355

و ترى لماذا هنا و في كثير سواه‏ «بِذاتِ الصُّدُورِ» دون «ذات القلوب» و هي اصل الروح و عمقه؟.

علّه لأن القلوب ايضا هي من ذات الصدور بكل حالاتها و مجالاتها:

«فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» (22: 46).

فكل حالة حسنة او رديئة، منشرحة او ضيّقة في الصدور هي المؤثرة بالمآل في القلوب، فالقلوب هي من ذات الصدور و ليست الصدور هي من ذات القلوب.

ثم ابتلاء ما في الصدور تقدمة لتمحيص ما في القلوب: «وَ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَ لِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ» (3: 154).

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها وَ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ 120.

«ان تمسسكم» حالة «حسنة» مادية او معنوية، فردية أو جماعية أمّاهيه من حياة حسنة «تسؤهم» هذه الحسنة إذ «لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا وَدُّوا ما عَنِتُّمْ».

«وَ إِنْ تُصِبْكُمْ» حالة «سيئة» من ضيق معيشي او انهزام حربي ام نكسة عقيدية أماهيه‏ «يَفْرَحُوا بِها» و لا علاج في تلكم المواجهة المعاندة إلّا الصبر و التقوى.

«وَ إِنْ تَصْبِرُوا» في كل حسنة و سيئة، و ما يسوءون و يفرحون، دون انفلات عن ثابت الإيمان «و تتقوا» عن المحاظير التي هي نتيجة طبيعية لاختلاف الحالات و الواجهات، إذا «لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً» اللّهم إلا أذى بسيطة متحمّلة «إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» فهو الذي يدافع عنكم بدافع إيمانكم: «إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا» «وَ يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً» و هو الذي‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 356

يحيطكم علما بمكائدهم و مصائدهم فتحذروهم مهما كانوا أقوياء فإنهم كائدون أغوياء، و ان اللّه لا يهدي كيد الخائنين، و هو الذي يجازيهم بكيدهم فإنه بما يعملون محيط علما و قدرة.

و هنالك محور الرجاء لمس المصيبة و إصابتها هو الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ثم الذين معه: «إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَ إِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُونَ. قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» (9: 51).

فيا عجباه من غفوتنا و غفلتنا حين تصفعنا التجارب المرّة من هؤلاء المنافقين مرة تلو مرة و لكننا لا نفيق، و نرى المؤامرات تترى علينا بمختلف الأزياء بل اننا فيها نحيق، فاتحين لهم قلوبنا، و آخذيهم رفقاء الطريق، فمن هنا نذل و نضعف و نستخذى و نلقى كل عنت و خبال حيث يدس في صفوفنا.

وَ إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121) إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122).

من السيئات التي أصابت المسلمين هي الهزيمة العظيمة في أحد، ففرحت بها أعداءهم من أهل الكتاب و المشركين، و هكذا ترتبط آية الغدوّ بسابقتها:

«وَ إِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها».

و هنا تذكرة عابرة خاطفة بغزوة أحد و سبب الهزيمة، ثم انتقالة إلى غزوة بدر السابقة عليها تدليلا على استمرارية الرحمة الغالية الربانية لهذه الأمة ما قاموا بشروطها، و أن هزيمة الحرب هي من قضايا الهزيمة عن واجب التطبيق للإمرة الرسالية في حقل الحرب ام و سواها.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 357

و من ثم تستمر التذكرة بحرب أحد و ما خلّفت من بلورة الإيمان لقلة قليلة، و من زلزلة الاطمئنان و تأرجف الايمان لكثرة كثيرة، كدرس للأمة الإسلامية مع الأبد، نبراسا ينير الدرب على المجاهدين في خطوط النار للأخذ بالثأر و القضاء على العار، و متراسا يتترسون به في تقدمات الحرب و تقدّماتها.

و هنا انتقالة لطيفة عطيفة من معركة الجدال و التنوير و التوجيه و التحذير، إلى معركة النضال في الميدان، الى معركة أحد و من قبلها بدر.

و هنا تنضم عراك في الضمير بطي العراك الدموية الفادحة، و معركة الضمير هي أوسع المعارك في مختلف النضال و الجدال.

لقد كان النصر أولا في بدر ثم الهزيمة ثانيا في أحد، و كما الانتصار كان عظيما حيث غلبت فيه فئة قليلة على فئة كثيرة بإذن اللّه، كذلك كانت الهزيمة ايضا عظيمة، و لكنّما الهزيمة خلفت- رغم أوجاعها و أجواءها المحرجة- انتصارا معرفيا و يقظة بعد غفوة للكتلة المؤمنة، و لكي لا يغتروا بانتصارهم الاوّل، فيتركوا شروطاته المقررة في شرعة اللّه.

فلقد محصّت في هذه الهزيمة نفوس و ميّزت صفوف و صنوف، و انطلق المسلمون متحررين عن كثير من أغباش التصورات الخاطئة التي هي عشيرة الفتح الخارق للعادة بطبيعة الحال.

فميعان قيم و تأرجح مشاعر من نزوة الفتح المبين من ناحية، و تسرب منافقين و قليلي الايمان من أخرى، ما كانت تجبر إلا بهزيمة مّا هي في نفس الوقت من خلفيات تخلف عسكري عن امر القائد الرسالي.

و لم تكن حصيلة الهزيمة بأقل عائدة من حصيلة الفتح أم هي اكثر، فتلك هي حصيلة ضخمة ما أحوج الأمة الإسلامية إلى دراستها طوال تاريخها، و لكي تأخذ حذرها و أهبتها في كل مواجهة نضالية من ذلك الرصيد العظيم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 358

«و» اذكر من ضمن الذكريات الحربية الفاشلة لفشل من المسلمين‏ «إِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ» خرجت غداة من أهلك في المدينة إلى خارجها: «أحد»- حال انك «تبوئ» إيواء لبواء الحرب الدفاعية «تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقاعِدَ لِلْقِتالِ» لأنك قائد الحرب على ضوء القيادة الرسالية المحلقة على كافة المصالح الروحية و الزمنية.

فليس لأحد ان يبوئ المؤمنين مقاعد للقتال و الرسول فيهم إلّا هو، فعليك يا رسول الهدى تنظيم التكتيكية الحربية أمّاهيه من تكتيكات نظامية و انتظامية، و هامة الأمور الجماعية للمسلمين، فإنك الحاكم بين الناس بما أراك اللّه في كل ما يتطلب الحكم من خلافات روحية أو زمنية: «إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً» (4: 105).

و ليس مجال الحكم بين الناس- في الأكثرية الساحقة- إلّا فيما هم فيه يختلفون من مصالح معيشية- جماعية- اقتصادية- حربية، اماهيه.

فلا تعني الرسالة الإلهية- فقط- مصالح المحراب و العبادة، بل و مصالح الحرب و الإبادة لمن يتربصون باهل الحق كل دوائر السوء.

و كما أن تكاليف المحراب مقررة بوحي اللّه، كذلك تلتيكات الحرب هي بوحي من اللّه، فإنهما معا مدلولان ل «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ».

فهذه خرافة قاحلة أن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) شاور أصحابه بشأن غزوة أحد أ يخرج إليه خارج المدينة فيغزوهم أم يظل داخلها فيدافع عن الأهلين، فأشاروا عليه بالخروج و كان من رأيه المقام داخل المدينة! «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور (1: 68) اخرج جماعة عن ابن شهاب و محمد بن يحيى بن حبان و عاصم بن عمر بن قتادة و الحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ و غيرهم، كل حدث بعض‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 359

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الحديث عن يوم أحد قالوا: لما أصيب قريش او من ناله منهم يوم بدر من كفار قريش و رجع كلهم الى مكة و رجع ابو سفيان بعيره مشى عبد اللّه بن أبي ربيعة و عكرمة بن أبي جهل و صفوان بن امية في رجال من قريش ممن أصيب آباءهم و أبناءهم و إخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب و من كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ان محمدا قد و تركم و قتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا ندرك منه ثارا بمن أصاب ففعلوا فأجمعت قريش لحرب رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و خرجت بجدتها و جديدها و خرجوا معهم بالظعن التماس الحفيظة و لئلا يفروا و خرج ابو سفيان و هو قائد الناس فأقبلوا حتى نزلوا بعينين جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة فلما سمع بهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و المسلمون بالمشركين قد نزلوا حيث نزلوا قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إني رأيت بقرا تنحر و أريت في ذباب سيفي ثلما و أريت أني دخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة فان رأيتم ان تقيموا بالمدينة و تدعوهم حيث نزلوا فان أقاموا أقاموا بشر مقام و ان هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها و نزلت قريش منزلها أحد يوم الأربعاء فأقاموا ذلك اليوم الخميس و يوم الجمعة و راح رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) حين صلى الجمعة فأصبح بالشعب من احد فالتقوا يوم السبت للنصف من شوال سنة ثلاث و كان رأى عبد اللّه بن أبي مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يرى رأيه في ذلك أن لا يخرج إليهم و كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يكره الخروج من المدينة فقال رجال من المسلمين ممن أكرم اللّه بالشهادة يوم احد و غيرهم ممن كان فاته يوم بدر و حضوره: يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنّا جبنا عنهم و ضعفنا فقال عبد اللّه بن أبي يا رسول اللّه أقم بالمدينة فلا تخرج إليهم فو اللّه ما خرجنا منها الى عدو لنا قط إلا أصاب منا و لا دخلها علينا الا أصبنا منهم فدعهم يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فان أقاموا أقاموا بشر و ان دخلوا قاتلهم النساء و الصبيان و الرجال بالحجارة من فوقهم و ان رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا فلم يزل الناس برسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الذين كان من أمرهم حب لقاء القوم حتى دخل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فلبس لامته و ذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ثم خرج عليهم و قد ندم الناس و قالوا استكرهنا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و لم يكن لنا ذلك فان شئت فاقعد فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته ان يضعها حتى يقاتل فخرج رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 360

و كيف يرتإي ان يغزى في عقر داره فيذل، و يرشده من أصحابه إلى الخروج فلا يذل؟ ام كيف يتبع خلاف رأية و هو الحاكم بما أراه اللّه!، و قد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الف رجل من أصحابه حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة و أحد تحول عنه عبد اللّه بن أبي بثلث الناس و مضى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) حتى سلك في حرة بين حارثة فذب فرس بذنبه فأصاب ذباب سيفه فاستله فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و كان يحب الفأل و لا يعتاف لصاحب السيف شم سيفك فإني أرى السيوف ستستل اليوم و مضى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) حتى نزل بالشعب من أحد من عدوة الوادي لي الجبل فجعل ظهره و عسكره إلى احد و تعبى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) القتال و هو في سبعمائة رجل و أمر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) على الرماة عبد اللّه بن جبير و الرماة خمسون رجلا فقال: «انضح عنا الجبل بالنبل لا يأتونا من خلفنا ان كان علينا أو لنا فأنت مكانك لنؤتين من قبلك و ظاهر رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) بين درعين».

و فيه اخرج ابن جرير عن السدي ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال لأصحابه يوم أحد أشيروا علي ما أصنع فقالوا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) اخرج إلى هذه الأكلب فقالت الأنصار يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ما غلبنا عدو لنا أتانا في ديارنا فكيف و أنت فينا فدعا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عبد اللّه بن أبي ابن سلول- و لم يدعه قط قبلها- فاستشاره فقال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أخرج بنا إلى هذه الأكلب و كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة فيقاتلوا في الأزقة فأتى النعمان ابن مالك الأنصاري فقال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): لا تحمرني الجنة فقال بم قال بأني أشهد أن لا إله إلا اللّه و أنك رسول اللّه و إني لا أفر من الزحف قال: صدقت فقتل يومئذ ثم أن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) دعا بدرعه فلبسها فلما رأوه و قد لبس السلاح ندموا و قالوا بئسما صنعنا نشير على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و الوحي يأتيه فقاموا و اعتذروا اليه و قالوا: اصنع، رأيت، فقال: رأيت القتال و قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لا ينبغي لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل و خرج رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الى أحد في ألف رجل و قد وعدهم الفتح إن يصبروا فرجع عبد اللّه بن أبي في ثلاثمائة فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم فأعيوه و قالوا له: ما نعلم قتالا و لئن أطعتنا لترجعن معنا و قال: إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا .. و هم بنو سلمة و بنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبد اللّه بن أبي فعصمهم اللّه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 361

يروى عن حفيده الصادق (عليه السلام) انه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) كان رأيه الخروج‏ «1».

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

و بقي رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم).

فوطئ على جرف نهر فقط فأخذت حربتي فهززتها و رميته بها فوقعت في خاصرته و خرجت‏

(1).

نور الثقلين 1: 284 مجمع البيان عن أبي عبد اللّه (عليه السلام)- و فيه نقل قصة احد باختلاف يسير عما نقلناه عن الدر المنثور و منها- فقام سعد بن معاذ و غيره من الأوس فقالوا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ما طمع فينا أحد من العرب و نحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يظفرون بنا و أنت فينا لا حتى نخرج إليهم و نقاتلهم فمن قتل منا كان شهيدا و من نجا منا كان مجاهدا في سبيل اللّه فقبل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) رأيه و خرج مع نفر من أصحابه يتبوءون موضع القتال كما قال سبحانه: و إذ غدوت من أهلك .. و قعد عبد اللّه بن أبي و جماعة من الخزرج اتبعوا رأيه و وافت قريش الى احد و كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عبأ أصحابه و كانوا سبعمائة رجل و وضع عبد اللّه بن جبير في خمسين من الرماة على باب الشعب و اشفق ان يأتي كمينهم من ذلك المكان فقال لعبد اللّه بن جبير و أصحابه ان رأيتمونا قد هزمناهم حتى أدخلناهم مكة فلا تبرحوا من هذا المكان و ان رأيتموهم قد هزمونا حتى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا و الزموا مراكزكم و وضع ابو سفيان خالد بن الوليد في مأتي فارس كمينا و قال: إذا رأيتمونا قد اختلطناه فأخرجوا عليهم من هذا الشعب حتى تكونوا وراءهم و عبأ رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أصحابه و رفع الراية الى أمير المؤمنين (عليه السلام) فحمل الأنصار على مشركي قريش فانهزموا هزيمة قبيحة و وقع اصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في سوادهم و انحطّ خالد بن الوليد في مأتي فارس على عبد اللّه بن جبير فاستقبلوهم بالسهام فرجع و نظر اصحاب عبد اللّه بن جبير الى اصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ينتبهون سواد القوم فقالوا لعبد اللّه بن جبير قد غنم أصحابنا و نبقى نحن بلا غنيمة؟ فقال لهم عبد اللّه اتقوا اللّه فان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) قد تقدم إلينا ان لا نبرح فلم يقبلوا منه و اقبلوا ينسل رجل فرجل حتى اخلوا مراكزهم و بقي عبد اللّه بن جبير في اثنى عشر رجلا و كانت راية قريش مع طلحة بن أبي طلحة العبدري من بني عبد الدار فقتله علي (عليه السلام) فأخذ الراية أبو سعيد بن أبي طلحة فقتله علي (عليه السلام) و سقطت الراية فأخذه مسافع بن أبي طلحة فقتله حتى قتل تسعة نفر من بني عبد الدار حتى صار لواءهم إلى عبد لهم اسود يقال له صواب فانتهى اليه علي (عليه السلام)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 362

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

فقطع يده فأخذ باليسرى فضرب يسراه فقطعها فاعتنقها بالجذماوين الى صدره ثم التفت إلى أبي سفيان فقال: هل أعذرت في بني عبد الدار فضربه علي (عليه السلام) على رأسه فقتله فسقط اللواء فأخذتها عمرة بنت علقمة الكنانية فرفعتها و الخط خالد بن الوليد على عبد اللّه بن جبير و قد فر أصحابه و بقي في نفر قليل فقتلهم على باب الشعب ثم أتى المسلمين من ادبارهم و نظرت قريش في هزيمتها الى الراية قد رفعت فلا ذوابها و انهزم اصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) هزيمة عظيمة فأقبلوا يصعدون في الجبال و في كل وجه فلما رأى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) الهزيمة كشف البيضة عن رأسه و قال: انا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الى اين تفرون عن اللّه و عن رسوله؟ و كانت هند بنت عتبة في وسط العسكر فكلما انهزم رجل من قريش دفعت اليه ميل و مكحلة و قالت انما أنت امرأة فاكتمل بهذا و كان حمزة بن عبد المطلب يحمل على القوم فإذا رأوه انهزموا و لم يثبت له احد و كانت هند قد اعطت وحشيا عهدا لئن قتلت محمدا او عليا او حمزة لاعطينك كذا و كذا و كان وحشي عبدا لجبير بن مطعم جشيّا فقال وحشي: اما محمد فلا اقدر عليه و اما علي فرأيته حذرا كثير الالتفات فلا مطمع فيه فكمن لحمزة قال: فرأيته يهد الناس هدا فمربي فوطئ على جرف نهر فقط فأخذت حربتي فهززتها و رميته بها فوقعت في خاصرته.

و فيه أخرج ابن جرير عن السدي ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال لأصحابه يوم أحد أشيروا علي ما أصنع فقالوا يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) اخرج إلى هذه الأكلب فقالت الأنصار يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ما غلبنا عدو لنا أتانا في ديارنا فكيف و أنت فينا فدعا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عبد اللّه بن أبي ابن سلول- و لم يدعه قط قبلها- فاستشاره فقال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلم) أخرج بنا إلى هذه الأكلب و كان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يعجبه ان يدخلوا عليه المدينة فيقاتلوا في الأزمة فأتى النعمان ابن مالك الأنصاري فقال يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): لا تحرمني الجنة فقال بم قال باني اشهد أن لا إله الا اللّه و انك رسول اللّه و اني لا افر من الزحف قال: صدقت فقتل يومئذ ثم ان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) دعا بدرعه فلبسها فلما رأوه و قد لبس السلاح ندموا و قالوا بئسما صنعنا نشير على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و الوحي يأتيه فقاموا و اعتذروا اليه و قالوا: اصنع ما رأيت، فقال: رأيت القتال و قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لا ينبغي لنبي ان يلبس لامة فيضعها حتى يقاتل و خرج رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) الى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 363

كلا و كما ان تبوّئ مقاعد للقتال كان من شئونه القيادية، كذلك الخروج إلى تلكم المقاعد، و انتصاب الجموع الخاصة لها، كل ذلك كان من رأيه الخاص بما أراه اللّه، مهما شاور المسلمين في ذلك ليشير عليهم صالح الأمر إن اخطأوا و يثبتهم تشجيعا لهم إن أصابوا، و كما استصوب رأي المشيرين عليه بالخروج دون المشيرين بالمقام داخل البلد.

و ان لمكان القتال و مقاعدها مكانة هامة في النجاح، يجب تقريرهما على القائد العام للقوات المسلحة حيث يراهما من المصلحة في صالح الحرب.

«وَ اللَّهُ سَمِيعٌ» أقوالهم «عليم» بأحوالهم، إذ تقوّلوا قيلات حول الحرب و مكانها و مقاعدها، و تحولوا حالات: «إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ».

لقد مشى النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) يومئذ على رجليه يبوّئ المؤمنين مقاعد للقتال بنفسه الشريفة و هم قرابة الف تقابلهم ثلاثة آلاف من قريش، كنفس القياس بين الجيشين يوم بدر، فلما تخلف من تخلف بغية الغنيمة، خلّف ذلك انهزاما دمويا و كارثة قارصة بلبل حالة المؤمنين و زلزل طائفة منهم و اثبت آخرين، امتحانا من اللّه للمؤمنين و امتهانا للمتخلفين.

«إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا ..».

هنالك واقع الغل و الفشل من طائفتين أولاهما عبد اللّه بن أبي و معه قرابة ثلث الجيش حيث تخلف إذ

خالف رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) رأيه في المقام بالمدينة للدفاع قائلا: يخالفني و يسمع للفتية، فيتبعهم عبد اللّه بن عمر و ابن حرام والد جابر بن عبد اللّه يوبخهم و يحضهم على الرجوع و يقول: تعالوا قاتلوا في سبيل اللّه او ادفعوا

، قالوا: لو نعلم قتالا لاتّبعناكم و هم كما قال‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

احد في الف رجل و قد وعدهم الفتح إن يصبروا فرجع عبد اللّه بن أبي في ثلاثمائة فتبعهم ابو جابر السلمي يدعوهم فأعيوه و قالوا له: ما نعلم قتالا و لئن اطعتنا لترجعن معنا و قال: «إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا» و هم بنو سلمة و بنو حارثة هموا بالرجوع حين رجع عبد اللّه بن أبي فعصمهم اللّه و بقي رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في سبعمائة.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 364

اللّه: هم يومئذ للكفر أقرب منهم للإيمان فرجع عنهم و سبّهم، فهؤلاء لم يحضروا القتال حتى يقال فشلوا، فانما فلّوا و تخلفوا.

و لماذا ولى الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) رأس النفاق عبد اللّه بن أبي على ثلث الجيش؟ لكي يعرّف به و الذين معه انهم منافقون مهما تظاهروا انهم موافقون، فالمعركة معركة امتحان و امتهان ضمن أنها ميدان دفاع.

و لقد فصلت الآيات الآتية بشأن حرب احد أبعادا هامة من الواقعة، نتحدث على ضوءها كما تتحدث، فهذه هي الطائفة الاولى من «طائفتان».

و الأخرى هي الخمسون الذين قررهم رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) مع عبد اللّه بن جبير حيث تركوا قاعدتهم للقتال طمعا في الغنيمة ففشلوا، و من ثمّ هم الفشل و لا فشل- و هو فتّ في عضد التصميم بجبن- «وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما» فولى أمرهما فلم تفشلا، و هما حيان من الأنصار: بنو سلمة من الخزرج و بنو حارثة من الأوس لما انهزم عبد اللّه بن أبي، همّتا باتباعه فعصمهما اللّه فثبتوا مع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) و لقد بقيت رابعة وليهّا علي (عليه السلام) لم تفل و لم تفشل و لم تهم بالفشل حفاظا على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و أمره.

فقد افترقت اصحاب أحد اربع فرق و انكسر المسلمون بهزيمة عظيمة لما خولف أمر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) أولا فيما ارتآه من الخروج للحرب خارج المدينة فخالفه ابن أبي، و ثانيا ما قرره من مقاعد القتال و أهمها لابن جبير حيث تفرق جل أصحابه فحصل ما حصل!.

أ ترى الحال في «و الله وليهما» مدح لهما بتلك الولاية الربانية؟ ام قدح فيهما لماذا همتا بفشل و اللّه وليهما؟ إنها مدح من ناحية حيث عصمهما اللّه بتلك‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 365

الولاية عن تلك الهوة الجارفة إذ لم تخرجا عن ولاية اللّه بذلك الهم‏ «1» فهم داخلون في ولاية اللّه و «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا».

و قدح فيهما من اخرى لماذا همتا «وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما» فيما وعد من النصر!.

«وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» و لا سيما في همّ العصيان، فإذا توكلوا عليه يعصمهم بولايته العشيرة للمؤمنين.

و هكذا يجب على المؤمنين أن يتوكلوا على اللّه مضيّا في أمر اللّه، و احترازا عن نهي اللّه، فلو أن اللّه وكّل أمورنا إلينا دونما عصمة منه و تسديد لما نجى منا أحد عن ورطات الهلاك، كيف لا و الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)- على محتده العظيم- يقول: ربنا لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أبدا، و يقول اللّه فيه‏ «وَ لَوْ لا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلًا» و في يوسف «و هم بها لولا أن رأى برهان ربه».

ذلك، و كيف‏ «هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ. وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ...» إذ كنتم ذلا للّه و ظلا لرسول اللّه، ثم و لم ينصركم في أحد أن لم تكونوا ذلا، و كنتم أقوياء دون ذلّة في عدّة او عدّة:

وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123).

و ترى كيف‏ «وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» و فيهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم)

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 68- اخرج جماعة عن جابر بن عبد اللّه قال: فينا نزلت في بني حارثة و بني سلمة «إِذْ هَمَّتْ طائِفَتانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلا ...» و ما يسرني انها لم تنزل لقول اللّه‏ «وَ اللَّهُ وَلِيُّهُما».

و فيه عن قتادة في الآية قال: ذلك يوم أحد و الطائفتان بنو سلمة و بنو حارثة حيان من الأنصار هموا بأمر فعصمهم اللّه من ذلك و قد ذكر لنا انه لما أنزلت هذه الآية قالوا: ما يسرنا انا لم نهم بالذي هممنا به و قد أخبرنا اللّه انه ولينا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 366

و المؤمنون الصالحون، «وَ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ»؟ فهل نزلت «و أنتم قليل» ام ضعفاء «1» كما قيل؟ و هو قول عليل يختلقه الضعفاء حيث يعارض متواتر القرآن! .. إنها كماهيه‏ «وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» تعني القلة المستضعفة، و هي ذلة بحساب الخلق الجاهلين، مهما كانوا أعزة بحساب الخالق‏ «وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (8: 26).

إذا «أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ» هي عبارة أخرى عن‏ «أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» تتجاوبان في عناية واحدة، كما و تعقيبتهما واحدة: «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

و قد تكون «أذلة» جمعا للذّل لا الذّل، فهم كانوا ببدر ذلّا للّه- و تحت ظله- و لرسوله دون شماس، فلذلك نصرهم اللّه و هم قليل مستضعفون، و لكنهم انهزموا في أحد لتركهم ذلّهم إلى شماسهم.

و قد يكون المعنيان معنيين و ما أحسنه جمعا تجاوبا مع أدب اللفظ و حدب المعنى، أن اللّه نصركم لأنكم مستضعفون خضّعا للّه و لأمره.

و «أذلة» جمع قلة قد تؤيد ذلة القلة في عدّة و عدّة حربية، و هم مع ذلك ذلّ بطوع الرسول دون شماس.

فلقد كانوا في بدر ثلاثمأة و ثلاثة عشر رجلا بفرس واحد و جمال قليلة ربما ركب جمع منهم جملا واحدا و جلّهم مشاة، و الكفار هم قرابة ألف و معهم مائة فرس بأسلحة كثيرة.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 378 في تفسير العياشي عن أبي بصير قال‏ قرأت عند أبي عبد اللّه (عليه السلام) «وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ» فقال: مه ليس هكذا أنزلها اللّه انما نزلت «و أنتم قليل».

و فيه عن تفسير القمي في الآية قال أبو عبد اللّه (عليه السلام) ما كانوا اذلة و فيهم رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و انما نزل «و لقد نصركم الله ببدر و أنتم ضعفاء».

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 367

و لأن غزوة بدر هي بداية الغزوات الإسلامية، و قد شاهد الصحابة من صلابة المشركين في مكة و قوتهم و ثروتهم و هم أولاء لا يملكون ما يملكه هؤلاء من عدّة و عدّة، فهم كانوا- على إيمانهم- أذلة في حساب الكفار، بل و في حسبانهم أنفسهم قضية ظاهر الحال، و هم مع ما هم عليه من ذلة و ذلة كانوا ذلا لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) لا يخافون في اللّه أية قوة قاهرة ظاهرة.

ذلك! «فَاتَّقُوا اللَّهَ» لا سواه «و لا تعبدوا الا إياه» «لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» اللّه بما نصركم يوم بدر و ينصركم إن كنتم متقين شاكرين‏ «وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ...».

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124) بَلى‏ إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125).

«نَصَرَكُمُ‏ ... إِذْ تَقُولُ» فهما- إذا- يختصان ببدر، نصرة و قولة، و لكنه نقلة كانت في أحد تنديدا بهم أن لم يصبروا و يتقوا حتى ينصرهم فيه كما نصرهم ببدر، اللّهم إلا في بدايته و لمّا يتركوا مقاعدهم.

ثم‏ «أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ ..» سئوال تأنيب ينفي الإحالة المزعومة بالنسبة لتلك الكفاية بإمداد ملائكي، كأن فيهم من زعم ألّا يفيد الإمداد إلّا بالجيوش الأرضية، حيث القلة المسلمة ترى نفير المشركين لمحاربتهم لأوّل مرة، و هم مفاجئون بها إذ خرجوا لالتقاء طائفة العير الموقرة بالمتاجر لا الموقرة بالسلاح، و قد أبلغهم الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ما أوحي إليه لتثبيت قلوبهم و أقدامهم في هذه المفاجأة المفاجعة، و هم- على إيمانهم- بشر يحتاجون إلى خارقة العون في هذه الحالة الاستثنائية في صورة تبلغ مشاعرهم المألوفة، و قد أبلغهم ذلك الإمداد شرط الصبر على تلقّي صدامات الهجمة الفاتكة الهاتكة، و التقوى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 368

التي تربط القلب باللّه في الإنتصار و الانهزام.

ذلك- و بأحرى ان تتعلق «إذ» بمحذوف معروف هو «اذكر» فقوله (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- إذا- كان يوم أحد تنديدا بالمتخلفين من جيشه عن اصل الحرب او عن مقاعدهم‏ «أَ لَنْ يَكْفِيَكُمْ» الآن كما كان يوم بدر «أن يمدكم ربكم ... بلى يكفيكم» ان كنتم مؤمنين الآن كما كنتم يوم بدر، بلى و «إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا» كما صبرتم و اتقيتم يوم بدر «وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ» زيادة على بدر لاستمرارية الصبر و التقى و «أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏» «1».

و ترى كيف‏ «بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ» يوم بدر، و الكفار كانوا يرونهم مثليهم رأى العين: «قَدْ كانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتا فِئَةٌ تُقاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرى‏ كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشاءُ» (3: 13) و هو ألفان، بل و الف كما «فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ» (8: 9)، فأين ثلاثة آلاف من ألفين، ثم اين هم من ألف؟.

ان الالف المردفين هم اردفوا ألفين آخرين، مما يوضح ان ثلاثة آلاف لم ينزلوا دفعة واحدة، فانما «جاءت الزيادة من الله ..» «2».

و اما «مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ» فهو موقف آخر من بدر كنصرة ثانية، فواقع‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 69- اخرج ابن جرير عن زيد قال‏ قالوا الرسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هم ينتظرون المشركين يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أليس يمدّنا اللّه كما أمدنا يوم بدر فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): أ لن يكفيكم .. منزلين- فانما أمدكم يوم بدر بألف قال فجاءت الزيادة من اللّه على ان يصبروا و يتقوا.

(2) مضت هذه الجملة عنه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في الهامش السالف فلا نعيد.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 369

النصرة كان بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من حيث تحارب و لا ترى، و ظاهر النصرة أنهم كانوا يرونهم مثليهم- لا لأنهم كانوا مثليهم- و انما- رأى العين.

ثم «بلى» يكفيكم ذلك الإمداد الملائكي غير المرئي، بلى و «إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا» كما صبرتم في بدر «وَ يَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هذا» كما أتوكم‏ «يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ» خمسة هنا بديلا عن ثلاثة هناك، و «مسوّمين» هنا بديلا عن «منزلين»- فقط- هناك، و قد صدقهم اللّه وعده في بداية أحد فأمدّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين كما صدقهم في بدر:

«وَ لَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَ تَنازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ عَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ما أَراكُمْ ما تُحِبُّونَ ..» (152).

و التسويم هو التعليم علامة، و هو هنا علّه يجمع إلى علامة الحرب بالمظاهر الجندية، علامة ملائكية تميزهم عن سائر الجيش.

و قد تجمع «مسومين»- حالا- بين حال المؤمنين و الملائكة، مهما كان تسويهمها على سواء أو مختلفين‏ «1».

وَ ما جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرى‏ لَكُمْ وَ لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126).

ما جعل اللّه ذلك الإمداد الملائكي إلّا بشرى لكم للانتصار و لتطمئن‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 388 في تفسير العياشي عن إسماعيل بن همام عن أبي الحسن (عليه السلام) في قول اللّه «مسومين» قال: العمائم، اعتم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) فسد لها من بين يديه و من خلفه.

و

فيه عن جابر عن أبي جعفر (عليهما السلام) قال: كانت على الملائكة العمائم البيض.

و

في الدر المنثور 2: 70 قال النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): نزلت الملائكة على سيما أبي عبد اللّه ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 370

قلوبكم به، لا لأن النصر مربوط النياط- ككل- بأمثال هذه الإمدادت، و إنما هي موجبات ظاهرة تلتقي مع ظواهر النظرات‏ «وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» سواء أ كان بأسباب ظاهرة كهكذا إمداد ام غير ظاهرة كسائر النصر.

هنا القرآن- كأضرابه فيه- يحرص على تقرير هذه القاعدة الرصينة المتينة في التصور الإسلامي، ان مرد الأمور كلها إلى اللّه و ليس نزول الملائكة إلا بشرى لهم و اطمئنانا لقلوبهم أنسا بالمألوف.

لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ (127).

و لماذا «نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ ... وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ»؟ «لِيَقْطَعَ طَرَفاً ... أَوْ يَكْبِتَهُمْ».

فهناك غاية محدودة لنصر اللّه هي أن يقطع طرفا من الذين كفروا، نفسا او نفيسا، و أرضا أو سلطة أو أية فاعلية، و هذه حاصلة منذ الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و حاضري الائمة و زمن الغيبة الكبرى، و لأن الطرف من الهيكل عضو له أيا كان، فقد تصور الذين كفروا هيكلا واحدا له أطراف، و قد يعني هنا لينقص عددا من أعدادهم او عددا من إعدادهم فيوهن عضدا من أعضادهم، كواجب نضالي على الذين آمنوا، مستمر على طول الخط حتى يصل إلى «او يكبتهم»:

فهنا غاية غير محدودة لذلك النصر هو «أو يكبتهم»: يصرعهم- ككل- لمكان ضمير الجمع دون تبعيض كان في ليقطع، يصرعهم على وجوهم، و يهلكهم و يلعنهم و يهزمهم و يذلهم و يغيظهم- و الكل معان للكبت- «فَيَنْقَلِبُوا خائِبِينَ» آيسين لا أمل لهم في رجوع إلى كيان أيا كان، و هذا في الدولة الاسلامية الأخيرة العالمية حيث لا يبقى للكفر رطب و لا يابس، اللّهم إلّا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 371

شرذمة من أهل الكتاب في ذمة الإسلام، لا دور لهم في الحكم.

فكل نصر من اللّه للمؤمنين محدد بحدود صبرهم و تقواهم حتى يصل الأمر الى اصحاب صاحب الأمر الذين هم نخبة التاريخ الرسالي ككلّ، أصحاب ألوية و جيشا و أنصارا آخرين من الراجعين معه، عجل اللّه تعالى فرجه.

ذلك! و بصورة عامة الكبت كتب على الكافرين على مدار الزمن قليلا او جليلا ف: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ كُبِتُوا كَما كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ قَدْ أَنْزَلْنا آياتٍ بَيِّناتٍ وَ لِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ» (57: 5).

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ (128).

ترى ما هو الأمر المسلوب عنه مستغرقا، و بماذا نصب «او يتوب او يعذبهم»؟.

أ تراه كل أمر حتى المختارة في حقل التكليف؟ و يعارضه واقع الإختيار و أدلته في الكتاب و السنة، و براهينه العقلية و الفطرية! ثم و لا رباط بين سلب الإختيار و موقف الحرب المحرّض فيها بتقديم كل مكنة ممكنة، و بالصبر و التقوى! ثم‏ «أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ» و هما ليسا من أمره لا تخييرا و لا تسييرا.

فلا رباط لهذه الجملة و لا تعلق في تصحيح مذهب المجبرة المسيّرة، الواهي المتهافت، و هم يسمعون اللّه تعالى يأمر نبيه أن يدعو الكفار إلى اللّه، مكررا دعاءه على أسماعهم، مصرا على إصغائهم، ناهجا لهم طريق الإيمان و مناره، و منذرا و محذرا، و موقظا و مبشرا، و آخذا بحجزهم من التهافت في النيران، فكيف له من أمر التكليف شي‏ء؟!.

ام هو أمر الأمر و النهي بعد الدعوة؟ و هما معها قوائم ثلاث لكيان الداعية

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 372

في الدعوة! فسلبها- إذا- استئصال للرسالة عن بكرتها، و استرسال للمرسل إليهم في نكرتهم.

أم هو امر التكوين و التشريع ثم له أمر الشرعة بقيادتها في كل حقولها الرسالية للداعية؟ و ذلك واقع لا مردّ عنه، و هناك النصر الموعود و الواقع قبل، و هنا التوبة عليهم او تعذيبهم بعد، كلاهما من الأمر التكويني الذي ليس له منه شي‏ء، ثم و ليس مشرّعا كما ليس مكونا، فإنما هو رسول يحمل شرعة اللّه دون تخلف عنها قيد شعره، دون زيادة او نقيصة.

فالهداية و الإضلال، و الثواب و العقاب، و ما أشبه، كل ذلك من أمره تعالى، اللهم إلا هداية الدلالة و ضلالة تركها، فإنهما من فعل الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم) و هو لا محالة دال دون ترك على أية حال: «وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى‏ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ» «إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

اجل‏ «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ» من هداهم و ضلالهم، من ثوابهم و عقابهم، من استصلاحهم او استئصالهم او تدبير مصالحهم او تهديرها، او تقديم آجالهم او تأخيرها.

فلقد كان (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) إذا رأى من الكفار تشديدا في تكذيبه، و مبالغة في إطفاء نوره سأل اللّه تعالى ان يأذن له في الدعاء عليهم باستئصال او تعجيل عذاب، فكان تعالى قد يأذن و قد لا يأذن تبيينا له أنه سبحانه العالم بمسائر الأمور و مصايرها، لعلمه ان منهم من يؤمن و يتوب- كالوحشي قاتل حمزة، و أضرابه- فيكون- إذا- زائدا في عداده، و عضدا من أعضاده.

او يأتي من ظهره من يظهر به الدين و يزيد في المسلمين، إذ يعلم سبحانه‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 373

من المغارب مطالعها و من المغارس طوالعها، و من أوائل التلاقح و التزاوج عواقب التولد و النتائج.

و لقد نزلت هذه الآية يوم أحد إذ شجّت جبهته، و كسرت رباعيته، و استقطرت دماءه على صفحته المباركة و هو مع ذلك حريص على دعاءهم، و مجتهد في إنقاذهم ... أم و هو عازم على الدعاء عليهم مستأذنا ربه سبحانه فهم أن يدعوا عليهم فقال: كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم و هو يدعوهم الى اللّه و يدعونه الى الشيطان، و يدعوهم الى الهدى و يدعونه الى الضلالة، و يدعوهم الى الجنة و يدعونه الى النار، فهم ان يدعو عليهم فانزل اللّه: «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ ...» فكف رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) عن الدعاء عليهم‏ «1».

فليس له من أمر النصر الخارق لعادته، و لا من أمر الهدى و الضلالة و الثواب و العقاب أما شابه من امور تكوينية او تشريعية، ليس له شي‏ء، فانما هو رسول، كل كيانه رسالة اللّه، دون مشاركة مع اللّه فيما يختص من تكوين او تشريع باللّه، و لا تفويض له في أي أمر حتى الولاية الشرعية، «إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ» دون ما يراه، فضلا عمن سواه.

ثم ترى‏ «أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ» معطوفان على‏ «لِيَقْطَعَ طَرَفاً ..»

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 71- اخرج ابن جرير عن الربيع قال‏ نزلت هذه الآية على رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يوم أحد و قد شج وجهه و أصيبت رباعية فهم ..

و

فيه اخرج الترمذي و صححه و ابن جرير و ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال: كان النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يدعو على اربعة نفر فأنزل اللّه‏ «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ ...» فهداهم اللّه للإسلام.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 374

«لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ» جملة معترضة بينهما؟ و هو فتّ في عضد الفصاحة و ثلم في جانب البلاغة! و هو لا يناسب كونه غاية ل «نصر الله» فان‏ «يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» لا تمت بصلة للنصر، فقد يتوب و لا نصر و قد لا يتوب مع النصر!.

أو ان «او» فيها بمعنى «إلّا أن» أو «حتى» كما هما من معانيها؟ و هو الظاهر هنا معنويا كما هو أدبيا أن‏ «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ» من التوبة عليهم و عذابهم إلا ان يتوب اللّه عليهم او يعذبهم، يتوب عليهم إن تابوا اليه، او يعذبهم فإنهم ظالمون.

إذا ف «إلّا» هنا استثناء منقطع، ان ليس لك من الأمر شي‏ء إلّا للّه.

ام و «حتى يتوب عليهم او يعذبهم» فهنالك امر المتابعة لأمر اللّه، و لماذا- إذا «او» بدلا عن «حتى» او «إلّا أن»؟ علّه لعناية المعنين مع العلم أن عناية العطف هنا غير مناسبة، ام انه- ايضا- معني معهما عطفا لكلا التوبة و العذاب على القطع و الكبت، فقد «نصركم الله ببدر- و ما النصر إلا من عند الله» ليقطع او يكبت او يتوب او يعذب، و ليس لك فيها من الأمر شي‏ء، و ما أجمله جمعا بين مثلث المعاني ل «أو» لم تكن تعنيها لا حتى و لا إلّا أن، و ما أقبحه تحريفا من لا يعرف مغازي كلام اللّه فيختلق تجديفا «1».

و في الحق‏ «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ» كجملة مستقلة- مهما عنت ما عنت فيما احتفت بها- هي من خلفيات ملابسة في السياق تقتضيها، فيرد قول‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 389 عن تفسير العياشي عن الجرمي عن أبي جعفر (عليهما السلام) انه قرء «ليس لك من الأمر شي‏ء أن تتوب عليهم او تعذبهم فإنهم ظالمون».

أقول: و أية صلة بين‏ «فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ» و ما قبلها ان كان «تتوب عليهم او تعذبهم»، و لم يخلد- بعد- بخلد الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) ابدا ان يتوب او يعذب، اللهم إلا ان يدعو اللّه لقبول توبة ام عذاب!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 375

بعضهم «هل لنا من الأمر شي‏ء» و قول آخرين‏ «لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا» ليقول لهم و لأضرابهم- حين ليس لرسول الهدى من الأمر شي‏ء فبأحرى لمن سواه.

فليس لهم- ككل- من الأمر شي‏ء لا في نصر و لا هزيمة، إلّا قدر ما يسعون او يفشلون، و بذلك ينسلخ المسلمون بأشخاصهم من بطر النصر و خطر الهزيمة، و يطامنون من الكبرياء التي يثيرها الانتصار في نفوسهم و من الزهو الذي تتنفج به أرواحهم و تتنفخ أوداجهم.

فليس لهم- ككل- رسولا و مرسلا إليهم- شأن إلا تأدية الواجب في كل حقل، ثم نفض أيديهم من النتائج.

وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (129).

«لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْ‏ءٌ» إذ لا تملك مما في السماوات و ما في الأرض شيئا «وَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ» ملك التشريع و التكوين، «يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ» ان يغفر له حين يستحقه، بأن يشاء هو المغفرة و يعمل له، «وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ» ان يعذبه حين يستحقه بان يشاء هو العذاب بما يعمل له.

إذا ففاعل «يشاء» فيهما هو اللّه حيث يشاء مغفرة و عذابا، و هو المغفور له و المعذب حيث يشاء هما فيشاءهما اللّه‏ «وَ ما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ».

ذلك، و لكنه سبقت رحمته غضبه، كما تلمح له هذه التعقيبة «وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فبرحمته يغفر ما لم يناف عدله سبحانه، كما بعدله يعذب حين لا مجال لغفره و رحمته.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 376

[سورة آل‏عمران (3): الآيات 130 الى 138]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130) وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ (131) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132) وَ سارِعُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)

وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى‏ ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (135) أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ (136) قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137) هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 377

هذه الآيات تظهر كأنها منقطعة الصلة عما قبلها و ما بعدها من عرض الغزوتين بدر و أحد، و لكنها قريبة الصلة و عريقتها بالحرب حيث تأمر بمحاربة الأهواء و الشهوات، و تطهير النفوس، فهي بين سلبيات و إيجابيات، سلبا لكل ثلب و إيجابا لكل واجب.

فكما أن جهاد النفس وسط في جهاد الكفار، كذلك آياتها تتوسط بين آيات الجهاد.

و لان الجهاد من أفضل سبل اللّه و هو بحاجة إلى انفاق النفيس كإنفاق النفس، فلا بد- إذا- من التحريض إلى الإنفاق، و ليس المرابي و لا سيما بالأضعاف المضاعفة ممن ينفق، فليترك الربا ثم لينفق، ثم ليسارع الى مغفرة الرب.

و لان المشركين كانوا يأخذون الربا أضعافا مضاعفة لينفقوا في سبيل حرب المسلمين، فخيّل الى المسلمين انه ليس محظورا حيث يصرف في حرب المشركين، و أن الجو يومذاك كان- ككل- جو أكل الربا أضعافا مضاعفة، لذلك تتقدم آية النهي عنها في هذه الآيات التسع الوسيطة بين الغزوتين:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ‏ 130.

لقد أسلفنا قولا فصلا حول الربا بتضاعيفها و كل حقولها على ضوء آية البقرة، فإنما علينا هنا أن نقف عند أضعاف مضاعفة دون إعادة لما مضى.

أ ترى أن هذا النص يحرّم من الربا- فقط- أضعافا مضاعفة، ليتوارى‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 378

المرابون وراءه بقالتهم القالة الغائلة، المفهوم من هذا النص أن الضعف في الربا و الضعفين و ما دونهما ليست محظورة، و انما هي الأضعاف المضاعفة؟.

كلا ثم كلا! حيث الأضعاف المضاعفة هنا ليست شرطا لأصل الحرمة، إنما هي مواصفة لواقع كان في الجزيرة «1» و هو طبيعة الحال في النظام الربوي.

فالنظام الربوي يقيم دورة المال- كأصل ثابت- على الأضعاف المضاعفة، فهو عملية متكررة على مدار الزمن، و متركبة من الأضعاف المضاعفة من أخرى، فليست مقصورة على واقع الحال في الجزيرة، بل قد تضخمت و تضاعفت ما تضاعفت الجماهير و تضخمت، و تقدمت في الاقتصاد الظالم الغاشم.

لقد كان يكفي نص آية البقرة لحرمة أصل الربا مهما كانت درهما، فليست- إذا- لتتقيّد بآية الأضعاف المضاعفة، فان آية البقرة نص في إطلاقها، لا تقبل اي تقيد مهما كان بنص ينفي الحرمة في بعض مواردها، و آية الأضعاف لا تنفي حرمتها في اي مورد، انما تثبت حرمة مغلظة في اضعاف مضاعفة، و المتوافقان من الإطلاق و التقييد لا يتعارضان حتى يقيد مطلقهما بمقيدهما، اضافة الى ان نص الإطلاق لا يقبل اي تقييد في نفسه من مقيد سلبي، فضلا عن الايجابي كآيتنا هذه.

و الأضعاف المضاعفة، هي الربا المضاعفة على رأس المال في بيع او دين أم أية معاملة ربوية، أن يزاد في الأجل فيضاعف الربا على ما قررت، ثم تستمر المضاعفات حتى تصبح الألف آلافات دون أي حق إلّا مزيد الأجل، و ذلك هدم لأركان الإقتصاد من أصولها.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 1: 71- عن مجاهد كانوا يتبايعون الى الأجل فإذا حل الأجل زادوا عليهم و زادوا في الأجل فنزلت هذه الآية، و أخرج مثله عن مجاهد و سعيد بن جبير.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 379

«لا تَأْكُلُوا ... وَ اتَّقُوا اللَّهَ» في أكل الربا و ما سواها من باطل الأكل و العمل‏ «لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» في حياتكم الإنسانية و الإيمانية، شقا لعراقيل الحياة بسفينة التقوى، قضاء حاسما على الطغوى، فإن الإسلام يعني للأمة المسلمة نظافة حيوية في كل حقولها، و النهي عن أكل الربا في سياق التعقيب على معركة النضال أمر قاصد مفهوم في المنهج التربوي الإسلامي، فإن النظام الربوي لا يلائم إيمان الجهاد و جهاد الإيمان، فلا يأكل الربا إنسان يتقي اللّه و يجاهد في سبيل اللّه و يخاف النار التي أعدت للكافرين:

وَ اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ‏ 131.

فآكل الربا أضعافا مضاعفة هو مع الكافرين في نارهم المختصة بهم، حيث النار دركات، منها ما يختص بالكافرين، كما منها ما يختص بالمنافقين و منها ... فلا يدخل آكل الربا مهما كان مسلما النار التي يدخلها عصاة المسلمين.

ذلك! و لأن الربا تخلّف ويلات بشعة لا تنجبر، و تعمل حريقا عريقا على حياة المجتمع فتحرقها عن بكرتها و تخرق ألفتها، فهي نار تدخل آكلها «النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ».

فترى إن أكل الربا كفر باللّه و إن كان آكله مسلما؟ أجل انه كفر عملي داخل في طليق الكفر، ثم و كما ان الكفر دركات، كذلك‏ «النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» دركات، فلا يعني دخول المرابي في هذه النار تسويته مع سائر الكفار في دركات النار، ثم و أكل الربا و ان كان كافرا عمليا فقد يورد صاحبه الى كفر عقيدي حين يحلل الربا بالمآل ليبرر موقفه من أكل الربا.

و هنا «أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» دليل وجود النار بمعداتها، و القدر المعلوم منها نار البرزخ، و اما نار القيامة الكبرى فليست الآن موجودة كما و زبانيتها لا

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 380

تحصل الا بوقودها و هي رءوس الكفر و الأعمال الكافرة.

فقد يعني الإعداد للنار حاضر معدات النار في حياة التكليف من الوقود الأصيل و ما دونه، أم و إعداد مكانها و هو في السماوات و الأرض، و لكن إعداد الجنة اكثر فانها مخلوقة حسب آية النجم.

وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ‏ 132.

طاعة للّه طليقة عن اي تخلف، حقيقة لساحة الربوبية، هي طاعة في كتابه، ثم و طاعة الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في سنته الجامعة على ضوء كتاب اللّه و طاعته: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ».

«أَطِيعُوا ... لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» و ترى حين تكون طاعة اللّه و الرسول منجحة مفلحة فما هو دور الترجي على و شك الشك في‏ «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»؟.

علّه لأن الرحمة الربانية غير واجبة لفاعليها فهي من فضله و ليست من عدله، فهي- إذا- غير محتمة عليه فيصح الترجي لها لمن أطاع اللّه و رسوله؟

و لكنها واجبة عليه بما كتبها على نفسه للتائبين من ذنوبهم فضلا عن المطيعين جملة و تفصيلا: «وَ إِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (6: 54) كما «كَتَبَ عَلى‏ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلى‏ يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ..» (6: 12)، فالحشر الرحمة و الرحمة في الحشر مكتوبان عليه تعالى بما كتب على نفسه فكيف‏ «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»؟، علّه لأن الطاعة الحاضرة للّه و الرسول لا يضمن الموت على الطاعة، فعلّه يموت عليها، و علّه لا، و ذلك مجال الترجي للمؤمنين ككل، و لكن المعصومين السابقين و المقربين، المضمون لهم الموت على طهارة العصمة، هم كذلك مضمونه لهم الرحمة، و لكنهم- على‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 381

ضمانها- يترجونها اعتبارا على عدم استحقاقها كأصل اولى مهما كتب ربكم على نفسه الرحمة.

و قد تعني «لعلكم» تعليق واقع الرحمة على واقع الطاعة طبقا عن طبق.

ثم لطاعة اللّه و الرسول درجات، و مهما كانت رحمة الثواب مضمونه لمن مات على الطاعة و لكن رحمة الغفران عن السيئات غير مضمونة إلا لمن تاب و آمن و عمل صالحا ثم اهتدى، و كذلك رحمة ترفيع الدرجات، «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» تشمل كافة الرحمات واجبات و راجحات في الدنيا و الآخرة، و كلها تتبنى طاعة اللّه و الرسول، درجات من الرحمات بدرجات من الطاعات‏ «وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى‏».

ذلك و كما نرى هذه الغاية المترجّاة في ست أخرى‏ «1» من الآيات منها:

«وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (3: 132).

فلا رجاء في رحمة لمن لم يطع اللّه و الرسول، إنما هو للمطيع مهما اختلفت درجات الرجاء الي قمتها المعنية و للمعصومين.

ثم و ليس فحسب أن «أطيعوا ..» ما صدق أنها طاعة، بل:

وَ سارِعُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ‏ 133.

«سارعوا» هي سباق في السرعة، و «إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» تعم مغفرة الدنيا و الآخرة، كما و تعم الى مغفرة السيئات الحاصلة مغفرة السيئات الهاجمة و لمّا تحصل في الأولى.

و المسارعة إلى المغفرة تعني المسارعة إلى أسبابها المعنيّة في الكتاب و السنة جملة و تفصيلا.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). و الست الأخرى هي 7: 63 و 204- 24: 56- 27: 46- 36: 45- 49: 10.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 382

هنا «سارعوا» و في الحديد «سابِقُوا إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَ جَنَّةٍ عَرْضُها كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رُسُلِهِ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (21)، فلا بد من سباق في سرعة و سرعة في سباق- على مدار حياة التكليف- «إِلى‏ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» و هي كما لمحنا إليه لا تخص مغفرة عن عصيان، بل و عن عروضه، ثم مغفرة في ترفيع درجة، فهي مثلث من المغفرة لكلّ زاوية أهلها حسب سباقه و مسارعته.

و

قد يروى عن رسول الهدى (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) في سبب نزول هذه الآية انها تفضيلة للأمة المرحومة على سائر الأمم‏ «1» و لكنها مؤوّلة بما لا ينافي عدل اللّه، فانما هي مزيد الرحمة.

و اما «جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ» فتراه عرضا و جاه الطول؟ و ليس‏ «السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ» هما- فقط- عرضا حتى يقابل عرضهما طولهما!.

أم هو عرض السعة السطحية؟ فكذلك الأمر فإنهما كرتان معمقتان دون سطح فقط كما ليستا عرضا فقط!.

ام هو سعة السماوات و الأرض بمثلث العرض و الطول و العمق الدائرية أماهيه؟ و هذا هو المعنى الصالح هنا للعرض، حيث العرض في المسطحات هو أقل الامتدادين و أكثرهما، و في المجسمات هو اقصر الامتدادات الثلاث‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 2: 72- اخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر عن عطاء بن أبي رياح قال‏ قال المسلمون يا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بنو إسرائيل كانوا أكرم على اللّه منا كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبح كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه أجذع انفك أجذع اذنك افعل كذا افعل كذا فسكت فنزلت هؤلاء الآيات‏ «وَ سارِعُوا- الى قوله- فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» فقال النبي (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ألا أخبركم بخير من ذلك ثم تلا هؤلاء الآيات عليهم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 383

و أطولها، و في الأسطوانات و المخروطيات عن امتداد قواعدها و سهامها، فعرض السماوات و الأرض هو الأبعاد الكروية الأسطوانية.

ثم ترى ان السماوات و الأرض هما بنفسهما مكان الجنة فأين- إذا- النار؟

فهل هما متداخلتان دون زحام بينهما مكانا و لا مكانة، فهما لأهل الجنة جنة و لأهل النار نار، كما الغارقون في النار «أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً» (71: 25) بلا زحام بين الماء و النار الكامنة فيه بتدبيره تعالى؟ و هكذا تؤول الروايات القائلة «إذا جاء النهار فأين الليل» «1» و لكنها بعد غير مرضية.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

الدر المنثور 3: 72- اخرج ابن جرير عن التنوخي رسول هرقل قال‏ قدمت على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) بكتاب هرقل و فيه انك كتبت تدعوني إلى جنة عرضها السماوات و الأرض أعدت للمتقين فأين النار؟ فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) سبحان اللّه فأين الليل إذا جاء النهار؟.

و

فيه اخرج البزار و الحاكم و صححه عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) فقال: أ رأيت قوله: و جنة عرضها السماوات و الأرض- فأين النار؟ قال: أ رأيت الليل إذا لبس كل شي‏ء فأين النهار؟ قال: حيث شاء اللّه، قال: فكذلك حيث شاء اللّه.

و روى في المجمع ما رواه في الدر المنثور أولا بزيادة و هذه معارضة فيها إسقاط المسألة لأن القادر على ان يذهب بالليل حيث شاء اللّه قادر على أن يخلق النار حيث شاء.

أقول: و أظن ان هذا الدليل من الراوي و قد ورد في حقائق التأويل للسيد الشريف الرضي (5: 241). كبيان للرواية.

و على اية حال إذا عنى «فأين الليل إذا جاء النهار» انهما معا موجودان لوقت واحد متداخلين في أفق واحة؟ فهذا بين البطلان.

و إذا عنى ان مكانهما واحد و هما يتواردان عليه تلو بعض دون اجتماع لوقت واحد في أفق واحد؟ فهو على صحته في نفسه لا يناسب مكاني الجنة و النار إذ ليستا تلو بعض مكانا، لأنهما معا موجودتان.

و إذا عنى ان بالإمكان تداخلهما في مكان واحد و زمان واحد كما تداخل الليل و النهار مهما اختلف الزمان، فمع ان المثال لا يكفي تمثيلا لتداخل الزمان، فالآية لا تناسب ذلك التداخل كسائر آيات‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 384

«وَ جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ» لا تناسب انهما مكانها، فصحيح التعبير عن ذلك العرض: «و جنة هي السماوات و الأرض» ثم و آية الحديد توضحها اكثر لمكان‏ «كَعَرْضِ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ» و لا بد من مفارقة بين المشبه و المشبه به، مهما تشابها في جهة او جهات، و إذا كانت الجنة في نفس السماوات و الأرض، فهي نفسها مكانا دون أن يشبههما.

ثم‏ «جِي‏ءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» و أضرابها دليل اختلاف مكانهما دون أي تداخل مهما أمكن في قدرة اللّه، و لكنه تداخل- على صحته- دون مرجح، بل هو مزعج لأهل الجنة باشتراكهم مع اهل النار في المكان، ثم‏ «إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها ...

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا»- و كثيرا أضرابها- تدل على الخروج عن النار لمن اتقى و لا خروج في المتداخلين، بل هو عروج عن حالة سيئة الى حالة حسنة.

و بعد كل ذلك فمكان الجنة معروف في آية النجم‏ «وَ لَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى‏. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى‏. عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى‏» (15).

فكما السدرة المنتهى هي منتهى الكون المحلّق على السماء السابعة، كذلك جنة المأوى التي عندها، فليس جواب «فأين النار إذا»؟ إلّا أنها تحت الجنة المأوى، سواء أ كان السماوات و الأرض بتمامهما، أم بعضا منهما، «وَ جِي‏ءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ» مما يدل على أنها لا تحلق على كل السماوات و الأرض، و إلا لم تصح «جي‏ء» ثم الجنة فوق النار لآية النجم و «فِي جَنَّةٍ عالِيَةٍ» اي تعلو

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

الجنة و النار، و لا سيما آية النجم المقررة مكان الجنة عند سدرة المنتهي، إذا فهذه الأحاديث مختلفة إذ لا تأويل لها صالحا في نفسه و لا في حساب القرآن! اللهم إلّا أن يعنى من التشبيه ان مكان الجنة و النار في افقين مختلفين كما الليل و النهار، و هذا تأويل جميل و قد يؤيده‏

حديث العياشي عن الصادق (عليه السلام) قوله في الجواب: إذا وضعوها كذا و بسط يديه إحداهما مع الأخرى إذا فالجنة فوق النار و هذا ما تعنيه آية النجم.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 385

النار، مهما كانتا قريبتين إلى بعض البعض لمكان الترائي و المناداة، ام غريبين و الترائي بينهما بسبب رباني كما نجده هنا بضعاف الأسباب الخلقية.

فقد تعني الآيتان ان مثلث السعة للجنة هو سعة السماوات و الأرض‏ «1» و يا لها من سعة لا تتصور، و نحن بعد عاجزون عن تقدير سعة أرضنا تماما.

و أما «أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» فقد تعني ما عنته من حيث الإعداد «أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ» و لكن الجنة موجودة الآن حسب آية النجم و ما أشبهها، مهما كانت الصالحات في الجنة كما الطالحات في النار هي المعدات للثواب و العذاب، و لكن سبق رحمته غضبة، و سعة رحمته أكثر من عدله تقتضي في الجنة إعدادا اكثر من النار، كما و أن نفس الجنة بحاصلها و ما سيحصل كلها من فضل اللّه.

و آيات خراب السماوات و الأرض لا تخرّب الجنة التي هي محيطة بالسماوات و الأرض، مهما خربت جحيم البرزخ و جنّته بخراب السماوات و الأرض، حيث ينتهي دورهما بانتهاءهما، و على أية حال‏ «أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ» و تراهم من هم، إنهم:

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ 134 وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى‏ ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ‏ 135.

هذه المواصفات الست هي بين مثلث الإحسان، كما

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 289 في تفسير العياشي عن داود بن سرحان عن رجل عن أبي عبد الله (عليه السلام) في الآية قال: إذا وضعوها كذا و بسط يديه إحداهما مع الأخرى أقول قد يعنى ذلك الوضع الوضع الثلاثي للسماوات و الأرض.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 386

«وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» تعقيبة لها، و مثلث الازالة لخلاف الحسن و الإحسان:

1 «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ ...»

«السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ» هما الفعلاء المؤنث من سرّ و ضرّ، و هما و صفان لمحذوف هو طبعا معروف ك «الحياة- الحالة» الأكثر سرّا او ضرا.

و كما «ينفقون» يعم كل نفس و نفيس، كذلك‏ «السَّرَّاءِ وَ الضَّرَّاءِ» تعمان كل أبعاد الحياة السارة و الضارة.

فليس إنفاقهم فقط في السراء ثم هم في الضراء يبخلون، فإنما حياتهم هي الإنفاق في الإقبال و الإدبار، حين السرّ و الضر كحالة عامة أم في جانب الإنفاق، فهم أولاء في سرورهم و حزنهم، في يسرهم و عسرهم- و على أية حال- الإنفاق أنفسهم و نفائسهم في سبيل اللّه فلا يفشلون و لا ينجلون، أجل و إن السراء لا تبطرهم فتلهيهم عن الإنفاق، و لا الضراء تضجرهم فتنسيهم، فلهم أرواح شفيفة عفيفة منطلقة من كل القيود و الأغلال التي تقيّدهم و تحول بينهم و بين حق الإنفاق و صالحه.

و هنا يتقدم الإنفاق على سائر الست لأن له دوره العظيم العميم في عامة مسائل الإيمان و منها الجهاد في سبيل اللّه الذي يتطلب الإنفاق من خالص النفس و النفيس.

2 «وَ الْكاظِمِينَ الْغَيْظَ»: غيظهم أنفسهم على الآخرين و غيظ الآخرين عليهم و على آخرين، كظما مثلثا للغيظ، الذي له دور عظيم في إخماد نيران الفتن بين المؤمنين، و الكظم في الأصل هو شد القربة بعد امتلاءها، فكظم الغيظ هو شده بعد الامتلاء منه بحيث كان يتفجر منه لولا شدّه.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 387

من كظم غيظا و هو يقدر على إنفاذه ملأه اللّه أمنا و إيمانا «1»

و

«ما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظم عبد لله الا ملأ الله جوفه إيمانا» «2».

و ان كظم الغيظ و هو صرعة النفس الطائشة، هو أشد من كل صرعة،

«ليس الشديد بالصرعة و لكن الذي يملك نفسه عند الغضب» «3»

«.. ان يمتلي الرجل غيظا ثم يغلبه» «4»

فقد

«وجبت محبة الله على من أغضب فحلم» «5»

«ألا إن الغضب جمرة توقد في جوف ابن آدم ألم تروا إلى حمرة عينيه و انتفاخ أوداجه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئا فليلزق بالأرض، ألا إن خير

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). الدر المنثور 2: 72 عن أبي هريرة في الآية ان النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: ...

و

في النور الثقلين 1: 390 في اصول الكافي بسند متصل عن سيف بن عميرة قال: حدثني من سمع أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: من كظم غيظا و لو شاء ان يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاه.

(2) الدر المنثور 2: 73 عن ابن عباس قال قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم): ... و

في نور الثقلين 1: 390 في كتاب الخصال عن أبي حمزة الثمالي عن علي بن الحسين (عليهما السلام) قال: ما تجرعت جرعة أحب إلي من جرعة غيظ لا أكافي بها صاحبها.

(3) المصدر عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) قال: ليس ...

(4)

المصدر اخرج البيهقي عن عامر بن سعد ان النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) مر بناس يتحادون مهراسا فقال: أ تحسبون الشدة في حمل الحجارة انما الشدة ان يمتلي ...

و

فيه اخرج البيهقي عن علي بن الحسين (عليهما السلام) ان جارية جعلت تسكب عليه الماء يتهيأ للصلاة فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجه فرفع رأسه إليها فقالت: ان الله يقول:

و الكاظمين الغيظ، قال: قد كظمت غيظي، قالت: و العافين عن الناس، قال: قد عفا الله عنك، قالت: و الله يحب المحسنين، قال: اذهبي فأنت حرة.

(5) المصدر اخرج الاصبهاني في الترغيب عن عائشة سمعت رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) يقول: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 388

الرجال من كان بطي‏ء الغضب سريع الفي‏ء و شر الرجال من كان بطي‏ء الفي‏ء سريع الغضب فإذا كان الرجل سريع الغضب سريع الفي‏ء فانها بها و إذا كان بطي‏ء الغضب بطي‏ء الفي‏ء فانها بها ...» «1».

فالقدرة على الإنفاذ- كما في حديث الرسول (صلى اللّه عليه و آله و سلم)- هي من شروط الإحسان في كظم الغيظ، حيث العاجز على الإنفاذ، الخائف منه، هو مكظوم غيظه بطبيعة الحال شاء ام أبى، اللهم إلّا غيظا دون خلفية له على صاحبه.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر اخرج الطيالسي و أحمد و الترمذي و حسّنه و الحاكم و البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) خطبة الى مغير بان الشمس حفظها من حفظها و نسيها من نسيها و اخبر ما هو كائن الى يوم القيامة، حمد اللّه و أثنى عليه ثم قال: اما بعد فان الدنيا خضرة حلوة و ان اللّه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، ألا فاتقوا الدنيا و اتقوا النساء ألا ان بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم من يولد مؤمنا و يحيا مؤمنا و يموت مؤمنا، و منهم من يولد كافرا و يحيا كافرا و يموت كافرا و منهم من يولد مؤمنا و يحيا مؤمنا و يموت كافرا و منهم من يولد كافرا و يحيا كافرا و يموت مؤمنا الا ان الغضب ... و ان خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب و شر التجار من كان سي‏ء القضاء سي‏ء الطلب فإذا كان الرجل حسن القضاء سيّئ الطلب فانها بها و إذا كان الرجل سي‏ء القضاء حسن الطلب فإنها بها ألا لا يمنعن رجلا مهابة الناس ان يقول بالحق إذا علمه ألا ان لكل غادر لواء بقدر غدرته يوم القيامة، ألا و ان اكبر الغدر غدر امير العامة ألا و إن أفضل الجهاد من قال كلمة الحق عند سلطان جائر، فلما كان عند مغيربان الشمس قال: ألا إن ما بقي من الدنيا فيما مضى منه كمثل ما بقي من يومكم هذا فيما مضى.

و

فيه اخرج البيهقي عن الحسن قال قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): ان الغضب جمرة في قلب ابن آدم الم تروا الى انتفاخ أوداجه و حمرة عينيه فمن حسن من ذلك شيئا فان كان قائما فليقعد و ان كان قاعدا فليضطجع.

و

فيه اخرج ابن أبي شيبة و احمد و ابن حبان و الطبراني عن أبي ثعلبة الخشني قال قال رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) ان أحبكم الي و أقربكم مني في الآخرة أحاسنكم أخلاقا و ان أبغضكم الي و أبعدكم مني في الآخرة أسوءكم أخلاقا الثرثارون المتشدقون المتفيقهون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 389

ثم و ليس كظم الغيظ بصورة طليقة إحسانا، فقد يكظم الغيظ في حالة حاضرة ليحقد و يضطغن فيتحول الغيظ الفائر الى إحنة غائرة، و الغضب الظاهر الى حقد دفين، و حاضر الغيظ هي اقل محظورا من غائره، و لا يعني كظم الغيظ إلّا هضمه عن بكرته، عن ظاهره و غائره، في مثلث القال و الحال و الفعال، في الحاضر و الاستقبال.

3 «وَ الْعافِينَ عَنِ النَّاسِ» عفوا طليقا عن مظالمهم التي تقبل العفو، و أما العفو الذي يشجّع على الظلم فليس ممنوحا و لا مسموحا، إنما هو العفو الذي لا محظور فيه، و لا سيما الذي يحوّل سيّئا إلى حسن و إلى أحسن، و ذلك واجب كل مسلم لأنه قضية واجب الإحسان في سبيل الدعوة إلى اللّه‏ «وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» و هم هنا المنفقون الكاظمون العافون، فقد يتحول الإنفاق و الكظم و العفو إلى الاساءة كأن ينفق في سبيل اللهو بدلا عن سبيل اللّه، و يكظم الغيظ عمن يجب تأديبه و ضربه او قتله، او يعفى عمن يشجّع بعفوه إلى تخلف اكثر و أكثر، فانما هذه الثلاث ممدوحة إذا كانت في سبيل اللّه، إحسانا الى عباد اللّه الذين يستحقونه.

4- 5 «وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ...» و الفاحشة هي المعصية المتجاوزة حدّها في ذاتها ام الى غير فاعلها شخصيا أم جماعيا، و من الثاني المعصية المتجاهر بها حيث تشجع الجماهير على اقترافها، أو الجامعة بينهما فأشد و أنكى، فذلك المثلث من المعصية فاحشة مهما اختلفت دركاتها.

ثم‏ «أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» عام بعد خاص، فان العصيان أيا كان ظلم بالنفس سواء أ كان فاحشة ام سواها، صغيرة ام كبيرة.

و هنا «ذَكَرُوا اللَّهَ» دليل على أن العصيان هو من خلفيات النسيان،

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 390

فالذاكر اللّه و هو يعرفه بالربوبية لا يعصى اللّه بفاحشة أم سواها، فإنما يعصم الإنسان عن اي عصيان ذكر اللّه بعد معرفته.

و لأن النسيان هو من أسباب العصيان فلا يجبر العصيان إلّا بذكر اللّه، ثم‏ «فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ» طلب الغفر بقال و حال و أعمال، فليس الاستغفار مجرد القال و القلب قال و العمل خال عن الاستغفار، فالاستغفار فعل أصله من القلب ثم يظهر في القال و الفعال.

«وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» سؤال إيقاظ للغافلين و إيعاظ للمتساهلين، و تأنيب بمن يظن أن هناك من يغفر الذنوب إلّا اللّه، أو لا غافر للذنوب حتى اللّه.

و يا للسماحة الطليقة الربانية، أن اللّه لا يدعونا إلى سماحة فيما بيننا حتى يطلعنا على جانب عميم من سماحته، انه يعفو عن كل فاحشة و ظلم بالنفس عند الذكر و الاستغفار، شرط أن:

6 «وَ لَمْ يُصِرُّوا عَلى‏ ما فَعَلُوا وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» الإصرار على ما كان نتيجة النسيان بعد ما ذكروا اللّه و استغفروه، و علّهما المعنّيان ب «وَ هُمْ يَعْلَمُونَ» مهما عنت معهما الإصرار عن علم بمادة الإصرار حظرا، دون جهل سائد او تجاهل عامد، و

الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر اللّه و لا يحدث نفسه بتوبة فذلك الإصرار «1»

«لا صغيرة مع الإصرار و لا كبيرة مع الاستغفار» «2»

بل‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). نور الثقلين 1: 393 في أصول الكافي عن جابر عن أبي جعفر (عليهما السلام) في قول اللّه:

و لم يصروا على ما فعلوا و هم يعلمون قال: الإصرار.

(2) المصدر عن الجمع عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) انه قال: ...

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 391

و

«لا و الله لا يقبل الله شيئا من طاعته على الإصرار على شي‏ء من معاصيه» «1».

ذلك لأنه دليل على عدم الإيمان حين لا تسوءه سيئة، فالخوف من العقاب يبعث العاصي على الاستغفار و الندم‏ «2».

و

«انه و الله ما خرج عبد من ذنب بإصرار، و ما خرج عبد من ذنب إلا بإقرار» «3» و لقد كان يدعو الرسول (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم): «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا و إذا أساءوا استغفروا» «4».

إنه ليس‏ «وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ» مثيرة للاستهتار، فإنما تخجل العاصي و تطمعه في الغفران و تثير الاستغفار.

فلقد يعلم اللّه ماذا خلق و من ذا خلق، خلق هذا الإنسان بما يحيط به،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). المصدر في اصول الكافي عن أبي بصير قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: لا و اللّه ...

(2)

المصدر عن ابان بن تغلب قال: سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: ما من عبد أذنب ذنبا فندم عليه الا غفر اللّه له قبل ان يستغفر و ما من عبد أنعم اللّه عليه نعمة فعرف انها من عند اللّه إلّا غفر اللّه له قبل ان يحمده.

(3)

المصدر عن معاوية بن عمار قال سمعت أبا عبد اللّه (عليه السلام) يقول: انه و اللّه.

(4) الدر المنثور 2: 77- اخرج البيهقي في الشعب عن عائشة قالت كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) يقول: ...

و

فيه اخرج البيهقي عن أبي هريرة عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال: اربعة في حديقة قدس في الجنة، المعتصم بلا إله إلا اللّه لا يشك فيها و من إذا عمل حسنة سرته و حمد اللّه عليها و من إذا عمل سيئة ساءته و استغفر اللّه منها و من إذا اصابته مصيبة قال انا للّه و انا اليه راجعون.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 392

و بالشهوة و الحيونة أمام الفطرة و العقلية الإنسانية، فقد تهبط به حمأة الشهوة إلى دركات من الفاحشة فينزو نزوة الحيوان، و يترك حظوة الإنسان.

إن اللّه يعلم منه كل ذلك لأنه هو الذي خلقه و قدّره، فلا يقسو عليه في تخلفاته و لا يبادر إلى طرده من رحماته ما دامت شعلة الإيمان في قلبه غير منطفية، و نداوته غير منتفية، عارفا ربه و ما يتوجب عليه أمامه، فيأمره بالذكر بعد النسيان و يغفر له حين يستغفره‏ «وَ مَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ».

فليس اللّه بذلك الغفر الواسع داعيا إلى الترخص‏ «1» تمجيدا للعاثر الهابط، و العاهر الخابط، و لا يهتف له بجمال المستنقع كما الواقعية البشعة تهتف له، فانما هي إقالة عثرة و استجاشة الرجاء اليه في النفس الإنسانية كما يستجيش فيها الحياد، فهو يربيه بين كفتي ميزان الخوف و الرجاء، دونما رجاحة لإحداهما على الأخرى لكيلا يتأرجف.

أولئك هم المؤمنون في الحق، الموعوظون الموعودون بالغفران، دون المستهترين المصرين غير الذاكرين اللّه و لا المستغفرين، فإنهم خارج الأسوار، مؤصدة في وجوههم تلك الذاكرين اللّه و لا المستغفرين، فإنهم خارج الأسوار، مؤصدة في وجوههن تلك الأستار، و لكنهم- على ما هم عليه- لا يعاجلون بالعقوبة، فلهم كما لسواهم مفتوحة باب التوبة إن أنابوا إلى اللّه، و علينا أن نتخلق بأخلاق اللّه فلا نعاجل من ظلمنا بالعقوبة ما فيه مجال للإصلاح، أم لا يخاف منه الإفساد.

فهنالك- لما تنزل هذه الآية- يصرخ إبليس بعفاريته قائلا:

«من لها حتى قال الوسواس الخناس أنا لها، قال: بماذا؟ قال: أعدهم و أمنيهم حتى يواقعوا

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1). خلاف ما

يروى عن رسول الهدى (صلى الله عليه و آله و سلم): لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم‏ (الدر المنثور 3: 77)

فانه من اختلافات المتخلفين عن شرعة الحق، لأنه تشجيع على الذنب، امرا بشي‏ء ينهى عنه!.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 393

الخطيئة فإذا واقعوا الخطيئة أنسيتهم الاستغفار، فقال: أنت لها فوكله بها إلى يوم القيامة» «1».

«رحم الله عبدا لم يرض من نفسه أن يكون إبليس نظيرا له في دينه و في كتاب الله نجاة من الردى و بصيرة من العمى و دليل إلى الهدى و شفاء لما في الصدور فيما أمركم به من الاستغفار مع التوبة ...» «2».

فحين يهددنا إبليس‏

«يا رب و عزتك لا أزال أغوي بني آدم ما كانت أرواحهم في أجسادهم، يتهدد بقول الله: و عزتي و لا أزال أغفر لهم ما استغفروني» «3»

«استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور» «4»

و أنت‏

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

نور الثقلين 1: 391 في أمالي الصدوق باسناده الى الصادق جعفر بن محمد (عليهما السلام) قال: لما نزلت هذه الآية «وَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً ...» صعد إبليس جبلا بمكة يقال له ثور فصرخ بأعلى صوته بعفارية فاجتمعوا اليه فقالوا: يا سيدنا لم دعوتنا؟ قال: نزلت هذه الآية فمن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: انا لها بكذا او كذا، قال: لست لها، فقام آخر فقال مثل ذلك فقال: لست لها فقال الوسواس الخناس ...

(2)

نور الثقلين 1: 390 في تفسير العياشي عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد اللّه (عليه السلام) قال: رحم اللّه عبدا- الى- مع التوبة، قال اللّه‏ «وَ الَّذِينَ إِذا فَعَلُوا فاحِشَةً ...» و قال‏ «وَ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً» فهذا ما امر اللّه به من الاستغفار و اشترط معه بالتوبة و الإقلاع عما حرم اللّه فانه يقول: إليه يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه، فهذه الآية تدل على ان الاستغفار لا يرفعه إلى اللّه إلا العمل الصالح و التوبة.

(3) الدر المنثور 2: 77- اخرج احمد عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) قال قال إبليس و عزتك ... فقال اللّه و عزتي ...

(4)

المصدر اخرج البزاز و البيهقي في الشعب عن انس قال‏ جاء رجل فقال يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) إني أذنبت فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه و آله و سلّم) إذا أذنبت فاستغفر ربك، قال: فإني استغفر ثم أعود فأذنب فقال: إذا أذنبت فاستغفر ربك ثم عاد فقال في الرابعة استغفر ربك حتى يكون الشيطان هو المحسور.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 394

مأجور، أو اعلم أنه‏

«لا يمل الله حتى تمل» «1»

فليس الإصرار إعادة الذنب مع التوبة و الاستغفار، إنما هو ترك الندم بلا توبة و استغفار.

أُولئِكَ جَزاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ‏ 136.

«أولئك» الأكارم «جزاءهم» عند ربهم في الدارين‏ «مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ» «و جنات» في البرزخ و القيامة «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها»- دون خروج عنها- عطاء غير مجذوذ «وَ نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ» فلبئس أجر الخاملين التاركين عمل الإيمان إلى قولته ام و عقيدته.

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ‏ 137.

«قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ» في أمم خلت، بقرون مضت «سنن» حسنة و سيئة «فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ» سيرا تاريخيا جغرافيا في أرض التكوين و التدوين و أفضله القرآن فانه معرض عريض للأرضين «فانظروا» نظر العقلية النابهة، نظر البصر الى البصيرة «كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» في حياتهم الدنيا فضلا عن الأخرى ... ذلك و إن القرآن يربط غابر الإنسان بحاضره و حاضره بغابره، ثم ينتج من خلال الغابر و الحاضر إلى مستقبل زاهر لو أن الناس اعتبروا فعبروا قناطر الحياة بسيارات العبر، و شقوا أمواج الفتن بسفن المعتبر.

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1).

المصدر أخرج البيهقي عن عقبة بن عامر الجهني‏ ان رجلا قال يا رسول اللّه (صلى اللّه عليه و آله و سلم) أحدنا يذنب؟ قال: يكتب عليه، قال: ثم يستغفر منه و يتوب؟ قال: يغفر له و يتاب عليه، قال: فيعود و يذنب؟ قال: يكتب عليه، قال: ثم يستغفر منه و يتوب؟ قال: يغفر له و يتاب عليه، قال: فيعود و يذنب؟ قال: يكتب عليه، قال: ثم يستغفر و يتوب؟ قال: يغفر له و يتاب عليه و لا يمل اللّه حتى تملوا.

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 395

أجل و ان في الأمم الخالية معتبرا متبصّرا، فانظروا الى فراعنة التاريخ و نماردته حيث لم ينفعهم جمعهم و سلطانهم شيئا، و لا حمتهم شواهق قصورهم و لا ذخائر كنوزهم، فهم بعد أحاديث لم تبق منهم باقية إلّا باغية من معاثر، ثم و مآثرهم الظالمة الطاغية.

3 هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ‏ 138.

«هذا» القرآن، و هنا «هذا» البيان‏ «بَيانٌ لِلنَّاسِ» دون خفاء و لا غطاء «بيان» لهم كلهم، ثم‏ «وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ» فمهما كان هدى دلالية للناس كلهم، فليس هدى واقعية إلّا للمتقين، الذين إذا وقوا ببيان اتقوا و إذا هدوا اهتدوا.

و من الفارق بين البيان و الهدى و الموعظة، ان البيان ليس إلا عن خفاء، خفاء الجهل بالحق، او خفاء التجاهل عنه، ام خفاء التصديق به، فالبيان أيا كان يفيد إزالة الشبهة، و الهدى بيان لطريق الرشد، و الموعظة بيان لمحاظير طريق الرشد، فالمتقي إنما يحتاج الى الهدى- حيث يتحرى عنها- فيتبعها، ثم إلى الموعظة فيتحرز عما يوعظ به، و غير المتقي يحتاج الى بيان حتى يجتاح جهله او تجاهله.

فلا اثر للبيان ما لم يكن التقوى، إلا أن من البيان ما يبعث على التقوى، لأن غير المتقي جاهل بما يحرضه على التقوى.

فالقرآن بيان للناس ككل، لمن تبين به: «وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْ‏ءٍ» (16: 89) و «مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ» (10: 57) «هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (45: 20)، و إذا كان‏ «هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ» فليكن تفهمه ميسورا لهم كناس، فالمعتذرون عن فهمه او تفهمه سواء في كونهم من النسناس الخناس، أ كانوا من المؤمنين به المغالين تقصيرا في‏

الفرقان في تفسير القرآن بالقرآن، ج‏5، ص: 396

تفهمه، و انه خاص بالمعصومين (عليهم السلام)، ام كانوا ممن قالوا «قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ».

فالقرآن‏ «بَيانٌ لِلنَّاسِ» ما تبينوا، بيان في ظواهره و مظاهره، ثم في إشاراته و لطائفه، مهما اختصت حقائقه بكل تأويل بالرسول و عترته المعصومين (عليهم السلام:، «لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَها».

ذلك- و إلى تعبئة و تقوية و تأسية و تثبيت، رجوعا الى ما مضى من مآسي غزوه أحد، و بإجابات جادة عن شطحات الأقاويل حول هزيمته العظيمة.